الفِكرُ الإسلامي

مُواجهةٌ حَضاريَّة

سماحةُ المرجع الدِّيني آيةُ اللهِ العُظمى الحاجُ
السَّيِّدُ مُحمَّد تَقي المُدرِّسيُّ

الفِكرُ الإسلاميُّ

مُوَاجَهةٌ حَضَاريَّة

الفِكرُ الإسلاميُّ

مُوَاجَهةٌ حَضاريّة

سماحة المرجع الدّيني آية الله العُظمى الحاج

السّيّد مُحمّد تقي المُدرّسيّ

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م

الرويس – مفرق محلات محفوظ ستورز – بناية رمّال

ص.ب: ٥٤٧٩/ ١٤ – هاتف: ٢٨٧١٧٩/ ٠٣ – ٥٤١٢١١/ ٠١
تلفاكس: ٥٥٢٨٤٧/ ٠١ – E-mail: almahajja@terra.Ib
www. almahaja.com info@ almahaja.com

دار المحجة البيضاء
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾

سورة الممتحنة، آية ٤.

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

(الفكر الإسلامي مواجهة حضارية) كتاب واجه الكثير من التحديات، فقد ولد الكتاب من بين أنامل مؤلفه القدير سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي (دام ظله) في أحلك الظروف التي عاشها عراق المقدسات، وذلك في بداية حقبة السبعينات حيث كانت عصابة البعث الصدامي تحكم قبضتها على رقاب الشعب العراقي، وتطارد الفكر والثقافة وكل ما يمت لدين الأمة بصلة من مساجد ومؤسسات ومدارس وحوزات وكتب وصحف وما شاكل ذلك، بهدف مسخ الشخصية الإيمانية، واجتثاث الجذور الدينية لهذا الشعب المؤمن.

فكتب سماحة المرجع المدرسي (دام ظله) هذا الكتاب القيّم ليثبت أن الإسلام -عقيدةً، وشريعةً، وبرنامجاً متكاملاً للحياة الطيبة- هو فوق كل التحديات الفكرية والحضارية، وليُدحض الفلسفتين القديمة والحديثة، اللتين تدفعان بالإنسان إلى هاوية الكفر والإلحاد والضلال.

ولأن إرهاب الطاغوت الحاكم كان قد أغلق كل منافذ الفكر والثقافة، فقد تم تداول الكتاب في البدء مكتوباً بخط اليد، وبدأت الحلقات الدراسية في الحوزة العلمية في كربلاء المقدسة تدرس الكتاب كمنهج متكامل للعقائد الإسلامية، وكان الطلاب يستنسخونه بخط اليد ويتداولونه فيما بينهم.

وتـم طبع الكتاب لأول مرة عام ١٣٩٠ للهجرة بعيداً عن عيون الرقابة، واسـتُقبل الكتاب باهتمام منقطع النظير في الأوساط العلمية (الجامعات والحوزات) في العراق ومصر ولبنـان. وكانـت الطبعة الثانية عام ١٣٩٥هـ في بيروت، ثـم الطبعة الثالثة في الكويت عام ١٣٩٧هـ، وهكـذا توالت الطبعات في بـيروت والكويت وطهران، الأمـر الذي أدى إلى انتشـار واسـع للكتاب في البلاد العربيـة وغيرها. وقد اعتمدت حـوزة الإمام القائم عجل الله تعالى فرجه الشريف وفروعهـا المختلفة الكتاب مادةً دراسـيةً حوزوية في مجال العقائـد، كما تبنّت بعض كليات جامعة بغداد تدريسه أيضاً.

تُرجم الكتاب إلى اللغة الفارسـية وطبع عدة طبعات واسـتُقبل في إيران وأفغانستان في مختلف الأوساط العلمية. ويتميّز الكتاب بنقد ودراسة الفلسفات القديمة والحديثة على ضوء الكتاب والسنّة، وعرض العقائد الإسلامية بشكل مستدل وواضح وفطري.

وبعد اندلاع الانتفاضات الشعبية في البلاد العربية وانتصار بعضها وسقوط حواجز الرقابة ومؤسسـات مطاردة الفكر، تضاعف الطلب على الكتاب، مما شـجعنا على المبادرة لطبعة للمرة العاشرة، سـائلين الله عز وجل أن يوفقنا لخدمة دينه، ونشر الفكر الإسـلامي الأصيل. إنه ولي التوفيق.

مركز العصر للثقافة والنشر

١١/ شعبان/ ١٤٣٢هـ

١٣/ ٧/ ٢٠١١م

مقدمة الطبعة الرابعة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

إن لم تُتَحْ لي فرصة تصدير الطبعة الثالثة التي تمت في الكويت، فإني أجدني مسؤولًا عن بيان رأيي في الكتاب بعد خمسة عشر عامًا من تأليفه، وذلك عبر تقديم الطبعة الرابعة.

ويختص هذا الرأي بموضوعات العقائد الإسلامية من الكتاب فحسب، ويتلخَّص فيما يلي:

بالرغم من أن العقيدة الإسلامية هي التي تتحدَّى ضغط الشهوات، والأهواء، وسلبيات المجتمع الفاسد، وهي التي تتفرَّع عنها العبادات والأخلاق؛ إلَّا أن مشكلة البشر فيها ليست عقلية، إذ إنها من ضرورات العقل التي فطر الله الناس جميعًا عليها.

بل هي مشكلة نفسية، نابعة عن ضعف الإرادة أمام تحديات المجتمع وضغوط الشهوة؛ المجتمع الذي تحيط به أجهزة الطاغوت الإرهابية، كيف يمكن أن يعبد الله وحده دون أن يتسلح بإرادة يقهر بها ضعفه البشري؟!.

والشاب الذي تعصف به رياح الشهوة العاتية، كيف يتحدَّى إغراء الحياة، ويعبد الله وحده دون إرادة قاهرة؟.

وهكذا الفرد المليء بالعُقَد، لا يُمكنه فهم الحياة بفطرته الطاهرة دون خرق حجاب العُقَد بعزم إيماني راسخ.

وربما تشير إلى هذه الحقيقة، الأحاديث التي تؤكد أن الإيمان روح، وتُبيِّن أن الإيمان عمل، وأن على كل جارحة مسؤولية إيمانية خاصة بها.

جـاء في حديث شريف عن الإمام أبي عبد الله الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ، يقول الراوي: «قُلْتُ لَهُ أَيُّهَا الْعَالِمُ أَخْبِرْنِي أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ عِنْدَ اللهِ؟.

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: **مَا لَا يَقْبَلُ اللهُ شَيْئًا إِلَّا بِهِ.**

قُلْتُ: وَمَا هُوَ؟.

قَـالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: **الْإِيـمَانُ بِـاللهِ الَّـذِي لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ أَعْـلَى الْأَعْمَالِ دَرَجَـةً وَأَشْرَفُهَـا مَنْزِلَةً وَأَسْنَاهَا حَظًّا.**

قُلْتُ: أَلَا تُخْبِرُنِي عَنِ الْإِيمَانِ، أَقَوْلٌ هُوَ وَعَمَلٌ، أَمْ قَوْلٌ بِلَا عَمَلٍ؟.

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: **الْإِيمَانُ عَمَلٌ كُلُّهُ، وَالْقَوْلُ بَعْضُ ذَلِكَ الْعَمَلِ بِفَرْضٍ مِنَ اللهِ بَيَّنَ فِي كِتَابِهِ وَاضِحٍ نُورُهُ ثَابِتَةٍ حُجَّتُهُ، يَشْهَدُ لَهُ بِهِ الْكِتَابُ وَيَدْعُوهُ إِلَيْهِ.**

ثم يضيف الحديث قائلًا:

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: **لِأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَرَضَ الْإِيمَانَ عَلَى جَوَارِحِ ابْنِ آدَمَ وَقَسَّمَهُ عَلَيْهَا، وَفَرَّقَهُ فِيهَا، فَلَيْسَ مِنْ جَوَارِحِهِ جَارِحَةٌ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَتْ مِنَ الْإِيمَانِ بِغَيْرِ مَا وُكِّلَتْ بِهِ أُخْتُهَا...**»[١].

ومن هنا يبدو لي أن المنهج الإلهي في تذكرة الناس بربهم وإعدادهم لاستقبال روح الإيـمان، والبـدء بالعمل بمسـؤولياته، يختلف عن منهج دراسـة العقائـد في كتب الكلام، أو بالأسـلوب المتبع مثـلًا في هذا الكتاب. وبالرغم من أن هذا الأسـلوب قد يكون نافعًا، ونجد في كتب الاحتجاج أن الأئمة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ اسـتخدموه أيضًا[٢]؛ إلا أنه ليس المنهج الأمثل الذي نجده في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة.

ونحـن نُبيِّن -باختصار شـديد- بعـض جوانب المنهج القـرآني الأمثل لعل الإخوة الذين يُدرّسـون هذا الكتاب لطلبة العلوم الدينية، حفظهم الله، يسـتفيدون منه في أسلوب التدريـس ويُحوّلون حلقات الـدرس إلى منابر توجيهية هدفها إثـارة دفائن الفطرة وغرس مكارم الأخلاق، وتبصير الطلبة بحقائق أنفسهم والحياة من حولهم.

إن العقائد ليست مادة دراسية بقدر ما هي تذكرة إلهية هدفها إيقاظ العقل من سباته،

---

(١) الأصول من الكافي، ج٢، ص ٣٣ - ٣٤.
(٢) في الكتاب الذي بين يديك أمثلة عديدة على ذلك خصوصًا في أبواب التوحيد.

وجلاء الروح بعد تراكم الرَّين عليها، وبثّ الخشوع في القلب بعد قسوته. ومُعلِّم درس العقائد لابد أن يُزكِّي نفسه، لكي يتحوَّل إلى قدوة في تصرفاته، ويكون في نبرات حديثه وقسمات وجهه تذكرة بالله، وترهيب من عذابه، وترغيب في عظيم ثوابه.

المنهج القرآني:

هناك خطَّان نُشير إليهما في المنهج القرآني؛ خط في أسلوب التذكرة بالله، وخط في ربط ذلك بالعمل.

بالنسبة إلى الخط الأول لابد أن نقول: بصائر القرآن لمعرفة ربّ العالمين.

إن المنهج القرآني يُذكِّر الناس بربهم من خلال الحياة، وليس بعيدًا ولا مجردًا عنها، حتى تتذكر ربك كلّما عشت ظاهرة طبيعية؛ فالشمس والقمر والنجوم آيات مُسخَّرات بأمره، والسماوات والجبال يُسبِّحن بحمد ربهن، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾[1].

ويقول ربنا سبحانه، وهو يلفت انتباهنا إلى السماوات التي رفعها بغير عمد نراها: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾[2].

ويُذكِّرنا بما في الأرض من آيات لعلنا نعرف ربنا من خلال النظر إليها، والاعتبار بما فيها من اختلاف وتشابه، والتذكر لما فيها من علامات الحكمة والقوة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3].

ويُلامس السياق القرآني فطرة الإنسان ويهزُّها عندما يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾[4].

عندما تدكّ جبال السحب بعضها بعضًا، فتحدث دوي الرعد وتختلط عندك الرغبة

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٤٤.
(٢) سورة الرعد، آية: ٢.
(٣) سورة الرعد، آية: ٣.
(٤) سورة الرعد، آية: ١٢ - ١٣.

بالرهبة، والطمع بالخوف، وتأتي الصواعق وهي مرسـلة من لدن حكيم قدير، والأهداف مرسومة لها سلفًا؛ عندئذ تذكر ربك وعقوبته الشديدة، فلا تجادل فيه، بل أسلم له وجهك حنيفًا مسلمًا.

بلى؛ إن هذا المنهج القرآني الذي يفسر ظواهر الكون وسـنن الله فيه تفسـيرًا إلهيًّا، إنه يجعل المؤمنين يتذكَّرون ربهم كلما غشيتهم ظاهرة كونية أو أعقبتهم سنة إلهية.

يقول ربنا سـبحانه عنهم: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾(١).

إن منهـج القـرآن يُربِّي مثل هـؤلاء المؤمنين؛ لأنـه يُعطيهم بصيرة إلهيـة ينظرون من خلالها إلى العالم المحيط بهم، وكلما توغَّلوا فيه ازدادوا إيمانًا وتسليمًا.

بصائر القرآن في معرفة التاريخ:

ويُعطـي القرآن الحكيـم المؤمنين البصيرة الإلهيـة في التاريخ لينظـروا من خلالها إلى الغابرين ويعتبروا بمصيرهم. ذلك بأن الإنسـان تشـدُّه حوادث التاريخ بقدر ما تسـتثيره ظواهـر الحياة الراهنة، وهو مفطور على النظـر إلى الماضي. إذًا فلينظر إليه من خلال بصيرة إلهيـة ليـزداد إيمانًا بربه وتسـليمًا لسـننه وشرائعـه كلما نظر في أحـوال الغابريـن. يقول ربنا سـبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(٢).

وقـد يُذكِّرنـا ربنا بمصير قـوم نعرفهم في التاريخ، ويُعطي تفسـيرًا إلهيًّـا للتطورات التاريخية العظيمة لما تُسـمَّى بالحضارات التي سـادت ثم دُمِّرت بسبب تخلفهم عن واجب التوحيـد ومعرفـة الخالـق العظيـم: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ

(١) سورة آل عمران، آية: ١٩٠ - ١٩١.
(٢) سورة الروم، آية: ٩.

وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴾[1].

ثـم يُذكِّرنـا بعاقبتهـم، وهي -بالطبع- عبرة لـكل ملحد لا يؤمن بربه ويسـتكبر في الأرض بغـير حـق. يقـول ربنـا سـبحانه: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[2].

بصائر القرآن في معرفة النفس:

ويتعرَّض البشر لحالات الشـدة والرخاء، والمرض والعافية، الفقر والغنى، ويُعطيه المنهـج القـرآني في التوحيد البصائرَ الكافية لتفسـير هـذه الحالات المختلفـة، ليُريَهُ الله آياته في نفسـه وليتذكَّـر ربه العظيم ويقنت له ويتضرع إليه؛ فيكشـف ما بـه من ضُرٍّ، ويهديه إلى صراط مسـتقيم. وهكـذا تتحوَّل الحالات المختلفـة للنفس البشرية إلى مدرسـة إلهية تُعلِّم طلَّابها التوحيد بفضل منهج القرآن، لهذا يقول ربنا سـبحانه: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾[3].

من خلال تبصير الإنسان بمواقع ضعفه وعجزه، وتذكيره بأيام تضرعه إلى ربه، يثير القـرآن فطـرة التوحيد في النفـس البشرية، ويقول ربنا سـبحانه: ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾[4].

وهكذا نرى المنهج القرآني الأمثل يُذكِّرنا بالله من خلال بصائره في فهم المخلوقات، وفي وعي التاريخ، وفي معرفة النفس.

وهكـذا يُحيط بالمؤمن نـور التوحيد عبر كل أفق، فيقـول ربنا: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[5].

---

(١) سورة العنكبوت، آية: ٣٨ - ٣٩.
(٢) سورة العنكبوت، آية: ٤٠.
(٣) سورة الروم، آية: ٣٣.
(٤) سورة الأنعام، آية: ٦٣ - ٦٥.
(٥) سورة فصلت، آية: ٥٣.

المنهج القرآني:

وحـين يُذكِّـر المنهج القرآني برب العالمين يُبصِّرنا بأنه الإله ولا معبود سـواه، وأن له -وليس لطغاة السلطة أو المال أو أدعياء الدين- الولايةَ على الناس.

وهكـذا يُـربِّي المنهـج الإلهي المؤمـن الحنيف الـذي يكفـر بجبت الشـيطان والهوى والخرافـة، كما يكفر بطاغوت السياسـة والرأسـمال والدعاية، ويأمـر بالصلاح والمعروف وينهى عن الفساد والمنكر.

المنهـج القـرآني يربط بين التذكـرة بالتوحيد وبين مسـؤوليات المؤمـن بالله في حقل الثقافة والاجتماع والأخلاق والعبادات. وفيما يلي نستعرض أمثلة على هذا المنهج:

في حقل الثقافة:

يقـول ربنـا: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[1].

وآيـات الذكر التي تُبيِّن جهـاد الموحدين ضد الأصنام كثيرة، وهي -على أي حال- تكشـف عن هوية الموحدين الجهادية في حقل الثقافة، وتطهير القلوب عن رجس الشـك والخرافة والجهل والتبرير.

ويبدو أن هذا كان هو الجهاد الأعظم الذي رافق مسيرة الموحدين في التاريخ، سواءً قبل أو بعد انتصارهم على الكفار سياسيًّا وعسكريًّا، وسيبقى هو الجهاد المرير الذي يخوضه الموحدون طوال الوقت.

في حقل الاجتماع:

في حقل الاجتماع؛ يُذكِّر المنهج القرآني بالله في إطار الجهاد ضد العنصرية، والطبقية، والإرهاب الفكري، والاستكبار، والطغيان. لنستمع إلى القرآن الحكيم وهو يُذكِّرنا بجهاد الموحد العظيم سـيدنا شـعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ ضد كفار قومه. قال ربنا: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا

(١) سورة الأعراف، آية: ١٣٨ - ١٤٠.

مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾[1].

ويقول عن التمييز الطبقي الذي جاهد ضده الأنبياء عليهم السلام لتكريس قيم التوحيد: ﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾[2].

وعن قيمة التوحيد في مواجهة أصحاب المال. يقول ربنا سبحانه: ﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾[3]. إلى أن يقول ربنا: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾[4].

ويُذكِّرنا القرآن الكريم بمصير المستضعفين الذين أطاعوا أصحاب النفوذ والسيادة من دون الله، فيقول سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾[5].

وهكذا تأتي قيمة التوحيد لتفك أغلال المجتمع الجاهلي عن الناس، غُلًّا بعد غُل، وتشد الناس ببعضهم برابطة إلهية لتهدم المؤسسات القائمة على أساس الشرك، وتكفر بالشركاء من دون الله -أصحاب الثروة والقوة والشرف المزيف- ولتقوم مقامها تجمعات الإيمان والتقوى والجهاد، وقد قال ربنا سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[6].

---

(١) سورة هود، آية: ٩١ - ٩٣.
(٢) سورة إبراهيم، آية: ٢١.
(٣) سورة القصص، آية: ٧٦.
(٤) سورة القصص، آية: ٨١.
(٥) سورة الأحزاب، آية: ٦٤ - ٦٨.
(٦) سورة الحجرات، آية: ١٣.

في حقل السياسة:

حينما بُعث النبي إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ برسالات الله، توجَّه تلقاء نمرود، طاغوت عصره، يأمره بالتوحيد، وقال ربنا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(1).

وأمر الله تعالى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يذهب إلى فرعون، طاغوت عصره، ويأمره بعبادة الله، فقال: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾(2).

وقال ربنا سبحانه لداود صراحة: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾(3).

وبصفة عامة، قال ربنا سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(4).

وفي آية قرآنية أخرى يقارن المنهج التوحيدي بين الإيمان بالله والكفر بالطاغوت، حيث قال ربنا: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(5).

هكذا المنهج القرآني في التذكرة بالله يُنمِّي روح الإيمان في مواجهة الطاغوت، وليس إيمانًا مجردًا عن واقع السياسة.

الإيمان بالله يساوي الكفر بطاغوت عصرك، من يسعى لاستعبادك، أنَّى كان شخصه واسمه ووسائله. وهكذا بهذه القوة وبهذه الشمولية ينبغي أن يدرس التوحيد.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٥٨.

(٢) سورة طه، آية: ٤٣ - ٤٤.

(٣) سورة ص، آية: ٢٦.

(٤) سورة النساء، آية: ٦٤ - ٦٥.

(٥) سورة البقرة، آية: ٢٥٦.

في حقل الأخلاق:

من هم عباد الرحمن؟ وما هي شخصية المؤمن؟ و بالتالي ما هو الإيمان الذي يُربِّي عباد الرحمن؟ وهل هو إيمان بالله، ذلك الذي لا يُعطيك سلاحًا ضد العقد النفسية والأهواء والتأثر بالظروف الخارجية؟ وهل هو إيمان بالله ذلك الذي لا يُعطيك البصيرة في الحياة؟.

القرآن الحكيم يقول: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾[١].

إن المنهج القرآني يعرِّف لنا الإيمان بالله، أنه نور يمشي الإنسان به في الناس. يقول ربنا سبحانه عن الإيمان:

- ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾[٢].
- ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾[٣].

وعندما يقص علينا القرآن سيرة شعيب عليه السلام، تراه يجعل الإيمان بالله في مواجهة فساد أخلاقي كان شائعًا في ذلك المجتمع، وهو النقص في المكيال والميزان. يقول ربنا سبحانه: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[٤].

وهكذا تكون التذكرة بالله، في المنهج القرآني، سبيلًا لإصلاح المجتمع والأخلاق الفاسدة التي فيه.

---

(١) سورة الفرقان، آية: ٦٣ - ٦٩.
(٢) سورة الشورى، آية: ٥٢.
(٣) سورة الأنعام، آية: ١٢٢.
(٤) سورة هود، آية: ٨٤ - ٨٥.

في العبادات والآداب:

المنهج الإلهي في التذكرة بالله يصل البشر بربه عبر العبادات؛ عبر الصلاة والدعاء والحج و... لأنه يربط بين التذكرة بالله وبين السلوك الشخصي. يقول ربنا سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾[(١)].

إن هـؤلاء الذين يدّعون الإيمان وهم يسهون عن صلاتهم وعباداتهم، فهم بعيدون عن الله وعن رحمته. يقول ربنا سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾[(٢)].

وباختصار: المنهج القرآني يسعى نحو تنمية روح الإيمان في النفس البشرية القادر على تحدي الضعف البشري، وذلك بعد تجاوز مرحلة الإثبات بالأدلة العقلية التي لا تقاوم الحجب النفسية في حالة وجودها. فشخص مثل فرعون استبد به حب الرئاسة، كيف يمكنه أن يسلم وجهه لله بمجرد سرد أدلة عقلية؟!. أما إذا انقشعت عنه الحجب، فإن فطرة البشر تكفي شهادة على الحقيقة.

إن البشر يعاني من ضعف إرادي لابد أن ينجبر بالمنهج القرآني، حتى يؤمن بالله ذلك الإيمان الذي يتحمل مسؤولياته العظيمة.

وفي الختام: نستبصر بهدى السنة عبر حديث مفصل نرويه عن الإمام الصادق عليه السلام، يُبيِّن الإمام فيه أن الإيمان مجموعة فرائض ومسؤوليات مبثوثة على جوانح البشر وجوارحه: «**فَأَمَّا مَا فَرَضَ عَلَى الْقَلْبِ مِنَ الْإِيمَانِ فَالْإِقْرَارُ وَالمَعْرِفَةُ وَالْعَقْدُ وَالرِّضَا وَالتَّسْلِيمُ بِأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ إِلَهًا وَاحِدًا لَمْ يَتَّخِذْ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ** صلى الله عليه وآله وسلم**، وَالْإِقْرَارُ بِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللهِ مِنْ نَبِيٍّ أَوْ كِتَابٍ.**

فَذَلِكَ مَا فَرَضَ اللهُ عَلَى الْقَلْبِ مِنَ الْإِقْرَارِ وَالمَعْرِفَةِ، وَهُوَ عَمَلُهُ، وَهُوَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾[(٣)].

---

(١) سورة المؤمنون، آية: ١ – ٦.

(٢) سورة الماعون، آية: ٤ – ٧.

(٣) سورة النحل، آية: ١٠٦.

وَقَالَ: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾(١).

وَقَالَ: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ﴾(٢). **فَذَلِكَ مَا فَرَضَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الْقَلْبِ مِنَ الْإِقْرَارِ وَالمَعْرِفَةِ، وَهُوَ عَمَلُهُ، وَهُوَ رَأْسُ الْإِيمَانِ.**

وَفَرَضَ اللهُ تَعَالَى عَلَى اللِّسَانِ الْقَوْلَ وَالتَّعْبِيرَ عَنِ الْقَلْبِ بِمَا عُقِدَ عَلَيْهِ وَأَقَرَّ بِهِ قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى اسْمُهُ: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾(٣).

وَقَالَ: ﴿وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾(٤). **فَهَذَا مَا فَرَضَ اللهُ تَعَالَى عَلَى اللِّسَانِ، وَهُوَ عَمَلُهُ.**

وَفَرَضَ عَلَى السَّمْعِ أَنْ يَتَنَزَّهَ عَنِ الِاسْتِمَاعِ إِلَى مَا حَرَّمَ اللهُ، وَأَنْ يُعْرِضَ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَهُ مِمَّا نَهَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُ، وَالْإِصْغَاءِ إِلَى مَا أَسْخَطَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فَقَالَ فِي ذَلِكَ: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ﴾(٥).

ثُمَّ اسْتَثْنَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَوْضِعَ النِّسْيَانِ فَقَالَ: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٦).

وَقَالَ: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(٧).

وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾(٨).

---

(١) سورة الرعد، آية: ٢٨.
(٢) سورة البقرة، آية: ٢٨٤.
(٣) سور البقرة، آية: ٨٣.
(٤) سورة العنكبوت، آية: ٤٦.
(٥) سورة النساء، آية: ١٤٠.
(٦) سورة الأنعام، آية: ٦٨.
(٧) سورة الزمر ١٧ - ١٨.
(٨) سورة المؤمنون، آية: ١ - ٤.

وَقَالَ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ﴾[١].

وَقَالَ: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾[٢].

فَهَذَا مَا فَرَضَ اللهُ عَلَى السَّمْعِ مِنَ الْإِيمَانِ أَلَّا يُصْغِيَ إِلَى مَا لَا يَحِلُّ لَهُ، وَهُوَ عَمَلُهُ، وَهُوَ مِنَ الْإِيمَانِ.

وَفَرَضَ عَلَى الْبَصَرِ أَلَّا يَنْظُرَ إِلَى مَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْ يُعْرِضَ عَمَّا نَهَى اللهُ عَنْهُ مِمَّا لَا يَحِلُّ لَهُ، وَهُوَ عَمَلُهُ، وَهُوَ مِنَ الْإِيمَانِ، فَقَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾[٣]. **فَنَهَاهُمْ مِنْ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى عَوْرَاتِهِمْ، وَأَنْ يَنْظُرَ الْمَرْءُ إِلَى فَرْجِ أَخِيهِ، وَيَحْفَظَ فَرْجَهُ مِنْ أَنْ يُنْظَرَ إِلَيْه.**

وَقَالَ: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾[٤] **مِنْ أَنْ يَنْظُرَ إِحْدَاهُنَّ إِلَى فَرْجِ أُخْتِهَا، وَتَحْفَظَ فَرْجَهَا مِنْ أَنْ يُنْظَرَ إِلَيْهَا..»**[٥].

كيف ندرس العقائد؟

لكي نستوحي من المنهج القرآني في تدريس العقائد، نوصي بملاحظة النقاط التالية:

ألف: أن نبدأ بإلفات نظر الطلبة إلى آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم مع التركيز على تلك الآيات الأقرب إلى إثارة عقولهم وتجلية فطرة الإيمان فيهم، ومع التذكرة بما في الخلق من روعة الجمال ولطف الصنع ودقة الحكمة.

إن كل شيء من حولنا يُسبِّح بحمد الله. ولكن **السؤال:** لماذا لا نفقه تسبيحهم، وما هو مفتاح فهم لغتهم؟ لماذا نحن محجوبون عن رؤية ضياء الشمس الذي يسجد لله، ويسبح بحمد الله، ويدعونا إلى ربنا؟. المُعلِّم التوحيدي الناجح هو الذي يُعطي الطالب منهجًا للتفكر في المخلوقات، ومفتاحًا لفهم لغة الحياة التي تعتبر أكبر مدرسة لمن يعرف لغتها.

وعلينا أن نبدأ مع الفرد من حيث هو، أي من النقطة التي هو فيها. فقد تثير فردًا

---

(١) سورة القصص، آية: ٥٥.

(٢) سورة الفرقان، آية: ٧٢.

(٣) سورة النور، آية: ٣٠.

(٤) سورة النور، آية: ٣١.

(٥) بحار الأنوار، ج ٦٦، ص ٢٦.

مظاهرُ الطبيعة، من تعاقب الليل والنهار، ونظام السماوات والأرض، والرعد والبرق والعواصف..وقد يعيش الفرد أزمة نفسية أو وضعًا اقتصاديًّا سيِّئًا، أو مرضًا، أو علاقات اجتماعية شاذة.. وهكذا فيثيره ما يتناسب مع وضعه الخاص.

وعالم الرياضيات الذي تُعجبه الحسابات الدقيقة، وعالم الفضاء الذي تهزُّه عظمة المَجرَّات السابحة في العالم اللامتناهي، وعالم الطب والأحياء و... و... لكل واحد منهم مفتاح يفض عقد نفسه، ويفتح آفاق معارفه، وعلى المُعلِّم أن يبدأ من هناك، ويستمر معه حتى يطوف به على سائر آيات الله في الخليقة وفي النفس البشرية.

يأتي طبيب إلى الإمام الصادق عليه السلام يهتم بالعقاقير وبيده عقار يسمى بـ(الأهليلجة) ويسأل الإمام عما يُثبت به الصانع؟. فيجيبه الإمام عليه السلام، وبهذه الأهليلجة[1]، ويبدأ معه حوارًا وجدانيًّا بنَّاءً ينتهي بتسليمه أمام وضوح الحجة وفطرة المعرفة.

ويأتي سائح يجوب البحار؛ فيقول: «يَا ابْنَ رَسُولِ الله! دُلَّنِي عَلَى الله مَا هُوَ؟.

هَلْ رَكِبْتَ سَفِينَةً قَطُّ؟.

قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ عليه السلام: **فَهَلْ كُسِرَ بِكَ حَيْثُ لَا سَفِينَةَ تُنْجِيكَ وَلَا سِبَاحَةَ تُغْنِيكَ؟!.**

قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ عليه السلام: **فَهَلْ تَعَلَّقَ قَلْبُكَ هُنَالِكَ أَنَّ شَيْئًا مِنَ الْأَشْيَاءِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُخَلِّصَكَ مِنْ وَرْطَتِكَ؟.**

قَالَ: نَعَمْ. قَالَ الصَّادِقُ عليه السلام: **فَذَلِكَ الشَّيْءُ هُوَ اللهُ...**»[2].

إن تدريس العقائد يتم عبر التفاعل الوجداني بين النفس والحياة، بين العقل والطبيعة. وهذا لا يكون إلَّا عبر المعاناة والتفاعل بين المعلم والطالب، أكثر من أي درس آخر.

باء: أن يُستوحى من الآيات القرآنية، وخطب نهج البلاغة التوحيدية، وأدعية الصحيفة السجادية، وأيضًا من سائر الأدعية المأثورة في التذكير بالله.

---

(١) بحار الأنوار: ج٣، ص١٥٢.
(٢) بحار الأنوار: ج٣، ص٤١.

ويستفاد وبغزارة من شواهد الطبيعة، واختلافها ودقتها وعظمتها وحكمة تدبيرها، وبالذات من مكتشفات العلم الحديث.

جيـم: أن التوحيد ليس مادة دراسـية، بـل بصيرة لفهم أيَّة مادة دراسـية أخرى، إنه صبغة الله، إنه برنامج المعرفة، إطار التفكر، سـبيل إلى العلم بالحقائق، هدى ونور وضياء. ولذلـك لا ينبغي حشر موضـوع التوحيد في زاوية وفصله عن غـيره من الموضوعات، بل لابـد من بسـطه على كل موضوع دراسي، وجعل كل شيء يعـرف بالله، لأنه ليس أي شيء أظهر من الله.

جـاء في الدعاء المأثور عن الإمام الحسـين عليه السلام، والمعروف بـ(دعاء عرفة): «**كَيْفَ يُسْـتَدَلُّ عَلَيْـكَ بِمَا هُوَ فِي وُجُودِهِ مُفْتَقِـرٌ إِلَيْكَ، أَيَكُونُ لِغَيْرِكَ مِنَ الظُّهُـورِ مَا لَيْسَ لَكَ حَتَّى يَكُـونَ هُـوَ الْمُظْهِرَ لَـكَ؟!. مَتَى غِبْتَ حَتَّى تَحْتَـاجَ إِلَى دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْـكَ؟ وَمَتَى بَعُدْتَ حَتَّى تَكُـونَ الْآثَارُ هِيَ الَّتِي تُوصِلُ إِلَيْكَ؟. عَمِيَتْ عَـيْنٌ لَا تَرَاكَ وَلَا تَزَالُ عَلَيْهَا رَقِيبًا، وَخَسِرَتْ صَفْقَةُ عَبْدٍ لَمْ تَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصِيبًا**»(١).

الله نور السـماوات والأرض، إذًا، فهو الشـاهد على السماوات والأرض، وبه نعرف السماوات والأرض وليس العكس.

لابد أن نرفع السـتار حتى تسـتقبل أفئدتنا أنوار معرفته.. ليدلنا إلى ذاته بذاته، لابد أن نرفـع عن أعيننا غشـاوة الظنون والشـهوات، لابد أن نُطهِّر قلوبنـا من رجس الذنوب ورين الأماني.

وهكذا ينبغي أن يفعل مُعلِّم العقائد، وعليه أن يستعين بالله، ويتوكل عليه في عمله.

وأخيرًا؛ أسـأل الله أن ينفعني بهذا الكتاب يوم لا ينفع مال ولا بنون إلَّا من أتى الله بقلب سليم.

محمد تقي المدرسي

٣ رجب الحرام ١٤٠٤هـ

(١) بحار الأنوار: ج٦٤، ص١٤٢.

كلمة البدء

تعيش الأمة الإسلامية اليوم تحديًا حضاريًّا كبيرًا من جميع الجهات.

وبالرغم من أن التحدِّي الحضاري ظاهرة لازمة في الأمة، وأنه لم يأتِ حين على المسلمين استراحوا فيه من تحديات حضارية، فإن التحدِّي الجديد يتَّخذ طابعًا مختلفًا يكمن في تحوُّله التدريجي إلى مواجهة حضارية شاملة للجوانب الأيديولوجية والاقتصادية والسياسية والعسكرية، وهي مصيرية لأنها تعتزم اكتساح الحضارة الإسلامية حتى لا تعود قادرةً على النهوض مرة أخرى.

والمواجهة الحضارية تبرز من خلال مظاهر مختلفة، بيد أن نقطة واحدة تقرر مصيرها النهائي لصالح الأمة أو في صالح أعدائها، تلك هي جدارة (الفكرة الحضارية) بالبقاء. فبقدر ما تكون الفكرة مليئة بركائز التقدُّم والنصر، وبقدر ما تبعثه في الإنسان المُتقمِّص لها من الإيمان والمعرفة، سيكون تقدُّم الأمة وانتصارها.

ولن تُغني الفكرة الحضارية شيئًا لو لم تملك الأصالة والواقعية، ولم تكن قادرة على تحميل نفسها على كتف الحياة حتى تصنع رجالًا، وتصنع بهم بطولات وتصنع بها حضارة مُتفوِّقة. إذ من دون التفاعل بين الإنسان والفكرة كيف يتمكن الإنسان من تغيير واقع حياة وبنائها؟! فهل تتقدَّم أمة تملك تراثًا ضخمًا من الفكر الحضاري لو لم يتحوَّل فعلًا إلى عطاء وعمل؟.

ومن هنا فإن الإسلام لن يُغني الأمة شيئًا ما دام فكرًا تاريخيًّا في ذهنية المسلمين، دون أن يتحوَّل إلى مادة حضارية تتفاعل مع الإنسان في واقعه الخارجي. ولن يقع هذا التحول دون ظهور الإسلام على المسرح بكل قوة حتى يقوم بدوره بوصفه فكرةً حضاريةً.

ذلك لأن الإسـلام بوصفه دينًا، والإسلام بوصفه تاريخًا؛ يختلف كثيرًا عن الإسلام بوصفـه إيمانًا وعمـلًا، وبالتالي بوصفه فكرةً حضاريةً؛ إذ الدين -بمفهومه الشـائع- انتماء وطقـوس، والتاريخ عبر وحكم. أما الإيمان، فهو أصالة وكينونة. أما الحضارة فهي حركة وحياة. وبين القسمين فاصل كبير.

فالمسـلمون كانوا أمـة، بل كانوا خير أمة أخرجت للنـاس، وكوّنوا حضارةً لا مثيل لها؛ كل هذا تاريخ لا يمكن أن يُحقِّق شـيئًا. ولنا أن نتسـاءل: هل عاد المسـلمون أمة؟ وهل هم اليوم خير أمة؟ وهل هم بُناة حضارة؟ بل هل هم حُماة حضارة؟.

وبكل أسف؛ يجب أن نجيب: كلَّا؛ أننا لم نَعُدْ أمةً، لأننا اليوم نفقد الوحدة والتعاون. ولم نَعُدْ خير أمة، لأننا لا نملك كفايتنا من العلم والإيمان. ولم نَعُدْ نبني ولا نحمي حضارة، لأننا، وبكل أسـف، نعاني نكبات سياسية وعسكرية، وتخلفًا اجتماعيًّا علميًّا اقتصاديًّا. و.. و.. وبالتالي: إن اسلام أمس لا يُغني عن إسلامنا اليوم.

والسؤال هنا: كيف نُحوِّل أمسنا إلى اليوم؟

والجواب بسـيط: لا بد من طي الفترة التي تفصل اليوم عن أمس ليتصل يومنا بيوم تقدمنا، ونبدأ منه المسير. ذلك لأننا بحاجة إلى واقعين:

- قاعدة بناء؛
- ومنطلق مسيرة؛

هما -في الواقع- أصالة وتفتُّح. فدون واحد منهما نخسر المعركة الحضارية.

والاسـتلهام من الدين الصحيح يُشـكِّل القاعدة والمنطلـق والأصالة، والتفتُّح على الحياة يُشكِّل المسير والتفاعل.

فنحن إذًا بحاجة إلى (تأصُّل) و(تفتُّح)، ولابد أن نُحقِّقهما عبر مراحل ثلاث:

١- **مرحلـة التأصُّل**؛ وفيها نُحاول اسـتيعاب الفكرة الحضارية التي تتمثَّل في الدين الإسلامي إيمانًا وعلمًا.

٢- **مرحلة البعث**؛ وفيها نتحسَّس التخلُّف ونستيقظ من سباتنا العميق، ونريد أن نحيا.

٣- **مرحلة التفتُّح**؛ وفيها نحاول الاستفادة من معطيات العلم الحديث.

إن هـذا هو الخط الواضح القويم الـذي لا يُمكننا أن ننجح دون الالتزام به والوفاء بمتطلباته.

بيـد أن هناك عقبةً تعترض الطريـق، وبمدى قدرتنا على تحديها يكون مدى جدارتنا بحماية حضارتنا التليدة وبنائنا للحضارة الجديدة. وهي التطرفات اليمينية واليسارية التي تريد بالمسيرة الانحراف عن خطها المستقيم. فاليمين يحاول تجميدنا على الأوضاع الفاسدة، واليسار يريد تمييعنا في بوتقة الحضارات المعاصرة. اليمين يرفض الأخذ بأي جديد ويحاول بنـا الانطواء على شـكليات القديم المهترئـة والتقوقع في توابيته الفكريـة المُحنَّطة، ويرضى لنفسـه أن يكون تابعًا أعمى للفلسـفة الإغريقية والبرهمية ولا يقبل الانفتاح على معطيات الحضـارة الحديثـة العلميـة، بل ولا عـلى معارف الدين الإسـلامي الحـق. ولذلك لا يزال يعتكـف على منطق أرسـطو وهيئـة بطليموس وطـب جالينوس في عصر المناهـج العلمية الدقيقة، حيث يُرتاد الفضاء وتُستخدم الذرة وتُستعمل الأشعة في شفاء الأمراض.

والـذي لا ريـب فيـه أن اليمـين بعيد عن روح الإسـلام بُعْـدَ المشرقـين؛ ذلك لأن الإسـلام فلسـفة شـاملة أصيلـة متفاوتة كليًّـا مع فلسـفات الإغريـق والبراهمـة -الوثنية المشركة-، والإسـلام منفتـح كليًّا على معطيـات العقل والعلم ولا يـرضى التقوقع ضمن توابيت القديم.

ولا ريب -كذلك- في أن اليمين عقبة دون بناء الحضارة، لابد من تجاوزها.

والتطـرف اليسـاري هـو الآخر عقبة كـؤودة يُشـكِّلها الانهزاميون، الذيـن منعتهم التيارات الغربية الشـعورَ بأنفسـهم، فراحوا ينظرون إلى واقعهم وكيانهم بعيون مستعارة، فـلا يـرون الَّا مصالح الآخريـن. فهم يريـدون أن نرفض كل أصيل؛ لأنـه -في زعمهم- السبب المباشر لتخلُّفنا.

والمسـلمون ظلوا بين تزمّت اليمين وميوعة اليسـار لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سـبيلًا؛ ذلك لأن المنحرفين راحوا يُشـكِّكون في قدرة الإسـلام أن يبني حضارة المسـلمين الحديثة الأصيلة. وبما أن الدين لا يزال يتمتع بقاعدة شعبية واسعة وراسخة، فإن المنحرفين لم يقدروا على الهجوم على صلاحية الإسلام أو إمكانية المسلمين للقيام ببناء حضارة حديثة، بل راحوا ينافقون -كل حسب اتّجاهه المتطرف- أيّما نفاق.

فالمتزمتون حاولوا أن يحصروا الدين عند الناس في حدود معينة من السلوك الفردي وبعض النظم الاجتماعية، أما في المناهج العلمية والأفكار الفلسفية والقواعد الخلقية فلابد أن يُصبح تابعًا متواضعًا للفلسفة التي يختارونها كلٌّ حسب هواه.

ومن هنا قالوا: إن الإسـلام يشـجعهم على اتِّباع الفلسـفة الإغريقية. وذهب الخيال ببعضهـم حد القول بأن أفكار الفلسـفة القديمـة هي بالذات معطيات الإسـلام، فالمنطق الشكلي ونظرية القوة والفعل وهيئة بطليموس وما أشبه هي عندهم نظريات إسلامية.

وكانت نسبتهم هذه إلى الإسلام أشبه شيء بنسبة رجال الكهنوت خرافات العصور الوسطى إلى المسيحية، مما أدَّت إلى ارتداد العلماء عن الدين في أوروبا.

أما النصوص الشرعية المخالفة لهم في نسبتهم هذه فكانت في أيديهم ألين من الحديد بـين أصابـع داود عليه السلام، حيـث أخذوا يُؤوِّلون فيهـا ويُحرِّفونها ويفـترون على الله الكذب وهم هادئون مطمئنون.

وفي الطـرف المعاكـس تمامًا كان الانهزاميـون يقومون بدور مماثـل للمتزمتين ولكن مـن منطلق مختلف، إذ كانوا يحاولون تجريد الإسـلام من روحـه الناصعة، ومبادئه الفطرية الصائبة، وتمييع أحكامه المحددة وتوجيه نصوصه وفق (فلسـفات الغرب الحديثة)، ناسين أو متناسين كل ما في هذه الأخيرة من سلبيات وتناقضات.

وقـد بلـغ الجهد ببعضهم حدًّا دعا المسـلمين إلى تبني فكرة مناهضة للإسـلام تمامًا، وباسم الإسلام ذاته، وقالوا: لا يعدو الإسلام أن يكون انتماءً قوميًّا أو قبليًّا أو عائليًّا، فهو ينسـجم، أو بالأحرى لابد أن نجعله بحيث ينسـجم، مع كل جديد يقتضيه اتِّجاه الحضارة الحديثة. ولم يعلموا أنهم بعملهم هذا انتزعوا عن الإسـلام أهمَّ ما فيه، وهي الروح المبدعة المُغيِّرة والثائرة.

وضاعـت الأمة الإسـلامية المُرتقبَة والحضارة الإسـلامية المأمولة، ضاعت في زحمة هـذه الاتجاهـات المُتطرِّفة. وأصبح الإسـلام كلمةً جوفاء مطاطية كأنها ضباب السـواحل تشـمل جميع المتناقضات. وليس أبدًا ذلك الدين الواحد الذي جاء من ربٍّ واحد لتكوين أمـة واحدة، بل إنه أَلْف دينٍ وأَلْف مذهب وأَلْف أمة.. وكانت هذه عقبةً تعترض مسـيرة المسلمين الحضارية، وكان لابد لنا من تحديها بأمرين:

١ - تجريد الإسلام من الفلسفات الجاهلية التي نسبها المنحرفون إلى الدين، حتى يعود الدين كما هبط من الله سبحانه فكرةً رائعةً تحمل نفسها على كتف الحياة، وتنسجم وتتفاعل معها. ولا يمكن ذلك دون العودة إلى النصوص الشرعية ذاتها ومحاولة التسليم لها والانفتاح عليها، دون التأويل فيها والتحريف لكلماتها.

٢ - تجريد الحضارة الحديثة عما شابها من سلبيات الإنسان الأوروبي ونظراته الضيقة المحدودة، وذلك بدراستها في ضوء العقل وهدى القرآن دون تقليد منا أو انغلاق عنها. وعلينا -بعد ذلك- الاعتماد على أصالتنا في بناء حضارة قوية وسليمة.

وليس الكتاب الذي بين أيدينا إلَّا محاولة متواضعة تهدف تحقيق هذه الغاية، والله الموفق وهو المستعان.

محمد تقي المدرسي

العراق - كربلاء المقدسة

(١٣٩٠هـ)

القِسمُ الأوَّلُ

العِلمُ والفلسفة

المبحث الأول : المعرفة بين الإسلام والتصورات البشرية

المبحث الثاني : نقد التصورات البشرية

المبحث الثالث : العالم بين الرؤية الإسلامية والتصورات البشرية

القِسمُ الأوَّلُ

العِلمُ والفلسفة

البحثُ الأوَّلُ: المعرفة بين الإسلام والتصوُّرات البشريَّة

١- منهج البحث.

٢- العقل وتقييم الأفكار.

٣- العقل ومصَادر الفكرة.

٥ منهج البحث

كمـن يدخـل بيتًا يكتنفه الظلام فيتحسـس قبـل كل شيء عن المصبـاح، فإذا وجده اسـتضاء به في اكتشـاف سـائر الأشـياء، كذلك حاول الإنسـان: أن يجد في البدء مصباحًا للحياة، فاتَّجه قبل كل شيء ناحية نفسه ليجد فيها العلم والعقل، فأولاهما كل اهتمامه.

والإسـلام بدأ يُذكِّر الإنسـان بعقله، ليتَّخذه مصباحًا يكشف به غيب الحياة، وتمامًا كما أن كل شيء في البيت المظلم ينكشـف بالمصباح إلَّا أن المصباح ذاته لا يُعرف إلَّا بنفسـه بعد التوجه إليه، فإن الإسلام يعتبر العقل أول ما يُعرف، بيد أن معرفته لن تكون إلَّا بذاته. إذ إن الإنسـان كيف يكشـف العقل وهو لا يملكه؟ بل كيف يكون العقل كاشفًا للإنسان عن كل شيء ولا يكون كاشفًا عن ذاته؟.

وهكـذا يبـدأ الإسـلام معالجة أعقد مشـكلة عند البـشر من زاوية جديـدة وبمنهج جديد، وذلك حين يأمر الإنسـان بـألَّا يُحاول معرفة العقل إلَّا بالعقل ذاته، إذ إنه سـيُلحد عـن المنهج القويـم إذا أراد معرفته بالتوصيف أو بالتصـورات والتحليلات البعيدة، ذلك لأنه سيُبعده عن العقل تمامًا مثل الذي يُحاول التعرُّف على المصباح في الليل المظلم بتوصيفه أو تصـوره.. يقول الإسـلام: ليس العقل شـيئًا بعيدًا عن الإنسـان، ولذا فلابـد ألَّا يُحاول معرفتـه إلَّا بكشـفٍ ذاتيٍّ وتنبُّـهٍ ذاتي. ومن هنا فإنه يُذكِّر البشر بـأن العقل ذلك النور الذي يجـده كل عاقل في نفسـه بعد أن لم يكن، وحـين يجده يشرع بمعرفة الحسـن والقبح والخير والـشر... إلخ. وربما يفقد الإنسـان عقله في سَـورة الغضب فيرتكب عمـلًا فإذا أفاق لام نفسه، وتحسَّر عمَّا فعلتْ.. هكذا توجيه إلى الداخل، عودة إلى الذات، عودة إلى الشعور.

إن الكشـف الـذاتي الذي يملكـه العقل، نابع مـن أن كل شيء ظاهر بسـببه، فكل ما

هو منكشـف للبشر وظاهر، له آية من آيات وجوده. ومن هنا كان على الإنسـان الغافل عن عقله أن يسـتثير أكبر كمية ممكنة من معارفه، ليجد أنه لم يكن يحيط بها لو لا وجود طاقة لديه تكشـف الحقائـق وهي (العقل). ولهذا فإن التوجيه إلى آثار العقـل وآياته هو الدليل القريب إلى حقيقته، وإذا وجده الإنسان وعرف حقيقته وميَّزه عن الجهل، وفرَّق بين أحكامه الصائبة وخيالات النفس، وأخيرًا إذا استيقظ العقل داخل الذات بالتذكرة به والتوجيه إليه؛ استطاع الإنسان أن يسكن إلى نفسه ويثق بفكره ويهتدي إلى السبيل إلى كل علم وكل خير.

هذا هو المنهج الإسلامي الفريد.. ويتلخَّص في ثلاث نقاط:

١- التذكرة بأن معرفة العقل بداية كل معرفة ومنطلق كل بحث.

٢- التذكـرة بـأن معرفة العقل لـن تكون إلَّا بالعقـل ذاته، أو بآثـاره وآياته، وذلك بمقارنة حالتي وجوده وعدمه ببعضهما.

٣- التذكرة بأن وجدان العقل، هو الطريق إلى وجدان الحقيقة وتميُّزها عن الباطل.

مـن هنا نجـد النصوص الإسـلامية تتضافر بالتذكـرة إلى العقـل في محاولة لإيقاظه داخل النفس ووجدان الحقائق به. جاء في الحديث:

قـال الإمام الصـادق عليه السلام: «**إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَخْتَبِرَ عَقْلَ الرَّجُلِ فِي مَجْلِسٍ وَاحِدٍ فَحَدِّثْهُ فِي خِـلَالِ حَدِيثِكَ بِـمَا لَا يَكُونُ؛ فَإِنْ أَنْكَرَهُ فَهُوَ عَاقِلٌ، وَإِنْ صَدَّقَهُ فَهُوَ أَحْمَقُ**»[١]. هذه تذكرة إلى آيات العقل وإلفات النظر إلى أثر من آثار العقل، وهي معرفة المستحيل وإنكاره رأسًا.

وَسُئِلَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ عليهما السلام فَقِيلَ لَهُ: مَا الْعَقْلُ؟.

قَالَ عليه السلام: «**التَّجَرُّعُ لِلْغُصَّةِ حَتَّى تُنَالَ الْفُرْصَةُ**»[٢].

هذه آية أخرى من آيات العقل يكتشف بها الإنسان وجوده.

وَقَـالَ النَّبِـيُّ صلى الله عليه وآله وسلم: «**صِفَةُ الْعَاقِلِ أَنْ يَحْلُمَ عَمَّنْ جَهِلَ عَلَيْـهِ، وَيَتَجَاوَزَ عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَيَتَوَاضَـعَ لِمَنْ هُوَ دُونَهُ، وَيُسَـابِقَ مَنْ فَوْقَهُ فِي طَلَبِ الْـبِرِّ، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ تَدَبَّرَ، فَإِنْ كَانَ خَيْرًا تَكَلَّمَ فَغَنِمَ، وَإِنْ كَانَ شَرًّا سَـكَتَ فَسَـلِمَ، وَإِذَا عَرَضَتْ لَهُ فِتْنَةٌ اسْتَعْصَمَ بِاللهِ وَأَمْسَكَ يَـدَهُ وَلِسَـانَهُ، وَإِذَا رَأَى فَضِيلَةً انْتَهَزَ بِهَا لَا يُفَارِقُهُ الْحَيَـاءُ، وَلَا يَبْدُو مِنْهُ الْحِرْصُ. فَتِلْكَ عَشْرُ**

(١) بحار الأنوار: ج١، ص١٣١.

(٢) بحار الأنوار: ج١، ص١١٦.

خِصَالٍ يُعْرَفُ بِهَا الْعَاقِلِ»[(١)].

هكذا تتضافر النصوص الإسـلامية على بيان آيـات العقل وآثاره لكي تكون تذكرة إليه ويقظة له من الداخل، لأنه ليسـت هناك أية حقيقة يمكنها أن تكشـف العقل لنا دون العقل ذاته، والعقل لا يمكن معرفته إلَّا بالتذكرة إلى آثاره.

بين العقل والعلم:

وحيـث يتعـرَّف الإنسـان إلى العقـل، يسـتطيع أن يُميِّز العلم مـن الخيـال. فالعقل يحكم باستحالة التناقض والتضاد، وقبح الشر والظلم، وبصحة محسوسات الجوارح، وإنه يقدر على أن يرد كل حادث إلى سـببه وكل هاجس -في النفس- إلى عِلَّته، ويقدر على تمييز كل فكرة صحيحة من الخاطئة بعد التأكد من سببها، وهو يحكم بأنه لو انكشف الواقع أمام الإنسان انكشافًا واضحًا، بحيـث لا يمكن للنفس التشـكيك فيـه، فلا يكون ذلك إلَّا علمًا صحيحًـا، وأما لو أحب المرء أن يعتقد بفكرة لمصلحة أو هوى في نفسه، فلا يمكن أن تكون تلك الفكرة إلَّا باطلة.

فمثلًا: قد تهجم على شاشة النفس تصورات متفاوتة من واقع واحد، فيرى المرء أن جـاره رجـل طيب، ثم يرى في الوقـت ذاته أنه شرير، ويرى أن القيام بـأذاه قبيح ولكنه في اللحظة ذاتها يتراءى له أنه عمل شريف وواجب.. هنا تتداخل التصورات وتتوتر النفس، ويحتار الإنسـان فيتدخل العقل ليبرز العلم الصحيح، ذلك الذي يكشـف فعلًا عن الواقع الخارجي ويميزه من الخيال، فيقول محللًا بأناة: كيف عرفت أن جاري رجل طيب؟. أبقول الناس أم بقياس أعماله، أم بطيبة أبيه؟.

فـإذا وجد أن مـا دعاه إلى تصور الجار رجلًا طيبًا كان قـول الناس -مثلًا- إذا وجد ذلـك وقف ليوجِّه إلى نفسـه سـؤالًا ثانيًا: هـل يمكن للناس أن يكذبوا وليسـت لديهم أية مصلحـة في القـول بصلاح جـاره؟. فيحكم ويقـول: كلَّا.. ثم يحاول التعرف إلى السـبب الذي دعاه إلى تصوره رجلًا خبيثًا، فيجد أن جاره طالبه بحقه الذي لا يمكنه إلَّا الاعتراف به، وهنا يعلم أن السبب في هذا التصور المُشوَّه عن جاره الطيب يكمن في مصلحته وهواه الذاتي، والعقل يحكم بأنه لا يمكن أن يكون هذا دليلًا على أنه رجل شرير.

بهذا يُفرِّق بين تصور خاطئ وتصور صحيح. والأمر لا يعدو أن يجري خلال لحظة

(١) بحار الأنوار: ج١، ص١٢٩.

واحدة إلَّا أنه ينطوي على مجموعة أحكام عقلية صائبة.

وهكـذا يُميِّـز العقل بين حـسٍّ باطل وحسٍّ صحيـح.. فحين يُصاب المـرء بالدوار ويزعـم أن الكـون يـدور مـن حوله، لا يشـك العقل في أن حِسَّـه باطل لأنه يخالف سـائر أحاسيسـه مـن جهة وأحاسـيس سـائر الناس مـن جهة ثانيـة. وحين يغمس يديـن في ماء واحـد، فتحـس إحداهما بأن الماء حار والثانية بأنه بارد، فـإن العقل لا يتردد أن يحكم فورًا بأن اليد تتأثر بحالتها السـابقة، فحيث كانت إحدى اليدين في الماء الحار -سـابقًا- شعرت بـأن هـذا الماء بـارد، وحيث كانت الأخرى -سـابقًا- في الماء البارد شـعرت بـأن هذا الماء حـار. والماء على هذا ماء فاتر، فهو بالنسـبة إلى الحار بارد، وبالنسـبة إلى البارد حار. وحين نسـمع أخبارًا متناقضة، فالعقل يحكم بأنها لا يمكن أن تكون جميعها صحيحة، بل يبحث عـما ينبغي أن يطمئن إليه، ولذلك يقوم بتحليل الدوافع التي دعت أصحابها لنقل الأخبار المتناقضـة، لأن العقل يحكم بأن وراء كل عمل دافعًا نفسـيًّا معينًـا، فإذا وجد أن دافع أحد ناقـلي الأخبـار سـليم، حكم بصحـة خبره. ومعرفـة الدافـع أيضًا تدور على محـور أحكام عقلية، فلا يمكن أن يكون دافع الرجل الصالح، الذي عُرِفَ منه الصدق والوفاء والأمانة والتضحية والشـجاعة والشـهامة و... و... إلَّا دافعًا سـليمًا. ولا يمكن أن يكون دافع من يكون الخبر ضد مصلحته واعترافًا منه على نفسه إلَّا دافعًا سليمًا و... و...

هكذا يصبح العقل أمام العلم حسبما جاء في حكمة رشيدة للإمام موسى بن جعفر عليه السلام قـال فيهـا: «.. **نُصِبَ الخَلْقُ** [نَصْبُ الخَلْـقِ] **لِطَاعَةِ الله، وَلَا نَجَاةَ إِلَّا بِالطَّاعَـةِ، وَالطَّاعَةُ بِالْعِلْمِ، وَالْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَالتَّعَلُّمُ بِالْعَقْلِ يُعْتَقَدُ، وَلَا عِلْمَ إِلَّا مِنْ عَالِمٍ رَبَّانِيٍّ، وَمَعْرِفَةُ الْعَالِمِ بِالْعَقْلِ**»[(١)].

وفي حكمـة للإمام أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «**الْعُقُولُ أَئِمَّةُ الْأَفْكَارِ، وَالْأَفْكَارُ أَئِمَّةُ الْقُلُوبِ، وَالْقُلُوبُ أَئِمَّةُ الْحَوَاسِّ، وَالْحَوَاسُّ أَئِمَّةُ الْأَعْضَاءِ**»[(٢)].

أليست الأفكار فوضى لا تقيد إلَّا بهدى العقل، وبمسبقاته الصائبة؟.

أو ليسـت القلوب -أي النفوس- لا يمكنها أن تهتـدي دون الأفكار الصائبة، وإذا كانـت الحـواس تعمل وفق إرادة الإنسـان فإن إرادة الإنسـان نابعة من نفسـه -أي قلبه- فتكون القلوب -إذًا- أئمة الحواس وهُداتها.

(١) بحار الأنوار ج١ ص ١٣٨ (من وصية الإمام موسى بن جعفر عليه السلام لهشام بن الحكم حول العقل).
(٢) بحار الأنوار: ج١، ص٩٦.

٥ العقل وتقييم الأفكار

ملاحظات أولية:

١- إن أول ما نستكشفه لدى السير في ضوء المنهج الجديد، هو أن للإنسان نورًا يستطيع به تقييم أفكاره. وهذا ما يفرقنا عن الحسيين والتجريبيين الذين رفضوا الاعتراف بوجود مسبقات ثابتة تقيِّم بها النفس أفكارها المختلفة.

٢- الأحكام العقلية لا تكون موجودة عند الإنسان منذ ولادته. قال الله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾[١]، والآية لا تعدو أن تكون تنبيهًا إلى واقع العقل والعلم، وأنهما هما النوران الكاشفان اللذان لم يكن أحد منا يملكهما حينما أُخرج من بطن أمه، ثم أصبح الآن يملكهما. فلابد -إذًا- أن يعترف أنهما من الله، لانه لو كان من نفسه إذًا لكانا لديه منذ الطفولة. وليست الآية تنفي وجود نور في النفس بصورة مجردة عن المادة المحسوسة، فهي لا تتنافى مع وجداننا هذا النور بصورة فجائية عند البلوغ. ذلك لأنه -حسب النظرة الإسلامية- إنما يوهب العقل للنفس بعد البلوغ حيث يقوم الإنسان بالحكم على الأعمال والأفكار بالصحة والفساد، وهي الحالة التي تُرافق التمذهب عند الأفراد أيضًا.. وجاء في الحديث عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «**يُولَدَ هَذَا الْمَوْلُودُ وَيَبْلُغَ حَدَّ الرِّجَالِ أَوْ حَدَّ النِّسَاءِ، فَإِذَا بَلَغَ كُشِفَ ذَلِكَ السِّتْرُ، فَيَقَعُ فِي قَلْبِ هَذَا الْإِنْسَانِ نُورٌ، فَيَفْهَمُ الْفَرِيضَةَ وَالسُّنَّةَ وَالْجَيِّدَ وَالرَّدِيءَ. أَلَا وَمَثَلُ الْعَقْلِ فِي الْقَلْبِ كَمَثَلِ السِّرَاجِ فِي وَسَطِ الْبَيْتِ**»[٢].

---

(١) سورة النحل، آية: ٧٨.

(٢) بحار الأنوار: ج١، ص٩٩.

وليسـت هـذه الأحكام العقلية حسـبما تظهر لمن تذكر بها، ليسـت بمختصة بـما يحتاج إليه الإنسـان في حياتـه العملية من نقد الأفكار المتناقضة التي تسـتقبلها أجهزة الإحسـاس وتبتدعها تصورات النفس. بل إن العقل يهدي النفس إلى كل حسـن وكل قبح وكل محال وكل ممكن ومن كل المستويات، على مستوى الأعمال الشخصية، وعلى مستوى الأعمال الاجتماعية، وعلى مستوى الكون أيضًا حيث يهدي البشر إلى الحقيقة الكبرى في الكون؛ حقيقة الخلق والتقدير، وتتجه به إلى الإيمان بالله الخالق المدبر؛ ذلك لأن هذه الحقائق كلها في صف واحد، والعقل هو العقل.

فمثلًا، حين يُبصر العقل حسن الخير وقبح الشر، فلن يُفرِّق في رؤيته هذه بين الخير الضئيل والخير الجليل، والشر القليل والشر المستطير، لأنه كله ينطوي على طبيعة الخير وطبيعة الشر. وحين يرى الإنسان بعقله أن فاعل الخير يُشكر، فلن يُفرِّق بين أن يكون فاعل الخير العبد أم المعبود.

إن واجب الشكر يشمل كلًّا منهما بذات الرؤية الواحدة والحكم الواحد.

والخلاصة: أن العقل يكشف الحقيقة. وكما أن الكبير حقيقة، فالصغير أيضًا حقيقة، تمامًا كما تبصر العين المرئيات، ولا فرق فيها بين أن تكون صغيرة أو كبيرة.

وبهذا تتبين أن النظرة الإسلامية حول العقل نابعة من إعطائه الثقة الكاملة في كشف الحقائـق الغيبية، خلافًا لتلـك النظريات التي تُحدِّد العقل بالشـؤون المادية وتنتزع منه حق الحكـم في الأمـور الغيبية، وتجعـل الدين هو الحاكم المطلق في تلـك الحقائق. ومن هنا جاء في الحديـث عـن الإمام الصادق عليه السلام: «**مَنْ كَانَ عَاقِلًا كَانَ لَهُ دِينٌ**..»[١]، وعن الإمام علي عليه السلام: «**لَا دِينَ لِمَنْ لَا عَقْلَ لَهُ**»[٢]. وخلافًا أيضًا للحسيين والتجريبيين الذين حدَّدوا العقل بحدود المادة المحسوسة؛ إذ ليست الأحكام العقلية حسب هذه الرؤية نابعة من مقتضيات التجربـة الخاصـة أو الحس المادي حتـى تختص بالعالم المحسـوس، بل إنها نابعـة من النور الـذي يجد الإنسـان كل شيء بـه، حتى أن التجربة ذاتها والحس نفسـه لن يُفيدا شـيئًا دون وجود ذلك النور حسبما يأتي تفصيل القول فيه بإذن الله.

بين العقل والسابقيات العلمية:

وللعلـم: إن السـابقيات الفكريـة التـي تملكهـا النفس البشريـة، مثل: العلم باسـتحالة

---

(١) الأصول من الكافي: ج١، ص١١.
(٢) غرر الحكم، حكمة رقم: ٥١١.

التناقض والصدفة، وقبح الظلم والشر، وإمكان الخلق والإبداع، وحسن العدل والخير.. إن هذه السابقيات ليست ذاتها العقل، بل إنها حقائق يكشفها نور العقل للنفس كما يكشف ضوء الشمس ألوان الحقول. وكان خطأ الإنسان الأكبر غفلته عن مصدر النور وتوجهه إلى الأحكام؛ زاعمًا أنها هي حقيقة النور، فراح يبحث عن مصدر يقيِّم بها تلك الأحكام. ولو كان الإنسان قد تذكر أن الذي يساعده على البحث ليس إلَّا هذا النور، وأنه لو افتقده أصبح كالمجنون والنائم حيث لا يفهمان أمرًا ولا يعلمان شيئًا، وأنه أشبه شيء بنور الإرادة ونور الحرية اللذين تملكهما النفس البشرية، وتملك بهما القدرة على الاختيار وهي بذاتها قدرة ذاتية لا تعلل..

أقول: لو فعل الإنسان ذلك إذًا لتخلص من سلسلة لا تنتهي من المشاكل العلمية التي أحاطت بنظرية المعرفة. ذلك لأنه -حينذاك- يجد أن البحث عنه -كما سلف- ضرب من الإسراف والترف الفكري. إذ ما من بحث إلَّا وهو يؤكد وجود قوة للإنسان تساعده على البحث، وهي بالتالي تنير طريقه إلى الحقيقة، وتلك القوة هي العقل، وهو نور مقدس عن الإحاطة به من لدن الذات.

من هنا كانت عملية (كانت) النقدية -التي سيأتي التفصيل عنها إن شاء الله، والتي استهدفت نقد العقل- كانت عملية موغلة في الجهل؛ إذ إن الغفلة عن نور العقل، ذلك النور الذي لم يستطع (كانت) ذاته القيام بعملية النقد دون وجوده لديه، إن الغفلة عنه فقط كانت السبب في التوجه إلى السابقيات الذهنية، كتصور الزمان والمكان والعلة و... و... لينقدها وينتهي بالتالي إلى نظرية النسبية ومنطقه الوضعي. ولو أن (كانت) كان يتذكر وجود نور يجعله يُقيِّم الأشياء ويعتمد على تقييمه هذا، وأن ذلك النور هو الذي يكشف له عن الزمان والمكان والعلة والسبب، إذًا لنقد الأشياء به، ولم يزعم أنه استطاع نقده هو، غافلًا عن أن العقل لا يمكن الإحاطة به فكيف يُتاح له نقده، وبأي شيء ينقد الإنسان عقله؟ أبعقله أم بجهله؟ والعقل لا يشكك في ذاته والجهل لا يمكنه نقد العقل.

ومن هنا أيضًا، أصاب (ديكارت) دوار عنيف في مسيرته عبر العقول إذ إنه شكك نفسه في معلوماته النظرية. وحين زعم أنه تخلَّص منها، قام ليبني صرح العلم على قواعد جديدة فلم يَرَ تحت رجليه حجرًا ثابتًا، وجرَّ إليه انتقادات كبيرة من لدن معارضيه من الحسيين. ورغم أن (ديكارت) عقلي التفكير فإنه أيضًا مخطئ في منهجه، وينشأ خطؤه من أمرين:

الأول: تشكيكه في أن تكون سابقياته الفطرية[١] ناشئة من النفس أو من قوة شيطانية

---

(١) لاحظ: بول فولكييه، الفلسفة العامة، من ص٢٠٣. و: فروغي، سير حكمت در أوربا، ج١، من ص ١٥١.

داخلها. ولم يعلم أن تشـكيكه إنما هو في التصورات الغامضة التي لم تتنور بعلم الإنسـان. أمـا الحقائـق الواضحة التي أحاط بها علم البشر فلم يمكن التشـكيك فيها أبدًا. ولهذا عاد (ديـكارت) نفسـه فاعترف بالنفس، وعلل اعترافه بأنه يجدهـا ظاهرة مميزة أمامه بحيث لا يمكنه إلَّا الاعتراف بها.

الثاني: غفلته عن حقيقة النور الذي كان معه في لحظة تشكيكه في العقل، وإلَّا فكيف استطاع أن يبلغ بالتشكيك مرحلة متقدمة منه بترتيب النتائج على الأسباب. كيف استطاع أن يقـول: يمكـن أن يكـون هناك شـيطان مضلل للفكر؟.. مع أن علمه باسـتلزام سـبب للأفـكار الخاطئـة إنما هو ناشـئ من حكم عقلي مسبق وهو: (لابدية السـبب لكل شيء)، وأن علمـه بأن الشـيطان يقوم بالإضلال، يقوم على أسـاس وجود ضلالـة وهداية، وقبح الضلالـة وحسـن الهداية. وكل هذه الأحـكام عقلية. وكان مَثَل (ديـكارت) في ذلك مَثَل الذي يُشـكِّك في وجود الشـمس ثم يرينا الحقول والواحات المضاءة بالشمس ويقول: لو كانت الشـمس موجـودة لما كانت لها ظلال وارفة. إن مجرد رؤيـة الحقول والواحات دليل على وجود الشـمس، وإن الظلال الوارفة ذاتها لهي دليل على وجودها. فكيف يسـتدل بهما على عدم وجود الشمس؟! وهكذا القدرة على التشكيك نوع من إثبات نور العقل.

والواقع: أن (ديكارت) لم يحاول التشـكيك في عقله، إنما شـكَّك في ركام الجهل الذي تجمَّـع فـوق النفس البشرية وزعـم الإنسـان أنه علم وعقل. لذلك فـإن تصوره للعقل يختلف عـن العقل الذي أرشـد إليـه الدين، فإنه زعـم أن العقل إنما هو كل مـا في النفس البشرية من تصورات، أما الإسلام فيرى أن التصورات ليست إلَّا معقولات يكتشفها نور العقل وينقدها.

فمرة أخرى رأينا كيف اضطربت وتناقضت مقاييس البشر حين زعمت أن المسبقات ذاتها العقل، في حين أن العقل هو: ما يُنوِّر للنفس تلك المسبقات العلمية.

خصائص الأحكام العقلية:

وحين نتذكر العقل ونكتشف أن حقيقته نور مقدس عن إحاطة الأذهان، وأنه الذي يكشـف لنا الحقائق الأخرى بصـورة ذاتية وغير ممكنة التعليل؛ حينـذاك نجد أن الأحكام العقلية تتميز:

١ - بأنها ثابتة جازمة لا تقبل الريب؛ إذ إن ذاتها الكشـف، والكشـف يعني ملامسة

الواقع وشهوده. فكيف يجد الإنسان الواقع ثم يشكك فيه؟. ومن هنا فإن الحكم بقبح الظلم وحسن التضحية وجمال الآداب ليست أحكامًا تقبل الريب، والذي يرتاب فيها يحاول الفرار منها بتغيير موضوعاتها بحيث تصبح الأحكام ليست هي التي تغيرت بل موضوعاتها فقط تبدلت، فمثلًا: الذي يقول: إن الظلم حسن؛ يُغيِّر معنى الظلم حتى يجعله يساوي معنى العدل، ثم يقول بأنه حسن.

٢- وأن أحكام العقل شاملة لا تُخصَّص، فإذا كانت الرذيلة قبيحة فليس هناك فرق بين أن تكون صادرة من كبير أو صغير، وفي أي عصر وأي زمان. وإذا كانت الحادثة بحاجة إلى علة مُحدِثة وسبب مُوجِد، فلا فرق بين أن تكون الحادثة رمي كرة القدم أم وجود كرة الأرض. وإذا كانت الصدفة محالة في وجود ساعة يد، فإنها محالة أيضًا في صنع مخ الإنسان. وإذا كانت معادلة: ٥ × ٥ = ٢٥ صحيحة، فلا فرق أن تكون في أي وقت وأي مكان.

٣- وأن أحكام العقل تتفق عليها عقول البشر؛ فالعقل هو العقل في أي رأس عاش وفي أي مخ سكن. وما هي فضيلة أو رذيلة هنا فهي في كل مكان ولدى كل إنسان فضيلة أو رذيلة، ولذلك كانت الحجة بين العباد العقل -حسبما جاء في الحديث[1]- فلنذهب أنَّى شئنا فلن نجد الفضيلة في الخيانة والنفاق وبيع الأوطان وإيثار النفس على الآخرين. ولن نجد معاني التضحية والفداء والشجاعة والإباء من معاني الرذيلة. ومن هنا، فإن الأمم تتبارى بهذه القيم، وتجعل منها مقياسًا يحتجُّون به وينتهون إليه، وترتكز أجهزة إعلامهم على الادِّعاء بأنهم يُمثِّلون الفضيلة والعدل وأن أعداءهم يُمثِّلون الزيف والباطل. وهكذا أصبح العقل حجةً بين الأفراد ومقياسًا لكل أحكامهم، فلا يمكن -مثلًا- أن نتصور رجلًا عاقلًا في الأرض يحكم عقله بإمكان الصدفة أو صحة التناقض (تواجد الوجود والعدم في لحظة) والتشكيك في وجود الذات و... و...

٤- وأن أحكام العقل لا تتطور حسب تطور الأوضاع الاقتصادية أو الاجتماعية أو الفسيولوجية وما أشبه؛ لأنها تكشف عن الحقائق الخارجية. تمامًا كما لا تتغير المرآة وهي تعكس صور الحياة الناشطة الحركات.. وهنا تختلف الرؤية الإسلامية في المعرفة عن النظريات الذاتية والديالكتيكية التي سنتناولها بالبحث؛ بإذن الله. ذلك أن تلك النظريات

---

(١) جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «حُجَّةُ الله عَلَى الْعِبَادِ النَّبِيُّ، وَالحُجَّةُ فِيمَا بَيْنَ الْعِبَادِ وَبَيْنَ الله الْعَقْلُ» الكافي ج١ ص٢٥.

حسبت العقل وليد للمادة المتطورة نفسها، فادَّعت أنه يتطور أيضًا. ولم تستطع تلك الفلسفات اكتشاف حقيقة العقل التي لا تعدو أن تكون طاقة من نور زُوِّدت بها النفس للكشف عن الحقائق بصورة مباشرة. ولذلك فإن حكمه مشهود متيقن ثابت، وأن أي حكم يتغير أو يُتصوَّر فيه التغيير لهو ليس بحكم العقل. ومن هنا لا يمكن القول: بأن ٢ × ٢ = ٤ إنما هو صحيح اليوم ويمكن أن يتطور غدًا حسب تطوُّر الأوضاع السياسية فيصبح ٢ × ٢ = ٥؛ إذ هذا القول مضحك بذاته لدى كل نفس عاقلة. وأيضًا كان الزعم بأن القول (إن الحادث بحاجة إلى سبب) صحيح اليوم أما غدًا فحيث يحكم البلاد نظم جديدة في الاقتصاد، فإن الحادث يمكن أن يحدث بلا سبب، كان هذا الزعم قولًا مرفوضًا بذاته، وهكذا.

إن هذه الميزات الأربع تُبعد عن مجال حكم العقل ركام التصورات التي حسبها الجاهلون عقلًا، فخلطوا بها أحكام العقل الصحيحة، ووقعوا في فوضى لا نهاية لها.

خلاصة القول:

١- أن للعقل أحكامًا سابقة -لم تجرب- تكون مقياسًا للإنسان في معرفة الفكر الصحيح.

٢- وبالرغم من أن هذه الأحكام لم تُولد مع الإنسان فإنها ليست -أيضًا- وليدة تطور ذاتي له، أو مؤثرات مادية فيه، بل إنما هي موهوبة له في فترة البلوغ.

٣- وأن الأحكام ليست العقل ذاته، بل العقل هو الذي يكتشف تلك الأحكام للذات، وقد نتج من الجهل بهذه الحقيقة أن أخذ (كانت) و(ديكارت) وكثيرون آخرون؛ أخذوا ينقدون الأفكار النفسية ظنًّا منهم أنهم ينقدون العقل، وقد كانوا محتاجين إلى نور العقل في كل خطوة خطوة من نقدهم هذا. ولذا فإن نقدهم لتلك الأفكار، كان اعترافًا منهم بصحة العقل.

٤- أن للأحكام العقلية أربع ميزات؛ إنها جازمة لا ريب فيها، وشاملة لا تقييد فيها، وواحدة عند كل عاقل، وثابتة لا تطور فيها.

وسنرى بإذن الله، كيف تُكوِّن هذه الخصائص بعض القيم التي تستند إليها النفس في نقد أفكارها.

⟨٥⟩ العقل ومصادر الفكرة

بعد أن يجد الإنسـان موقع قدم ثابت يسـتقيم عليه، وهو تذكرة العقل، يشرع في بناء صرح معرفته على أسـس رصينة متماسـكة متوازنة، وأول ما يقوم به الفرد اعتمادًا على عقله في هـذا المجـال هو عملية جرد الأفكار، وهي تنطلق من القاعـدة التالية: إذا كانت الحادثة بحاجة إلى المصدر، فكل فكرة حادثة بحاجة هي الأخرى إلى المصدر، فما هو مصدر الفكرة الحادثة؟.

وبكشف ذاتي للأفكار، يصنف العقل مصدرها في ثلاثة أنواع:

١- العقل ذاته، أو بتعبير أدق: الأحكام العقلية والمسبقات الفكرية.

٢- النفس وما تنطوي عليه من هوى وجهل.

٣- الحس بألوانه المختلفة.

وفيـما يلي نقوم بالبحث عـن كل واحد من هذه الأنواع وكيفيـة نقد العقل لها، لكي نتعرف على العلاقة الوثيقة بين العقل والعلم.

يمكـن للإنسـان تجنب الخطـأ إذا التفت إلى عقلـه وميَّزه ممَّا قد يلصـق به من الجهل والضلالة.

ألف: الفكرة وعقل الإنسان:

في البدء لابد أن نُثبِّت ملاحظة عن معنى الفكرة، وأنها تعني هاجسة النفس، وهي لا تعدو أن تكون استعادة لمحفوظات أو معلومات سابقة. وبالتالي فهي من عمل النفس ونحن إنما نريد هذا المفهوم حينما نعبر هنا بالفكرة، لكي نستطيع أن نُميِّزها من حكم العقل.

إن حكم العقل يعني كشـف الذات للواقع الخارجي كشـفًا واضحًا شـاملًا وثابتًا. والفكـرة لا يجـب أن تكون دائمًا واضحةً شـاملةً ثابتةً، بل قد تكـون كذلك وقد لا تكون؛ والسبب في ذلك أن الفكرة من عمل النفس، وتكون خاضعة لإرادة الإنسان، فهي بحاجة إلى (الانضباط المنهجي) حتى تكون صحيحة صائبة، وإلَّا تأثرت بالمؤثرات المادية كما تتأثر إرادة الإنسـان بهـا. وبتعبير آخر: بما أن الفكرة عمل مـن أعمال النفس البشرية، وبما أن كل عمل بحاجة إلى الإرادة، فإن الفكرة خاضعة لإرادة الإنسان، وأيّ ميوعة في إرادة الإنسان تعني عدم توجيه الفكرة وبالتالي عدم صحتها.

والسؤال: كيف تصدر الفكرة عن العقل؟.

الجواب: إن النفس قد تستغل الأحكام العقلية في استخراج أحكام أخرى، فإذا كان هذا الاسـتغلال موضوعيًّا، كانت تلك الأفكار المستخرجة مثل حكم العقل تمامًا واضحة شـاملة ثابتة، وإلَّا تعرضت للخطأ.. فمثلًا: قد نسـتخرج الفكـرة التالية من حكم العقل: (الشيء لا يمكن أن يخلق ذاته)، ونسـتطيع أن نُدلِّل عليها باسـتحالة التناقض، إذ يجب أن يكـون الـشيء موجودًا قبل وجوده، وهـذا يعني أن يكون موجودًا وغـير موجود في لحظة واحـدة. وبتعبـير آخـر: كيف يمكن أن يخلـق العدم شـيئًا، مع أن الخلق عمـل والعمل لا يصدر إلَّا من شيء موجود؟. فإذًا: الشيء لا يمكن أن يخلق ذاته.

ففـي مثل هذا النوع من الأفكار، لا تكون عملية التفكير إلَّا اسـتجلاءً للمعلومات السـابقة، واسـتيضاحًا للأحـكام العقليـة الموجـودة. وحسـب تعبير بعـض المفكرين: إن التفكـير المعتمد على المعلومات العقلية السـابقة إن هو إلَّا فـضّ الفكر ذاته.. ولهذا جاء في الحديـث المروي عن الإمام الصادق عليه السلام: «**كَثْرَةُ النَّظَرِ فِي الْعِلْمِ يَفْتَحُ الْعَقْلَ**»[1]. فالعقل -إذًا- موجـود ولكنـه منغلق ويحتاج إلى عملية الفـضّ. وعملية فض العقل، وفتح نوافذه على العالم، على نوعين:

١- قـد يكون الإنسـان غافلا تمامًا عن نور عقلـه متوجِّهًا إلى معلوماتـه، باحثًا فيها عـن الحقيقة دون الرجوع إلى عقله والاسـتضاءة به، ويكون مثله كمن يغفل عن الشـمس وينشـغل بالموجودات المضاءة بها. وهنا يحتاج الإنسـان إلى مـن يُنبِّهه إلى ضلالته عن النور الذي يملكه هو لاكتشاف الحقيقة، ويقوم فعلًا باكتشاف بعض الحقائق به.

(١) بحار الأنوار: ج١، ص ١٥٩.

ولقد ابتعث الله الأنبياء عليهم السلام لكي يُذكِّروا البشر بما يملكه من نور العقل، وأن يقولوا للإنسان: ارجع إلى نفسك وعُدْ إلى عقلك لتجد فيه الحل السريع لكل مشاكلك. إذ إن الإنسان لا يمكنه تذكّر عقله مع أنه أقرب الحقائق إلى نفسه، لا يمكنه ذلك وهو يسترسل في طريق الهبوط مع طبيعته الجاهلة الضالة ويزعم أن المعلومات المضاءة بنور العلم والعقل هي حقيقتهما!.

إن هذا الإنسان لا يُمكنه أن يتنبه إلى عقله إلَّا بهادٍ مُؤيَّد بالغيب يهز فيه الفكر، ويُوقظ بداخله العقل. وهذا أولى وأسمى آيات رسالة كل رسول، والتي يلخصها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بالقول: «**فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ، وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ، لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ.. وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ**»[1]. وهكذا ينعت القرآن -وهو جملة رسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم- ينعت القرآن نفسه بأنه تذكرة فيقول: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾[2]. ويجعل غاية التذكرة عودة الإنسان إلى عقله فيقول: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾[3]، ويجعل آياته نورًا، لأنه يهدي الإنسان إلى العقل الذي يكشف له الحقائق الكبيرة في العالم، ويجعله مقياسًا ثابتًا ومبينًا لأنه يضع للإنسان منهجًا فريدًا للمعرفة ويجعله هاديًا إلى سبل السلام، وناقلًا للإنسان من ظلمات الجهل حيث يغفل الإنسان عن عقله ويتيه في الضلالات، فيقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[4]. وهذا النوع من التذكرة وظيفة الهداة إلى الله الذين لا يريدون فرض عقيدة على الإنسان، بل إنما يريدون توجيهه إلى الحقيقة ليراها بعقله، ولن يمكنهم ذلك دون إعادة إيمانه بعقله، واسترداد ثقته بتفكيره.

٢- وقد تكون النفس واعية لما تملكه من نور العقل، ولكنها تتردد في بعض الموارد بسبب تشابه الموضوع على العقل، فمثلًا: لا ريب لدى النفس في أن الظلم منكر عظيم،

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة رقم: ١.
(٢) سورة طه، آية: ١ - ٣.
(٣) سورة الأنبياء، آية: ١٠.
(٤) سورة المائدة، آية: ١٥ - ١٦.

ولكنه قد يشك في أن سلب النملة رزقها ظلم ليكون منكرًا، أم ليس بظلم فليس بمنكر.. وهذا بدوره على نوعين:

ألف: إذ قد ينشأ هذا الريب من جهل البشر بطبيعة النملة ومدى ضرورة وجودها لحياة الإنسان. فلابد -لكشف ذلك- من التفكير المنهجي، والتذرع بالوسائل العلمية. وهنا يحكم العقل عليه بأن يتثبت ولا يعجل في الحكم، ذلك أن العجلة من الجهل، فالتسرع يجر إلى مجموعة كبيرة من الأخطاء. وقد جاء في النصوص القرآنية توجيه بالغ الوضوح إلى التثبت، فقال الله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[1]. وبحكم العقل بضرورة التثبت الكامل قبل الحكم على أي شيء يحرز العاقل العلم الصحيح ولا يتورط في أخطاء التسرع، ولقد جاء في الحديث عن الإمام علي عليه السلام: «**التَّثَبُّتُ رَأْسُ الْعَقْلِ**..»[2].

باء: والقسم الثاني من تردد النفس في الأحكام العقلية، ينشأ من تناقض الحكم العقلي مع المصالح الآنية للإنسان. ولذلك يبدو الحكم الواضح غامضًا بينما هو في الواقع ليس بغامض، إنما يريد الإنسان أن يتصوره كذلك ليتخلص من مسؤولية الاعتراف به. فالرجل القوي الذي يعيش على حساب المستضعفين يحاول تبرير ظلمه بما يبعده عن توجيه نور العقل.

إن هذا النوع من التردد هو الذي يقضي على طائفة ضخمة من الأحكام الصائبة عند النفس البشرية. وعلى الإنسان أن يناضل مع ذاته أبدًا ليبعده عن التأثر بالأهواء والشهوات، وقد جاء في الحديث: «**زَوَالُ الْعَقْلِ بَيْنَ دَوَاعِي الشَّهْوَةِ وَالْغَضَبِ**»[3]. و «**ذَهَابُ الْعَقْلِ بَيْنَ الْهَوَى وَالشَّهْوَةِ**»[4].

وسيتضح لدينا قريبًا دور هوى النفس وشهواتها في طمس نور العقل، والذي قد يقضي على العقل كله، ويدع النفس في ظلمات ما فوقها ظلمات.

ومن كل ما سبق نكتشف الجواب الصحيح عن نوعية نقد العقل للأفكار الصادرة عن المسبقات العقلية، وكيف تتمكن الذات من الثقة بنوع منها بعد أن تكتشف زيف النوع الآخر.

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٣٦.

(٢) بحار الأنوار: ج١، ص١٦٠.

(٣) مستدرك الوسائل: ج١١، ص٢١١.

(٤) مستدرك الوسائل: ج١١، ص٢١١.

باء: دور الهوى في تضليل الإنسان:

والمصدر الثاني للفكرة هو ما بالنفس من الجهل والغفلة والركون إلى الشهوات. وينبغي لنا أن نقدم عدة ملاحظات أولية لكي نعرف بوضوح تام كيف ينقد العقل الفكرة الصادرة عن المصدر الثاني (النفس).

١- بين العلم والحب:

إن المعرفة هي النور الكاشف للحقيقة. ومعنى ذلك أنها لا تتأثر بالواقع المادي، ولا تتطور حسب تطوره. ولقد قلنا آنفًا: إن الأحكام العقلية جازمة شاملة ثابتة وواحدة عند كل العقلاء، وهي -بهذه الصفات- بعيدة عن التأثر بالواقع المادي. ولهذا تُمثِّل المعرفة جانب القوة في النفس؛ أي جانب الكشف والاستجلاء، لا جانب الضعف الذي يتلخص في التأثر والتطور والاستسلام لمقتضيات الظروف. فالمعرفة تعطي الإنسان قوة كبيرة لإخضاع الظروف المحيطة به، وإنما قام الإنسان بإنجازاته الباهرة بعلمه.

والإنسان يشعر -عندما يكشف الحقيقة- أنه أوتي قوة كبيرة.. وجاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «**خَلَقَ اللهُ الْعَقْلَ مِنْ أَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ: مِنَ الْعِلْمِ، وَالْقُدْرَةِ، وَالنُّورِ، وَالْمَشِيَّةِ بِالْأَمْرِ**...»[1]، وبالمقابل فإن للنفس البشرية جانبًا آخر هو جانب التأثر والانفعال، جانب الضعف والسلبية. إنه جانب الهوى والشهوات، جانب الحب والرغبات. لأن هذا الجانب هو الذي يدع الإنسان يخضع للظروف ويتطور حسبها. ذلك لأنه متى ما أحب الإنسان شيئًا تأثر به بقدر حبه له، ووجب عليه أن يُعطي من ذاته تنازلًا له.

إذن، فطبيعة الحب تختلف عن المعرفة، لأنهما يمثلان جانبين مختلفين في النفس. صحيح أن الإنسان لا يقدر على تمييز ذلك في كل وقت، وصحيح أن ذلك بحاجة إلى أنواع من التجرد الموضوعي والنقد الذاتي، كما أنه بحاجة إلى التفكر المنهج. إلَّا أنه لدى ممارسة التمييز فترة طويلة يسهل ذلك على النفس حتى يبدو العلم والحب بعيدين عن أحدهما، مميزين عن بعضهما. وفي الأمثال التالية، بعض الفوارق العملية التي تعتبر نوعًا من التجربة الذاتية في حقل التمييز بين الحب والعقل:

---

(١) بحار الأنوار: ج١، ص٩٨.

ألف: تفترق المعرفة عن الحب في أننا نحب كثيرًا من الأشياء ونعلم أنها غير موجودة فعلًا؛ إننا نحب الخلود حتى أنه قد يطغى علينا هذا الحب فينسينا العلم بالموت، ونعمل كما أننا نعلم بالخلود. وإننا نحب السيطرة ونعمـل في كثير من الحالات مدفوعين بهذا الحب، بل زاعمين أننا نملك السيطرة فعلًا، ولكن العلم الحقيقي يكشف لنا خلاف هذا الواقع.

باء: وتفترق المعرفة عن الحب أيضًا حينما نحب أن تكون كل معارفنا صحيحة وكل عقائدنا موافقة للحق. بيد أنَّا نُواجه -في كثير من الأوقات- حقائق تُكرهنا على إعاة النظر في معارفنا وعقائدنا والاعتراف بخطأها كليًا أو جزئيًا.

جيـم: وتفترق مـرة ثالثة المعرفة عن الحب، عندما نحـب أن تكون كل أمم الأرض تخدم مصالحنا الخاصة. في حين نعلم أن طائفة كبيرة منها تخالفها تمامًا!..

إن هـذه الأمثلـة تُوضِّـح الفارق الكبـير بين الحب والمعرفـة، إلَّا أنه رغـم وجود هذا الفـارق يواجـه الفرد غموضًـا بالغًا في التمييز بينهـما. فمثلًا: حين يحب الإنسـان ذاته يخادع نفسه عن نقائصها، ويحاول إيجاد تبريرات لأخطائها ويريد أن يُوقع مسؤولية ما تصدر عنها على الآخرين. وحين يُحب المرء أبناءه، يغمض عينًا عن كل ما فيهم من سيئات حتى يصبحوا مجموعة حسـنات في عينيه!.. وهكذا حينما يحب الإنسـان مبدأ، يركز نظره إلى محاسـنه حتى يحذف دور عقله كليًّا في نقد المبدأ أو حتى في تطويره وينقلب إلى إنسان ممسوخ. ونعرف من ذلك كله: أن الإنسـان يستطيع أن يُميِّز الفكرة النابعة من كشف الواقع، والفكرة النابعة من حب النفس وهواها. لأن الأولى تمثل جانب القوة، والثانية جانب الضعف في الإنسان.

٢- بين العقل والإرادة:

إن العقـل بمثابـة مصبـاح منير تملكـه النفس البشريـة وتنصرف فيه لرؤيـة الحقائق وكشـفها؛ متـى ما تريـد وكيف مـا تريد. فإذا لم يـرد الإنسـان رؤية جمال العدل، وحسـن الآداب، واسـتحالة التناقـض، يمكنـه ألَّا يعرف ذلـك فعلًا، بألَّا يسـتعمل المصباح الذي أوتيه أو يدسُّه تحت التراب.

وهـذه حقيقة قد تخفى علينا، إلَّا أن من المؤكَّد -عمليًّا- أننا لسـنا في كل لحظة نعلم جميع أحكام العقل، وأننا في أي لحظة نريد التعرف عليها فهي لا تَعْصَى علينا. وهذه حجة كافيـة عـلى أن العقل يدخل ضمن حريـة الفرد واختياره فيسـتخدمه حينًـا لمعرفة الحقائق

ويدعه عاطلًا حينًا آخر.

ألست ترى أنك قادر في كل لحظة وفي كل مكان أن تفكر فيما حولك من الأشياء والأشخاص بصورة منهجية، وتستعمل في تفكيرك مقاييسك العقلية الثابتة؟ كما أن بإمكانك أن تتوجه إلى أمور أخرى ولا تفكر منهجيًّا وعقلانيًّا في أي شيء.

نعم، إن هناك لحظات لا يمكننا إلَّا أن نعرف أحكام العقل، كتلك اللحظات التي نقع فيها تحت تأثير موجِّه روحي قوي، أو نشاهد تجربة عملية حادة، إلَّا أننا سرعان ما نعود إلى حالتنا السابقة حيث يخضع العقل لتصرفنا وإرادتنا من جديد.

٣- الإرادة تقرر المصير:

إن إرادة الإنسان قد تتَّجه -بمحض حريته- نحو الخير والحق والخُلُق الرفيع، وقد تتجه نحو الذات والمصلحة والسجايا السيئة.

ومن هنا تأتي حرية الإنسان التامة في اختيار طريقه في الحياة. قال الله سبحانه: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[1]. والله سبحانه لم يشأ أن يفرض على البشر اتجّاهًا خاصًّا إكرامًا وتفضيلًا له، بل أتاح له كل الفرص لكي يختار بذاته ما يشاء.

وجاء في الحديث في سياق قصة آدم وحواء عليهما السلام حين اختارت الأخيرة الأكل من الشجرة المنهية عنها، فأرادت الملائكة عليهم السلام أن تمنعها عنها بحرابها، فأوحى الله تعالى إليهم: «**أَنَّمَا تَدْفَعُونَ بِحِرَابِكُمْ مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ يَزْجُرُهُ. فَأَمَّا مَنْ جَعَلْتُهُ مُمَكَّنًا مُمَيِّزًا مُخْتَارًا فَكِلُوهُ إِلَى عَقْلِهِ الَّذِي جَعَلْتُهُ حُجَّةً عَلَيْهِ، فَإِنْ أَطَاعَ اسْتَحَقَّ ثَوَابِي، وَإِنْ عَصَى وَخَالَفَ أَمْرِي اسْتَحَقَّ عِقَابِي وَجَزَائِي فَتَرَكُوهَا..**»[2].

٤- النفس البشرية والقدرة على التمويه:

وللنفس البشرية مقدرة تمويهية كبيرة، تقوم بتهدئة النفس وتسكينها حين تهجم عليها المصائب. إن هذه القوة تحاول التخفيف عن النفس بما يُدعى في علم النفس بـ(أحلام اليقظة) فتسليها بآمال مستحيلة وأماني غير ممكنة الوقوع!. وحين يحب الإنسان شيئًا حُبًّا

---

(١) سورة الإنسان، آية: ٣.

(٢) مستدرك الوسائل: ج١١، ص ٢٠٥.

جمًّا تحاول هذه الطاقة تبرير كل الوسـائل المؤدية إليه، حتى تخترع النفس معلومات ليسـت واقعية، أو تفسير المعلومات التي لا تلائم بلوغ ما أحب بما يلائمها، وهكذا.

ويدعى هذا العمل في منطق القرآن بـ(التسـول)[١]، وليس منا من لم تراوده حالات التسـول أو أحـلام اليقظة بين فترة وأخرى. فما يحب الإنسـان شـيئًا إلَّا وتقـوم هذه القوة بنسج أساطير غير صحيحة لتبرير ما يحب. ولكن لا يعني كل هذا أن إشعاع العقل ينحسر عـن مجال الـذات في هذه الحالات، بل إنما النفس لا تسـتخدم هذا الإشـعاع عندها، إذ إن بقدرة النفس توجيه نور العقل بعيدًا عن الذات حتى لا يكشف الخبايا البعيدة فيها ويقضي على الأساطير المبتدعة.

بعد هذه الملاحظات نعرف أن الحب قد يكون مصدرًا للفكرة بفعل ما سميناه بعملية التسول، إلَّا أن الإنسان لا يضطر إلى الإنسياق مع هواه بل هو حر في اختيار طريقه. وهذه الحريـة تحكم جميـع قوى الإنسـان والتي منها قوة الكشـف عن الواقـع (أي: العقل) التي تتـصرف النفس فيها متى شـاءت وقد تتغافل عنها نهائيًّا، وبقدرة هذا النور يمكن كشـف مصدر الفكرة هل هو العلم أم الحب؟.

٥- العقل يفضح الشهوات:

بعـد هذه الملاحظات التمهيدية التي سرعان ما يجد كل منا مثالًا حيًّا منها في حالاته الخاصة، نستطيع أن نضع أيدينا على رأس الخيط لعملية نقد الأفكار الذاتية، والتي تتلخص في توجيه ثلاثة أسئلة إلى النفس في محاولة لجرد الحقائق فيها عن الأهواء:

١- هـل أحـب الاعتقـاد بهـذه الفكرة؟ فلـو لم تكن هـذه الفكرة راسـخة لدي منذ الطفولة، أو لم تكن تخدم مصلحة لي.. فهل كنت أعتقد بها؟.

٢- مـا هي الأسـباب التي حملتني عـلى الاعتقاد بهذه الفكرة، وهـل لو كانت هناك فكرة مشابهة لها في تلك الأسباب كنت أيضًا أعتقد بها؟.

٣- هـل أن الناس كلهم يـرون مثل ما أرى؟ دعني أجعل نفسي مكانهم وأتصور ما إذا كانوا فعلًا يعتقدون بما اعتقدت به وهم يعيشون في ظروف مختلفة.

---

(١) جاءت الكلمة في : سورة يوسف، آية: ١٨ و ٨٣، وسورة طه، آية: ٩٦، وسورة محمد، آية: ٢٥.

وفي المثـال التالي تتضح كيفية توجيه الأسـئلة الثلاثة إلى النفس وكيفية اسـتخلاص النتائج الصحيحة منها:

رجـل يعتقـد بالثالـوث المقـدس -الأب والابن وروح القـدس- آلهة جميعًـا، يتنبه في لحظة حاسمة، فيوجِّه السؤال الأول إلى ذاته: إنني الآن أعتقد بتعدد الآلهة. حسنًا. هل أحب الاعتقـاد بها؟. لافـترض أني كنت في حضن أبوين ملحدين ولم أعتقد منذ الطفولة بالثالوث، فهـل كنـت فعلًا أعتقد بها؟. ولأقـارن: هل أعتقد أنا بجمال باريـس إذا توفرت عندي الأدلة ذاتهـا المتوفـرة في الثالوث المقدس ما دمـت لم أُلقَّن منذ الصغر بأنها مدينـة جميلة؟. كلَّا.. أفلا يكـون هـذا دليلًا عـلى أن الحب -حب الأفكار السـابقة مثـلًا- وخدمة المصلحـة الذاتية هما السـببان الواقعيـان للاعتقاد بالثالوث المقدس؟ أفلا أسـتطيع أن أتصور نفسي مصداقًا لقول نبي الإسلام ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، حَتَّى يَكُونَ أَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ**..»(١).

ثم يسأل نفسه ثانية: بأية حجة نرى عيسى إلهًا؟. أفلا يمكن أن يكون البشر رسولًا من الإله الواحد، فلا يكون إلهًا ولا ابن إله؟.

ولنفترض: أن المصدر لهذا الاعتقاد كان إيمانه بالكتاب المقدس وأنه قد كتب فيه أن عيسـى ابن الله.. فيوجه السؤال ويقول: هل إنني أعتقد بكل ما في الكتاب المقدس أم أنني أقوم بتأويل وتفسير طائفة مما فيه، وهو ما يخالف عقلي أو مصلحتي، فلماذا لا أقوم بتأويل هذا النص؟.

وأخـيرًا يتسـاءل ويقول: لأتصور نفسي مكان رجل محايـد، هل كنت فعلًا أرى كل أقوال الكنيسة علمًا يقينًا؟.

وباسـتقامة هذا المنهج، نكتشف انحرافات المناهج البشرية التي أبعدت عن حسابها نور العقل المبين، فمادت من تحت أرجلها كل القواعد الفكرية وتزلزلت صروحها زلزالًا.

إن هـذه المناهج لم تشـأ أن تعـترف بالعقل، زاعمة أن العقل لا يعـدو أن يكون -كما سـبق القول فيه- مجموعة أحكام سـابقية، وليسـت قبسًـا من نور قادر على كشف الحقائق جميعًا. ولم تشـأ أن تعـترف بهذا النور، فزعمت أن النفس هي التـي تفكر وتتصور. وبما أن أنصار هذه المذاهب يعترفون بأن النفس البشرية تتأثر بالشهوات وتتطور حسب الحالات،

(١) بحار الأنوار: ج٣، ص٢٨١.

فإنهم يقولون: المعرفة أيضًا تتأثر بالشـهوات وتتطور حسـب الحالات، فكانت النتيجة أن زعموا أن المعارف تتغير وتتطور كما الشهوات بالضبط.

وانقسمت هذه المناهج على نفسها قسمين: فطائفة آمنت بأن المعارف -حينذاك- لا تعكـس الحقائـق الموضوعية إلَّا بصورة نسـبية، وقالت: ما دامت النفـس هي التي تعرف، وأن المعرفـة بنتهـا الذاتية؛ وما دامت هي في حالة متغـيرة، فإن المعرفة تتغير. وبما أن الواقع الخارجي لا يُماشي هذا التغير، فإن المعرفة لا تعكس سوى بعض الواقع فقط.

وفريـق قالوا: ما دام الإنسـان لا يـدرك كل الواقع، فما الـذي يحملنا على الاعتراف بـكل الواقـع. بـل نعكس ونقـول: إن مـا لا يدرك فهـو غير موجـود. ولقد انطـوت هذه الفلسـفات التي سنقوم بشرحها، إن شـاء الله، انطوت على ضلالة بعيدة نشأت عن الغفلة عن نور العقل الذي يفضح النفس ويكشـف تأثراتها. ولذلك فهي لا تسـتطيع أن تحجب عن الإنسان، الحقيقة بسبب تأثراتها.

ومن هنا نعرف أن النظريات النسـبية الذاتية، والنسـبية الفردية، والنسـبية التطورية، كلها نشأت من انحرافات كبيرة في المنهج ابتدأت من التركيز على جانب الانفعال في النفس؛ جانـب الضعف والسـلبية والتأثـر، غافلةً عـن جانب الفعل فيهـا؛ جانب القـوة والإيجابية والكشـف. ولقد اسـتبعد هؤلاء عن حسـابهم، منذ البدء، قدرة العقل على كشـف التأثرات الداخلية. وهذا هو الضلال البعيد الذي قاد (فرويد) أيضًا إلى صياغة نظريته عن اللاشعور حيث استبعد قدرة الإنسان على كشف ما في (لا شعوره) وجعله دائمًا يخضع لتأثرات ظروفه دون أن يعترف للعقل بقدرة الكشف عن تلك القدرة التي تفضح للإنسان هذه التأثرات.

وهـذا الاختـلاف في المنهج بين الإسـلام والنظريات الحديثة حـول العلم، يتبين في المثل التالي (علمًا بأنه مجرد مثل):

لنتصور أن رجلًا ماركسـيًّا نقابيًّا، اقتضت ظروفه المعاشـية المتردية وانتماؤه الطبقي كعامـل صغير؛ اقتضـت انضمامه في الثورة ضـد البرجوازية. هنا -وعـلى رأي كل المناهج البشرية- ينظر إلى الحقائق من الزاوية الخاصة به، ويدرك أن البرجوازية بناء استغلالي ماكر. فـإذا تطورت ظروفه وأصبح مليونيرًا.. أو كان مـن قادة الحزب وأصبح بيوقراطيًّا محترفًا، فلابد أنه -حسـب هذه المناهج- يتطور تفكيره، ويرى وجوب اتِّباع سياسـة البرجوازيين بحـق العـمال والفلاحـين. فـماذا حدث بهذا الرجـل؟ لا ريـب في أنه تغيَّرت نفسـيته، ولا

ريب أنه تطورت أهواؤه، ولكن هل المعرفة العقلية أيضًا تطورت فيه؟ هل نسي معادلاته الرياضية؛ مثلًا هل نسي أن ٥ × ٥ = ٢٥؟. أم أنه نسي نظرية فائض القيمة الماركسية بمجرد تطور حالته؟ أم أنه لم يعد يتحسس بجمال التضحية، وروعة الحق، وحسن العدل؟.

صحيح أنه لا يريد أن يعرف كل ذلك، ولكن هل هو فعلًا لا يستطيع أن يعرفها، وهل افتقد ذلك النور الذي كان يعرف به تلك الحقائق؟ هناك فرق بين ألَّا يريد وألَّا يقدر، وكم من شيء لا يريده المرء وهو قادر عليه.

إن هذه المناهج اشتبهت مرة واحدة فوقعت في سلسلة لا تنتهي من التناقضات، تلك المرة كانت حين وضعت النفس مكان العقل، وحسبت أن تأثر النفس يعني تأثر العقل أيضًا. وكما سبق فنحن لا ننكر دور الحالات المؤثرة في طبيعة الإنسان، ولكن ننكر أن تكون هذه الطبيعة كل شيء عند الإنسان. إنما نؤكد أن وراءها شيئًا آخر هو نور العقل.

ولقد ذكَّر الإسلام بدور (الأهواء) في تضليل الإنسان ولكنه لم يغفل عن دور الإرادة والعقل -والذي يجب الاعتماد عليه- في صياغة الإنسان. قال سبحانه: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾[١].

في هذه الآية يُبين القرآن وجود علاقة بين الغفلة واتِّباع الهوى، إلَّا أنه لا يجعل الهوى مؤثرًا في النفس إلَّا بإرادة الإنسان حين يقول: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾. فالاتِّباع عمل ولا يحدث دون إرادة.

ويقول: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[٢]، في هذه الآية، يفصل القرآن بين العلم واتِّباع الهوى، ويجعلهما مختلفين. ويأمر في آية ثالثة المؤمن بمخالفة الهوى ويجعل له في ذلك ثوابًا عظيمًا، فيقول: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[٣].

جيم: الفكرة بين العقل والإحساس:

الإحساس هو المصدر الثالث والأخير من مصادر الفكرة. ودور الحس لا ينكر إلَّا من قبل أولئك المثاليين الذين نسوا دور العقل في توجيه الحس، فأنكروا دور الحس أيضًا.

---

(١) سورة الكهف، آية: ٢٨.

(٢) سورة الروم، آية: ٢٩.

(٣) سورة النازعات، آية: ٤٠ - ٤١.

وسوف نلتقي بهم في فصول قادمة، إن شاء الله.

والإسـلام أَوْلى جانـب الحس أهمية مناسـبة، حيث دعا إلى النظر والسـير والتحرك والتثبـت، في نصـوص متضافـرة. إلَّا أنـه أَوْلى اهتمامًا أكبر لدور العقل الـذي يُوجِّه الحس ويُمحِّص نتائجه، والذي لولاه لأُصيب الفكر بالشلل الكامل.

ذلك لأنه لنفترض أننا أبعدنا العقل عن مجال الحس وأصبحنا مثل أولئك الحسـيين الذين لم يعترفوا بدور العقل في توجيه الحس، فسوف نرى كيف نتخبط في الضلالات حتى لا نسـتطيع كشـف أية حقيقة مهما ضَؤُلَتْ بواسـطة الحس. بل إن نكران العقل يدعونا إلى التشكيك في وجود أية حقيقة وراء الحس، وينتهي بالإنسان إلى المثالية أو التشكيك التام.

أفليس من الممكن أن تكون رؤيتنا للأمور أشبه شيءٍ برؤية الحالم في منامه؟. أوليس مـن الممكن أن يكون الإحسـاس نابعًا من الأعصاب ذاتها وليس من الحقائق الخارجية؟. فـإن لم يكـن هناك نور لـدى النفس يحكم بـأن مصدر الإحسـاس حقيقـة خارجية بصور جازمة، لو لم يكن هذا فأية حجة تقدر على إثبات الحقائق وراء الإحساس؟.

والآن، دعنا نسترسل مع هذا الافتراض لنرى نتائجه.

١- إن أول مـا يصدمنـا في هـذا الطريق إيمانـنـا الذاتي بعقولنا، وكلنـا يؤمن -ذاتيًّا- بطائفة من المعلومات المسبقة، ولا يمكنه أن ينفصل عنها مهما كلفه الأمر. نحن نؤمن مثلًا: بأن الفضيلة حسـنة ولم نحس بها، ونؤمن بأن التناقـض (اجتماع العدم والوجود) محال ولم نره، ونؤمن بمبدأ العلية (كل حادث بحاجة إلى سـبب) ولم نشـاهده.. صحيح أننا شاهدنا بأبصارنـا الحجارة تقع عـلى الأرض، ولكن ما الذي دعانا إلى البحث عن راميها؟ صحيح أيضًا أننا رأينا الحرارة تندلع من النار، ولكن لم نشـاهد أن النار هي التي أوجدت الحرارة. إذًا، فما الذي يدعونا إلى اعتبار النار سببًا للحرارة؟!.

٢- وصَرْح العلـم الـذي نفتخر به اليوم يقوم على أسـاس التجربـة، والتجربة تقوم على قاعدتي الحس والعقل. إن الحيوان لا يمكنه أن يكتشـف من تجاربه شـيئًا مع أنه يحس، ربما أشـد منا وأقوى. فالكلب ذو سمع شـديد، والصقر ذو بصر نافذ، ولكنهما لا يملكان التجربة، لأنهما يحسـان فقط دون أن يعقلا. بل حتى التجربة لا تُشـكِّل كل المعرفة البشرية. فإننا لا نملك في أي قانون من قوانيننا العلمية؛ لا نملك التجربة الشاملة لجميع جزئياتها.

دعنا نفترض قانون التجاذب الذي بشَّر به (نيوتن)، هل جرب كل تجاذب في الكون؟. كلَّا هذا مستحيل!. إن ما فعله لم يَعْدُ إجراء التجربة على بضعة حوادث حتى حصلت له قناعة تامة بأن أي حادثة أخرى لا تعدو أن تكون مثل تلك التي جرَّبها. وهذه القناعة من أين حصل عليها؟. من أين استطاع قياس ما يأتي بما مضى؟ أفليس لحكم عقله بالمعادلة التالية:

إن التجربة الماضية دلَّت -بطريق الحس- على وجود تجاذب بين جسم وجسم مخصوصين، وإن هذا التجاذب ليس صدفة وإنما هو بسبب وجود علة في الأجسام. وحسب عدة ملاحظات على أنواع من الأجسام، تبيَّن أنه لا فرق بين نوع الأجسام في وجود هذه العلة فيها، فدلَّ على أن كل الأجسام ذات قوة تتجاذب بها.

ترى، كم حكمًا عقليًّا اشترك في إعطائنا هذا القانون العلمي؟. ومع أننا لا نرتاب في هذه الأحكام، فإن أحدًا منا لا يدَّعي أنه قد جرَّبها هي الأخرى، وأنه لولا التجربة لم يكن يعترف بها.

٣- بل ومن حقنا أن نتساءل عن قيمة التجربة ذاتها: كيف كانت لدينا قيمة للحس، وكيف آمنا بها، وكيف صدَّقنا بأنها لا تخطئ؟ ليس لدينا إلَّا الوجدان والحكم العقلي الذي لا ريب فيه، وإلَّا فهل من المعقول أن نقول: إن التجربة ذاتها دلَّت على قيمة التجربة؟.

٤- بعد كل هذا، ينبغي أن نعود إلى أنفسنا لنتعرف على نوعية الانطلاق من الحس الجزئي إلى أبعاد أخرى. فكلنا يعرف أن الحس لا يعدو عملية انعكاس المؤثرات الخارجية على الأعصاب، ونقل الأعصاب لها إلى المخ. وكلما تصورنا حدوثه في المخ، فإنه لا يعدو أن يكون من نوع الإحساس.

فمثلًا: الإحساس بلون الشجرة عن طريق انعكاس الضوء على شبكية العين، لا يحملنا أبدًا على الإيمان بأن كل شجرة لها اللون ذاته؛ ذلك لأن الإحساس مقدر بقدر الشعاع المنعكس على العين، وليس بقادر على شمول سائر الأشجار في العالم كله حتى يكون الإحساس المباشر هو الوسيلة لمعرفتنا بلونها الواحد في كل مكان. فإذا علمنا ذلك كان علينا أن نتساءل: ما هو السبب لتعميم نتيجة الحس، والحكم بأن أي إحساس آخر سوف تكون له من النتائج والأسباب ما كان لهذا الإحساس، حتى يتم بناء قانون علمي شامل؟.

وقبل أن نقول شيئًا في هذا المجال، لابد أن نُفرِّق بين لونين من الامتداد في الإحساس؛ فقسم نسميه الامتداد الكاذب، والثاني ندعوه الامتداد الصحيح.

ألف: الامتداد الكاذب:

الامتـداد الكاذب، هو أن تقوم النفس بانتزاع صورة جديدة للحقائق التي أحسـت بهـا. فمثلًا: يرى الإنسـان رجلين (لنفترض محمدًا وعليًّـا)، ويعرف بالحس أن بينهما أمورًا متشـابهة كالجسـم الأبيض، والعينين الكبيرتين، والهيـكل الضخم، كما يبـصر بينهما أمورًا مُميِّزة كاختلاف السن، والطول، ولون الشعر.

هنـا تقوم النفس بعملية التجريد وهي حصر نظرها على الجوانب المتشـابهة وحذف غيرها. ونتصور مثلًا (كلي الجميل) الذي يشمل محمدًا كما يشمل عليًّا.

ومثـل آخر: يبصر الإنسـان تفاحـة لها ميزاتهـا وخصائصها الوجوديـة، فهي تفاحة واحدة صغيرة الحجم على الشجرة الفلانية. ولكن النفس تقوم بعملية التجريد وتنزع عن التفاحة خصائصها وتتصور (كلي التفاح) الذي يشمل كل تفاحة.

إن هذه العملية لا تعتمد على العقل، بل على النفس، وهي -في الأساس- لا تزيدنا إلَّا تصـورًا كاذبًـا لا وجـود له. فالجميل (كفكرة كلية) لا وجود لـه إلَّا ضمن محمد وعلي، وليـس لدينـا (كلي الجميل) ليشـمل كُلًّا من محمد وعلي في الواقـع الخارجي. كما أن التفاح الكلي لا وجود خارجي له.

إن القـوة التـي تخلق لنا هذا التصور تسـمى بقـوة التَّخيُّل، وهي لا تعـدو أن تُزوِّدنا بالتصور، ولذلك فهي لا تملك خاصية الكشـف، ولا تنتقل بنا عن مجال الذات إلى الواقع الخارجـي. إذ إن وجـود صـورة مُتخيَّلـة في مداركنا شيء ووجودها في الخـارج شيء آخر. ومـن هنـا فنحن نتصور أمورًا كثيرة ونؤمـن أن لا وجود لها في الخارج أبـدًا. مثلًا: نتصور جبلًا من عقيق، ونهرًا من فضة، وحديقة من زبرجد، ونعلم أن لا واقع لها أبدًا.

ولقـد كانـت فلسـفة الحسـيين -بمختلف مدارسـها- تتهجـم على صحـة التعقل، لظنهـا أنـه لا يعدو أن يكـون ركامًا من التصورات الانتزاعية. والسـبب أنها -أي مدارس الحسـيين- تكونت في جو مشـبع بالنظريات الإغريقية وعلى رأسـها نظرية (أرسطو) التي تعتمـد عـلى القول بأن أسـاس العلم التصـورات السـاذجة والمركبة، وأن التعقـل إنما هو تركيـب التصـورات والانتزاع منهـا. والذي يراجـع بدقة نصوص الحسـيين، ينتبه إلى أنها تنسف نظرية أرسطو التي سادت أوروبا قبل عهد الثورة.

ونحـن نضم أصواتنا إلى أصواتهـم، وننكر أن يكون مجرد الانتـزاع علمًا. والواضح أن الانتـزاع، عمـل من أعمال النفس، لا يكشـف الخارج أبدًا. ولكنهـا بعيدة عن الامتداد الصحيـح للمعلومـات، الـذي هو القسـم الثـاني، والـذي لا يرتاب في صحتـه أحد حتى المنتمون إلى المدارس الحسية.

باء: الامتداد الصحيح:

الامتداد الصحيح، هو الذي يكشـف لنا السبب الواقعي لحادثة معينة. فمثلًا: حين نجـد موت حيـوان بصورة فجائية، نقـوم بالتجربة ونرى انفجارًا في مخـه، ونقوم بعد هذه الملاحظـة بعمليـة تفجيرية اصطناعية في مخ حيوان آخر، فـإذا وجدنا موته هو الآخر، فلا نرتاب في أن أي حيوان في مثل هذه الحالة إذا حدث في مخه انفجار مثل هذا، فإنه سيموت. ونجد أن هذا العلم لا يخضع للتصور الذهني بل هو انكشاف وشهود للنفس.

إن (أديسـون) الذي قام بتجاربه المحسوسة في حقل الكهرباء وحفظ الضياء، عرف أنـه لا منـاص له من العثـور على خيط من الكربـون، فكربن كل ما وقعت عليـه يداه بغية الوصول إلى فتيل كربوني رفيع يصلح للإضاءة العملية. وبعد تجربة ١٢٠٠ مادة من أنواع المـواد، وجدها أنها كلها ليسـت من الصلابـة بالقدر الكافي للبقاء أكثر مـن ٨ دقائق، وإذا بـه -فيـما يقرب من اليأس- جـاء بخيط فكه من أحـد أزراره وعندئذ ألهـم أن يكربن هذا الخيـط القطنـي التافه فإذا به يبرهن على أنه أطول عمرًا من كل ما جرب، فقد ظل مشـتعلًا أربعين سـاعة قبل أن ينطفئ. إن هذه كانت خطوات (أديسـون) لكشفه العظيم (المصباح الكهربائـي). فـإذا أردنـا تتبع خطواته عرفنا أن الحس كان يلعب دورًا ثانويًّا، وأن كشـفه الحقيقي إنما كان لأن إحساسه دفع إلى معرفة السبب. فلو افترضنا أن أديسون لم يكن يملك العقـل الـكافي، فهـل كان يعلم حين يجرب على خيط واحد أن كل ما يشـابه هذا الخيط هو مثله ولو لم يكن قد رآه فعلًا؟!.

يقـول الكسـيس كاريل -وهو مكتشـف قدير-: «جميـع عظماء الرجـال وهبهم الله بصيرة، فهم يعرفون دون تحليل أو تفكير ما هي الأشياء الهامة التي يجب عليهم أن يعرفوها. ولهـذا فـإن الزعيم الحقيقـي للرجال لا يكون بحاجـة إلى الاختبارات النفسـية أو بطاقات التوصيـة، حينما يريد أن يختار مسـاعديه. كما أن في اسـتطاعة القـاضي الفذ أن يصدر حكـمًا عـادلًا دون الدخول في تفاصيل الحجج القانونية، بل حتى إذا بدأ بحثه بالمقدمات الخاطئة

(كما قال كاردوزو). أما العالم النابغة فيسلك بالغريزة الطريق المؤدي إلى الاكتشاف»[١].

وكل مـن يقوم بدراسـة حالـة العظماء يعـرف أن المعرفة لم تحدث لديهم إلَّا بشـكل من الاكتشـاف المفاجـئ. إن هـذا الامتداد يحدث بنـور العقل الخالـص دون أية دوافع نفسـية أو مصلحية، وهذا هو الذي يميزه عن الامتداد الكاذب. إذ إن ذلك الامتداد يحدث برغبة نفسية معينة، أما هذا الامتداد فإنه هو الذي يقود البشر إلى الاعتراف بصورة جازمة دون أية دوافع.

والسـؤال، هنـا: كيـف يحدث هـذا الامتـداد؟، وما هـي السـبل الكفيلة لسـلامته والمحافظة عليه دون دواعي الشهوة البشرية؟.

جوابًـا عن هذا التسـاؤل: لابد أن نعلـم أن العقل يقوم بدورين أساسـين في تحويل الإحسـاس إلى علم، يتلخص الدور الأول في توجيه الجوارح، توجيهًا صحيحًا، والتثبُّت في إحساسـها، والمقارنة بين الأحاسـيس المختلفة. في حين يتلخص الدور الثاني في المقارنة بين الإحسـاس والأحكام العقلية (السـابقية). كذلك المقارنة بينه وبين التجارب الماضية. وبالتالي تأمين القفزة الصائبة من الإحساس إلى العلم.

وفيما يلي نشير إلى نوعية قيام العقل بهذه الأعمال:

نقد العقل للإحساس

١ - إن هناك شروطًا تمهيديةً للتجربة يبينها العقل. فمثلًا: لا يجرب الإنسـان حقيقة تبـدو له أنهـا مفروغ من صحتها أو فسـادها، إنه لا يجرب مثلًا: ثقل الحديد الذي يرسـب بـه إلى قعـر الماء. وبالفعـل حين قال رجل لصاحبـه: تعالَ نجرب صنع سـفينة من حديد؛ اسـتخف به ورمى بقطعة حديد في الماء وقال: انظر يا غبي كيف رسـبت؟. ولكن الواقع: أن السـفينة قد تكون من حديد، وأنها كانت من جهالة الرجل حين اعتقد أنها مسـتحيلة.. ولو امعنَّا النظر، عرفنا أن الرجل كان غائب العقل حين قال بذلك، إذ إن العقل الصحيح لا يحكم باستحالة مثل ذلك.

مـن هنا نعلم أن هناك شروطًا لمرحلة ما قبل التجربة يجب توافرها سـلفًا، من أهمها وجود مناخ فكري مناسب لها عند المجرب ذاته، وهو لا ينشأ دون وجود عقل منفتح.

(١) الإنسان ذلك المجهول: ص١٤٦.

ونستطيع تحديد هذا المناخ بالقول: إن الجهل والغفلة البشرية قد تطبع على عقل الإنسان بحيث لا يُوجِّه إحساسه إلى أقرب الأشياء إليه ليعرف من خلاله الحقيقة، ولا يرضى تجربة ما سواه.

ولذلك، فإن الإسلام يوجب على المؤمن أن يظل منفتح الذهنية أبدًا ولا يسارع بالنفي عند سماع كل شيء جديد، وأنكر على أولئك الذين يرفضون الاعتراف بالفكرة لمجرد أنهم لم يجربوها من قبل. قال الله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾[1].

٢- والذين يحملون أوزارًا فكريةً معينةً، لا ينظرون إلَّا من زاوية قناعاتهم الخاصة؛ ولهذا فإن تجاربهم تبدو ناقصة وغير مفيدة لأنها تفسر بعض الحقيقة فقط.

فمثلًا: الذي يحمل عقيدة معينة بشأن شخصية تاريخية أو حدث تاريخي، فإنه يحاول دراسة الكتب التي تؤيد وجهة نظره دون الكتب المخالفة لها.. ولذلك تصبح معلوماته ناقصة حتى حول عقيدته الخاصة؛ لأنه لا يدرسها إلَّا في حدود معينة وبترسبات سابقة. ومن هنا نكتشف أن العقل ضروري لتوجيه الحس إلى الإحاطة بالشيء، والتثبت من التجربة دون الحكم على الموضوع بسرعة وقبل اكتمال تجربته وتعميمها على جميع الحالات التي قد يكون لتغيرها نوع من التأثير في صحة التجربة.

وقد سبق القول منا بأن رأس العقل هو التثبت؛ ذلك لأن الإنسان جُبِلَ على الثقة الساذجة بنفسه، بحيث يصعب عليه الاعتراف بجهله، ولئن اعترف فإنه سرعان ما يعود فيدَّعي العلم.

والعقل المضيء هو الذي يحكم على الذات بأنها جاهلة، ويكشف لها عن جهلها؛ فتضطر إلى البحث عن المعرفة. وهنا فقط تتجرد عن ضلالتها السابقة وتبدأ تجرب الحقائق بروح موضوعية.

وهذا هو الشرط الثاني الذي يوفره العقل للحس حتى يكون موضوعيًّا. وقد أوحت بهذا الأمر آية قرآنية كريمة حين قالت: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[2]. والملاحظ في هذه الآية ربط الإحساس بالمسؤولية التامة،

---

(١) سورة يونس: آية: ٣٩.

(٢) سورة الأسراء: آية: ٣٦.

لكيلا يتسـارع الإنسـان في الحكم دون تثبُّت كامل وإحاطة تامـة بمحتملاته. ولقد عبرت الآيـة بكلمـة: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ الدالة على أن البشر يجب أن يقسـم الأمور أمامه إلى خطوات، فـلا يخطـو خطوة إلى الأمـام إلَّا إذا قاده العلم الذي لا ريب فيه إليهـا، ولا يكون متسرعًا، فيعترف كليًّا أو يرفض كليًّا!!.

٣- إننا بسرعة نكوّن مفهومًا خاصًّا وواحدًا عن التفاحة، مع أن العملية بحاجة إلى معارف عقلية مسـبقة تجمع شتات الأحاسيس وتقول لنا: إن الرؤية التي نقلت إلينا حجم التفاحة ولونها، وأن اللمس الذي عَرّفنا وزنها وملاستها، وأن الذوق أو الشم الذي عرفنا الطعم والرائحة.. كل هذه الأحاسيس إنما هي تعبير عن شيء واحد هي (التفاحة).

إن هذه الوحدة النظرية لم نستطع الحصول عليها دون وجود العقل الذي لم يكشف لنا عن وحدة السبب فحسب، بل وأيضًا كشف عن أن كل عرض (اللون، الطعم، الرائحة و.. و..)، لا يطـرأ إلَّا عـلى شيء ما (هو الذات). وأن لـذات الشيء علاقة بعرضه وبالتالي يكشف لنا عن حقيقة التفاحة.

إن التفاحة ليسـت -لدى علمنا- مجموعة صور من الأحاسـيس المتفرقة كما شاءت بعـض الفلسـفات الحسـية أن تتصورها، بل هـي حقيقة واحدة متكاملـة، ذات خصائص متصورة. ومعرفتنا بهذه الوحدة إنما هي بسبب نوع من المقارنة الإيجابية تكشف عن وحدة الأحاسيس.

هذه بعض الشروط التمهيدية للتجربة الحسية يوفرها العقل.

المقارنة وسيلة العقل:

وإلى جانب هذه الشروط، لدينا معارف عقلية -تقوم بمقارنات- نكشـف بها خطأ بعض أحاسيسنا، وهي كالتالية:

ألـف: المصاب بالدوار لا يشـك في أن حسـه هو مبعث الإحسـاس بحركـة العالم، وذلـك لـدى مقارنة حسـه بحس الآخرين. إذ إن لـدى كل منا حكمًا عقليًّـا لا نرتاب فيه، يتلخص في: أن الواقع يجب أن يحس به كل أحد. فما دام الآخرون لا يحسـون به، نكتشـف أن الذي يحس به وحده لابد أن يكون خاطئًا. وهكذا كل إحسـاس خاطئ ينكشـف زيفه فور مقارنته بإحساس الآخرين، أو بإحساس الرجل ذاته في سائر الأوقات.

باء: وقد تصاب العين بالمرض فترى الأشياء مقلوبة، ولكن اليد تكشف زيف هذا الإحساس، حين تلمس الأشياء لتجدها سالمة. وهكذا يحكم العقل بين الأحاسيس المختلفة بمقارنتها ببعضها.

جيم: وقد تبصر العين رجلًا قزمًا فلا يتردد العقل من الحكم بأنه طويل القامة، لأنه يقارن المسافة بينه وبين الرجل، فيقول: إذا كانت الرؤية من بعد ميل تظهر الشخص بهذا الطول -نصف متر- فلابد أنه إذا اقترب يظهر ذا طول قد يتجاوز المترين. وهكذا يقدر العقل دور المسافة في العين والأذن وسائر الأعضاء، بل هكذا يقدر سائر القوانين الفيزيائية، كوزن الشيء في الماء؛ فإن الإحساس البسيط يزعم أنه خفيف مثل ما يتصور، إلَّا أن العقل سرعان ما يحكم بخلاف ذلك.

دال: مقارنة سائر العوارض الداخلية، فقد تشعر جميع أعضاء الجسم بالبرودة أو بالحرارة الشديدة، ولكن العقل لا يتردد في أن ذلك إحساس باطل؛ لأنه يتقارن مع عوارض المرض، مما يدل على زيف الإحساس. وهكذا في كل مرض، كفقدان التوازن والذوق والشم و... و...

وتتشابه الأخطاء الحسية الناجمة من العقاقير المخدرة كالأفيون والهروين و... و... بالأخطاء المرضية التي لا يلبث العقل حتى يفضحها.

وهناك عدة أنواع أخرى من المقارنة لا نذكرها لأنها متشابهة ومعروفة، ويقوم كل واحد منا بتجربتها يوميًّا وبصورة عفوية، إلَّا أنه ينبغي أن نبين هنا حقيقة المقارنة ونقول:

إن كل مقارنة تنطوي على مجموعة من الأحكام العقلية التي لم نعد نلتفت إليها لسرعة تحققها وشدة وضوحها. فمثلًا: إن المقارنة بين ما نحس به وأحاسيس الآخرين، إنها تنطوي على الحكم الواضح الذي لا نرتاب فيه، وهو أن ما أحس به أن كان هو الواقع وجب ألَّا يختلف فيه حس الآخرين لأنهما من طبيعة واحدة، وتكشفان عن حقيقة واحدة. فلابد أن يكون الاختلاف بسبب آخر هو المرض والخطأ وما أشبه. ودون العقل من أين نعرف أن الحقيقة واحدة، أو أن الحقيقة الواحدة لا تبث إلَّا لونًا واحدًا من الإحساس عندي وعند الآخرين، أو أن للاختلاف سببًا خارجيًّا. فلماذا لا يكون الشيء بلا سبب؟.

وبهذا كله، نتمكن من فضح المغالطة الكبيرة التي استند إليها النسبيون حين قالوا:

إن الإحساس يتأثر بالظروف الفسيولوجية، فلهذا لا تعكس إلَّا ذاتها. ونحن نعترف أنها تتأثر حينًا، ولكن لا يحملنا هذا التأثر إلى التشكيك في نتائجه كل مرة. إذ إن العقل سيحكم بما إذا كان الحس متأثرًا بعوامل خارجية أم بعوامل داخلية فسيولوجية.

تمحيص النتائج:

ثم يقوم العقل بدوره الثاني في توجيه الإحساس وهو تمحيص النتائج. وتختلف النفوس في المواهب العقلية، من هذه الناحية. ولذلك فإن قليلًا من الناس فقط يتمكنون من الاستنتاجات الصائبة من تجارب متشابهة. وهذا الدور معقد، ولذلك فلا يمكننا إلَّا التنبيه بالقواعد العامة، التي تفيدنا في هذا المجال:

١- الإحساس في محك السابقيات العقلية:

حينما ترى العين أجنحة المروحة وهي تدور، تزعم العين بادئ النظر أنها: (صحن مدور) ولكن العقل يقوم بتخطئة هذه النتيجة، ويقول: إن الصحن لا يحرك الهواء. وهذا المثال البسيط يدل على أن الإحساس يقارن بالأحكام العقلية المسبقة. فمثلًا: لدينا حكم عقلي جازم هو: أن الحدث لابد وأن يأتي بعد سبب مناسب، ولذلك فإن الأحداث الواحدة ذات أسباب متشابهة. ومن هنا فنحن لا نرتاب في قانون التجاذب، لأنه حصيلة تجاربنا المحسوسة مضافة إلى أحكامنا العقلية.

إننا نرى أن الطير عندما يموت يقع على الأرض، ونعرف أن رفع الحجر على الظهر أصعب من رفع القطن ويتطلب جهدًا، ونلاحظ أن القمر يدور في الفلك، ونعلم أن الصعود إلى الجبل أشق من النزول منه.

ونلاحظ حقائق كثيرة كل يوم لا علاقة لإحداها بالأخرى ظاهرًا، ثم نتعرف على حقيقة استنباطية هي قانون الجاذبية، وهنا ترتبط جميع هذه الحقائق فنعرف للمرة الأولى أنها كلها مرتبطة إحداها بالأخرى ارتباطًا كاملًا داخل النظام، وكذلك الحال لو طالعنا الحقائق المحسوسة مجردة فلن نجد بينها أي ترتيب فهي متفرقة وغير مرتبطة، ولكن حين نربط الوقائع المحسوسة بالحقائق الاستنباطية، فسنستنتج صورة منظمة للحقائق[١].

---

(١) الإسلام يتحدى ص ٦٥ عن (Cleaver Thin ding) لمؤلفه ماندير.

ونـرى كيف قام العقل بربط نتائج الإحساس بعضها ببعض حتى حصل منها على قانون علمي سُمِّي بقانون التجاذب. إن الإنسان توسل لاستنباط هذا القانون بعدة أحكام عقليـة والتـي كان أهمها الحكم بضرورة وجود السـبب لكل حادث، وضرورة تناسـبه مع المسـبب، وأن الأحداث المتشابهة ذات سبب واحد وأخيرًا ربط نتائج الأحاسيس المختلفة ببعضهـا لصياغـة قانون عـام منها. وهذه الأخيرة كانت السلسـلة التي لولاها لما اسـتطاع البشر استنباط قانون موحَّد.

ولنلاحـظ تجربـة أخـرى هـي تجربة (ديـزل) الذي سـميت باسـمه محـركات ديزل الضخمـة. فـإن الشـاب الألماني (رودولـف ديـزل)[1]، دأب على كبس الهـواء حتى وصل ضغطـه في النهاية إلى (٥٠٠) رطـل للبوصة المربعة، ورفع هذا الضغط درجة حرارة الهواء إلى (١٠٠٠). وربـط هـذه العمليـة بقانون عقلي آخـر هو أنه: إذا كان الوقـود عادة يبدأ في الاحتراق عند درجة (٤٥٠) فلابد أن يكون كل ما نحتاج إليه لكي نحصل على الاشتعال بدون شرارات الاشتعال، هو حقن الوقود إلى خزانة بها هواء مضغوط ضغطًا مفرطًا لكي يشتعل في الحال كما يشتعل الدهن في المقلاة!.

وهكـذا فعل، ولكنـه حين اختبر محركـه لأول مرة انفجر كله وطرح الشـاب أرضًا فاقد الشـعور. بيد أنه تصور باسـتخدامه الحكم العقلي أنه لو اسـتعمل أسـطوانات أقوى وصمامـات أضبـط فإنه لـن ينفجر؛ إذ إنـه عرف –بحكم عقـلي– أن الانفجـار كان نتيجة سبب، وأن السبب لابد أن يكون قوة الانفجار ورخاوة الأسطوانات. فلما أتقن أسطواناته لم ينفجر المحرك هذه المرة بل أعطى الصناعة دفعًا جديدًا إلى الأمام بمحركه.

وماذا لو فقد ديزل مساعدة عقله، هل كان بإمكانه متابعة تجاربه؟ ومن هنا نعرف أن العقل ضرورة لتمحيص التجربة بعرض الملاحظة على الأحكام العقلية الثابتة.

وهذا أهم القواعد التي تساعد البشر على استنباط الحقائق من الإحساس.

---

(١) رودولف كريستيان كارل ديزل (Rudolf Christian Karl Diesel)، ولد في ١٨ مارس ١٨٥٨ في باريس، كان مهندساً وميكانيكيًّا ألمانيًّا، يعتبر مخترع محرك ديزل الذي سمي باسمه. قام رودولف بتطوير آلة متحركة تستخدم الزيت وقودًا لها. وغالبًا ما يفضَّل محرك ديزل على محرك البترول بسبب سهولة التصميم وتوفير الوقود. ولقد زاد كثيرًا من فعالية الصناعة والنقل. أسس عمله على نظرية المحركات الحرارية وتصاميم المهندسين الآخرين. وسجّل براءة اختراعه عام ١٨٩٢م، أسس مصنعًا لتصنيع محركات الديزل. اختفى بصورة غامضة عام ١٩١٣م، من سفينة ألمانية كانت متجهة صوب لندن.

٢- الإحساس والتجارب السابقة:

لـدى أبسـط التجارب يحتاج الإنسـان إلى إدخال مجموعـة كبيرة من تجاربه الشـخصية الأخرى ومعلوماته الصحيحة عن تجارب الآخرين لكي يوازن بينها ويحصل على فكرة صائبة عن تجربته. فنحن حين نستعمل الترمومتر (مقياس درجة الحرارة)، لا نعلم كم تجربة نستخدم من تجاربنا الماضية أو تجارب الآخرين، ولكننا نستطيع أن نقول بأنها تجارب لا تُحصى عدًّا.

فمثلًا: إننا من دون تجارب المصريين في الهندسـة ونظام العد الإسلامي واكتشافات أوروبا الرياضية لم نكن نسـتطيع أن نعرف أي شيء عن قياس الحرارة. ولهذا فإن أية تجربة جديـدة لا تنمـو إلّا في مناخ صالح. ونعني بالمناخ الصالح وجـود عدد كبير من التجارب البشرية في سائر الحقول تساندها وتخلق فكرة صائبة عنها.

فمثلًا: جابر بن حيان الأنصاري -تلميذ الإمام الصادق عليه السلام- قام بصنع طائرة لم يذكر المؤرخون صفاتها بالضبط لأنها دفنت تحت ركام الجهالات التي كانت تسـود عصره، ولذلك فإن العصر الذي تلى عصر جابر لم ينتج تجارب جديدة لأنها كانت تفقد مناخها المساعد.

أمـا حين بـدأ (أخـوان رايـت Wright Brothers)[١]، تجاربهما بالطائـرات الشراعية عـلى كثيبات الرمل في (كتي هـوك)[٢]، لمجرد التمرن على كيفيـة التحكم في الأجنحة أثناء

---

(١) هما الأخوان: أورفيل (١٨٧١ - ١٩٤٨م)، وويلبر (١٨٦٧ - ١٩١٢م). أورفيل وويلبر رايت هما مخترعان أمريكيان، ينسب إليهما معظم المؤرخون، اختراع أول طائرة، والقيام بأول تجربة طيران ناجحة عن طريق آلة أثقل من الهواء في ١٧ ديسمبر ١٩٠٣م. وبعد عدة سنوات من طيرانهما الناجح تنبهت الحكومة الأمريكية إلى أهمية الطيران وإمكاناته الواسعة. كما استُقبل المخترعان في فرنسا استقبال الأبطال. وكان أطول طيران حققه أورفيل رايت قد استغرق ٧٥ دقيقة على ارتفاع قارب المائة متر. لقد ابتدأ (الأخوان رايت) بصورة فعلية قرن الطيران ومهدا باختراعهم لأول آلة تتحرك بمحرك دافع أثقل من جسم الإنسان، مهّدا لدخول قرن الطيران من باب واسع، وشهد القرن العشرين، ومنذ ذلك اليوم من شتاء عام ١٩٠٣م، تقدمًا هائلًا في حقل الطيران على مدى ما يقرب من ١٠٠ عام، تطورت فيها الطائرات ودخلت عصر الإنتاج الصناعي بغزارة وتنوعت أحجامها وأشكالها ومهامها والأعباء المكلفة بإنجازها لدرجة أن محاولة جمع الطرازات التي أنتجت في العالم ككل في كتاب أو مؤلف واحد يعد ضرباً من ضروب الخيال.

لقد ترك الأخوان رايت بتجربتهم تلك ونجاحهم التي خرجت الصحف الرئيسة في الولايات المتحدة في اليوم التالي تزف الخبر للعالم، تركا إرثاً دافئًا لا يمكن نسيانه من التأريخ للطيران، والروعة في النجاح والتألق، ومتعة الشعور بتحقيق حلم راود الإنسان منذ أن فتح عينيه على الطيور والنسور والكواسر وهي تجوب السماوات دونما تحقيق غايته.

(٢) بلدة في ولاية كارولاينا الشمالية في الولايات المتحدة الأمريكية. اشتهرت البلدة عندما قام الأخوان رايت بأول رحلة بالطائرة في ١٧ ديسمبر ١٩٠٣م.

الطيران، وطوَّرا تجاربهما -حينذاك- ساعدهما وجود المحرك ثم وجود المواد الخفيفة الصلبة البنـاء (التي حصلت البشرية منهـا على قدرة حصان واحد مقابل كل رطل واحد من وزن المحرك)، إن هذه التجارب المتنوعة التي سبقت تجربة أخوان رايت، أعطت الطائرة مناخًا مناسبًا للظهـور، فأصبحت ميزة العصر الحديث. وهذا يهدينـا إلى أن العقل يعرض نتيجة الحس على التجارب الماضية ليمحصها.

ولولا وجود عقل موازن عند الإنسـان لما اسـتطاع أن يسـتغل تجارب غيره أبدًا. إن العقـل الموازن يحكم بأن ما فشـل فيه إنسـان واحد فإنه يسـتحيل أن ينجـح فيه الآخرون، وبالعكس ما نجح فيه هو فسـوف ينجح فيه كل إنسـان. ولذلك فإن العالم الخبير يقوم بعد كل ملاحظة بطرد آلاف الاحتمالات التي تتراءى أمامه، لمعرفته المسبقة بأنه قد ثبت بطلانها في تجارب غيره... ونسـتطيع تلخيص المهمة الثانية التي يقوم بها العقل عند تمحيصه نتائج الحس بأنها: (موازنة الحس بتراث البشرية العلمي).

إن العقل هو الذي يهدي إلى ضرورة هذه الموازنة وهو الذي يدلنا على نوع التجارب التـي ينبغـي أن تـوازن بها التجربـة الجديدة. وأخيرًا هو الذي يعطينا حاسـة الكشـف عن أقـرب التجارب إلى الحقيقة لدى اختلاف التجارب. ترى بماذا يفسر كل ذلك الحسـيون؟ من هنا جاء في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**الْعَقْلُ حِفْظُ التَّجَارِبِ**»(١).

٣- القفزة العلمية:

أهم ما يحصل بالعقل هي القفزة العلمية، والمثال التالي يوضحها:

يقـوم الطفل بطرح فلز في الماء، فيسـتقر في القاع، ورأسًـا يتنبـه إلى أن مطلق الفلز لا يسـتقر فوق المـاء -أي ماء كان- هذه هي القفـزة العلمية حيث اسـتنبط الطفل من تجربته حكمًا عامًّا.

ونحن لم نجرب طيلة حياتنا إلَّا بعض التجارب البسيطة، بيد أننا نملك عدة قوانين عقليـة لأن تلـك التجارب قفـزت بنا إلى مسـتوى معرفة قوانين عامة بحيـث لا نرتاب في صحتهـا. وهـذه العمليـة، التي لا تخضع لحسـاب، هـي التـي زوَّدت البشريـة بالكميات الضخمة التي تملكها من المعلومات عن الكون. ونحن نضحك حتى الأعماق حينما تُروى

(١) بحار الأنوار: ج٧٤، ص٢٠٨، في وصية الإمام علي لابنه الإمام الحسن عليهما السلام.

لنا قصة جحا الشهيرة: حين كان جالسًا فوق غصن شجرة وينشر أصله.

فقال له عابر سبيل: إنك ستقع.

فقال مستهزئًا: من أين عرفت؟. هل أنت عالم غيب؟.

ولكنه سرعان ما سقط على الأرض، وتهشمت أعضاؤه. فتعقب الرجل وقال: حقًّا أنت نبي.

نحن نضحك من هذا الكلام لأنه مغرق في السذاجة. ولكن ماذا لو قالت طائفة من المنتمين إلى الفلسفة بهذا القول منكرين مصدرًا للمعرفة لا يوزايه مصدر آخر أبدًا. قالوا: إنك لا تستطيع أن تعرف (كل رجل يموت) لأنك لم تعلم إلَّا بموت فريق من الناس، ولعل الفريق الآخر لا يموتون!! وهكذا في سائر الحقائق.

إن الطفرة العلمية التي لم نستطع نحن البشر أن نعرف عنها شيئًا كثيرًا تُشكِّل أقوى الأدلة على وجود عقل يكشف لنا أبعاد الحقائق، وإلَّا فما الذي يدعونا إلى القول بأن كل إنسان يموت، مع أننا لم نشاهد إلَّا بعض الأموات.. يقول البروفيسور (ماندير): «إن الحقائق التي نتعرف عليها مباشرة تسمى (الحقائق المحسوسة Facts Received)، بيد أن الحقائق التي توصَّلنا إلى معرفتها لا تنحصر في الحقائق المحسوسة. فهناك حقائق أخرى كثيرة لم نتعرف عليها مباشرة، ولكننا عثرنا عليها على كل حال. ووسيلتنا في هذا السبيل هي الاستنباط. فهذا النوع من الحقائق هو ما نسميه (بالحقائق المستنبطة Inferred Facts) والأهم هنا أن نفهم أن لا فرق بين الحقيقتين، وإنما الفرق هو في التسمية من حيث تعرفنا على الأولى مباشرة، وعلى الثانية بالواسطة. والحقيقة دائمًا هي الحقيقة سواء عرفناها بالملاحظة أو بالاستنباط»[1].

والعقل هو الذي يميز بين الطفرة العلمية (الاستنباط) وعملية (انتزاع النفس) أو الخيال، ووسيلته إلى ذلك تجنب أية رغبة في التسرع أو في ترجيح جانب على جانب آخر. بل لابد أن يدع الإنسان نفسه مُسلِّمًا بنتيجة تجاربه، تقوده كيف شاءت لا كيف يشاء هو.

---

(١) الإسلام يتحدى: ص٦٤.

البحثُ الثّاني: نَقدُ التصوُّراتِ البَشريّةِ

١- آراء في المعرفة.

٢- آراء في قيمة المعرفة.

٣- (كانت) والنسبية الذاتيَّة.

٤- النسبية التَّطوُّريَّة.

٥ ١ - آراء في المعرفة

أمامنا الآن مجموعة من التصورات البشرية حول المعرفة، لا يخلو كل واحدة منها من جوانب إيجابية، إلَّا أنها بصفة عامة لم تحط خبرًا بواقع العقل والعلم والفكر. ولعل السبب الوحيد لهذا العجز البشري عن معرفة أقرب الحقائق إلى الإنسان – أي العلم– أن الإنسان حاول معرفة العلم عن طريق الجهل؛ أي عن غير طريق العلم ذاته، وهو نوع من الانحراف في المنهج، سبق البحث فيه.

لقد حاول البشر قياس العلم والعقل بركام التصورات والتعاريف، فما زاده إلَّا بعدًا عن حقيقته ومزيدًا من الانحراف عنه، تمامًا كمن حاول قياس الوجع بالمتر أو الحرارة بالكيلو. وقد سبق القول في أن شأن العلم شأن الإرادة وسائر ما يرتبط بالنفس حيث لا يمكن قياسها إلَّا بآثارها.

ونحن حين نجد في العصر الحديث انتشار قياس حقائق النفس بآثارها، بعد أن عجزوا عن قياسها بالطرق المادية. فما الذي يمنعنا من تطوير منهجنا في معرفة العلم والعقل إلى النظر إلى آثارهما كما صنع الإسلام.

إن هذا المنهج يجعل كل فرد يكتشف النور في داخل نفسه، وهناك فقط يتبين أن تصورات البشر حوله إنما كانت انحرافات بعيدة عن الواقع.

نظرية أفلاطون[1]:

تتلخص نظرية أفلاطون في النقاط التالية:

١ – تمامًا كالصورة التي تنعكس على المرآة، لها حدود وليس لها جرم وكثافة، كذلك

---

(١) أفلاطون (Plato – وتعني: واسع الأفق) ولد في أثينا –أو في إيجنيا– سنة (٤٢٨ ق.م) قبل الميلاد. من أسرة أثينية عريقة في المجد. فيلسوف يوناني كلاسيكي عظيم، بل من أعظم فلاسفة العالم على طول تاريخ

يوجـد عـالم يُدعى بعالَمَ المُثُـل، كل حقائقها ذات حدود ولكن دون كثافـة. وهذه المثل هي صور الحقائق الأرضية جميعًا، فالإنسـان مثلًا: يعيش على الأرض أفراده أما هو فإنه واحد يعيش في عالم المُثُل، وهو (أي حقيقة الإنسان) شبح هناك يُمثِّل كل الناس في كل العصور.

٢- والإنسان كان قبل تنزله إلى الأرض يسرح في عالم المثل، ولذلك فقد أحاط علمًا بـكل الصور (أو المثل) التي كانت موجودة فيه، ولكنه نسـيها عندمـا تقولب بالمادة وهبط إلى عالم الجسد.

٣- إلَّا أن أقل تنبُّه يكفي الإنسان لتذكر ما كان قد نسيه في عالم الدنيا، فيعود يعرف الحقائـق التـي عرفها في عـالم المثل. ولذلك سـميت نظريته بـ(النظرية الاسـتذكارية) لأن الفكر، حسـب هذه النظرية، ليس سـوى اسـتعادة المعلومـات، والعلم ليس إلَّا اسـتعادة المحفوظات المنسية.

٤- إن العقل البشري أسـمى من أن يعرف الحقائق الجزئية، بل إنه يعرف الكليات؛ أي المثـل العامـة فقط. فمثلًا: حينما يعـرف رجل زيدًا فإنه لا يعرف بعقله الرجل المسـمى بزيد، إنما يعرف بعقله كلي الإنسان، أو صورة الإنسان بصفة عامة[1].

وترتكز هذه النظرية فيما يخص موضوعنا على أمرين:

الأول: الاعتقاد بوجود الأرواح بصفة مستقلة عن الأجسام قبل خلق الأجسام.

الثاني: أن العلم صفة أصيلة في ذات الإنسان ولسيت صفة طارئة على الإنسان.

والإسـلام يقول بوجـود الأرواح قبل الأبدان بفترة طويلـة، حيث جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ: «**خَلَقَ اللهُ الْأَرْوَاحَ قَبْلَ الْأَجْسَادِ بِأَلْفَيْ عَامٍ**..»[2].

الإنسانية. كاتب عدد من الحوارات الفلسفية، ويعتبر مؤسس لأكاديمية أثينا التي هي أول معهد للتعليم العالي في العالم الغربي، تلميذ سقراط في الفلسفة، بل إن سقراط صاحب الفضل الحقيقي في تنشئته فلسفيًّا. وتلميذه أرسطو طاليس.

وضع أفلاطون الأسس الأولى للفلسفة الغربية والعلوم، نبوغ أفلاطون وأسلوبه ككاتب واضح في محاوراته السقراطية (نحو ثلاثين محاورة) التي تتناول مواضيع فلسفية مختلفة: المعرفة، المنطق، اللغة، الرياضيات، الميتافيزقياء، الأخلاق والسياسة.

(١) راجع (بتصرف): بدوي، د. عبدالرحمن، موسوعة الفلسفة، ج١، تحت عنوان: (فلسفته.. نظرية المعرفة)، ص١٥٧. نشر: منشورات ذوي القربى، ط١/ ١٤٢٧هـ، قم، إيران.

(٢) بحار الأنوار: ج٥٨، ص١٣٢.

أما أن العلم صفة ذاتية للإنسان، فهذا ما يرفضه الإسلام، والسبب:

ألف: لو كان العلم صفة الذات لم يجز أن يتخلف في لحظة عن الذات، ذلك أن الذات لا يفقد نفسه إلَّا ساعة انعدامه. أترى، هل يمكن أن يجهل الله سبحانه شيئًا وهو يملك العلم بصفة ذاتية، أم أن النور يمكنه أن يتخلَّف عن الحركة والإشراق وذاته الحركة والإشراق؟ هذا مع أننا نلاحظ: أن الإنسان لا يعلم ثم يعلم ثم ينسى ما علم. قال الله سبحانه، وهو يذكِّر بهذه الحقيقة الواضحة: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾[1].

ونحن نعلم من أنفسنا صفة الجهل الذاتية، لأن العلم لا يحصل لنا إلَّا بتعب وإرهاق، ثم يزول بسرعة مع هبوب عاصفة النسيان التي تتناوب على أنفسنا فتكنس معها معلوماتنا.

باء: إن ذاتي الشيء لا يحدد.. إن الجهل والعدم والعجز من ذاتنا، ولذلك فهي غير محدودة، لأنها إذا كانت محدودة إذًا لم تكن ذاتية لنا. أما العلم والإرادة والوجود والقوة فهي مواهب أو مكاسب، ولذلك فهي محدودة.

وبتعبير آخر: إن التحديد يعني العدم في بعض الجوانب. فلو حددنا علم رجل ببلده مثلا فذلك يعني أنه لا يعلم عن البلاد الأخرى شيئًا، وإذا كان الرجل ذاته عالمًا فكيف لا يعلم شيئًا عن البلاد الأخرى؟ أفلا يعني ذلك أن هذا الرجل عالم وجاهل في لحظة؟ وهو تناقض مرفوض.

وهل يصح أن نقول: إن ذات الحرارة هي الحركة (أي لا يمكن أن توجد حرارة ولا توجد حركة أو العكس بأن توجد حركة ولا توجد حرارة) ثم نقول: إن الحرارة يمكنها ألَّا توجد في وقت أو في حالة مع وجود الحركة؟!.

إذًا فنظرية أفلاطون الاستذكارية مرفوضة بسبب واحد وهو أنها تدَّعي أن العلم من ذات الإنسان. ولو فسرنا هذه النقطة منها، إذا استطعنا القبول بها فيما يخص العلم، فسرناها بالقول: إن الله سبحانه وهب الإنسان العقل، ولكن هذا العقل محتجب بالنسيان وأن التذكر به يرجعه إليه.

---

(١) سورة النحل، آية: ٧٠.

نظرية الانتزاع:

وهي التي ذهب إليها فريق من الفلاسفة الإغريق، وفي طليعتهم أرسطو طاليس[١]، واتَّبعهم فريق من فلاسفة المسلمين. وهي تذهب إلى: أن للذهن البشري نوعين من التصورات:

- تصورات أولية، كتصور اللون والحجم والطعم والرائحة، وما إلى ذلك مما يتصوره الذهن عن طريق الحواس.

- وتصورات ثانوية، وهي التصورات التي يولدها الذهن البشري منتزعًا إياها من التصورات الأولية، وذلك مثل الكليات المجردة، وتصور العلة والمعلول وما أشبه.

وتقول النظرية: إن التصورات الأولية هي الأساس للتصورات الثانوية، وإنه يستحيل على الذهن القيام بأي تصور ثانوي من دون التصورات الأولية.

وبتعبير آخر: الإحساس أساس العلم. وتقول: إن الذهن يقوم بنمو ذاتي متى ما دخل حريمه تصور أولي، فيتمخض عنه تصور ثانوي. ونستطيع تمثيله بالأرض الصالحة التي تُنمِّي أشجارًا كثيرة بعد أن تزرع فيها النواة.

والملاحظ: أن هذه النظرية تتنافى وما سبق أن ذكَّر بها الدين الإسلامي من الحقائق، ونضيف إليها ما يلي:

١ - أن الإنسان لا يمكنه الإيمان بالحس دون وجود عقل يحكم بصدق الإحساس. وقد سبق أن أكدنا ذلك بأكثر من بينة. ومن هنا فإن العقل (وهو ما تسميه النظرية بالتصور الثانوي) هو الأساس للإحساس. وقد عكست النظرية فقالت: إن الإحساس هو السبب في وجود العقل. ولست أدري كيف يمكن أن يكون الإحساس بشيء وسيلة إلى الاعتراف بوجود علته، لو لم يكن في النفس نور يكشف عن حقيقة العلة؟.

---

(١) أرسطو؛ أو أرسطوطاليس؛ أو أرسطاطاليس، (٣٢٢ ق م - ٣٨٤ ق م) فيلسوف إغريقي، تلميذ أفلاطون ومعلم الإسكندر الأكبر. كتب في علوم الفيزياء والميتافيزيقا، والشعر، والمسرح، والموسيقى، والمنطق والبلاغة والسياسة والحكومة، والأخلاق، والبيولوجيا، وعلم الحيوان؛ جنباً إلى جنب مع أفلاطون وسقراط (معلم أفلاطون). وأرسطو يعتبر من أهم الشخصيات في تأسيس الفلسفة الغربية. كان أول من إنشأ نظاماً شاملاً للفلسفة الغربية، ويشمل الأخلاق وعلم الجمال والمنطق والعلم والسياسة والميتافيزيقا.

٢- أن النظرية تعتقد أن النفس تسير في نمو ذاتي حتى تصل إلى العلم، وهذا يشبهها بنظرية أفلاطون في أنها تجعل العقل وليدًا طبيعيًّا للنفس ضمن حركة جوهرية تكاملية. ومن حقنا أن نسأل إذا كانت حركة النفس إلى أعلى بصورة مستمرة فكيف تنتكس حتى لا تعلم بعد علم شيئًا، وكيف ينسى البشر أشياء عرفها، وكيف لا يعلم أشياء يجهلها بصورة طبيعية، بل يكون محتاجًا إلى المعلم؟.

والواقع أن نظرية أرسطو الانتزاعية لم تثبت للنقد بعد أن تعرَّضت له من قبل الفلاسفة الغربيين، منذ روجر بايكون[١] وإلى جون لوك. ونحن بغنى عن استعراض انتقاداتهم بعد ما سبق أن أشرنا إليه في تقرير النظرة الإسلامية المتوازنة الشاملة.

النظرية الحسية التجريبية:

(النظرية الحسية التجريبية) هي النظرية السائدة على العالم المادي المعاصر، وكان أول مبشر بها في الفترة الأخيرة (جون لوك) الفيلسوف الإنجليزي، الذي ظهر في جو مشبع بالأفكار الديكارتية العقلية.

ثم تبنتها فلسفات أخرى، وبينها النظرية المثالية والماركسية. يقول جورج بوليتيريز: «ما هي نقطة البدء في الشعور أو الفكر؟. إن مصدر الإحساسات ما يعالجها الإنسان بدافع من احتياجاتها الطبيعية»[٢].

ويقول ماوتسي تونغ: «إن مصدر كل معرفة يكمن في إحساسات أعضاء الحس الجسمية في الإنسان، للعالم الموضوعي الذي يحيطه»[٣].

وهذه النظرية تتلخص في نقطتين:

١- ليس للذهن البشري من ممون سوى الإحساس، فهو المصدر الوحيد لكل المفاهيم والتصورات. ومن هنا فليس للذهن إبداع تصورات جديدة.

٢- وأن التجربة، وهي نوع من الإحساس، هي المصدر الوحيد للعلوم الإنسانية،

---

(١) روجر بايكون (١٢١٤ - ١٢٩٤م)، ويعرف أيضاً باسم (Doctor Mirabilis) أي: (المعلم المذهل) باللاتينية، كان فيلسوفاً إنجليزيًّا وراهبًا فرانسيسكيًّا، وهو الذي وضع التأكيد على التجربة. ويشكر أحياناً على إنجازه كأول أوروبي يضع قوانين المنهج العلمي، وقد أثرت أعمال أفلاطون عليه عندما رأى العلوم الإسلامية.

(٢) المادية والمثالية في الفلسفة، ص٧٥.

(٣) المادية والمثالية في الفلسفة، ص ٧١-٧٢.

وأنه لو تجرد الإنسان عن الإحساس لتجرد عن كل معارفه.

ومن هنا: تنفي هذه النظرية وجود معلومات سابقة (أو ما نسميه بالعقل)، ولذلك فهـي تبعـد عـن ذاتها كل محاولـة لمعرفة مـا وراء المادة (الغيـب). وتزعم هـذه النظرية: أن الإنسـان لا يمكنه أن يعرف حقيقة إلَّا بتجربتها مباشرة، فليسـت هناك حقيقة اسـتنباطية يسير فيها الفكر من الحقائق العامة إلى الحقائق الجزئية. فالمثل التالي مستبعد كليًّا عن المنهج التجريبـي: كل فلز يمتد بالحـرارة والحديد فلز فلابد أن يمتد بالحرارة. بل يجب أن نجرب الامتـداد على الحديد بالذات حتى يمكننا أن نقول: (الحديـد يمتد بالحرارة). وهكذا يبعد هذا المنهج كل مثل متشابه، ذلك لأنه يستبعد العلم الكلي (كل فلز يمتد بالحرارة) ويقول: مـن أيـن عرفنا هـذا العموم، هل مـن التجربة على الحديـد التي كانت بـين التجارب التي أجريـت على كل فلز؟ وإذًا فلا نسـتفيد من الـكلي (كل فلز يمتد بالتجربة) لأنه لا يعدو أن يكون تكرارًا للمفهوم السابق، أم من دون التجربة على الحديد بين الفلزات.

فمـن أيـن حصلنا على هـذا المفهوم، إن لم نكـن قد جربنا كل الفلـزات؟. والعلم لا يحصل من دون التجربة.

الماركسية تتناقض:

لقد سبق القول في نقد النظرية الحسية، ونلخصه فيما يلي:

١ - أن قيمـة الحـس والتجربة لا يمكن أن تثبت إلَّا بوجود شيء عند النفس يُمكِّنها أن تقيّـم الحـس والتجربة. وذلك ما نسـميه بالعقل. ولو افترضنا عـدم وجودها فما الذي تفيدنا قيمة الحس والتجربة؟.

قـال فريق منهـم: إن التجربة ذاتها دليل تقييمها.. حسـنًا؛ فتلـك التجربة التي تقيم التجارب الأخرى، هل هي ذات قيمة أم لا؟. إذا كانت لها قيمة فمن أين عرفنا قيمتها؟.

والواقع أننا نؤمن بقيمة التجربة، وهذا الإيمان نابع من عقولنا التي تحكم بذلك.

٢ - كيف يمكننا تفسـير العلة والمعلول، والحسـن والقُبح، والخير والشر؟ هل هذه الحقائـق تـدرك أيضًـا بالتجربة؟. وكيـف، مع أنهـا معلومات لها مـن القيمة لدينـا كقيمة التجربة، ولها من الوضوح كوضوحها؟.

٣- ولـدى شيء من التحليل نكتشـف أن التجربة ذاتها تعتمـد على مجموعة أحكام عقليـة، كالحكـم باسـتحالة التناقـض والصدفـة. ولـو تصورنا العلـم من دونهـا تبخَّرت معلوماتنا في لحظة واحدة.

٤- نحـن نؤمـن بحقائق غير مجربة ونعلم أن مصدر إيماننا ليسـت هي التجربة. ولا نؤمـن بحقائق مجربة لأنها تخالف حكم عقولنا. فمثلًا: نرى أجنحة المروحة متلاصقة، ولا نؤمن بذلك. ولا نرى دوران البروتون في الذرة، بيد أننا نؤمن بها إيماننا بضوء الشمس.

وتتناقض الماركسـية مع نفسـها في تفسـير حقيقـة المعرفة فتقول على لسـان ماوتسي تونـغ[1]: «الخطـوة الأولى في عمليـة اكتسـاب المعرفـة هي: الاتصـال بالمحيـط الخارجي. الخطوة الثانية هي جمع المعلومات التي نحصلها من المعلومات الحسـية وتنسـيقها وترتيبها (مرحلـة المفاهيـم والأحكام والاسـتنتاجات) وبالحصول على معلومـات كافية كاملة من الإدراكات الحسـية (لا جزئيـة ولا ناقصـة) ومطابقة هذه المعلومـات للوضع الحقيقي (لا مفاهيـم خاطئـة) عند هذا فقط يصبح في المسـتطاع أن نصوغ على أسـاس هـذه المعلومات مفهومًا ومنطقًا صحيحين».

وتنطـوي هـذه النظرية على الاعـتراف بدور العقل الـذي يقوم بتنسـيق المعلومات وترتيبهـا. إذ مـن الواضـح أنه لولا وجود نور يكشـف عـن طبيعة المعلومـات وموضعها مـن جـدول الأفكار كيف يمكن للنفـس أن تقوم بعملية التنسـيق والترتيب. فلو افترضنا عاملًا لا يعرف شـيئًا عن الحسـاب هل يمكنه تنسيق معلومات وزارة الدفاع أو المخابرات المعقدة؟. ونحن نجد أن التنسـيق يسـتنزف جهـدًا عظيمًا منا، ومن خلاله نسـتخدم مئات الأحكام العقلية، فكيف ننكر فضلها في توجيه معارفنا؟.

هكذا اعترفت الماركسـية من حيث لا تشـعر بدور العقل، ولكنها أنكرته في مواضع أخرى من فلسفتها، وهذا هو التناقض.

وقد أكدت الماركسـية هنا ما تبنته من تفاعل الإحساس والتنسيق، والعمل والعلم. ونحـن لا ننكر ذلك، بل إن الإسـلام أول مـن بشَّر بالتأثير الكبير الـذي يُخلِّفه العمل على الفكـر، والإحسـاس في العقـل. إن العلم ضوء في القلـب، ينمو باسـتخدامه كما تنمو كل

(١) ماو تسي تونغ (١٨٩٣ - ١٩٧٦م) زعيم الحزب الشيوعي الصيني منذ ١٩٣٥م، حتى وفاته. كان سياسيًّا وقائدًا عسكريًّا صينيًّا.

أعضاء الإنســان بتربيتها واستعمالها. والعقل نور في النفس يزداد بطاعته كما تزداد الفضيلة أو الرذيلة بممارستها.. وجاء الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**إِنَّ الْعِلْمَ يَهْتِفُ بِالْعَمَلِ فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا ارْتَحَلَ عَنْهُ**»![1].

(١) بحار الأنوار: ج٢، ص٣٣.

٢ - آراء في قيمة المعرفة

العقل حيث يكشـف شـيئًا، لا يتردد فيه ولا يقبل أي نوع من التشكيك حوله؛ لأنه يراه واضحًا مميَّزًا مشهودًا.

ومـن هنـا لا يُصـدر العقـل حكـمًا إلَّا إذا كان موثوقًـا بـه ١٠٠٪، وهنـاك يصـح الاطمئنـان به كاملًا، ويحصل القلب على السـكينة. والعلم بعضٌ من العقل وهو الشـهود المباشر، والكشـف الواضح للأشـياء. ولأنه كذلك فإنه يقيم ذاته، ويُعطي للنفس السكينة والاطمئنـان وبصورة لا تقبل الشـك. ونحن إذا أردنا أن نقيّـم العلم فهل نقيّم بغير العلم أم بالعلم ذاته؟ والعلم إذا تشككت فيه لا يقيّم نفسه، والجهل -بالطبع- لا يقيّم العلم.

عندما بحثنا عن المعرفة في منهج القرآن، بيَّنا أن العقل نور هادٍ يكتشـف ذاته بذاته، والعلم -لأنه وليد العقل- فإنه يُقيَّم بالعقل، والتقييم بالنسـبة إليه خطأ، لأنه لا يكون إلَّا به ولكن الإنسان أعرض بوجهه عن عقله، وحاول إعطاء قيمة للمعرفة بعيدًا عنه.

ولتقييم المعرفة تاريخ طويل؛ ففي اليونان اجتاحت الفكر موجة عارمة من السفسطة في القرن الخامس الميلادي، كان مبدعوها ومغذوها طائفة من السياسيين المحترفين، جمعوا كل مـن فشـل في حياته الشـخصية ليُعلِّمـوه طريقة الجـدل، ويُقحموه في حقل السياسـة. وهكذا أصبحت المناقشات اللاعقلانية سيدة الموقف في اليونان.

وتطـورت هـذه الحالة حتـى أدَّت إلى مبدأ غورغيـاس[١] الذي ألَّـف كتابًا في (عدم

(١) ولد في ليونتيوم (٣٧٥ -٤٨٠)، وتتلمذ على يد أنبادوقليس، واشتغل بالطبيعيات. اهتم باللغة والبيان، فكان أفصح زمانه وأبلغهم. جاء إلى أثينا يطلب العون لمدينته على أهل سراقوصة، فأعجب الناس بأثينا ببلاغته. يصوره أفلاطون في الحوار المعنون باسمه على أنه مفاخر بمقدرته على الإجابة عن أي سؤال يلقى

الوجود)، وحاول البرهنة على عدم وجود شيء. وحتى لو افترض وجود شيء فإن الإنسان قاصر عن معرفته، ولو حصل -فرضًا- على معرفته فإنه يستحيل أن يُعلِّمها غيره.

وأخذ الفكر الفلسفي ينهار لو لا تحدِّي سقراط الذي ضحَّى بحياته في سبيل إعادة الناس إلى توازنهم الفكري، ثم أفلاطون تلميذه الذي اتَّبع سبيل الحوار لاستعادة ثقة الفكر بنفسه، وأخيرًا أرسطو الذي وضع أصول منطقه القائل بوجود مسبقات عقلية هي الركيزة الأولى لتقييم المعارف البشرية، وإن كانت تنشأ من الإحساس بعملية الانتزاع. واتَّجه بيرون -وهو أحد فلاسفة اليونان- ناحية التوفيق بين إنكار الحقيقة وإثباتها، فدعا إلى الشك واتَّبعه فريق كبير. إلَّا أنه قُدِّر لمذهب الشك أن يختفي عن مسرح الفكر حتى ابتداء القرن السادس، حين عاد بفعل الثورة الثقافية التي عصفت بمسلَّمات القرون الوسطى وجعلتها خرافات لا قيمة لها.

ديكارت[1]:

ولعب ديكارت دور أرسطو في إعادة الناس إلى أفكارهم، وتماشى معهم في فلسفته حتى شكَّك نفسه في معلومات قطعية. وفلسفة ديكارت عقلية تعتمد على وجود أحكام جازمة للنفس يستطيع الإنسان أن يحكم بها على سائر معلوماته. وتعتمد فلسفته حول قيمة المعرفة على الحقيقة التالية:

إن أية فكرة واضحة ومميَّزة لدى النفس بحيث لا يمكن التشكيك فيها بأية حجة، فإنها فكرة صحيحة وذات قيمة. ويرى ديكارت: أن قيمة المعرفة، الإيمان الثابت بها. فما وجد فيها هذا الإيمان أثبت لها القيمة. ومثَّل لها بـ(فكر الإنسان)، فإنه لا يزداد مع الشك

عليه. مات في تساليا وقد قاربت سنه المائة أو جاوزتها، وعظم صيته، وضخمت ثروته. وضع كتابًا في اللاوجود قدم به إلى التمثيل لفنه، والإعلان عن مقدرته بالرد على الإيليين والتفوق عليهم في الجدال.

(١) رينيه ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠)، فيلسوف فرنسي، رياضي، وفيزيائي، يلقب بـ(أبو الفلسفة الحديثة)، وكثير من الأطروحات الفلسفية الغربية التي جاءت بعده، هي انعكاسات لأطروحاته، التي ما زالت تدرس حتى اليوم، خصوصاً كتاب (تأملات في الفلسفة الأولى - ١٦٤١م) الذي ما زال يشكل النص القياسي لمعظم كليات الفلسفة. كما أن لديكارت تأثير واضح في علم الرياضيات، فقد اخترع نظامًا رياضيًّا سمي باسمه وهو (نظام الإحداثيات الديكارتية). الذي شكل النواة الأولى لـ(الهندسة التحليلية)، فكان بذلك من الشخصيات الرئيسة في تاريخ الثورة العلمية. وديكارت هو الشخصية الرئيسة لمذهب العقلانية في القرن (١٧م)، كما كان ضليعًا في علم الرياضيات، فضلًا عن الفلسفة، وأسهم إسهامًا كبيرًا في هذه العلوم، وهو صاحب المقولة الشهيرة: (أنا أفكر، إذن أنا موجود).

إلّا وضوحًا. و(ذات الإنسان)، و(الله) سبحانه، و(الحركة)، و(الامتداد)، و(النفس). وتنطوي فلسفة ديكارت على أخطاء منهجية لا يفيدنا انتقادها الآن[١]. إلاَّ أنه بوجه عام استطاع بها أن يُقيِّم المعرفة بوجود العقل الذي لا يحتاج إلى تقييم، فذاته قيمة. هكذا أراد، أو -لا أقل- هكذا يبدو أنه أراد أن يعمل[٢].

جون لوك[٣]:

وسار لوك المسيرة ذاتها التي سار فيها ديكارت، عندما أراد تقييم المعرفة البشرية. وقال: إن المعرفة قد تكون وجدانية، كالعلم بأن الواحد أقل من اثنين. وقد تكون تأملية وهي التي لا تحصل دون الاستعانة بمعلومات وجدانية. وهذان النوعان من المعرفة، لهما قيمة واقعية.

أما الإحساس فإنه لا قيمة له في حقل الفلسفة؛ ذلك لأنه ناشئ من انعكاسات قد لا تتفق مع طبيعة الأشياء، بل يحتمل أن تكون انفعالات ذاتية.

ونظرية لوك[٤] هذه لا تتوافق مع منطلقه الفلسفي الذي ينادي بالحسية، وإلاَّ فما هو المُمَوِّن للفكر غير الحس؟ وبعد هذه الملاحظة نتمكن من القول بأن المعارف العقلية التي قسمها لوك إلى نوعين:

- الفطرية.
- التأملية.

وقسمناها نحن إلى نوعين: الأحكام العقلية، وما يصدر منها من أفكار؛ إن هذه الأحكام ذات قيمة لا ريب فيها، وهي دالة على نفسها، ولكن إذا مُيِّزت عن شوائب الهوى والغضب.

---

(١) بحثنا منطق ديكارت مفصلاً في كتاب (المنطق الإسلامي أصوله ومناهجه). فراجع.

(٢) لاحظ: بدوي، د. عبدالرحمن، موسوعة الفلسفة، ج١، ص٤٩١-٤٩٨، منشورات ذوي القربى، ٢٠٠٧م.

(٣) جون لوك (١٦٣٢-١٧٠٤)، (John Locke)، هو فيلسوف تجريبي ومفكر سياسي إنجليزي.

ولد في عام (١٦٣٢) في رنجتون Wringiton في إقليم Somerset وتعلم في مدرسة وستمنستر، ثم في كلية كنيسة المسيح في جامعة أوكسفورد، حيث انتخب طالبًا مدى الحياة، لكن هذا اللقب سحب منه في عام ١٦٨٤ بأمر من الملك. وبسبب كراهيته لعدم التسامح البيورتياني عند اللاهوتيين في هذه الكلية، لم ينخرط في سلك رجال الدين. وبدلًا من ذلك أخذ في دراسة الطب ومارس التجريب العلمي، حتى عرف باسم (دكتور لوك). مات في ٢٨ أوكتوبر من العام ١٧٠٤ في مقاطعة أسيكس في بريطانيا وكان عمره ٧٢ سنة.

(٤) لاحظ: بدوي، د. عبدالرحمن، موسوعة الفلسفة، ج٢، ص ٣٧٣.

وأمـا الحس، فإن التعقل سـيحكم على نتيجته. فإن كان متأثـرًا بالذاتية رفضه، وإلَّا اطمأن إليه حسب ما سبق في حديثنا عن المعرفة في الرؤية الإسلامية.

ولذلـك فنحن متفقون مع لـوك في وجود نوع من الذاتية في الإحسـاس، ولكننا لا نتفق معه في عجزنا عن إيجاد مقياس يجرد الحقيقة المشوبة بالذاتية!.

المثالية الحديثة:

بعد أن عرفنا قيمة العلم عند المذهب الإسـلامي ومذهب ديكارت ولوك، يجدر بنا أن نبحث عن المدارس الفلسفية التي أنكرت هذه القيمة، وهي تتنوع إلى أربعة أقسام:

الأول: المثالية، التي أنكرت وجود واقع خارج الشـعور. وكان إنكارها معتمدًا على إنكار أية قيمة للمعرفة التي تثبت وجود هذا الواقع.

الثاني: مذهب الشـك، الذي أنكر أن تكـون المعرفة مضمونة الخطأ، ولم ينكر وجود واقع خارج الشعور إلَّا أنه لم يستطع إثباته أيضًا.

الثالث: المذاهب النسـبية، التي آمنت بصحة المعرفة، ولكن بصورة جزئية. فليسـت الحقيقة كما ندركها، ولكن ما ندرك لا يعدو كليًّا جوهر الحقيقة.

الرابع: النسبية التطورية، التي لم تنكر قيمة المعرفة، ولكن أنكرت ثبوت المعرفة على حالة واحدة، وقالت: بأنها تتكامل شيئًا فشيئًا.

والمثالية التي تناولها في البدء بالدراسة هي الأخرى ذات أنواع:

- المثالية الفلسفية.
- المثالية الفيزيائية.
- المثالية الفسيولوجية.

ألف: المثالية الفلسفية:

إن هـذه المثاليـة اسـتندت إلى قواعد فلسـفية تتلخص في أن الوجود لا يعني سـوى التصور، وأن يوجد شيء عبارة أخرى عن أن يُدرَك أو أن يُدرِك.

وبطـل هذه المثالية: باركلي، الذي ادَّعى أنه لا ينكـر العالم، ولا أي حقيقة موضوعية فيه،

إلَّا أن جوهر فلسفته هو الكشف عن حقيقة الكون. الناس يزعمون أن حقيقة الأشياء هي الوجودات المستقلة عنا، القائمة بذاتها. ولكن هذا خطأ؛ إذ إن حقيقتها لا تعدو أن تكون مجموعة تصورات تتفاعل داخل شعور كل منا. وكل ما يقول الناس عن العلم والصناعة والتاريخ والاكتشافات والنشاطات المادية حقيقة لا ريب فيها، ولكن نسأل عن معنى الحقيقة؟ إنهم يحسبون أن معناها الوجود المادي الكثيف، ولكني أقول: إن معناها الوجود الذهني اللطيف.

ومن هنا، فلم يكن يجدي باركلي حجج الماركسية التي زعمت أن تكثيف كلمات علمية وتسطيرها وتكديسها على بعضها، تكفي للقضاء على أية نظرية تريد تحطيمها، فقامت بسرد اكتشافات العلم وحوادث التاريخ في محاولة لدحض المثالية، ولكنها غفلت عن أن المسألة أعمق مما تتصورها. إن المسألة انما هي في وجود أي واقع خارج المادة. باركلي يقول: كل ذلك صحيح، ولكنه لا يعني وجود واقع خارج الشعور، بل يدعم القول بأنها كلها تصورات شعورية محضة.

باركلي يرفض الاعتراف بشخص ماركس[١] وهيغل[٢]، بل يقول: قد يكونان مجرد شبحين في تصوري، فكيف أؤمن بأفكارهما؟ وحتى إذا آمن بهما فإنه لا يؤمن بما يريانه ويرويانه من وقائع الوجود الخارجي إلَّا بعد تفسير الوجود بالشعور.

باركلي[٣] يشكك:

وقد أخذ باركلي يشكك نفسه بالواقع الخارجي عن طريق وجود تناقض في

---

(١) كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣). فيلسوفًا ألمانيًّا، سياسي، وصحفي ،ومنظّر اجتماعي. قام بتأليف العديد من المؤلفات إلا أن نظريته المتعلقة بالرأسمالية وتعارضها مع مبدأ أجور العمال هو ما أكسبه شهرة عالمية. لذلك يعتبر مؤسس الفلسفة الماركسية، ويعتبر مع صديقه فريدريك إنجلز المنظرين الرسميين الأساسيين للفكر الشيوعي.

(٢) جورج ويلهلم فريدريك هيغل (Georg Wilhelm Friedrich Hegel) (١٧٧٠ - ١٨٣١) فيلسوف ألماني. ويعتبر أحد أهم الفلاسفة الألمان حيث يعتبر أهم مؤسسي حركة الفلسفة المثالية الألمانية في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي. مات بمرض الكوليرا عام ١٨٣١ وما كتبه عن الجماليات وفلسفة الدين وفلسفة التاريخ فلم تنشر إلا بعد موته.

(٣) باركلي، جورج (١٦٨٥ - ١٧٥٣م). مطران إنجليكاني وفيلسوف، وُلد في أيرلندا في مقاطعة كيلكيني. وقد حاول ربط العلم السائد في عصره بالنصرانية. أعلن باركلي أن الأشياء المادية، مثل الطاولات، هي نفسها الأفكار أو الأحاسيس التي نشعر بها تجاه تلك الأشياء، ومن هذا المنظور لا تعد التفاحة شيئًا سوى لونها، وشكلها، وملمسها، ووزنها، وطعمها، وخواصها الأخرى على النحو الذي ندركه بأحاسيسنا. كما قال إن الخصائص أو الأفكار التي نشعر بها لا توجد إلا في مخيلتنا، وهي تتغير بتغير الشخص الذي يتلقاها. فمثلًا

الإحساس أو في المعلومات. فقال:

إن كل مـا يدركـه البـشر يرتكـز عـلى الحـس، وإذا اختبرنـا الحـس وجدنـاه مليئًـا بالمتناقضـات. فالبـصر يرى الشيء القريـب كبيرًا، وإذا ابتعد عنه حسـبه صغـيرًا. والأُذن تسـمع الصـوت ضعيفًا إذا كان بعيدًا عنهـا، وإذا اقترب إليها سـمعته عاليًا -أو بالأحرى اعتقد أنه يسـمعه عاليًا- وهكذا اليد تلمس الشيء الواحد حارًّا مرة وباردًا أخرى. فمثلًا؛ إن أخرجـت يديك عن ماءين -بارد وحار- وأغمسـتهما في ماء دافئ شـعرت كل واحدة بعكس ما كانت فيه، والماء واحد.

فإذا كان الإحساس يتناقض فكيف نطمئن إليه؟.

ثـم يتابـع اسـتدلاله قائـلًا: ثم لدى تحليل الإحسـاس نجـده ليس سـوى التصور، والتصـور لا يعدو أن يكون فكرة تعيش داخل الشـعور، ولكـن لدى التعمق نجد أن هذه الفكـرة قـد لا تكون وليدة واقع موضوعي. بل وليدة هاجسـة نفسـية أو قوة علوية تبعثها في نفوسـنا.. ألسـتم أيها الواقعيون تعترفون بوجود أفكار لا واقع لها. فلماذا لا تجعلون كل الأفكار بعيدة عن الواقع؟.

وأضاف يقول: ولندع التصورات الساذجة، لندرس المعارف البشرية، هل هي ذات قيمـة بعـد التناقض الذي نجده بينها؟ فهـي لا تقوم إلَّا لكي تنهار. فكـم من قضية كانت من المسلمات، أصبحت من الخرافات. وكم من فكرة أجمع عليها المفكرون، ولم تمضِ عليها فترة حتى أصبحت مهجورة.

فالواقعيون لا يتمكنون من ادِّعاء الصحة في أي جزء من معلوماتهم ما دامت سـائر الأجزاء قد تبخرت مع حرارة الزمن!.

المياه الدافئة نفسها تبدو ساخنة لليد الباردة وتبدو باردة لليد الساخنة. وهكذا بدا لباركلي أن الخصائص التي نشعر بها ما هي إلا أفكار تعتمد على العقل الذي يتلقاها، وليس لها وجود مستقل.

وكان بعض الفلاسفة الآخرين في الغرب يعتقدون أن الأشياء المادية المحسوسة تتكون من مادة، والمادة هي الشيء الذي توجد فيه الخصائص المختلفة، ومن المفترض أن المادة توجد خارج العقل، ومستقلة عنه، ولكن نظرًا لأنه ليس لدينا إحساس مباشر بالمادة فقد رأى باركلي أنه ليس هناك مايدعونا إلى الاعتقاد بوجودها.

ونظرًا لاعتقاد باركلي أن الأشياء تتكون من مجرد أفكار فهو من أنصار الفلسفة المثالية. وحيث إنه يرى أن العالم محصور فيما يمكننا أن نتعلمه بتجاربنا المباشرة منه، فهو أيضًا من أنصار المذهب القائل: إن المعرفة كلها مستمدة من التجربة.

هكذا استـدل باركلي.. وتابعه الفريق الذي يُدعى بأنصار الشك الحديث الذي قاده (دافيد هيوم)، وكوَّنوا فلسـفة لا أدرية. قالوا: ما بأيدينا من وسـائل العلم لا تكفي للتثبت من الحقيقة، فالأَوْلى الشك فيها. ولكنه لم يزد على أدلة باركلي شيئًا. فجوهر أدلته التناقض البادي بين المعارف والأحاسيس على غرار ما استعرضناه من حجج باركلي.

نقد النظرية:

والنظرية تنطوي على التباسات عديدة:

أولًا: إن معرفـة أخطـاء الحس وتناقضاته بسـيطة لمن أوتي نور العقـل. وما دمنا آمنا بـدور العقل الـذي لا يخضع للحس وإنما بالعكس يخضع الحس له، فإن بمقدورنا كشـف تناقضات الحس ببساطة متناهية. ولقد سبق أن بَيّنا كيف ينقد العقل مدركات الحس.

فالعقـل -كـما قلنـا آنفًا- نور يكشـف الواقـع الخارجي ويجعـل النفس تطـل عليه وتشاهده مباشرة. وليس العلم تصورًا تنطوي عليه النفس -كما زعم أرسطو- حتى يزعم باركلي: أن ليس لدينا ضمان كافٍ لتطابق الصورة مع الواقع الخارجي.

ثانيًـا: إذًا فانتقـادات باركلي وتشـكيكاته مُركَّزة ضـد نظرية أرسـطو التقليدية التي زعمت أن المعرفة ليسـت سـوى صور في النفس منعكسة عن الأشياء فأنكرها، وقال: من يقول بوجود حقائق وراء الصور؟.

أما حسـب تذكرة الإسـلام لواقع المعرفة التي كشفت لنا سـابقًا من أنها نور كاشف للواقـع مباشرة، فـإن انتقادات باركلي تذهـب هباء. وقد نوَّه باركلي ذاتـه بهذا الأمر حيث يظهر من أقواله أنه لو كانت المعرفة شـهودًا للواقع مباشرة كانت صحيحة ولكنها ليسـت كذلك.

ثالثًـا: كذلـك حجة باركلي الثالثـة المرتكزة على أن المعارف البشريـة قد تخطئ، فإنها نوع من الخلط بين المعرفة والجهل، لأن المعارف لن تخطئ لأنها مشاهدات مباشرة للواقع. وهناك فرق كبير بين تبيُّن خطأ عقيدة، وبين تبيُّن خطأ علم. العلم لا يُخطئ، في حين تُخطئ العقيـدة؛ إذ إن الثانية تخضع للشـهوات والتطورات المادية، بيـد أن العلم النابع من العقل ليس كذلك.

رابعًـا: ويكفينا حجة: تلك المجموعة الضخمة من المعلومات التي لا يتردد أحد فيها

ولا يحتمل أنها قد تُخطئ في يوم ما إطلاقًا. مثلًا: الإيمان بوجود حقيقة الكون والسنن العامة فيه، والقوانين الرياضية التي تحكمه، لا يمكن ولا نحتمل أن تُخطئ في يوم من الأيام.

وباركلي لم يزد على الادِّعاء بوجود الأخطاء في الحس أو في المعلومات.

وهذا لا يكون دليلًا على عدم وجود واقع خارج الشعور، إنما هو دليل على مذهب الشك، الذي يقول: إنه لا يمكن أن نعترف بكل مفاهيمنا الواردة علينا من قبل الحس.

ونحن لا ننكر وجوب التشكيك في طائفة من الأفكار إلَّا أننا حتى في حالة التشكيك هذه نستعين بعقولنا، كما فعل باركلي نفسه. فكيف نشكك أنفسنا دون القول باستحالة التناقض التي جعلها باركلي نفسه دليلًا على بطلان الإحساس مع أنه لو لم نسلم سلفًا بهذا المبدأ لم يكن لنا أن نستدل بأي دليل أبدًا.

إذ يمكن لأي معترض أن يفحمنا بالقول: بأنه ما هو المانع من تناقض الإحساس وصحة هذا التناقض، وبالتالي صحة المعلومات المنبثقة عنها؟.

باء: المثالية الفيزيائية:

ما هي طبيعة المادة؟. قال علم الميكانيك التقليدي: إنها مجموعة جزئيات أصلية لا تتجزأ. وكان يبدو أن ذلك أمر لا مَرَدَّ له، وواقع لا ريب فيه. ولهذا قابل التلاميذ أستاذهم الفيزيائي في إحدى جامعات ألمانيا الذي نادى بإمكانية تفجير الذرة (أو الجزء الذي لا يتجزَّأ)، قابلوه بالإنكار الشديد حتى لم يعد يتابع كشوفاته الذرية، ولو فعل لكان زمن ظهورها العشرينات.

وحين تقدَّم العلم وفُجِّرت الذرة تفجيرًا، تفجرت في الوقت ذاته ثقة الإنسان بعلمه الميكانيكي وذهبت مسلماته هباء.

فأصابت الأزمة النفسية بعض العلماء، وقالوا: ما دامت المادة لم تكن حجرًا ثابتًا لبناء صرح العلم عليه في حين كنا نعتقد نحن أنها كذلك؛ فمن يضمن لنا أن تثبت الذرة مكانها. أليس من الممكن أن يأتي العلم ليقول لنا يومًا: إن الذرة أيضًا وَهْمٌ تقليدي؟. وهكذا اندفعوا إلى المثالية. فقال (أوزوالد): إنَّ العصا التي تضرب (سكايان) لا تنهض على وجود العالم الخارجي. هذه العصا ليست موجودة، وليس موجودًا إلَّا طاقاتها الحركية.

نقد النظرية:

إننا حين نعلم شيئًا، فلابد أن نستند إلى مجموعة كبيرة من الأحكام العقلية. فالعلم بنواة الذرة -مثلًا- مبني على صحة التجربة وهي مستندة على حكم العقل. فإذا كانت عملية تفجير الذرة أمرًا واقعيًّا، فلا داعي إلى القول بأنه لا واقع أمامنا؟.

والحقيقة أن المثالية الفيزيائية لا تُنكر وجود العلم ولا وجود المادة التي يكشف عنها العلم، وإنما تُنكر فقط أن تكون المادة مجموعة جزئيات أصلية. بل تقول: إن التصور الجامد عن المادة غير صحيح. بل إنها حركة وطاقة في جوهرها. وهذه حجة قوية على وجود شيء وراء الشعور، وهو ما أنكرته المثالية الفلسفية. فاللفظ فقط قاسم مشترك بين المثالية الفلسفية والمثالية الفيزيائية وإلَّا فهما متباعدتان جدًّا.

جيم: المثالية الفيزيولوجية:

وتتلخص هذه النظرية في أن الإحساس، وهو المصدر الوحيد للمعرفة لدى هذه الدراسة، عملية فيزيولوجية ترتبط بالأعصاب وبناء المخ وشروط الزمان والمكان. ولقد اكتشف العلم أن حقيقة الكون التي تحس بالأجهزة العلمية تختلف جدًّا عما نحس به من دونها. ولذلك فإنهم قالوا: إن الإحساس ليس أداة أمينة لنقل المؤثرات الخارجية، وإن الحقائق تقوم بالنسبة إليه بدور المنبه فقط.

وهذه المثالية لها واجهتان:

-الأولى: علمية.

- الثانية فلسفية.

فالواجهة العلمية هي أن الأحاسيس لا تنقل إلينا كل الحقائق المرتبطة بها، فلذلك يحتاج البشر في سبيل الحصول على معلومات أدق عن الكون، أن يخترع أجهزة جديدة لكشف أكبر قدر ممكن من الحقائق. وهذه الواجهة تزيد من ثقة الإنسان بعقله.

والواجهة الفلسفية تهدف عدم الثقة بالمحسوسات بحجة أنها تتعرض لمؤثرات ذاتية.

أما الواجهة الأولى فإنها صحيحة؛ أي أن العلم يكشف لنا عن حقائق في محسوساتنا لا تبلغها حواسنا الاعتيادية.. إلَّا أنها -كما نعلم- تفيدنا ثقة بمعارفنا وبما تكشفه لنا من حقائق.

اما الواجهة الثانية (أي الفلسفية) فإنها تقوم على أساس خاطئ هو أن الإحساس هو المصدر الوحيد لمعارفنا، أو هو المصدر الأول والأهم. أما لو قلنا بأن العقل هو المصدر الوحيد أو الأهم الذي يزودنا بالمعارف الصحيحة التي لا ريب فيها، فإن هذه المثالية ستفقد قاعدتها. وقد قلنا -عندما تحدثنا عن دور العقل في نقد المعلومات الواردة عن طريق الإحساس-: إن المقارنة بين الأحاسيس المختلفة للشخص نفسه في أوقات متفاوتة أو بين أشخاص متعددين ذوي اتجاهات متعارضة.. إن هذه المقارنة من جهة، ومن جهة ثانية المقارنة بين المحسوسات والأحكام العقلية القاطعة، ستكون المقياس الذي نُقيِّم به الأحاسيس ونعرف الصحيحة منها من الباطلة.

كانت والنسبية الذاتية:

انطلق (كانت [1]) في مسيرته الجديدة من قاعدة (القلب والنظر إلى الحقيقة)، قال: حينما رأيت مشاكل عديدة تمنع عن بلوغ حقيقة المعرفة، فعلت ما فعل غاليلو بالنسبة إلى الهيئة؛ فبدلًا من أن يقول الأرض مركز العالم والشمس تدور حولها، قال: إن الشمس هي المركز والأرض تدور حولها، فنجح وحُلَّت مشاكله العلمية. وكذلك نجحت حين قلت: الناس حتى اللحظة كانوا يحسبون أن الحقائق هي المركز والفكر يدور حولها. ولكن بدأت أقول: الفكر هو المركز والحقائق تدور حوله، وأبسط الحقائق هو الإحساس.. فما يزعم الناس حول الإحساس؟ إنه انعكاس الحقيقة على الذهن، ولكن أقول: بل هو صبغة الذهن للحقائق. أنا أقول: صحيح أن هناك حقائق نحس بها، ولكن لم يكن من الممكن الإحساس بها إلَّا في حدود الزمان والمكان. ولدى التعمق أكثر من هذا، نرى أن الزمان لا يعني سوى نسبة الإنسان إلى الأحداث. وأما المكان فهو نسبة الإنسان (ونعني به هنا الفكر) إلى الأشياء. فاليوم يعني:

---

(١) إيمانويل كانت - كنْت (immanuel kant) (١٧٢٤ - ١٨٠٤) (وقد يكتب «عمانوئل كانط») فيلسوف من القرن الثامن عشر ألماني من بروسيا ومدينة كونغسبرغ. كان آخر فيلسوف مؤثر في أوروبا الحديثة في التسلسل الكلاسيكي لنظرية المعرفة خلال عصر التنوير الذي بدأ بالمفكرين جون لوك، جورج بركلي وديفيد هيوم.

خلق كانت منظورًا واسعًا جديدًا في الفلسفة. أثر في الفلسفة حتى القرن الواحد والعشرين. نشر أعمالًا هامة عن نظرية المعرفة، كذلك أعمالًا متعلقة بالدين والقانون والتاريخ. واحد من أكثر أعماله شهرة هو (نقد العقل المجرد)، الذي هو بحث واستقصاء عن محدوديات وبنية العقل نفسه. هجم في الكتاب على الميتافيزياء التقليدية ونظرية المعرفة وأجمل مساهمات كانت في هذه المساحات. الأعمال الرئيسة الأخرى في نضجه أو شيخوخته هي: (نقد العقل العملي) الذي ركز على الأخلاق، ونقد الحكم الذي استقصى الجمال والغائية.

تقارن إحساسي مع دورة الشمس، والمكان القريب يعني: قربي إليه. ونستطيع تشبيه الزمان والمكان بظرف بلور نضع فيه الماء فيصطبغ الماء بلون الظرف فنعتقد نحن أن اللون من الماء، ولكن الظرف فقط واهب اللون. وكذلك نحن نزعم الحقيقة في الزمان والمكان، والواقع هو أننا نحن نعيش عبر المحدودية الزمانية والمكانية، لا أن الحقائق هي التي تعيش.

من هنا كان منطق (كانت) مزج الحقيقة البسيطة وهي الإحساس (بصبغة ذاتية) هي صبغة الزمان والمكان. فقال: نستنتج من هذا أن الحقيقة كما هي في واقعها -أو بتعبير آخر كما هي في ذاتها- لا يمكن أن تعرف لأننا لا نملك إلَّا أداة محدودة للمعرفة وهي أداة الذهن التي تعيش ضمن وقت ومحل محدودين.

فالحقيقة إنما تعرف بنسبة معينة، وهكذا كانت النظرية نسبية وتُفرِّق بين (الشيء لذاته) و(الشيء لذاتنا). فالشيء لذاته -أو كما هو في ذاته- يختلف عن (الشيء لذاتنا) أو الشيء كما نتصوره. ثم استرسل قائلًا: ولذلك فإن بحوث الميتافيزيقيا (الغيب) بعيدة عن إحاطة الإنسان لأنها مجردة عن الزمان والمكان.

أما بحوث الرياضيات فإنها أيضًا لا تعكس الحقائق ولكنها صحيحة حسب أفكارنا؛ إذ إنها تكرير لحقيقتي الزمان والمكان. فالحساب مجموعة أعداد، والعدد ليس إلَّا انعكاس الذهن على شاشة الأشياء. فأنا، يعني عندي واحد. وأتصور مثلين لـ(أنا) فأكوّن فكرة (٢) وهكذا.

وكذلك الهندسة تحديد للأماكن القريبة والبعيدة ونوع قربها وبعدها عني.

واستخلص (كانت) من منهجه أن العلوم على أقسام[1]:

١ - الطبيعيات؛ وهي التي تحتوي على مادة هي الإحساسات وصورة هي الزمان والمكان.

٢- الرياضيات؛ وهي التي تحتوي على صورة وهي الزمان والمكان ولكن من دون مادة.

٣- الإلهيات (الميتافيزيقيا)؛ وهي التي لا تحتوي موضوعاتها على صورة ولا على مادة.

(١) لاحظ: بدوي، د. عبدالرحمن، موسوعة الفلسفة، ج٢، ص٢٧٠.

ويقول: إن معارفنا عن الطبيعيات مزيجة من الذاتية والموضوعية وهي لذلك لا تمثل إلَّا بعـض الحقيقة. ومعارفنا عن الرياضيـات ذاتية بحتة ورغم اننا نعتقد بها لأنها جزء من تركيب أذهاننا فإنها لا تعكس حقيقة وراءها... وأما معارفنا عن الغيب (ميتافيزيقيا) فإنها لا ذاتية ولا موضوعية.

نقد النسبية الذاتية:

١- لكـي نكون واقعيين ينبغي أن نتساءل ما هي الوسـيلة التـي عرف بها كانت أن الزمان والمكان عرضان ذاتيان؟ أهي المعرفة أم هي الجهالة؟.

إنَّ (كانت) لا يتردد عن القول بأنه اكتشف بصورة جازمة طبيعة الزمان والمكان[1]. وهـذا يعنـي أنه عالم بحقيقة الزمـان والمكان، وهو يعني بدوره أن لـ(كانت) كإنسـان نورًا كاشـفًا يستطيع أن يُسلِّطه على نفسه ويكشـف فيها حقيقة الزمان والمكان. ونحن إذ عرفنا هذه الحقيقة وهي: وجود نور في النفس يكشف الحقائق ورأينا أنفسنا نملك أشد القناعات بنتائج هذا النور نعلم أن البشر قادر على كشـف الأشـياء، ومقدار ما يكتشـف منها يكون واضحًا أمامه وذا قيمة تامة لديه.

وهذا ذات ما اسـتهدفناه بالمذهـب العقلي، وهو ينطوي على رد النسـبية الذاتية. إذ إن الـذات (ونعنـي به هنـا ما بالنفس مـن عوارض الجهـل والهوى) خاضع لنـور العقل الموجود فيه ومنكشـف به. إذًا فهو يفتضح لدى إدخال جهالات باطلة ضمن المعلومات الصحيحة.

٢- والزمـان والمكان منكشـفان بالعلم، ذلك أن التعاقـب بين حدثين (وهو مفهوم الزمـان عنـد كانت)، أو بين شـيئين (وهو مفهوم المـكان عند كانت)، إن هـذا التعاقب لا يمكن الإحسـاس به، فكيف اعتقدنا به؟ يقول (كانت) لأنه يسـتحيل العلم بشيء لا زمان له. وهذا خطأ، فالمسـتحيل -مثلًا- نعلم به بعيدًا عـن قالبي الزمان والمكان وكذلك الخير والشر والقبح والحسن والفضيلة والرذيلة.

ومـن هنا نعلم أن موضوعات المعـارف الغيبية (ميتافيزيقيا) معلومات لا ريب فيها بالرغم من أنها لا تخضع لظرفي الزمان والمكان؛ لأنها:

---

(١) لاحظ: موسوعة الفلسفة، ج٢، ص٢٧٢.

أولًا: معلومات قناعتنا بها قد تكون أشد من قناعتنا بنتائج الحس. فكيف نؤمن بهذه ونكفر بتلك؟.

ثانيًا: تضاهي تلك المعارف التي نؤمن بها وليست خاضعة لظرفي الزمان والمكان مثل المعلومات العقلية التي آمن بها (كانت) أيضًا، كاستحالة التناقض.

ثالثًا -وأخيرًا-: هي النتيجة الطبيعية للإيمان برابطة العلة والمعلول التي آمن بها (كانت) نفسه.

والواقع أن (كانت) أبعد عن منطقه الوضعي الحقائق الغيبية لأنها لا تخضع لمفهومي (الزمان) و(المكان). وهو لم يأت بدليل مقنع في أن يتخذ من علمنا اليقين بالغيبيات، حجة على أن الزمان والمكان لا يعدوان حقيقتين منكشفتين بالعقل، وليسا أمرين ذاتيين. كما زعم.

وبعدُ فنحن لا نُنكر أن هناك مجموعة من الحقائق لا يمكننا الإحاطة بها علمًا. فحقيقة الوجود -مثلًا- حقيقة بعيدة عن الزمان والمكان ولكننا بعيدين عن معرفتها، لأننا نعيش في إطار الزمان والمكان، ومن المستصعب عمليًّا التجرد عنهما للإطلال على جوهر الأشياء. ولكن هذا لا يزيدنا إلَّا ثقة بعقولنا التي هدتنا إلى أن هناك حقائق نجهلها وإلَّا فكيف عرفنا أن هناك حقائق وراء مشاعرنا؟!.

النسبية الفردية:

كان (كانت) يذهب إلى النسبية الذاتية التي تهدف إلى إثبات وجود إضافة من ذات البشر على المعلومات التي تعتبر عنده إضافة المحسوسات إلى ما بالذات من قالبي الزمان والمكان.

وكانت تلك النسبية ترى: أن الذات البشرية واحدة في كل إنسان، وأن الناس سواسية في تفهُّم الحقائق.

وكانت تعترف أيضًا بصحة المعارف الرياضية لأنها نابعة من أصل ثابت عند الناس جميعًا وهو الزمان والمكان.

إلَّا أنها تطورت لدى النسبية الفردية، فقالت:

١ - ما دامت الذات البشرية تخلق أثرًا غير واقعي على المعارف كقالبي الزمان

والمكان، ولا يملك الإنسـان نورًا يكشـف به زيف هذه الزيادة وبُعدها عن الحقيقة، مادام الأمـر كذلـك فـإن القول بأن الناس سواسـية في الإضافـات قول باطل، لأن لكل إنسـان شروطًـا خاصةً بالإدراك ليسـت للفرد الآخـر. ومن هنا فله إضافـات ذاتية مخصوصة به، فكل بشر يُدرك على شاكلته. ولهذا قالت هذه النسبية: لكل شخص حقيقة تخصه.

٢- وعـلى هذا فليس مـن الصحيح الإيمان بصحة الرياضيـات إذ إنها غير ثابتة هي الأخرى. بل قد يكون: ٢ × ٢ = ٤ عندي، ولكن عند غيري يساوي خمسة، لماذا؟.

لأنه لا يملك أحد مقياسًا ثابتًا للمعرفة؛ إذ يحتمل فساد معلوماته بإقحام التصورات النابعة عن شروطه الخاصة للإدراك.

هذه هي النسـبية الفردية، وقد فضَّلنا أن نسـميها بالفردية مع أن المشـهور تسـميتها بالذاتية؛ انطلاقًا من قاعدتها: إن لكل فرد نوعًا خاصًّا من الإدراك.

وهذه النسـبية ليسـت إلَّا البنت الشرعية لنسـبية (كانت)، بل هي وليدة الكفر بنور العقل الكاشف لغياهب الذات، والناقد للحس بطرقه الخاصة.

وقـد سـبق القول منا في الفصـل الأول، كيف أن العقل يحكـم أحكامًا ثابتةً لا ريب فيها ولا تتفاوت بين شخص وآخر، وقلنا كيف أن الذات منكشفة هي الأخرى وما تحس به لهذا النور المبين.

وبناء على تلك الحقائق -التي ذكَّرنا بها في ذلك الفصل- يبدو التشـكيك في المعرفة البشريـة غـير المتأثرة بالهـوى والغضـب والتـسرع تافهًـا. إذ إن الإدراك العلمي لا يخضع لشروط شخصية، وبالتالي فهو يثبت صامدًا أمام مؤثرات المادة.

والواقع أن جذر الخطأ في جميع مذاهب الشك والنسبية كامن في أمر واحد هو الخلط بين دور العقل ودور الجهل اللذين يتنازعان النفس البشرية. الجهل (أي الذاتية والمصلحية والغفلة وما إلى ذلك) يضغط على الإنسان لكي يعتقد بفكرة ولكن العقل يحكم على زيفها أو صحتهـا ثـم يكون للإنسـان كامـل الحرية في اختيـار أي الطرفين. وحـين يصفو العقل (باختيـار الإنسـان له) فإنه يكشـف عـن الواقع. وإذا كشـف فـإن أي شيء لا يتمكن من تشكيك صاحبه في حكمه الذي يعتبره هو الحق.

النسبية التطورية:

وتابعت النسبية مسيرتها، منطلقة من قاعدة واحدة هي الغفلة عن نور العقل، الذي زُوِّدت النفس البشرية به حتى جاءت النسبية التطورية النهاية الحتمية لها. وذلك لأنه إذا كانت المادة حقيقة الإحساس، والإحساس حقيقة المعرفة أو أهم مصادرها، وإذا كانت المادة في حالة تطور دائم، فلماذا لا تكون المعرفة هي أيضًا متطورة ولا تمثل إلَّا بعض واجهات الحقيقة؟.

ولكي نعرف حقيقة النسبية التطورية يجب أن نُلقي بعض الأضواء على ديالكتيك الفكر التي هي جزء من المادية الديالكتيكية.

إن للمادية الديالكتيكية جانبًا إيجابيًّا وآخر سلبيًّا. في الجانب الأول تحاول الديالكتيكية إثبات معرفة حقة للإنسان بإزاء المثالية والتشكيكية. وتحاول في الجانب الثاني إثبات صفة التطور للمعرفة.

والحقيقة أن المحاولتين متباعدتان. يظهر ذلك ببيان كلا الجانبين، وما قد يتعرضان له من انتقاد.

١- الجانب الإيجابي:

تُقيم المادية الديالكتيكية عدة أدلة على تطابق المعرفة مع الواقع الخارجي. وينبغي أن نتذكَّر في البدء أن طبيعة الأدلة علمية وغير مرتبطة بمسألتنا الفلسفية. ذلك لأن النظرية المثالية والتشكيكية التي تحاول النسبية التطورية تفنيدها، نظرية فلسفية تستند إلى التشكيك في كل علم، بل في كل شيء وراء عالم المادة. وإن أية حقيقة علمية لا تفيدها لأنها لا تشك في تلك الحقيقة العلمية التي احتج بها فقط، بل وحتى في وجود قائلها، ويكون أشبه باستدلال النائم -وهو يحلم- بصحة علمه على أنه يسمع ويرى ويتحرك في حين لا يعترف الواعي بسماعه ورؤيته وتحركه. بعد هذه الملاحظة دعنا نستعرض أدلة الديالكتيك:

الدليل الأول:

إن الفكرة ليست إلَّا نتاجًا أعلى للمادة، حيث إنها تتحوَّل في عملية فيزيائية من الكتلة إلى الطاقة، وتتحوَّل -بعد ذلك- من الطاقة إلى الأعصاب في عملية فيزيولوجية، وتتحوَّل

-بعدئذ- إلى عملية سيكلوجية. فمسيرة الفكرة على النحو التالي:

* المادة ⟵ الإحساس ⟵ الإحساس ⟵ المعرفة.

وبتعبير آخر:

* المادة ⟵ الفيزياء ⟵ الفيزلوجي ⟵ السيكلوجي.

فـإذا كانـت المـادة لونًا من ألـوان الحركة، فإن الحركـة ذاتها -بصفاتهـا- تحوَّلت إلى حركة نفسـية عبر حركة في الأعصاب. فلذلك لا نسـتطيع أن نقول: إن الإحساس يختلف عن الواقع الموضوعي.

ونحـن واقعيـون ونعترف بتوافق الإحسـاس والواقع الموضوعـي أو لا أقل إمكان هـذا التوافـق. ولكننا مع التجرد عن هذه الصفة، وافتراض كوننا مثالين جدلًا لا نسـتطيع أن نقتنـع بهـذا الدليل، لمـاذا؟. ينبغي توضيح نقطتين لمعرفة السـبب الذي حملنا على رفض هذا الدليل!.

بين التحويل والتنبيه:

لابـد من التفريق بين مفهومي التحـوُّل والتنبُّه. ففي الميكانيـك: البنزين يتحوَّل إلى طاقة محرِّكة، أما الضغط الذي يولد الانفجار في عبوات الطاقة فإنه ليس إلَّا منبهًا؛ أي ليس هو الذي يحرك السيارة، وانما هو الذي ينبه الطاقة، ويشعلها.

ومثل آخر عن الكهرباء: الطاقة تتكون في مركز توليد الطاقة، وتسـير عبر الأسـلاك حتى تبلغ قريب المصباح حيث ينقطع السـير في الزر المختص، ويأتي الإنسـان ليضغط على (الزر) فيشتعل المصباح. طاقة الإنسان تحولت فعلًا إلى الزر ولكنها ليست هي التي أعطت المصباح الضياء، بل كانت بالنسبة إليها منبهًا فقط.

فتحويـل الطاقـة يعني انتهاء الطاقة من شيء ووجودهـا في شيء آخر لم تكن فيها أية طاقة. أما التنبيه فإن الطاقة لا تتحول من الشيء الأول إلى الشيء الثاني، بل إن الشيء الثاني يملك طاقة من ذاتها أو من مكان آخر، ولكنها تنتظر المنبه.

وهنا نسـتطيع التفرقة بين عملية الإحسـاس وعملية الهضم. فـالأولى منبِّهة والثانية محوِّلـة. الإحسـاس لا يحـول الطاقة من الـشيء الخارجي بكاملهـا إلى الأعصاب، بل حين

أحس بالنور يبقى النور في مكانه، ولا يتحول كله إلى الأعصاب. والأعصاب هي بذاتها حية فيها الحركة والطاقة تمامًا كما هو موجود في أسلاك الكهرباء، والإثارة الخارجية لا تعدو أن تكون محركة لتلك الطاقة الموجودة.

ولمزيد من التوضيح نقارن المنبهات بالإرادة. فنحن جميعًا نعلم بوجود خطين في الأعصاب؛ خط الاستقبال، وخط التوجيه. فالمنبهات بالنسبة إلى خط الاستقبال تؤثر في الأعصاب حتى تحمل الإحساس إلى الدماغ. أما خط التوجيه فإنه يرسل بسببه الأوامر من الدماغ إلى الأعضاء. فالإرادة تبعث في الأعصاب ما تبعثه المؤثرات الخارجية فيها لكن باتجاه معاكس. وبما أن عملية التوجيه ليست بتحويل الطاقة إلى الأعصاب إذ إن الإرادة باقية محلها، فإن عكسه -وهو خط الاستقبال- لا يحول الطاقة من الخارج إلى الأعصاب. وهي بالتالي تشبه المنبهات الآلية الموجودة في الطائرات المزودة بالرادار، حيث إنها هي التي تنبه بالمؤثرات وليست عملية تحويل الطاقة تجري فيه كما تجري في محركاتها ونفاثاتها.

وهذا لا يجعلنا ننكر أي تحويل. فبالدقة: إن هناك جزءًا قليلًا من الطاقة يتحول من المنبهات إلى الأعصاب (كالجزء القليل من الأشعة التي تنعكس على شبكة العين)، ولكن لا يعني هذا (التحويل المطلق) كما لا يعني تفسير الإحساس بعملية التحويل.

وقد خلطت المادية الديالكتيكية بين التحويل والتنبيه. هذه مفارقة.

ومفارقة أخرى: لم تفسر لنا المادية هنا كيف تتم عملية تحول الطاقة من فيزيولوجيا إلى سيكلوجيا؛ أي كيف يعرف الإنسان؟ وهذا هو السؤال الأهم في مشكلة المعرفة، وإلا فتحويل الطاقة من الخارج إلى الأعصاب أمر يفهمه الأطفال إذا حدد بالإثارة والتنبيه فقط كما فعلنا آنفًا.

وهكذا سقطت الحجة عن قيمتها في مشكلة المعرفة وكانت أشبه بالفرار من الإجابة عن شيء إلى الإجابة عن شيء آخر.

وبعد هاتين المفارقتين نقول: المشكلة في تقييم المعرفة ومطابقتها للواقع الخارجي تبدأ أولًا -وعند المثاليّن- بالسؤال عن هذه المعلومات (تحويل الطاقة و.. و.. و..) ذاتها، فالمثاليون ينكرونها رأسًا، فما هو الدليل على صحتها؟

ولو افترضنا -جدلًا- صحة عملية التحويل هذه، فهل في هذا أي دليل على المطابقة

بين الفكرة والحقيقة الخارجية، مع أنهما شيئان حسب اعتراف المادية الديالكتيكية ذاتها، وهل أن الأسلاك تعلم بماهية توليد الطاقة حينما تتحول إليها هذه الطاقة؟.

ولنفترض أنها تعلم، ولكن العلم ليس مجرد الإحساس البسيط -كما يعترف بذلك الديالكتيك- فهناك حسب نظريته المفاهيم العامة. فكيف يمكن تفسير تكوّن المفاهيم العامة؟ مع أنه يشبه تكون طاقات كهربائية مضاعفة في الأسلاك ذاتها، فهل تسمي ذلك تحويل طاقة أيضًا؟.

الدليل الثاني:

وقال الديالكتيك: إن الفكر يستطيع أن يعرف الطبيعة معرفة تامة، ذلك لأنه يُؤلِّف جزءًا منها وهو نتاجها والتعبير الأعلى لها. فليس الفكر سوى الطبيعة، تعي ذاتها في ضمير الإنسان.

يقول لينين: «إن الكون هو حركة للمادة تخضع لقوانين، ولما لم تكن معرفتنا إلَّا نتاجًا أعلى للطبيعة لا يسعها إلَّا أن تعكس هذه القوانين».

إن هذا الدليل ليس إلَّا ترديدًا خطابيًّا للدعوى ذاتها، فهي مصادرة حسب تعبير الفلاسفة. إن المثالية تقول: حسنًا، ما معنى التعبير؟. وما معنى الوعي؟. اللون تعبير عن نور الشمس، يعني أنه يعيه ويفهمه ويشعر به. الكلمة تعبير عن الواقع الموضوعي، يعني أنها تعيه وتفهمه وتشعر به. ثم ماذا يعني وعي الطبيعة لذاتها؟. هل يعني هذا أن هناك تمازجًا بين المخ والمادة؟.

فلنسأل: أيهما أشد تمازجًا: المعدة أم الدماغ؟، بل أيهما أشد تمازجًا: البنزين في محركات الطائرة أم الإثارات في عملية المخ؟.

إن التشويش يبدو واضحًا في نصوص المادية الديالكتيكية التي تبغي إثبات قيمة للمعرفة، وهو أكبر دليل على فشل أية حجة تريد إثبات أية قيمة للعقل دون التوسل إلى ذاته والتنور به، لا الانحراف عنه إلى المادة لتفسير العقل بما لا يغني عن الحق شيئًا.

الدليل الثالث:

وفي النص التالي، يحاول الديالكتيك إثبات قيمة تامة للمعرفة عن طريق علم الحياة

فيقول: إن الفكرة لا تستطيع أن تكون -وهي في مستوى الإحساس- نافعة بيولوجيًّا في حفظ الحياة، إلَّا إذا كانت تعكس الواقع الموضوعي. فإذا كان صحيحًا: أن الإحساس ليس إلَّا رمزًا دون أيما شبه بالشيء، وإذا كان يمكن -بالتالي- تطابق أشياء عديدة متغايرة أو أشياء وهمية ومثلها تمامًا أشياء واقعية؛ عندئذ يكون التعوّد البيولوجي على البيئة مستحيلًا؛ إذ افترضنا أن الحواس لا تتيح لنا تعيين اتجاهنا بيقين وسط الأشياء.

ولكن هذا الدليل هو الآخر يسقط منهارًا أمام تساؤلات المثالية والنسبية الفيزيولوجية والفردية أو.. أو.. التي تقول: أفليس من الممكن أن يكون الرمز كافيًا لتحديد اتجاه البشر في وسط الأشياء، ثم لا يكون كاشفًا عما وراءه من حقيقة موضوعية. أفليس النبات أيضًا يُكيِّف ذاته وسط الحياة بالرموز ولكنه لا يعلم شيئًا؟، أوليست الطبيعة كلها تجري وفق رموز متبادلة؟، بل أليست الماكنة الحديثة تسير وفق رموز ولكنها لا تعي الحقيقة؟.

من هنا نعلم أن المادية الديالكتيكية عاجزة عن إثبات أية قيمة ثابتة للمعرفة. والواقع أن أية نظرية تنحرف عن منهج الحق، وتبتغي السبل الملتوية، لا يقدر لها النجاح.

٢- الجانب السلبي:

تعتقد الديالكتيكية بالنسبية التطورية التي تعني أن الفكر الإنساني لا يستطيع إلَّا معرفة بعض الحقائق، ولكن لا بمعنى أن الحقيقة التي تحس وتدرك لا تمثل الواقع وتمثل الذات الشاعرة كما زعمتها النسبية الذاتية والنسبية الفردية؛ لا بهذا المعنى، بل بمعنى أن المعرفة ذاتها تنمو وتتكامل كأي شيء مادي آخر في الكون. ومن هنا يقول لينين: نستطيع بانطلاقنا من المذهب النسبي البحت تبرير كل نوع من أنواع السفسطة.

ويقول كيدروف: لكن قد توجد ثمة نزعة ذاتية ليس فقط حينما نعمل على أساس المنطق الشكلي بمقولاته الساكنة الجامدة، وإنما أيضًا حينما نعمل بواسطة مقولاته المرنة والمتحركة. ففي الحالة الأولى نصل إلى الغيبية، وفي الثانية نصل إلى المذهب النسبي والسفسطائية والانتقائية.

ويقول كيدروف أيضًا: أما المنطق الديالكتيكي فهو لا يواجه هذا الحكم بأنه شيء مكتمل، بل بوصفه تعبيرًا عن فكرة قادرة على أن تنمو وتتحرك. ومهما كانت بساطة حكم ما ومهما بدا عاديًّا هذا الحكم، فهو يحتوي على بذور أو عناصر ديالكتيكية تتحرك وتنمو

-داخل نطاقها- المعرفة البشرية كلها.

وتذهب الديالكتيكيـة في المعرفـة بعيـدًا لتجعـل الحقيقـة مزيجا دائمًا مـن الصحيح والباطل ومن السـلب والإيجاب. فلو عرفنا -مثلًا- وجود ظاهرة حسـب الرأي الشكلي، قلنـا: إنهـا موجـودة. ولكن الديالكتيـك لا تقول أبـدًا: إن هذا الشيء موجـود وكفى. بل تقـول: إنه موجود في لحظة. فلنسـتمع إلى مثال كيدروف: هـل الدائرة المربعة موجودة؟ في المنطق الشكلي يقف الإنسان عند حد إجابات بسيطة جدًّا (نعم) أو (لا)؛ أي عند حد تمييز نهائي بين الحقيقة والخطأ لهذا السبب تواجه الحقيقة باعتبارها شيئًا معطى ساكنًا ثابتًا نهائيًّا ومتعارضًا تعارضًا مطلقًا مع الخطأ ولكن المادية الديالكتيكية تقول: نعم ولا في لحظة...

خلاصة النظرية:

أنها تدور في ثلاث نقاط:

١- أن الحقيقة ذاتها تتطور.

٢- أن الحقيقة دائمًا مشوبة بالباطل.

٣- أن تنامي الحقيقة إنما هو خاضع لوجود التناقض الداخلي فيها.

مفارقات في النظرية النسبية:

ولكي نتعرف على واقع هذه النظرية يجب أن نمهد لها بعدة نقاط:

١- في أكثر الأوقات تتجه النفس البشرية إلى جانب واحد فقط من الأشياء وتعتقد أنه يمثل كل الجوانب.

وهذا الاعتقاد ينشأ من استكبار النفس عن الحقيقة وتجبّرها عليها، حيث تدَّعي علم كل شيء. وعلى الإنسـان أن يكتشـف في ذاته هذه الصفة الناقصة ويحـاول إزالتها بالإيحاء الدائم إليها: أنها لم تبلغ من العلم إلَّا شـيئًا قليلًا. ويوجِّه الإسـلام الإنسان إلى هذه الناحية ويقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[1].

وقد يفترض الإنسـان أن هذا الجانب الذي يشـاهده لا يمثل الحقيقة كلها. ولو كان واثقًا من أنها الحقيقة وثوقًا، قد يفترض ذلك لكي يكشف السلبيات الذاتية التي تمتزج مع

(١) سورة الإسراء، آية: ٨٥.

الحقيقة في كثير من الأوقات. وقد يكون السبيل إلى ذلك افتراض وجود التناقضات في الحقائق المادية شريطة أن تفسر كلمة التناقض، بالتقابل. مثل تقابل (البيضة) و(الفروجة) في محاولة لكشف تطورات المستقبل وحوادث الماضي إلى جانب الإحاطة بحالات الحاضر التي تكتنف الحقيقة الواحدة. فمثلًا في الفرضية السابقة ينبغي لمن شاهد شكلًا مربعًا ألَّا يثق مبدئيًّا بهذه المشاهدة، بل يغير زاويته، فلعله يكتشف أن مقامه هو الذي أوحى إليه أنه يرى مربعًا في حين أنه هو مستطيل.

ولقد كانت نظرية هيغل -فيما يتبين بالدراسة العميقة- لا تعدو أن تكون حوارًا مع الذات، لمحاولة كشف الحقيقة كاملة. أو حسب تعبير بعض الناقدين العرب عن هذه النظرية أنها كانت محاولة لفض الفكر ذاته انطلاقًا من أن الدراسة العلمية الناجحة تعتمد على تكثيف الاحتمالات العقلية حول الموضوع. فلعل في واحدة منها ما يكشف عن سُنَّة فطرية هامة. هكذا كانت نظرية هيغل.

إلَّا أن ظروفًا سياسية سيئة حالت دون قيام هذا المنطق بدوره الإيجابي وطورته إلى أداة إعلامية ضد فئات وأفكار وقيم معينة. وفيما يلي نعرف بعض السبب.

٢- ما هو التناقض؟ شأن كل الألفاظ يختلف معناه الأدبي المشتهر عن معناه في مصطلح المناطقة والفلاسفة الأقدمين. التناقض في الأدب العربي يعني (مطلق المقابلة) فالوجود والعدم متناقضان لأنهما متقابلان، وزيد وعمرو متناقضان لأنهما متقابلان في الرأي، ودارنا ودار من يقابلنا أيضًا متناقضتان -هذا في الأدب العربي-.

ولكن المنطق والفلسفة يحصران معنى التناقض في التقابل بين الوجود والعدم في لحظة واحدة. وهو -بالطبع- يختلف كثيرًا عن المعنى العام الشائع في الأدب.

وهذا الفرق سبَّب اختلافًا ليس وراءه إلَّا جهل بمراد الأطراف من اللفظ.. وقد كان نصيب الكتب المترجمة كبيرًا جدًّا من هذا الاختلاف، ولاسيما أن المترجمين لم يكونوا دائمًا فلاسفة حتى يتقيدوا باصطلاحات الفلسفة. ومنطق هيغل، شأنه شأن أكثر المذاهب الفلسفية كان ذا حظ وافر من أخطاء الترجمة أو أخطاء الخلط بين ترجمة أدبية وأخرى علمية.

وواحد من أبرز الأمثلة على ذلك، مسرحية القول بإمكانية التناقض. لقد قالوا:

بإمكان التناقض ولكنهم إنما عنوا به (كل تقابل...).

وقلنـا: باسـتحالة التناقـض وقصدنا ما يكون منـه (اجتماع الوجـود والعدم) فقط. والبون بعيد، ولكن الاختلاف قائم على أشده.

هيغـل ومن ورائه الماركسـيون قالـوا بإمكانية التناقـض وكل أمثلتهم تدل على أنهم أرادوا منه مطلق تقابل شيء مع شيء آخر. فقالوا:

ألف: الدجاجة تتناقض مع الفروجة، وهي تتناقض مع البيضة!.

بـــاء: وأن الهزيمة والانتصار وهما تتعاقبان في الجيش نوع من اجتماع النقيضين!.

جيم: وأن الثمرة تتناقض مع الشجرة!.

واضـح أن المقصـود في كل ذلـك مجـرد نـوع مـن التقابـل الـذي لم ينكـره أحد من الفلاسـفة، وليس معنى التناقض لدى هيغل اجتماع الوجود والعدم في شيء واحد ووقت واحـد. وهـل يمكن أن يكون هنـاك عاقل يعـترف بإمكانية اجتماع وجـود زيد وعدمه في الزمـان ذاته؟ وإمكانيـة صحة قانون وبطلانه؟ وإمكانية أن يكون الجيش في معركة واحدة منتصرًا ومنهزمًا؟!.

ومن هنا فإن جانبًا كبيرًا من الخلافات يتهافت بسـبب تفسـير اللفظ تفسيرًا مناسبًا. والجديـر بالذكـر أن هناك فريقًا من الغوغائيين اسـتغلوا لفظة التناقض المشـتركة في المعنى لأهدافهـم الإعلامية، فشرعوا يشـنون حربًا غـير شريفة ضد المنطق الشـكلي، زاعمين أنه جامـد وغـير معترف بالفـوارق الموجودة في الطبيعـة. هذا عن التناقض، أمـا عن التطور؟ فنتابع الحديث:

٣- لنفـترض مـرآة صافيـة إلى جنـب نهرٍ جـارٍ، الماء يتدفـق وصورتـه تنعكس على الشاشـة الصافيـة. إن ثبـات المـرآة شرط ضروري لأمانة الصور المنعكسـة فيهـا. فلو جاء شـخص وأخذ يهز المرآة، فإنها تتعرض آنذاك للتشـويش، ولو فرض أن شـخصًا قام فأخذ لقطة عن النهر أو عن المرآة، فلابد أن تمثل لقطته لحظة معينه من تدفق الماء. ولكنها صورة أمينة للغاية، لتلك اللحظة فقط.

إن هـذه هي حقيقة المعرفة التـي لا أعتقد بأن أحدًا ينكرها لو قُدِّرت له التذكرة بها، فالمرآة هي المعرفة، تعكس واقع الأشياء المتطورة (كأنها نهر لا يتوقف انسيابه). ولكن لولا

ثبات النفس وهدوئها، لما كان الانعكاس سليمًا. ومن هنا فإن النفوس المتوترة لا تستطيع إحراز معرفة صادقة.

وفيما لو التقطنا صورة علمية عن لحظة معينة، مثلًا أردنا التركيز على معرفة حالة النهر في وقت معين (أو قل حالة القمر في ليلة الخسوف ساعة معينة)، فإن هذه المعرفة لا ترتبط بجريان النهر أو دوران القمر، بل هي أشبه شيء بلقطة فتوغرافية عن حالة السيل المتدفق تعكس حالة معينة، ولكنها تعكسها بصورة ثابتة لا تتغير.

ولو أردنا التقاط صورة معينة عن وضع تاريخي معين، مثلًا عن حوادث النصف الأول من القرن العشرين، فماذا كان يعني هذا؟ يعني تقدم البشرية في غزو الفضاء، واستغلال الذرة لشؤون السلم وتلاشي الحياد الإيجابي وبروز الصين كقوة عالمية و.. و.. إن هذه اللقطة جامدة رغم أن الحياة ستتطور، ولا يمكن لهذه اللقطة أن تتغير إن كانت صحيحة وأمينة. هل يمكن مثلًا أن يكون هبوط أول إنسان على سطح القمر (عام ١٩٦٩) حقيقة ثم لا تلبث أن تصبح باطلة؟ كلا؛ لأنها لقطة عن لحظة معينة من تاريخ هذا النهر الجاري. وهل يمكن أن يكون عودة لونا ١٦ من رحلته القمرية صحيحة اليوم، ولكنها تتطور -كعلم وكحقيقة- فتصبح باطلة غدًا؟ كلا؛ لأنها أيضًا لقطة، فهي لا تتطور وإن كان الإنسان يتطور إلى مرحلة أبولو أو ساليوت؟!.

والقول بأن المعرفة تنمو وتتكامل سخيف تمامًا، كالقول بأن المرآة هي التي تتحرك، وأن الصورة الفتوغرافية خاطئة لأنها لا تعكس جميع الحالات!.

نقد النسبية التطورية:

بعد هذه الملاحظات التمهيدية ينبغي أن ننقد النسبية التطورية:

قالت أن الحقيقة تتطور. وفي سبيل نقد هذه الفكرة، نسأل: ماذا تعني هذه اللفظة؟.

إنها أمام شقوق مختلفة:

ألف: هل تعني أن الحقيقة هي معرفة الواقع الموضوعي، وبما أن الواقع الموضوعي يتطور فالمعرفة لابد أن تتطور وفقه، لأنها أمينة في إراءتها.. فمثلًا نحن نعلم الآن أن الوقت نهار، وفي الليل لابد أن نعلم -إن كنا حقيقيين- أن الوقت الآن هو ليل. فالحقيقة تطورت حسب تطور الواقع.. وهذا أمر موغل في البساطة يعرفه الأطفال ولا داعي لذكره في

كتاب فلسفي.

بـــاء: أو أنهـا تعني: أن الحقيقـة تتكامل مع ذاتهـا. بمعنى أن البشر يسـتطيع بجمع معلوماته وتنسيقها كسـب معلومات جديدة، فمثلًا: نحن نعلم أن القمر في كبد السـماء، ونعلم من جهة ثانية أنه متى كان القمر في كبد السـماء فإن ماء البحر في المد. فبجمع هاتين المعلومتـين نتعـرف على حقيقة ثالثـة هي أن الآن يزامن مـد البحر. هذا أمـر واقع. بيد أن المعرفـة لا تنمـو بذاتها، بـل لابد أن يسـبقها التركيز والتمنهـج. أرأيت مثلًا: أن الإنسـان يتمكن من العلم بنتيجة عملية حسابية بسيطة ١٥× ٧= مثلًا دون التمنهج والتركيز.

إن الحاجة إلى المنهجة والتركيز تحملنا على الاعتراف بدور العقل والإرادة في استنباط معلومـات جديدة ورفض القول بأن طبيعة المعلومات هي التصاعد والقفز وذلك بسـبب التناقضات الداخلية التي فيها. والإسـلام ذكّر الإنسـان بإمكانية تنمية المعلومات بالعمل والتفكـير (الإرادة والعقـل) فجـاء في الحديث عن الإمام عـلي عليه السلام: «**إِذَا رُمْتُـمُ الانْتِفَاعَ بِالْعِلْـمِ فَاعْمَلُوا بِـهِ أو أكثِرُوَا الفِكْرُ فِي معَانِيهِ تَعِهِ الْقُلُـوبُ**»[1]. وقد جاء في الحديث أيضًا: «**الْفِكْرُ مِرْآةٌ صَافِيَةٌ..**»[2].

جيم: وإذا كان تطور الحقيقة تعني أن ٢× ٢= ٤ اليوم وأما غدًا فإنها تنقلب إلى (٥)، أو أن العلم بوجود اليونان في التاريخ سينقلب في يوم إلى العلم بعدمهم، دون أية مفاجات علمية بل بصورة آلية داخل الذات، فإن هذا القول ليس سخيفًا فقط، وإنما أيضًا لا نتصور أن أحدًا قد تفوَّه به، أو زعم بإمكان الذهاب إليه.

ذلك لأن العلم شـهود وكشـف مباشر، والكشـف والشـهود ذاتيان لـه ولا يمكن للشيء أن يفقد ذاته. فلا يمكن أن ينقلب العلم الحقيقي الصادق إلى الجهل التام.

وإذا كانت الحركة تنخر في ذات العقل والعلم والفكرة والمذهب فإن نظرية (النسبية التطورية) نفسـها عرضة للانهيار؛ لأنها تحتوي على شيء كبير من البطلان. ومن هنا فليس لنـا الاعتـماد عليها، وبالتالي فإنها تتهـاوى أمامنا صريعة، مع أن قادة الماركسـية يبالغون في صحتها وحتميتها وبقائها إلى الأبد!.

---

(١) غرر الحكم: ص٤٥ باب : ثمرة العلم و العمل به، ح١٥٥.
(٢) بحار الأنوار: ج٦٨، ص٣٢٨.

البحثُ الثّالِث: العالَمُ بَيْنَ الرؤيةِ الإسلاميّةِ والتصوُّراتِ البشريّة

١- المدخَل
٢- الدِّيالكتيك فلسفةٌ عَامَّة
٣- الفلسفةُ الميكانيكيَّة
٤- الإسلامُ وفلسفةُ النُّور
٥- تعَاريفُ لا بُدَّ منها.

◇ المـدخـــل

تكويـن مفهـوم عام عـن الكـون أو في تعبير أفضـل عن العـالم (وهـو كل حقيقة وراء الشعور)، ليس من اختصاصات العلم بمعناه الضيق، بل هو موضوع الفلسفة بالمعنى الشامل.

فإذا سألت أي عالم فيزيائي أو كيميائي أو اجتماعي عن هذا العالم ما هو؟ لأخذ يحلل لك مواده ويشرح لك سـننه وغرائبه. ولكنك ترى هذه الأجوبة ضئيلة لا تكفي حاجتك الملحة إلى تفهُّم حقيقة العالم ككل، وتكوين نظرة عامة عنه.

إن المفهوم العام، هي القيمة الأساسـية التي تقوم عليها قائمة العلوم البشرية جميعًا، وهي الركيزة الأولى التي تدور حولها النظم والقيم والنشـاطات كلها، وهي الأطر الكبيرة التـي تتحـرك ضمنها جزئيـات الكون، وهي الـروح التي تعيش خلف العـالم وتحركه أنَّى شـاءت. ولذلك فإن العلوم التي تبحث في بعض الجوانب الظاهرية من الكون لا يمكنها إعطاء مفهوم عام عن العالم.

إن الإنسـان بحـث عن المفهوم العام قبـل بحثه عن الخصائص الجزئيـة بكثير، ولا يزال يبحـث عنه رغم توسُّـعه في حقول العلم جميعًا. فتاريخ الأديان والفلسـفات يسـبق أبدًا تاريخ العلـوم، ويحظى عـبر جميع الأجيال بأكبر الاهتمام. وظل الإنسـان يبحث عن هذا المفهوم حتى اليوم، وغدًا حتى الأبد. لأن في الإنسان نهم بالغ يدعوه إلى هذا البحث أشد من أي نهم آخر.

مـن هنـا، نـرى في كل أمة نهضة فلسـفية تعيـد إلى النـاس شـعورهم بمفاهيم عامة مسـتقيمة، ثـم تبتـدئ مسـيرتها العلمية. كذلـك في اليونـان، وكذلك في أرض الإسـلام، وكذلك في أوروبا، سبقت كلمة الفلسفة منطق العلم.

وتتلخص عناصر المفهوم العام عن العالم في بضعة أسئلة يوجهها الإنسان إلى نفسه.

* ما هي الروح التي تدبر ظواهر العالم، أو بتعبير آخر: ما هو إله هذا الكون العميق الواسع؟.
* وما هي القيم الأساسية التي تعمل وفقها الحياة، أو بتعبير آخر: ما هي سنن الحياة العامة؟.
* وما هي نسبة الإنسان إلى الكون، أو بتعبير آخر: ما هو الدين القويم للإنسان؟.

وتصدى لصياغة مفهوم عام عن العالم، الإنسان عبر الزمن. فلم يستطع التجنح فوق منطق الكثافة المادية القريبة. وابتعث الله رسله ليهدوا الناس إلى عالم الغيب، الذي يُقيِّم عالم المادة ويُدبِّره.

ومن هنا تنوع المفهوم العام إلى مفهوم مادي وآخر سماوي، والمفهوم المادي تشعب إلى ثلاث مدارس رئيسة:

١ - **المدرسة المثالية**، التي لم تبصر سوى النفس البشرية، فرفضت الاعتراف بحقيقة ما وراء الشعور. وقد بحثنا حول هذا المفهوم في الفصل السابق لدى بحثنا عن قيمة المعرفة.

٢ - **المدرسة المادية العقلانية**، وتدخل ضمنها المدرسة المادية الوضعية، والمادية الميكانيكية، وفلسفة أرسطو الثنائية، وما أشبهها. وتجمع بينها فكرة العقل المدبر، الذي يُسيِّر الكون، سواء كان العقل خارجًا عنها أو داخلًا فيها.

٣ - **المدرسة المادية اللاعقلانية**، وهي تنطوي على: المادية الديالكتيكية وبعض الفلسفات الرجعية التي تتوغل في عمق التاريخ السحيق.

٤ - **المفهوم الإلهي**، وهو الإسلام، الذي نزل به أنبياء الله أجمعون عليهم السلام وأكملها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وخلفاؤه المعصومون عليهم السلام.

ولنتحدث الآن عن هذه المدارس الأخيرة، ونحن نمهد لاستعراض العقائد الإسلامية، التي هي شرح وتبيين للمفهوم الإسلامي العام عن حقيقة الكون.

ونبدأ الحديث عن المادية اللاعقلانية (الديالكتيك) لنقترب شيئًا فشيئًا من المفهوم الإسلامي؛ ذلك أن المادية العقلانية تتوافق مع المفهوم الإسلامي في جانب كبير.

٥ الديالكتيك فلسفة عامة

إلى جانب المنهج الديالكتيكي -الذي نقدناه في فصل سابق عند الحديث عن النسبية التطورية- تستقر الفلسفة الديالكتيكية، وهي وليدة حتمية لنظرية النسبية التطورية التي تبنتها المادية الديالكتيكية.

وقد تبيَّن سابقًا مدى التناقض المنطوي عليه منهج النسبية التطورية، وبذلك ينهار بناء الفلسفة الديالكتيكية أيضًا.

ومع ذلك فإنا نستعرض فيما يلي ملامح الديالكتيكية وما تعرَّضت له من انتقادات مباشرة.

تزعم الديالكتيكية الفلسفية:

١- أن كل شيء في حالة تغيُّر دائم، وليس له سوى تاريخ مضى ومستقبل يأتي، تمامًا كالنهر الذي نراه واحدًا ولكنه في حالة تبدُّل مستمر.

٢- كل شيء يرتبط بكل شيء. فلا يمكن أن نفقه حقيقة الكون إلَّا بصورة شاملة؛ أي من زاوية التفاعل المستمر بين أجزائه.

٣- كل شيء يحتوي على نقيضه (؟!). فالبيضة تحتوي على الفروجة التي هي نقيضها، والفروجة بدورها تنطوي على نقيضها وهي الدجاجة. وعليه ففي كل شيء قوتان متضادتان؛ واحدة تجرُّه إلى البقاء، والثانية تدفعه إلى الأمام.

٤- وبفعل هذا التناقض الداخلي، يحدث انقلاب مفاجئ في كل شيء، فالبيضة مثلًا: تتفاعل فيها القوى المتضادة حتى إذا بلغت مرحلة (القفز) انفلقت عن الفروجة، وهذا الانفلاق يحدث فيها بصورة مفاجئة. والماء يوضع على النار، فينشأ فيه تناقض

داخلي، ينقلب به بصورة مفاجئة إلى البخار.

وقبل البدء بنقد هذه النظرية، لابد من عرض ملاحظتين:

١- أن هيغـل كان أول فيلسـوف وضـع المنطـق الديالكتيكي وفلسـفته، وقد هداه منطقـه إلى الإيـمان بالدين والدعوة المُلِحَّة إليه من جهة. ومن جهة أخرى إلى القول بالمثالية التـي تعتبر الكون انعكاسًـا للروح وليس العكس. وقد تبنَّت الماركسـية هذا المنطق، وهي تعتقد أنه لا وجود للروح، وأن كل شيء في الذهن ليس إلَّا انعكاسًا للمادة على النفس.

وهنا لابد من التساؤل عن مدى قدرة هذه الفلسفة للبلوغ بنا إلى الحقيقة؟. فإذا كانت قدرة الفلسـفة هذه كافية للكشـف عن العالم، فقد كان هيغل مؤسسـها أحرى بهذا الكشف. فكيف ذهب إلى المثالية؟ أم كيف تناقض معه تابعوه من أمثال ماركس وإنجلز ومن أشـبه؟. فإذا بهؤلاء يُنكرون وجود أية قيمة في الحياة، ويُجمِّدون أنفسهم في حدود المادة الكثيفة.

والواقع أن الفلسفة الديالكتيكية أثبتت فشلها منذ البدء، حيث أنكر مؤسسها وجود الواقع الموضوعي الذي لا ريب فيه، وأنكر تابعوه حقيقة القيم التي لا تردد في وجودها.

٢- هل تعتبر الفلسـفة الديالكتيكية نتيجة للتقدم العلمي الذي أحرزه الإنسان؟ هكذا تزعم أجهزة الإعلام الماركسية! ولكنه زعم ينطوي على الخلط بين الفلسفة والعلم. هذا الخلط الذي تتعمَّده الماركسـية بصورة مستمرة مع أن موضوع العلـم (بمفهومه الخاص الذي يعني كل ما هو خاضع للتجربة) يختلف عن موضوع الفلسفة الذي لا يخضع للتجربة. ولذلك فإن في فلاسفة القرن العشرين من ذهب إلى آراء فريق من فلاسفة القرن الرابع في الميلاد.

ولذلك فإن أي ربط بين التقدم والفلسـفة ينطوي على سـذاجة بالغة في التفكير. أما بالنسبة إلى فلسفة هيغل الديالكتيكية فإن هيغل لم يكن له إلَّا دور المجدد لها. وفيما يلي نُثبت قائمة بأسماء أولئك الفلاسفة الذين سبقوا هيغل في آرائهم الديالكتيكية:

ألف: طاليس[1] (أو تالس) الملطي، كان يعتقد بأصل التغيرُّ في الكون، وقد عاش في حوالي (٤٠٠ق م)، ومثله في هذا الاعتقاد الفيلسوف (إنكسيمانوس).

---

(١) طاليس (Thales)، من مليتوس، يعرف أيضاً بتالس المليسي، أحد فلاسفة الإغريق قبل سقراط وواحد من حكماء الإغريق السبعة، يعتبره العديد الفيلسوف الأول في الثقافة اليونانية وأبا العلوم. عاش طاليس في مدينة مليتوس في أيونيا، بغرب تركيا.

بــــاء: هرقليطس[١]، يُمثِّـل العالمَ بنهر جارٍ، ويرى العالم في تغيرٌّ مسـتمر، ويرى أن سـبب التغـيُّر الدائم هـو التناقض الداخلي في الأشـياء. وقد قـال عنه لينين: «كلامه شرح وتعبير كامل لأصول المادية الديالكتيكية».

جيـم: لوقيبوس[٢]، وديمقراطيـس[٣]، وإبيقور[٤]، كانوا يعتقـدون بأصل التغيرُّ في الكون.

إن وجود رجل واحد من هؤلاء يكفي لانتزاع صفة التقدم عن الفلسفة الديالكتيكية، بل وطبعها بصبغة (الرجعية السحيقة).

نقد النظرية الديالكتيكية:

المبدأ الأول:

مـاذا يعنـي التغـيُّر في الطبيعة؟ هل يعني أن المادة ذات المادة، والسـنن التي تُسـيِّرها وتُدبِّرها ذات السنن، وضمن هذه السنن سنة التطور في كل شيء؟!.

إن هذا ليس فقط حقيقة واضحة، بل إنها تكاملت في الفكر الإسلامي حتى أصبحت ركيزة البناء في صرح المعارف الإلهية، وسنبحث عنها مفصلًا بإذن الله.

---

(١) هرقليطس (Heraclitus) فيلسوف يوناني، قبل سقراط، قال بـ(التغيّر الدائم). ويصعب تحديد تاريخ حياته بدقة، غير أنه من الراجح أنه ازدهر (أي كان في الأربعين من عمره) حوالي سنة ٥٠٠ ق م، ولا يُعرف عن حياته غير أنه كان من الأسرة المالكة في مدينة أفسس (بآسيا الصغرى)، ترك الثروة والغنى ليعيش عيشة فقر ودراسة في ظل العبيد. [راجع، قصة الفلسفة، تأليف: ول ديورانت، ص٦٠، ط١/ ٢٠٠٤م].

(٢) لوقيبوس (Leucippus) ولد على الأرجح في حوالي عام ٤٧٠ ق م، من ملطية، يجمع المؤرخون القدامى على أنه أول الذريين، وضع مع تلميذه ديمقراطيس أساس المذهب الذري وإن كان الأخير قد أصبح أكثر شهرة ومكانة من أستاذه.نسب إليه كتاب: (نظام الكون الأعظم)، كما نسب هذا الكتاب لتلميذه (ديمقراطيس)، كما نسب إليه كتاب: (نظام العالم الصغير). وقد أجمع المؤرخون على أن كتبه فقدت.

(٣) ديمقراطيس (democritus) ولد حوالي عام ٤٦٠ ق م، هو من أسرة أرستقراطية ثرية، ورث عن أبيه ثروة كبيرة وأنفقها على أسفاره ورحلاته التي كانت للاستزادة والمعرفة. أسس في موطنه (أبديرا) مدرسته واستقر فيها حتى نهاية حياته. وكان ما يميزه كراهيته الشديدة للشهرة وحب الظهور. بلغت مؤلفاته حوالي ستين مؤلفًا، أشهرها ما نسب إليه وإلى أستاذه لوقيبوس، كتابي: (نظام العالم الكبير) و (نظام العالم الصغير).

(٤) إبيقور (٢٧٠ - ٣٤١ ق م) وُلِدَ في جزيرة ساموس، قام بإدارة مدرسة للفلسفة في أثينا منذ عام ٣٠٦ قبل الميلاد وحتى وفاته. كان إبيقور وافر الكتابة، منها ثلاث رسائل تلخص تعاليمه، ومن أهم المراجع المؤرخة لفلسفته قصيدة طويلة للشاعر الروماني لوكريشيس عنوانها: (في طبيعة الأشياء). ومما يميزه جعله اللذة في مرتبة الحكمة.

أم يعنـي أن كل شيء في الكـون سـائر نحو التغـيُّر، حتى القوانين الطبيعية والسـنن الكونية والقيم العامة والمعرفة الصادقة؟.

إذا كانـت الماركسـية تعنـي من التغيُّر هذا المفهوم الشـامل فإنها مخالفـة لوجدان كل إنسـان. إننا نعلم بوجودنا، أن ثلاثة في ثلاثة يسـاوي تسـعة، وأن الصدق حسـن والعدل جميل والحق مرغوب فيه. ونعلم أن هذه حقائق لن تتغير.

ثم إننا لم نُجرِّب التغيُّر في السنن الكونية. فكل القوانين ثابتة، يقوم على أساس ثبوتها صرح العلم العظيم.

ولا يسـع الديالكتيـك إلَّا أن تعـترف بثبوت القوانين الكونيـة؛ إذ إن البنود الأربعة للديالكتيك ليست سوى قوانين تدَّعي المادية الديالكتيكية أنها لن تتغير أبدًا. وإذا سحبت فرضية التغيُّر إلى عالم السنن انهار بناء المادية الديالكتيكية قبل كل بناء.

وعالم المعارف هو الآخر، عالم ثابت موزون. وقد سـبق القول منا في أن القول بتغيُّر الحقيقة أشبه شيء بالقول بتغيُّر الصورة التي تُمثِّل لحظة معينة، وأنه مُغرق في السذاجة.

والقيـم، كقيمـة العدل والصدق و الوفاء، هي الأخـرى ثابتة، لوجدان كل بشر أنها كذلك.. أترى يأتي حين من الدهر ينقلب العدل قبيحًا عند العقلاء والكذب حسنًا والغدر خُلقًا طيِّبًا؟.

إذًا فالمبـدأ الأول، صحيـح إذا وُضـع في إطار الطبيعة التي يُلاحـظ فيها التطور، أما إذا سُـحب إلى عـالم الغيـب (الميتافيزيقيا) فإنه يعـود هراء لا يمجُّه الذوق السـليم والعقل الصائب فقط، بل ويلفظه حتى أولئك الذين تشدَّقوا به.

وسنبحث قريبًا، إن شاء الله، عن مبدأ التغيُّر وأنه ركيزة الفكر الإسلامي، وستعرف هناك الكذبة الكبرى التي افتراها سـتالين حين قال: إن الديالكتيك -خلافًا للميتافيزيقية- لا يعتبر الطبيعة حالة سـكون وجمود، حالة ركود واسـتقرار، بل يعتبرها حالة حركة وتغيُّر دائمين، حالة تجدُّد وتطوُّر لا ينقطعان. ففيها دائمًا شيء يولد ويتطور وشيء ينحل ويضمحل. ولهـذا تريـد الطريقة الديالكتيكية ألَّا يُكتفى بالنظـر إلى الحوادث من حيث علاقات بعضها ببعـض، ومن حيث تكييف بعضها ببعض بصورة متقابلة، بل أن ينظر إليها أيضًا من حيث حركتها، ومن حيث تغيُّرها وتطوُّرها، ومن حيث ظهورها واختفائها.

وبعـد، هل بإمكان سـتالين أن يقول: من هم أولئـك (الميتافيزيقيون) الذي اعتبروا الطبيعة جامدة؟ بل سنعلم بإذن الله أن الديالكتيك هو الذي يمثل الجمود!!.

المبدأ الثاني:

قاعـدة التفاعل بين الأشـياء سـنّة في الخليقة معًا. فكل شيء يقـع في حلقة معينة من سلسـلة الأسباب والحوادث، وليس هناك من ينكر هذا الترابط. والإسلام يرى أن الكون كلـه آية من آيات الله العظيمة، واسـم من أسـمائه الحسـنى. فـكل شيء يرتبط بكل شيء في الخلقة ذاتها وفي أصل الوجود.

ولكن من حقنا أن نسـأل: هل يمكن للديالكتيك أن تؤمن بمبدأ الترابط العام؟! من أجل معرفة جواب ذلك، لا بد أن نعرف معنى الترابط، والسبب الذي يدعونا إلى الإيمان به.

لا يعني الترابط، التلاصق والاصطفاف في مسيرة الوجود الصاعدة، بل يعني التأثير والإيجاد والتحوُّل.

والذي يحملنا على الاعتقاد بالتأثير المتقابل في الأشـياء هو العلم بأنه يجب أن تحدث الأمور بواحدة من ثلاث فرضيات:

١- بسبب خارج ذاته.
٢- بالصدفة.
٣- بالتفاعل الذاتي.

وبناءً على الفرضية الأولى، لا بد لكل فعل يوجد من سبب خارجي له.

وعليـه فلا بد من وجـود الترابط والتفاعل بين أجزاء الكـون ليكون بعضها لبعض سببًا وعلة مُغيِّرة.

ولكن الفرضية الثانية (الصدفة) والثالثة (التفاعل الذاتي) تمنع البحث عن سبب خارجي. فمثلًا: لو رأينا انفلاق البيضة عن الدجاجة ذهبنا -نحن الإسلاميين- نبحث عن سبب خارج البيضة، وهي الحرارة الُمعيْنة التي سبَّبت انفلاق البيضة، ثم نبحث عن سبب للحرارة وهو توليد طاقة الكهرباء، ونبحث عن سـبب للتوليد. وهكذا نسـتمر في التدرج مع الأسـباب وأسـباب الأسباب إلى أن يحدث التفاعل بين أجزاء الكون. ولكن القائل بالصدفة يريح نفسه منذ البداية

ويقول: لسنا بحاجة إلى البحث عن سبب الانفلاق. وكذلك الديالكتيكي الذي يربط الانفلاق بالتناقض الداخلي ينهي الأمر أيضًا، ولهذا يُجمِّد العلاقات بين الأشياء بصورة نهائية!.

والواقـع أن هيغـل كان يقصـد بمبـدأ التفاعل حقيقة أخرى سـنتطرق إليهـا في المبدأ الثالث. أما الماركسـيون فإنهم اسـتغلوا هذا المبدأ لسحق الفرد بين فكي رحى المجتمع. فقال قائلهـم (إميل برنز) بعد اسـتعراض هذا المبدأ: وقد يبدو هذا الترابط بين الأشـياء بديهيًّا إلى درجة يظهر معها أي سـبب لإلفات النظر إليه عبثًا ولكن الحقيقة هي: أن الناس لا يدركون الترابط بين الأشياء دائمًا، ولا يُدركون أن ما هو حقيقي في ظروف معينة قد لا يكون حقيقيًّا في ظـروف أخـرى. وخير مثل يمكن أن يُضرب في هذا الصدد هـو وجهة النظر حول حرية الكلام. إن حرية الكلام بصورة عامة تحرم الديموقراطية وتُقيِّد إرادة الشـعب في التعبير عن نفسها؛ ولذلك فهي غير مفيدة مطلقًا لتطور المجتمع، إذ إنها توقف تطور المجتمع.

وهكذا اسـتغل الماركسيون هذا المبدأ بعد أن حرَّفوه، استغلوه في سبيل سحق حرية الفرد وجعله أداةً في الجهاز الحكومي الذي يمثل المجتمع.

وبعـد هـذا، فهل مـن الإنصاف أن تنعت الماركسـية الفكـر الميتافيزيقـي بأنه (يعتبر الطبيعـة تراكمًا عرضيًّا للأشـياء، أو حوادث بعضها منفصل عن بعـض، أو أحدها منعزل ومستقل عن الآخر) كما قال ستالين، أم أنه مجرد افتراء وخيانة لأمانة العلم؟.

المبدأ الثالث:

مبـدأ التفاعـل الـذاتي الذي ينشـأ من وجـود تناقض داخـلي في الأشـياء بدفعها إلى التحوُّل نحو الأعلى بصور مستمرة. وينبغي توضيح عدة نقاط، لمعرفة حقيقة هذا المبدأ:

١- تحدثنـا سـابقًا عن اختـلاف معنى (التناقـض) الأدبي عن معناه الفلسـفي، وأن الديالكتيك تسـتعمل اللفظ في مفهومه العام الذي يُعبِّر عن مطلق التقابل حسبما يظهر من أمثلة فلاسفة الديالكتيك.

٢- كيف تنشـأ الحركة؟ الجواب بسيط: خذ قضيبًا ودحرج به حجرًا تحدث حركة. ولكن لا ينتهي الأمر عند هذا الحد، بل يبقى السـؤال: لماذا حين اصطدم القضيب بالحجر حَرَّكه؟ يقول الفيلسـوف الميتافيزيقي: إن السبب هو التناقض. إذ إن القضيب احتل مكان الحجر فلم يكن للحجر إلَّا الفرار، إذ إنه اسـتحال أن يجتمع ضدان في موقع واحد. وحين

نمعن النظر نرى أن كل حركة إنما تحدث بهذا السبب. فالحركة في البيضة تبدأ بنمو أجزائها، وحين تكبر تضيق البيضة بها فتنفلق.

وهنا نضع أيدينا على رمز عظيم، هو أن كل حركة تحدث بسبب وجود تناقض ولكن لا بسبب اجتماع نقيضين. وجود تناقض بين المحرِّك والمتحرك، لا يمكن أن يجتمعا في مكان فيدفع الأقوى الأضعف إلى الخارج. ولكن لا يعني هذا اجتماع نقيضين أي احتواء المكان الواحد للمُحرِّك والمتحرك في مكان وزمان معينين. وبتعبير آخر: هذا تناقض خارجي أي وجود شيئين في مكان كل منهما يقتضي أمرًا مختلفًا عن الآخر. فإذا حاولا التجمع في مكان حدث التناقض، أي حدث تحكم مبدأ امتناع وجود المتناقضين في مكان فحدثت حركة من هذا الأمر. وهذا أمر متفق عليه من قبل الديالكتيك والميتافيزيقيا، وهو دليل على أن اللفظ فقط كان الحاجز بين الفلسفتين.

٣- ومبدأ عدم التناقض الذي تبنَّاه الفلاسفة الشكليون يشترط أن يكون الإثبات والنفي في شيء واحد ووقت واحد وحالة واحدة.

ومن الطبيعي -بعد هذا- ألَّا يبقى في الدنيا عاقل يُصحِّح اجتماع النقيضين ويقول: إن المثلث في الوقت الذي له ثلاثة أضلاع فله أيضًا أربعة أضلاع، وأن أمة اليونان في الوقت الذي كانت موجودة في التاريخ كانت أيضًا معدومة، وأن الإسلام حقٌّ كله وباطل كله في لحظة ومن جهة واحدة، وهكذا.. ومن هنا نعلم أنه ليس من التناقض في شيء، تعارض أجزاء الكون وتنازع أحيائه على البقاء. فالفعل ورد الفعل في الميكانيك ليس بتناقض؛ لأن زمان الفعل شيء يختلف عن زمان رد الفعل.

صحيح (أن لكل فعل رد فعل يساويه في المقدار ويعاكسه في الاتجاه)، ولكن ليس من الصحيح أن هذا تناقض، إذ إن الفعل يسبق رد الفعل فلا يجتمعان في الزمان. ولأن الفعل يعاكس رد الفعل في الاتجاه فليسا في مكان واحد، بل كما سبق لو كان التناقض ممكنًا لما كان لكل فعل رد فعل، إذ إنهما -إذًا- جمدا في مكانهما.

وكذلك الخط السالب والموجب في الكهرباء ليسا متناقضين، لأنهما:

أولًا: يشغلان خطين مختلفين ومكانين فلا اجتماع في المكان.

ثانيًا: يتحولان إلى الحركة لدى اجتماعهما ولا تتولد الحركة إلَّا دفعة، ولا يمكن أن تحدث الدفعة إلى الأمام لو لم يضق المكان بهما.

وهذا دليل على عدم إمكان اجتماع المتناقضين؛ إذ لو أمكن لما تصارعت القوتان على المكان وأحدثتا الحركة، بل كانتا تعيشان جنبًا إلى جنب في سلام.

هذا من جهة، ومن جهة ثانية كل شيء الآن شيء، وفي المستقبل قد يتحول إلى شيء آخر، ولا يتحول إلَّا بعد إمكان هذا التحول. فمثلًا: الطفل الآن بشر صغير، وهو في المستقبل إنسان كبير، ولا يصبح إنسانا كبيرا إلَّا بعد وجود إمكانية ذلك له. ومن هنا فليس من الممكن أن تتحوَّل البعوضة إلى حجم الفيلة لأنها تفقد إمكانية ذلك.

ويعبر عن هذه الحقيقة بلفظي (الفعل) و(القوة)[1]. فالشيء بالفعل ذو حجم معين وبالقوة ذو حجم مختلف. والأمثال على ذلك كثيرة؛ فكل حركة في العالم تعني التحوُّل من الواقع فعلًا إلى ممكن مستقبلًا.

وكل جسم حي يسير عبر التحوُّل من الحياة الساذجة إلى الحياة التامة، ومنها يتحوَّل إلى الموت والسكون، وكذلك الإنسان يتحوَّل من الواقع إلى المستقبل، من الفعل إلى القوة. فهو لا يعلم شيئًا بالفعل ولكنه يملك إمكانية التعلُّم وقوته.

بعد توضيح هذه النقاط نعرف حقيقة مبدأ التناقض، فهو عند الفلسفة الغيبية (الميتافيزيقيا) يختلف عنه في الفلسفة الديالكتيكية. فالأولى تشترط لموضوعة (مبدأ عدم التناقض) الوحدة الزمنية والمكانية والفعلية. فلو وجد شيئان مختلفان في زمانين أو مكانين أو في زمان ومكان، ولكن وجد الأول بالفعل والثاني بالقوة (الوجود حالًا وإمكانية الوجود مستقبلًا) فهو ممكن... والفلسفة الغيبية ترى أن الحركة تنشأ بهذا السبب. فالتناقض الموجود بين شيئين في مكانين أو زمانين أو حالتين يكون سببًا لدفع أحدهما للآخر إلى الخارج، والحياة كلها هي التحرك من المتحقق فعلًا إلى الممكن مستقبلًا.

أما الفلسفة الديالكتيكية فترى أن التناقض ممكن بين شيئين في مكانين متقاربين (مثل السالب والموجب في السلكين المتقاربين)، أو في زمانين متقاربين (مثل البيضة والفروجة المتعاقبين، ومثل الهزيمة والانتصار المتقاربين زمنيًّا)، أو بين شيء موجود فعلًا وإمكانية أن يكون شيئًا آخر في المستقبل (مثل الجهل والعلم في الإنسان).

---

(١) لا تعني لفظة القوة هنا وجود قوة داخلية في الشيء تدفعه إلى التحول. كلاًّ، بل معنى القوة هنا: الإمكانية، أي من الممكن أن يتحوَّل إلى شيء آخر، ولو بعوامل خارجية؛ فالطفل لولا عوامل الغذاء والهواء لما انقلب إلى شاب.

وترى الفلسفة الديالكتيكية أن التناقض هو سبب الحركة، عين ما تراه الفلسفة الغيبية كما سبقت، بيد أن اللغة تختلف. فالديالكتيكية تُركِّز على الجانب الإيجابي منه وتقول: وجود تناقض بين شيئين (يعني في مكانين أو زمانين إذا حاولا الاقتراب من بعضهما) هو السبب الوحيد للحركة.

والفلسفة الغيبية تُركِّز على النقطة ذاتها (أي امتناع اجتماع نقيضين مختلفين في شيء واحد في مكان واحد وحالة واحدة)، وتقول: إنه هو الذي يُسبِّب الحركة.

ولا ينكر صاحب الديالكتيك هذه الحقيقة ولا يُمكنه أن ينكرها؛ إذ لو أنكر امتناع اجتماع نقيضين في شيء واحد ومكان واحد، إذًا لما حدثت الحركة، بل جمدت الحياة؛ إذ تعيش أجزاؤها المتناقضة في تحابب وتواد.

وهنا ينبغي الالتفات إلى نقطة، وهي أن الديالكتيكية غيَّرت لفظة العلة إلى لفظة التناقض، فبدلًا من أن تقول: إن المواد الغذائية تسبب نمو الجسم، وإن الحركة تسبب صرف المواد في الجسم؛ تستعمل لفظة التناقض فتقول: تحليل المواد يتناقض مع النمو. ونحن في الفلسفة لا نبحث عن قائمة المصطلحات بل نبحث عن الحقيقة، وهي تقول لنا: إن كل حركة تحدث بسبب تلاقي شيئين مختلفين في مكان واحد ووقت واحد. وهذا يدعونا إلى الاعتراف بوجود سبب للحركة، ووجود سبب لسببها، لأن التلاقي لا يحدث إلَّا بسبب آخر، وذلك السبب بدوره نتيجة لسبب آخر، وهكذا...

وبهذا نعرف أنه لا يمكن للمادية الديالكتيكية أن تُفسِّر حقيقة الحركة في الكون بمبدأ التناقض؛ إذ إنه لا يعدو أن يُبيِّن لنا لماذا يتحرك الشيء بعد تلاقيه بنقيضه، ولكن لا يقول لنا لماذا يتلاقى الشيء بنقيضه.

فالمبدأ الديالكتيكي يُفسِّر لنا حقيقة العلية الموجودة بين الأشياء، ولا يمكنه أن يُفسِّر وجود العلة. ويكون أشبه شيء بذلك الذي يُسأل عن سبب الخسوف، فيجيب بأنه يسبب الظلام في ليلة قمراء، أو يُسأل عن سبب حركة السيارة، فيجيب عن وجود تناقض بين دفعة المحرك للإطار ودفعة الأرض للإطار إلى أعلى حسب مبدأ أن لكل فعل رد فعل يساويه في القوة ويعاكسه في الاتجاه.

إن مبدأ الفعل ورد الفعل لا يفسر لنا إلَّا نوعية تسبب الضغط للحركة، دون سبب

الضغط وهو وجود المحرك. وليتنا كنا نطلع على الجامعات العلمية في البلاد التي تتبنى الفلسفة الديالكتيكية لنعرف عن كثب ما إذا كانت تكتفي بذكر نوعية التسبب أم تتجاوز ذلك إلى معرفة (السبب). فحين تريد أن تدفع عجلة ألا تفكر في وسيلة لهذا الدفع أم تكتفي بمعرفة حقيقة الدفع. في الواقع؛ لا نظن أن أحدًا يمكنه أن ينكر حاجة كل شيء إلى سبب، أو يشك في أن مبدأ التناقض لا يُشبع هذه الحاجة بل يفسرها فقط.

وبعيدًا عن حقل الفلسفة يستغل بعض الأحزاب السياسية، مبدأ التناقض لشن حملات دعائية مستمرة ضد وجود البارئ للخليقة ووجود قيم ثابتة للحياة.

والحقيقة أن هذه الحملات أعطت الفلسفة الديالكتيكية أبعادًا خطيرة؛ لأنها زعزعت ثقة الإنسان بفكره وحضارته ومستقبله، وجعلته طعمة سائغة لجوعة الشهوات الطائشة، وخلقت له جوًّا متوترًا لا تهدأ ثائرته. ويذكرنا هذا الواقع بالوضع الخطير في نهاية أيام اليونان؛ إذ سادت بينهم السفسطة والجدل واستغلت الفلسفة أبشع استغلال.

المبدأ الرابع:

ماذا تعني قفزات التطور بصورة دقيقة؟.

لمعرفة ذلك نرجع إلى نص ننقله عن ستالين يقول فيه: إن الديالكتيك خلافًا للميتافيزيقية لا تعتبر حركة التطور حركة نمو بسيطة لا تؤدي التغيرات الكمية فيها إلى تغيرات كيفية، بل تعتبرها تطورًا ينتقل من تغيرات كمية ضئيلة وخفية إلى تغيرات ظاهرة وأساسية، أي إلى تغيرات كيفية، وهذه التغيرات الكيفية ليست تدريجية، بل هي سريعة فجائية وتحدث بقفزات.

في ظلال هذا النص نتساءل: ما هو واقع المفاجأة، هل معناها أننا لم نعرفها، أو لم نتنبَّأ بها قبل وقوعها، أو لم نفهم سببها قبل ذلك حسبما يركز عليه النص بكلمتي الظاهرة والأساسية؟. إذا كان هذا معنى المفاجأة اتفقنا ولم نختلف فيها؛ إذ كثيرًا ما نرى أن الماء يغلي ويغلي وفجأة يتبخر. فنحن قبل أن نكتشف أنه حين تصل حرارة الماء إلى مئة درجة يتبخر لم نكن نتنبَّأ فعلًا بانقلاب الماء بخارًا ولم نعرف سببه.

أم أن معناها أنها تقع صدفة ودون سبب، حسب ما يظهر من بعض إيحاءات النص أيضًا. إذا كان كذلك فإنه باطل ينشز عنه العقل والعلم؛ إذ حين نرى تبخر الماء فإن العقل

يهدينا إلى وجود سبب ما لهذا التبخر وإن كنا نجهله تمامًا. كيف انقلبت المادة الميتة إلى خلية حية؟. إننا حتى اللحظة نجهل السبب، ولكن لا يعني هذا وقوع الأمر دون سبب.

أم يعني أن القفزة تعتبر تطورًا أساسيًّا؛ أي أن المادة تنقلب إلى حقيقة أخرى لها ميزات مختلفة عن الحقيقة السابقة، فهذا أيضًا صحيح. فللبخار مثلًا خواص مختلفة عن الماء الذي يغلي؛ إذ إن امتداد البخار كافٍ لرفعه عن الأرض وامتداد الماء المغلي يكفي لذلك.

والماركسية استغلت هذا المبدأ بعد أن فسرته تفسيرًا بعيدًا عن العقل والعلم، استغلته لإثبات بعض الأمور:

١- أن قفزات التطور تكون بصورة ديالكتيكية نابعة من تناقضات داخلية في الشيء!

ولكن سبق أن مبدأ التناقض الداخلي في الفلسفة الديالكتيكية لا ينافي وجود أسباب خارجية، بل إنه لا يعدو أن يكون تفسيرًا لحقيقة التسبب لا إغناء عن وجود سبب.

كما أن تطور الماء إلى بخار لم يكن دون سبب خارجي وهي الحرارة التي سخنت الماء.

٢- أن الحركات الاجتماعية تحتوي على قفزات طبيعية صاعدة يتطور المجتمع خلالها من الاقطاع فالرأسمالية إلى الاشتراكية فالشيوعية؛ لأن المجتمع محكوم بقوانين الطبيعة تمامًا، بيد أنه سيُعلم، لدى الحديث عن المجتمع، سيُعلم -إن شاء الله- عقم هذه النظرية التي تُفسِّر المجتمع الإنساني بالتفسيرات المادية التي تحكمها قوانين الطبيعة العمياء.

مضافًا إلى ذلك نقول: إن التطورات الاجتماعية لن تتحقق دون عوامل معينة، وأن الإنسان أوتي قدرة التحكم على تلك العوامل بقدر ما يتمكَّن من التحكم بالأسباب الطبيعية.

ثم إن التطورات الاجتماعية لن تكون صاعدة أبدًا، بل قد تنتكس كما ينتكس خط الطبيعة. فالماء لا يتبدَّل إلى بخار دائمًا، بل قد يتحوَّل البخار إلى مطر غزير.

من هنا نعرف أن القواعد الأربعة للفلسفة الديالكتيكية لا تثبت أمام النقد الإيجابي إلَّا إذا فُسِّرت تفسيرات مناسبة.

⟐٥⟐ الفلسفة الميكانيكية

تتلخص فلسفة المادية الميكانيكية في عبارة ديكارت: أن الكون مكينة كبيرة.. تفسيرًا لهذه العبارة يجب أن نثبت عدة نقاط:

١- أن الميكانيكية ترى ضرورة سبب خارجي لأيَّة حادثة، بل إن طبيعة هذه الفلسفة تقتضي وجود علة خارجية لكل أمر حادث، ولكل حركة حادثة، ولهذا تختلف الفلسفة الميكانيكية عن الفلسفة الديالكتيكية -بصياغتها الماركسية الأخيرة- في أن الميكانيكي يُعيد كل صيرورة إلى سبب خارج الذات، والديالكتيك يُرجعها إلى داخل الذات.

وقد سبق القول: إن الديالكتيك لا تستطيع، بل لا تريد في صياغتها الصحيحة، نسف مبدأ السبب الخارجي؛ لأنه مبدأ فطري يُؤمن به كل بشر حتى أولئك المنكرين يقيمون حياتهم العملية والعلمية على أساس هذا المبدأ.

٢- ولا تنكر الميكانيكية طبيعة التغيُّر المستمر في مواد الكون.

٣- ولا تنكر أيضًا وجود تفاعل كامل بين أجزاء الكون، بل هذا المبدأ ركيزة الميكانيكية حسبما يأتي إن شاء الله. لا تُنكر كل ذلك كما اتهمتها به بعض الفلسفات.

٤- ولا تنكر الميكانيكية وجود تناقض ظاهر أو خفي بين عوامل الكون، ولكن تُفسِّر التناقض حسبما سبق في توضيح الديالكتيكية؛ تُفسِّره بمعنى التقابل، وهو أن كل شيء لا يُمكنه أن يستقر في مكانه مع شيء آخر يتحول إلى وضع جديد. فالعصا التي يضرب بها الفلاح الحجر لا يمكنها أن تجتمع مع الحجر في موقع واحد، فيتحرك الحجر ليُعطي مكانه للعصا. ولو امعنَّا النظر في التفاعلات الكيمياوية لأيَّة خلية لوجدنا فيها

هـذه الحقيقة أيضًا، فالمواد الداخلة تدفع بالمواد المتبقية لإفسـاح المجال لها، ولو لا التناقض لاستقرتا بأمان!.

٥- والنقطة الوحيدة التي نُريد أن نُركِّز عليها من الفلسـفة الميكانيكية -والتي تُعتبر جوهر الفلسفة فيما يرتبط بالثقافة البشرية- تكمن في أن الحركة إذا وُجدت دامت. وسنُبيِّن قريبًا بـإذن الله، علاقـة هذه الفكرة بالثقافة، أمـا الآن فينبغي أن نعـرف معنى هذه الفكرة وحجتها.

معنـى هـذا المبدأ أن للكون خالقًا قديرًا أوجده وفصَّلـه أجزاءً، ودبَّره بقوانين دقيقة ومتوازنـة، والتـي منها قوانين التفاعل المتبادل الذي يقضي بـأن تكون مادة الكون خاضعة لعدة نُظُم دقيقة تنقل الطاقة من جزء إلى جزء ثم تعيدها إلى ذلك الجزء، وهكذا تتحرَّك في عمليات دورية مستمرة.

ومثـل ظاهر لذلـك، دورة (الميـاه) التي تتبخر مـن البحار بفعل الحـرارة، وتتحوَّل إلى أمطـار، ثـم تنتقل إلى أنهار، ثم وأخيرًا تسـيل راجعـة إلى البحار، وهكذا.. وشَـبَّهَ أحد الفلاسفة الميكانيك، الكون بساعة آلية الحركة، صنعها القدير وجعلها هكذا تتحرك.

واحتج هؤلاء لذلك بأمرين:

ألف: ففي حقل الوجود خلق الله مادة الكون فلا زالت مستمرة موجودة إلى الأبد. وقالـوا: إن تلـك القوة التي حوَّلت العـدم إلى وجود في عملية مهولـة، جعلت منه حقيقة مستمرة لم نجد فيها حاجة إلى خلق مستمر.

وظواهـر الكون تكشـف لنـا بوضوح عن ذلـك، فالبناء الفخم يُشـيِّده البناؤون ثم يدعونه ويبقى. والسـيارة الضخمة يُبدعها صانعوها وتبقى مستمرة، وهكذا غيرها. وهذا دليل على استمرارية وجود الأشياء.

بـــاء: وفي حقل الحركة التي تحكم مسـيرة الوجود، قالت الميكانيكية: إن الأجسـام السـاكنة والمُتحرِّكـة تبقى على وضعهـا إلى أن تؤثر عليها قوة خارجيـة. والدليل على ذلك أننا نرى بقاء حركة إطار السـيارة الفارغ على أرض مسـتوية، بقاء حركته بعد الدفع بضعة لحظات. ولدى تقليل وزن الإطار واسـتواء الأرض وتخفيف الضغط الخارجي أكثر فأكثر يتحـرك الإطار مدة أطول. وربما نسـتطيع أن نحصل على حركـة لا تنتهي في الإطار بتهيئة

كل الوسائل المساعدة للحركة وإزالة كل العوائق والضغوط المؤثرة فيها.

وتتصل هذه الفكرة الفلسفية بعلاقة وثيقة بتاريخ الفلسفة الأوروبية وليس من قبيل الصدفة أن نرى تقمص الحضارة الأوروبية لهذه الروح الميكانيكية، وإبعادها عن نفسها أية فكرة فلسفية أخرى.

وفيما يلي تطبيق نظريتين في هذا المجال:

١- من واقع أوروبا الحديثة.. حيث طلع نيوتن على الحضارة بفكرة تثبت أن الكون مرتبط بقوانين ثابتة، تتحرَّك في نطاقها الأجرام السماوية، ثم جاء بعده آخرون فأعطوا هذه الفكرة مجالًا علميًّا أوسع، حتى قيل: إن كل ما يحدث في الكون من الأرض إلى السماء خاضع لقانون معلوم سموه (قانون الطبيعة) فلم يبق للعلماء ما يقولون بعد هذا الكشف غير أن الإله كان هو المُحرِّك الأول لهذا الكون. وضرب (واليث) مثلًا في هذا الصدد: «أن الكون كالساعة يرتب صانعها آلاتها الدقيقة في هيئة خاصة ويُحرِّكها ثم تنقطع صلته بها».

ثم جاء (هيوم) فتخلَّص من هذا الإله الميت وعلى حد قوله: «لقد رأينا الساعات وهي تُصنع في المصانع ولكننا لم نرَ الكون وهو يُصنع، فكيف نُسلِّم بأن له صانعًا؟!».

هذه روح أوروبا الحديثة.

٢- وأما أوروبا القديمة حيث (أفلاطون، وأرسطو، وأفلوطين[١])، فإنهم لا ينقصون قولًا عن أوروبا الحديثة. الوجود في مذهب (أفلاطون) طبقتان متقابلتان:

- طبقة العقل المطلق.
- طبقة المادة الأولية (الهيولى).

والقدرة كلها من العقل المطلق والعجز كله من الهيولى، وبين ذلك كائنات على درجات.

---

(١) أفلوطين، فيلسوف شهير من العالم القديم، يعتبر مؤسس الأفلاطونية الحديثة (بجانب أستاذه أمونيوس ساكاس). وكانت الأفلاطونية الحديثة لها تأثير كبير في العصور الوسطى. جميع المعلومات التي لدينا عن الفيلسوف أفلوطين أتت من تلميذه فرفريوس ودونها في مقدمة كتاب التاسوعات لأفلوطين. أما كتابات أفلوطين في الميتافيزقيا كان لها تأثير كبير في العديد من الفلسفات والأديان: الوثنية، اليهودية، المسيحية، الصوفية.

إن الوجـود هنـا تعبير عن كلمة المادة -التي عبر بها الفلسـفة الحديثـة- والعقل هو النظام الموجود فيها.

ويقـول أرسـطو: فلابـد لهذه المُتحـرِّكات من مُحرِّك ولابـد للمُحرِّك مـن مُحرِّك آخر مُتقـدِّم عليـه، وهكذا حتى ينتهي العقـل إلى مُحرِّك بذاته أو مُحـرِّك لا يتحرك؛ لأن العقل لا يقبل التسلسل في الماضي إلى غير نهاية.

ولكن لا يعني أن يكون المُحرِّك الأول دائمًا في تحريكه، بل قد يكون قد حرَّك الشيء ورفع يده عنه، بل هذا هو الواقع. إذ إن هذا المُحرِّك سـابق للعالم في وجوده سـبق العلة لا سبق الزمان كما تسبق المقدمات نتائجها في العقل ولكنها لا تسبقها في الترتيب الزمني.

وقـد أفرط أرسـطو، حتى قال: «إن الله -جلَّ وعـلا- لا يعلم الموجودات لأنها أقل مـن أن يعلمها، وإنما يعقـل الله أفضل المعقولات، وليس أفضل مـن ذاته؛ فهو يعقل ذاته، وهو العاقل والعقل والمعقول، وذلك أفضل ما يكون»[1].

ويغلـو أفلاطـون أحيانًـا فيقول: «إن الله لا يشـعر بذاتـه؛ لأنه لا يُميِّـز ذاته من ذاته فيعرفها، ولكنه لصفاء وجوده يتنزه عن ذلك التمييز ويتنزه عن ذلك الشعور»[2].

إن هذه الأفكار تُصوِّر الله سبحانه تصويرًا سلبيًّا مطلقًا، وتعتبر الوجود وما فيه من الحركة يجري بعيدًا عن إرادة الله سـبحانه، وعن علمـه وقدرته. ولقد صوَّر القرآن الكريم فلسفة هؤلاء بالقول: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[3].

وفي فلاسـفة المسلمين من اتَّبع أفلاطون وعزل الحي القيوم عن مجال الكون، ورأى أن الوجـود حقيقـة ثابتـة والحركة جزء مـن طبيعته، وأن هـذه الحركة تسـير قُدُمًا إلى أعلى بصورة ذاتية جوهرية.

ومـن نتائـج هذه الفكرة عـزل المبدأ عن الألوهيـة والهيمنة على الكـون، وعزله عن التشريع للإنسان؛ لأنه ليس بقادر سبحانه ولا عالم بطبيعة ما خلق، تعالى الله عما يصفون!!.

والمعجـزة خرافة، والوحي إيحاء نفسي، والمعاد ليس كما تصفه ديانات السـماء، وإنما

(١) فروغي، محمد علي، سير حكمت در أروبا، ج١، ص ٤٧. فخري، ماجد، أرسطو طاليس، ص١٢٣.
(٢) راجع جمهورية أفلاطون، ترجمة حنا خباز.
(٣) سورة المائدة، آية: ٦٤.

الرسل مصلحون. والدعاء والإنابة والمناجاة المباشرة بين الإنسان وربه ضرب من الرجعية المنبوذة.. إلى آخر ما نجده لدى فلاسفة الإغريق ومن اتَّبعهم وفلاسفة أوروبا ومن قلدهم من آراء تابعة لهذه الفلسفة!.

نقد النظرية الميكانيكية:

ونقد النظرية الميكانيكية، أو بتعبير أدق نقد نظرية (العزل) عزل الله عن الخلق، التي تكون جوهر الفلسفات الحديثة والقديمة.. إن نقدها لا يتطلب جهدًا فكريًّا، بقدر ما يتطلب وجدانًا سليمًا ووعيًا شاملًا. فليس من المعقول لمن اعتقد بالله أنه أبدع هذا الكون العظيم وكان قادرًا عليمًا، أن يحسب أنه تجدَّد له العجز والجهل سبحانه. إن الله لم يخلق الخلق إلَّا لتمام قدرته عليه وعلمه به، فكيف فقدهما بعدما خلقه؟!.

وإذا كانت الحركة بسببٍ، فإن الحركة إنما هي بقدر الدفع لها، وذلك ليس لإننا نجد ذلك في كل ما نلامسه فقط، بل لأن من الطبيعي أن الشيء إنما يسكن بسبب وجود عجز ذاتي فيه عن الحركة، ولو كان قادرًا عليها لتحرك. وبمقدار ما ينقص هذا العجز بالدفع توجد الحركة.

ومع أن لحظة من التفكير تكفي لمعرفة هذه الحقيقة، مع ذلك فالواجب أن نتصدى لها علميًّا وفلسفيًّا.

النقد العلمي للميكنة:

ما هي حقيقة الموجودات؟.

لقد سبق أن العلم اكتشف أن الموجودات لا تعدو أن تكون ذرَّات تتحرَّك، ولدى انفلاق الذرة فإذا بها لا تعدو أن تكون شحنة طاقة ودفعة نور. إذًا فالعلم أثبت أن حقيقة المادة هي الحركة.

وبثبوت حركية المادة تفتَّتت الكتلة الكثيفة التي لو خُلقت لدامت حسب رأي فلاسفة الميكانيك.

فإنما هي الحركة وهي ليست بدائمة علميًّا؛ إذ إنها تنشأ من الطاقة، والطاقة تفقد حرارتها بصورة مستمرة حسب قانون الطاقة المتاحة أو ضابط التغيُّر الذي يُثبت أن الحرارة دائمًا تنتقل

من وجود حراري إلى عدم حراري، والعكس غير ممكن وهو أن تنتقل هذه الحرارة من وجود حـراري قليل أو عدم وجود حراري إلى وجود حـراري أكثر، فإن قانون الطاقة المتاحة يُخالف هـذا الانتقال ويقتضي التناسـب بين الحرارة المتاحة وغير المتاحة. ومـن هنا نثبت أن الحركة في الكـون ليسـت أزليـة ولا هي دائمًا بعيـدة عن المؤثر؛ إذ لـو كانت الحركة غـير محتاجة إلى دوام السبب إذًا لكانت تستطيع أن تدوم إلى الأبد، وهذا غير واقع حسب هذا الكشف العلمي.

النقد الفلسفي

وفي سبيل الإحاطة بالنقد الفلسفي لهذه النظرية لابد أن نذكر عدة نقاط:

١ - مبدأ الذاتية:

أبسـط المبـادئ الفلسـفية التي لا يرتـاب فيها أحـد أن كل شيء هو وليـس بغيره.. الإنسان إنسان وليس بحجر، والجبل جبل وليس بشجر و... و...

وهـذا المبـدأ يجعلنـا نقول: لا يمكـن أن يتخلَّف الـشيء عن ذاته، فالـذاتي لا يمكن تغييره.. فالنور مثلًا: لا يمكن أن يتحوَّل إلى (لا نور)، والحركة لا يمكن أن تتحوَّل إلى (لا حركة) وهكذا.

٢ - مبدأ الوجود:

والوجـود لا يمكـن أن يتحـوَّل إلى عدم لأنه ذاتـه، والعدم لا يمكـن أن يتحوَّل إلى وجود لأنه ذاته.

وقد يبدو هذا المبدأ غريبًا، ولكن دعنا نفهم ما هو معنى الوجود؟ هل معناه: الأرض والسماء والجبال؟ هل معناه: أنا وأنت وهو؟ هل معناه: الحجر والشجر والحيوان؟.

الفلاسـفة قالوا: نعم. ووقعوا في حلقة مفرغة. ولكن الرجل البسيط يقول بفطرته: لا. يقول: الكون موجود ولكنه ليس بوجود. وهل الوجود شيء والموجود شيء؟.

ينبغي أن نرجع قليلًا إلى ما سـبق ونتسـاءل: هل العلم شيء والمعلوم شيء؟. أم هل العقل شيء والمعقول شيء؟.

هناك قلنا: نعم؛ العلم هو الكشف والمعلوم هو المنكشف. فالمعادلة: (٥ × ٥ = ٢٥)

ليست بعلم إنما هي معلوم، ولي (علم) بها. وهكذا الوجود والموجود.

الكون له وجود هذا صحيح، وهو كما نقول: إن الإنسان له علم، ولكنه ليس بوجود كما أن الإنسان ليس بعلم.

ولا يزال الأمر غامضًا فنقول: إذا كان الكون هو الوجود فلماذا ينعدم، لماذا يكتنفه العدم، لماذا هو محدود، لماذا هو حادث، لماذا هو متناقض؟.

يقرر علم الفلك مثلًا: أن الكون يتسع بالتسلسل الدائم، وأن كل مجاميع النجوم والأجرام والأجسام الفلكية تتباعد بسرعة مدهشة بعضها عن بعض. ويمكن أن تُفسَّر هذه الحالة تفسيرًا جيدًا إذا سلَّمنا بوقت للبدء كانت فيه كل الأجزاء التركيبية مركزة ومجتمعة مع بعضها ثم بدأت الحركة والحرارة. ويقدر العلماء أن هذا الكون قد وجد نتيجة (لانفجار) هائل وقع منذ (٠٠٠, ٠٠٠, ٠٠٠, ٥٠٠٠ سنة)[١].

هكذا تتباعد الأجرام وتدل على أنها لم تكن ثم وُجدت. والسؤال هنا أنه ما دامت طبيعتها ليست بطبيعة الوجود والحركة، والدلالة على ذلك أنها لم تكن ثم كانت، فليس من الممكن أن تعود طبيعتها إلى طبيعة الحركة. وهكذا نستدل على أنها ليست بحقيقة الوجود!.

وهنا يكمن سر الأمر، لو كانت حقيقة الكون هي الوجود لم يصح أن نقول: إن الكون كان معدومًا ثم وُجد مع أنه كذلك، فقد كان معدومًا في بعض الأزمان، بل مجرد التغيُّر فيه عدمٌ من جهة ووجودٌ من جهة أخرى.

وبتعبير موجز ومركز: إن الكون كان عدمًا، فهو ذاتي العدم. ولا يمكن أن يتحوَّل ذاتي العدم إلى ذاتي الوجود، فإنما تتحوَّل الأشياء بالإبداع إلى عرضي الكيان يحتاج في بقائه إلى سبب كما يحتاج وجوده إلى سبب.

وإن هيغل قد انحرف عن المنهج حينما تصوَّر أن ما يراه حوله من سماء وأرض وبشر هو الوجود. ثم تصور أنه ليس بوجود مطلق فقال: «إنه معدوم». ثم رأى أنه بعيد عن الفطرة (أي معدومية الكون) فقال: «انتقال الوجود إلى العدم، ولكن العدم هو الوجود..»[٢].

---

(١) الإسلام يتحدى: ص ٧٨.

(٢) إمام، د. إمام عبدالفتاح، المنهج الجدلي عند هيجل، ص١٨٥، ط٣/ ٢٠٠٧م، الناشر: دار التنوير، لبنان، بيروت.

وإذا كان هيغـل قـد أُوتي قدرًا أكبر من قوة الملاحظـة لعرف أن الوجود لا يمكن أن يكون عدمًا، وأن الكون موجود بالوجود؛ أي أن له قدرًا من حقيقة الوجود. وبذلك كان ينفي مشكلته تمامًا.

ولا نريـد الاسترسـال في بحث الوجـود الذي يحتاج إلى سـفر ضخـم، ولكن نريد أن نضـع أيدينـا على منطلق الخطـأ في نظرية الميكنة الفلسـفية، وهو بتطبيق مبـدأي الذاتية والوجود في الكون، وهو يعرف بالتدبر في حقيقة الخلق.

ما هو الخلق؟.

إذا كان الكـون ليـس بحقيقة الوجود وأنـه كان عدمًا، فكيف انقلـب من العدم إلى الوجـود؟. وهـل يمكن أن يتحوَّل الـشيء عن طبيعته الذاتية، العـدم يعني لا شيء فكيف ينقلـب إلى شيء؟. هذا لا يُتصوَّر، فليس الكون قـد انقلب من العدم إلى الوجود في عملية مجهولة.. كلَّا.

بل إن الله تعالى أعطى الكون الوجود، ويُعطيه بصورة مسـتمرة. فالكون قائم بقيُّوم وموجود بنور الحي الذي لا يزول. وعلى هذا فليس الكون الذي نشاهده ونلامسه موجودًا بصورة مستقلة ودائمة، بل هو موجود بنور الوجود الذي يحفظه عن الزوال.

إن الوجـود، نـور يُـرَشُّ على الكون فيصبـح موجـودًا. وإذا أردنا أن نُعـبِّر عن هذا الواقـع بتعبير علمي لقلنا: الكون حركة تسـتمر بمحرِّك خارجي، لـو توقَّف عنه لتوقَّفت أي زالت.

وهنا لا تتبخر فكرة الكثافة في الوجود والاسـتمرارية في حركته فحسب، مما تنسف قاعـدة الميكنـة في الوجود، بل وتهدينـا إلى الخطوط العريضة للفلسـفة الواقعية التي تُطابق معلوماتنا المتناثرة وهي الفلسفة الإسلامية.

٥ الإسلام وفلسفة النور

تتلخَّص فلسفة الإسلام في كلمة واحدة هي: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[١]، ونُفصِّلها عبر النقاط التالية:

١ - ليس في عالم التحقق إلَّا الله وما خلق. فكل شيء ما سوى الله مخلوق له.

٢ - وهذا يعني أن الله سبحانه نور وكل شيء متنور به، وهو قيوم وكل شيء قائم به، وهو مدبر وكل شيء يجري بأمره. ذلك لأن كل شيء في الكون نراه خاضعًا لقوة قاهرة وقدرة واسعة. وفي ذلك آية على دوام التدبير له من مدبر عليم.

٣ - وهذا يقتضي الواقعية التامة للأشياء دون المثالية الأفلاطونية التي قال فيها: فكل شجرة مثلًا فيها صفة أو صفات ناقصة من نعوت الشجرية. فأين هي الشجرة التي لا نقيض فيها؟. هي في عقل الله منذ القدم[٢].

ولا المثالية الباركلية التي قال فيها: «الكون صورة الذهن الخارجي»[٣].

كلَّا؛ الكون موجود فعلًا في دار التحقق.

٤ - ولكنه يقتضي من جهة أخرى، الغيرية في الكون؛ أي أن الكون موجود بالغير، قائم بالغير، متنور ومتحرك بالغير. خلافًا لنظرية الديالكتيك التي تعتقد أن الكون متحرك بما في كل شيء من تناقضات ذاتية، أو مقالة الميكانيك التي تزعم أن الكون ساعة آلية كبيرة، ولا مقالة بعض الفلاسفة

(١) سورة النور، آية: ٣٥.
(٢) انظر: النشار، د. مصطفى، تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقي، ج٢، ص٥٢٠.
(٣) لاحظ: البيرنوي نادر، الفلسفة العامة، ص ٧٩. فروغي، محمد علي، سير حكمت در أروبا، ص٢٥٢.

الأقدمين بالحركة الجوهرية.. كلَّا! إنها واقعية الأشياء بالغير لما فيها من آيات الضعف والعجز.

٥- ولا يعني هذا أن الكون يُدبَّر بغير سنن فُطِرَ عليها. كلَّا؛ بل الغرائز موجودة وكل حادث له سبب، إلَّا أن وجود السبب ووجود المسبب بعده قائم بنور الله. فلو شاء الله إذًا لانتزع نور الوجود من السبب فانعدم، أو انتزع نور الوجود من المسبب فانعدم هو الآخر.

٦- من هنا نعلم أن الله واسع القدرة، واسع العلم، وواسع الرحمة. فكل شيء تحت رحمته وتحت قدرته ومحيط به علمه. فالله قادر على المعجزة؛ أي خرق السنن لأن إجراء السنن ووجود السنن منه أيضًا. وقادر على إعدام الكون في الساعة الرهيبة التي ترسو في نهاية الوجود. وقادر على إعادته لأنه يملك قوة لا محدودة، والكون عاجز دون قوته عن أي شيء. وهو قادر على أن يبعث الرسل برحمته ويضع للناس الدين الخالص ويأمر الناس باتباعه، ويراقب بنفسه مخالفتهم له أو إطاعتهم إياه فيُثيب من يشاء برحمته، ويغفر لمن يشاء بفضله، ويُعذِّب من يشاء بنقمته.

٧- والله -الخالق المدبر- رحمن لا تحدّ رحمته، رحيم لأنه خلق الأشياء ولا يزال يهب لها الخلق والهدى دون أن يكون محتاجًا إليها أو مضطرًا إلى خلقها.

وهنا تختلف النظرة الإسلامية عن النظرة الإغريقية التي تتعامل مع الآلهة الشهوانية المتعجرفة المتهورة الغارقة في الشهوات، مثل: (زيوس[١]) و(جوبيتير[٢]) وغيرهما ممن كان يُتصور لديهم حقودًا لدودًا مشغولًا بشهوات الطعام، لا يبالي من شؤون الأرباب والمخلوقات إلَّا بما يعنيه على حفظ سلطانه والتمادي في طغيانه. وكان يغضب على (أسقولاب) إله الطب -بزعمهم- لأنه يداوي المرضى فيحرمه جباية الضريبة على أرواح الموتى الذين ينتقلون من ظهر الأرض إلى باطن الهاوية. وكان يغضب على (بروميثيوس) إله المعرفة والصناعة -بزعمهم- لأنه يُعلِّم الإنسان أن يستخدم النار في الصناعة، وأن

(١) زيوس (أو باليونانية: ذِياس) من أبرز شخصيات الميثولوجيا الإغريقية، فهو إله السماء والرعد، وهو أكبر الآلهة الأولمبية (نسبة إلى جبل أولمبوس) أيضًا، أو «رب الأرباب» وقد ورد ذكره كذلك في المعتقدات الرومانية القديمة تحت اسم «جوبيتر».

(٢) يوبيتر (باللاتينية: Iupiter) (اللفظ الأنغلو - فرنسي: جوبيتر) (أحياناً سمي جوف) هو ملك الآلهة الرومانية وإله السماء والبرق في الميثولوجيا الرومانية. يعد مناظرًا لزيوس في الميثولوجيا الإغريقية. كان يوبيتر هو راعي وعراب روما وكان يقر القوانين ويضمن العدالة والنظام الاجتماعي. كان يوبيتر هو الإله الرئيس في ثالوث كابيتولين بالإضافة إلى يونو ومينرفا. في الميثولوجيا الرومانية، يعد جوبيتر أبًا لإله الحرب مارس وبالتالي يعد جوبيتر جدًّا لكل من رومولوس ورموس المؤسسين الأسطوريين لروما. وهو ابن الإله ساتورن. كان يوبيتر موقرًا جدًّا في الديانة الرومانية القديمة ولا يزال موقرًا في نظر الوثنيين الجدد الذين يؤمنون بالآلهة القديمة في روما.

يتخذ من المعرفة قوة تُضارع قوة الأرباب. الإسلام يخالف كل هذه الآراء جميعًا.

هكذا تُبيِّن لنا النصوص الشرعية حقيقة الكون، فيقول الله سبحانه: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[١].

فالله خالق السماوات، ولكنه غير عاجز منها، بل هو الآن قد استوى على عرش القدرة والعلم يدبر أمور الكون. والأرباب التي تصورها الفلسفات وسائط بين الله والخليقة، والأرباب التي تصورها الفلسفة الأوروبية باسم القوانين الطبيعية قد يكون لها تأثير في الحقائق ولكنه تأثير مأذون فيه. وهو رحمن، خلق الأشياء في مصلحة الإنسان، لا لكي يضرّ بهم. كذلك الله.

وفي آية أخرى، كل شيء يُنسب إلى الله حتى الحوادث التي تجري حسب السنن الكونية؛ لأنها كلها تجري بأمر الله وبقدرته المباشرة. قال الله سبحانه: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾[٢].

وفي آية أخرى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ ﴾[٣].

والله يقوم بتدبير أمور الإنسان أيضًا.. ففي آية كريمة: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[٤]. وهو رقيب شديد الرقابة على عمل الإنسان، ففي آية شريفة: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم

(١) سورة يونس، آية: ٣-٥.
(٢) سورة الحجر، آية: ١٩-٢٣.
(٣) سورة فاطر، آية: ٤١.
(٤) سورة الأنعام، آية: ١٧.

بِمَا عَمِلُوٓاْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾[١]. فالخلق والتقدير والسلطان والتدبير لله وحده لا شريك له. والإنسان هو الآخر مراقب من قبل الله تعالى مجزىً بعمله.

ولا يعني هذا إلصاق أية صفة مادية بالله سبحانه، إذ إن طبيعة الخلق تقتضي المباينة التامة بين الخالق والمخلوق. هكذا جاء القرآن يصف الله بأحسن الصفات وينفي عنه صفة المخلوقين. فيقول: ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ ﴾[٢].

ويقول: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٌ ﴾[٣].

وقال: ﴿ سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[٤].

وفي تفسير الآيات، جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**مَا عَرَفَ اللهَ مَنْ شَبَّهَهُ بِخَلْقِهِ..**»[٥].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «.. **مُبَاينٌ لِجَمِيعِ مَا أَحْدَثَ فِي الصِّفَاتِ.. وَلَيْسَ بِجِنْسٍ فَتُعَادِلَهُ الْأَجْنَاسُ، وَلَا بِشَبَحٍ فَتُضَارِعَهُ الْأَشْبَاحُ، وَلَا كَالْأَشْيَاءِ فَتَقَعَ عَلَيْهِ الصِّفَاتُ..**»[٦].

وقال عليه السلام: «.. **وَتَوْحِيدُهُ تَمْيِيزُهُ مِنْ خَلْقِهِ، وَحُكْمُ التَّمْيِيزِ بَيْنُونَةُ صِفَةٍ لَا بَيْنُونَةُ عُزْلَةٍ..**»[٧].

وقال عليه السلام: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ تَسْبِقْ لَهُ حَالٌ حَالًا، فَيَكُونَ أَوَّلًا قَبْلَ أَنْ يَكُونَ آخِرًا، وَيَكُونَ ظَاهِرًا قَبْلَ أَنْ يَكُونَ بَاطِنًا. كُلُّ مُسَمًّى بِالْوَحْدَةِ غَيْرَهُ قَلِيلٌ، وَكُلُّ عَزِيزٍ غَيْرَهُ ذَلِيلٌ، وَكُلُّ قَوِيٍّ غَيْرَهُ ضَعِيفٌ، وَكُلُّ مَالِكٍ غَيْرَهُ مَمْلُوكٌ، وَكُلُّ عَالِمٍ غَيْرَهُ مُتَعَلِّمٌ، وَكُلُّ قَادِرٍ غَيْرَهُ يَقْدِرُ وَيَعْجَزُ، وَكُلُّ سَمِيعٍ غَيْرَهُ يَصَمُّ عَنْ لَطِيفِ الْأَصْوَاتِ، وَيُصِمُّهُ كَبِيرُهَا وَيَذْهَبُ عَنْهُ مَا بَعُدَ مِنْهَا، وَكُلُّ بَصِيرٍ غَيْرَهُ يَعْمَى عَنْ خَفِيِّ الْأَلْوَانِ وَلَطِيفِ الْأَجْسَامِ، وَكُلُّ ظَاهِرٍ غَيْرَهُ بَاطِنٌ، وَكُلُّ بَاطِنٍ غَيْرَهُ غَيْرُ ظَاهِرٍ، لَمْ يَخْلُقْ مَا خَلَقَهُ لِتَشْدِيدِ سُلْطَانٍ، وَلَا تَخَوُّفٍ مِنْ عَوَاقِبِ زَمَانٍ...**»[٨].

كذلك الله رب العالمين.

---

(١) سورة المجادلة، آية: ٧.
(٢) سورة الانعام، آية: ١٠٣.
(٣) سورة الشورى، آية: ١١.
(٤) سورة الصافات، آية: ١٨٠.
(٥) بحار الأنوار: ج٣، ص٢٩٧.
(٦) بحار الأنوار: ج٤، ص٢٢١.
(٧) بحار الأنوار: ج٤، ص٢٥٣.
(٨) بحار الأنوار: ج٤، ص٣٠٨.

◇٥◇ تعاريف لابد منها

إذا كانت التعاريف في كل علم ذات أثر ثانوي، فإنها بالنسبة إلى المعارف الفلسفية بمثابة حجر الزاوية؛ ذلك لأنها ليست إلَّا محاولة لتعريف الحقيقة الكبرى، التي تتفرع عنها حقائق الكون. فهي بذاتها مجموعة تعاريف. ومن هنا تكسب التعاريف أهميتها في الفلسفة. ولابد لنا أن نقول بأن تعاريفنا هذه مطابقة لوجهة نظر الإسلام التي قد عرفنا أنها الحق.

١- العقل:

ذلك النور الذي يُميِّز به الإنسان الرشد من الغي، والخير من الشر، والممكن من المستحيل، والحق من الباطل. إن ذلك النور هو العقل.. ويعرفه (الفيروز آبادي) في (القاموس): «إنه نور روحاني تدرك به النفس العلوم»[1]. وجاء في حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**إِنَّ الْعَقْلَ عِقَالٌ مِنَ الجَهْلِ، وَالنَّفْسَ مِثْلُ أَخْبَثِ الدَّوَابِّ، فَإِنْ لَمْ تُعْقَلْ حَارَتْ**»[2].

ولا يمكننا معرفة العقل إلَّا بذاته وبما له من آثار، أما حقيقته فإن القول فيها نوع من الغرور. وإن من آثاره توجيه الإنسان إلى الخير وتحبيذه له، وردعه عن الشر وترغيبه عنه. وبهذا فسره النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذ جعله عقالًا للنفس البشرية التي شبهها بأخبث الدواب إن لم تعقل حارت.

٢- العلم:

ذلك النور الذي تكشف النفس به الحقائق، وقد كانت من قبله جاهلة بها غافلة عنها. وليس كل اعتقاد علمًا -في المنطق الإسلامي- إذ ليس الاعتقاد دائمًا كشفًا عن

(١) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مادة (عقل).
(٢) بحار الأنوار: ج١، ص١١٧.

الواقع، بل قد تكون النفس مطمئنة بعقيدة، دون أن يكون لها بها علم. بلى؛ كل علم عقيدة إذ لا تملك النفس التي تنكشـف لها الحقيقة بصورة واضحة ودون أية ريبة أو غموض، لا تملك إلَّا أن تطمئن بها وتعتقد بمضمونها.

٣- المعرفة:

وأما المعرفة، فإنها علم مستجد بالشيء.

٤- اليقين:

بعدما يحصل العلم، تنشـأ صفة في النفس تدعى بـ(اليقين). فاليقين اطمئنان الذات بحصيلـة كشـفها عن الحقيقة، وأمـا القطع فإنه يعني جـزم الذات بأمر سـواء كان حقًّا أم باطـلًا. ورُبَّ قطـع يوافـق الواقـع لا يكون علـمًا؛ لأنه يفقد صفة الكشـف عـن الحقيقة. فلـو قطـع (وجزم) فرد بوجـود الروح لا لأنه عرفها بعلم بـل لأن القول بوجودها كان في مصلحتـه أو صـادف هوى في نفسـه؛ فذلك القطـع ليس بعلـم وإن كان صحيحًا، لأنه لا ينطوي على كشف الواقع كشفًا يقينًا.

٥- الحق:

وحـين يتصـادق ما بنفـس البشر مع ما في الواقـع يكون هو (الحـق) والحق في اللغة يعني الثبوت، والتقرر، والوجود. ولذلك فإن للحق معنى آخر غير تطابق الشعور وخارج الشعور، ذلك المعنى هو الوجود سواء علم به أحد أم لم يعلم، اعتقد به أم لم يعتقد. فمثلًا: الجنـة حـق لأنها موجودة فعلًا في الخارج؛ فإذا علم بها أحد كان علمه حقًّا أيضًا. ولو مات رجل في بيته ولم يعلم بموته أحد أبدًا فإن موته حق أي ثابت. ولفظة الحقيقة تعطي المفهوم ذاته. إنها تعكس الأمر الثابت في الواقع الخارجي.

٦- الروح:

الـروح هـي النفس، وهـي التي تنطوي عـلى نور الحيـاة، والعقـل، والإرادة. وهي حقيقة ثابتة وراء الجسـد، وهي محددة بالطول والعرض مختلفة بالقوة والضعف، ومتفاوتة بالأهواء والرغبات. وبافتقادها يعود الجسم ميتًا.

ولا يهمنا -بعد هذا التعريف- أن نعتبر الروح مادة لطيفة جدًّا، أم نقول: إنها مجردة

عن المادة الكثيفة. فإن الهدف واحد هو تفسير حقيقة أرقى من المادة التي نحسّ بها، ولكنها ليست هي الحياة والعلم والإرادة، بل إن هذه الأنوار تنشأ فيها، تزيد وتنقص وهي هي.

٧- النفس:

أما النفس فهي كلمة تعكس لدى الإسلام مفهوم الروح تمامًا، ويُراد بها ما يساوي كلمة الذات والقلب أيضًا. إلَّا أن الأوسع مفهومًا هو الروح ثم النفس؛ لأن القلب يوحي غالبًا إلى مركز العواطف أكثر من إيحائه بمبعث نور العقل والإرادة. ويوضع القلب عادة بإزاء العقل، وينسب إليه العمى والطبع والختم؛ لأنه رمز الشهوات في اللغة العربية، كما هو كذلك في سائر اللغات.

٨- الشهوة:

إن الشهوة هي انجذاب النفس إلى شيء أو شخص، ومبعث الشهوات هي طبيعة الحياة. فالحياة تتطلب ضروراتها التي تشكّل في الغالب شهوات الإنسان. وقد يخطئ الإنسان في تمييز الضرورة عما سواها فتحدث فيه الصفات الرذيلة التي هي نوع من انحراف حب الحياة في النفس. وغالبًا تستعمل كلمة الشهوات في الصفات الرذيلة هذه.

٩- الهوى:

ويعني الهوى الحب، ولكنه يستعمل في منطق القرآن عادة في حب الذات (هوى النفس)، ولقد جُبِل كل شخص على هوى النفس. وبالعقل تتمكن الذات من تحديد الحب هذا وتوجيهه الوجهة المستقيمة.

١٠- الجهل:

والجهل صفة في النفس تقابل صفة العقل، وتقابل آثاره كل آثار العقل. ولا يعني الجهل في منطق الإسلام مجرد افتقاد المعرفة، فمثلًا الجزع والظلم والحسد والحقد كلها من الجهل.

١١- الفكر:

إن توجه النفس إلى المعلومات السابقة التي احتفظت بها لديها في محاولة لاستعادتها

واستثارتها ومنهجتها واستخراج معلومات جديدة عنها؛ يسمى بـ(الفكر).

فالفكـر إذًا عمل من أعـمال النفس البشرية، هدفه اسـتخراج معلومات جديدة من إثارة المعلومات السابقة.

١٢- الخيال:

تحتفـظ النفـس البشرية بالصور التي تنعكس عليها -مـن نافذة الحواس- عن العالم الخارجـي، تحتفظ بها ثم تبـدأ تركب بعضها مع بعض وتُجرِّد بعضها من خصائصها لتصنع منها صورة جديدة، وهذا يسمى خيالًا. فالخيال إذًا إبداع النفس لصور كاذبة.

١٣- الانتزاع:

قـد يعلم الإنسـان بوجود دار معينـة، ثم يعلم بوجود دار أخـرى وثالثة ورابعة و.. و.. وهنـا تتعـب النفـس من الاحتفـاظ بعدة معلومـات عن الـدور العديـدة المتمايزة عن بعضها، فتحاول أن تسـتريح، وتجد مهربًا في تجريد الدور عن صفاتها المميزة والتركيز على صفتهـا الموحدة، فتحتفظ الذاكرة بصورة عن الدار بعيدة عن خصائص الدور التي عرفها الإنسان. وتسمى هذه عملية الانتزاع.

فالانتزاع -إذًا- توحيد المعلومات المختلفة بصبغة واحدة.

١٤- التصور:

حينـما يحسّ الفرد بشيء تنعكس صورته على نفسـه، وقـد تعمل النفس عامدة لخلق مثيلها. وتذكُّر الصور النفسية أو معرفتها يُدعى بالتصوُّر.

فالتصور -إذًا- علم النفس بما فيها من صور الحقائق الخارجية.

القِسمُ الثّاني

العَقيدةُ والإيمان

البحثُ الأوّلُ : الدليلُ إلى اللهِ

البحثُ الثّاني : الرِّسالَةُ

البحثُ الثّالِثُ : الوِلايةُ

البحثُ الرّابع : الحياةُ بعدَ الموتِ

القِسمُ الثّاني

العقيدة والإيمان

البحثُ الأوَّلُ: الدليلُ إلى اللهِ

١- كلمات في البدء

٢- أي رب ندعو إليه

٣- الدليل إلى الله

٤- التذكرة بالله

٥- مغالطات مفضوحة

٦- الإيمان بالله

٧- معطيات الإيمان

١ - كلمات في البدء

لماذا ندرس العقائد؟.

١ – لأن العقائد تُبيِّن مبدأ الإنسان ومصيره وخط سيره في الحياة الأولى والآخرة، فإن من لا يدرسها ببصيرة، سوف يحسب أنه على صراط النجاة.. بينما هو على صراط الشقاء في الدنيا وسبيل النار في الآخرة، فيخسر نفسه في العالمين.. ومن هو أشقى ممن خسر نفسه في الدنيا والآخرة؟ قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[(١)].

٢ – من أوجده؟. إلى أين ينتهي؟. ولماذا جاء؟. وما هو سبيله الأقوم؟. وكيف يسعد؟. ولماذا خلق الكون؟. وما هي الغاية من وجود البشر؟. ولماذا يسعد بعض ويشقى آخرون؟.

أسئلة يطرحها كل فردٍ على نفسه، ويسعى لمعرفة الإجابة الصحيحة؛ ذلك لأن هذه الأسئلة ترتبط بكافة نواحي حياته، ومن دون الإجابة عنها، يفقد الرؤية السليمة إلى الحياة فيقع في تناقضات مستمرة، وهنا، إذا هو درس العقائد دراسة عميقة، عرف الإجابة الصحيحة، وإلَّا فأما أن تبقى الأسئلة لديه دون جواب فيصيبه الفراغ والضياع، أو يجيب عنها إجابات مرتجلة فيضل، ويشقى!. إذ إنه راح يعتقد بأفكار خرافية، مثل: عبادة الأصنام والحيوانات والنجوم.

٣– لقد بثَّ أعداء الإسلام شبهات حول الدين فلقفتها الشبيبة لأنهم لم يكونوا قد

(١) سورة الكهف، آية: ١٠٣-١٠٤.

درسـوا بوعي ما كانوا يعتقدون به، فتمسكوا بالشبهات، وتركوا حقائق الدين، وأصبحوا دعاة للكفر وجنودًا للأعداء، فكان لابد لنا من أن ندرس العقائد لنُرجع هؤلاء إلى ما كانوا عليه من عقيدة بالدين والتزام بشرائعه.

٤- والثقافة الإسـلامية التي نزل بها الروح الأمين على قلب الرسـول ﷺ لم تبقَ سـليمةً؛ وذلـك بفعل مـا اختلط بها من أهواء وأسـاطير أملتهـا خرافات الإغريـق قديمًا، وفلسفات الغرب حديثًا. فلم يعد المسلم يبصر طريقه في الحياة، تلك الطريق التي ضاعت في زحمة الدعايات الأجنبية فأصبح متوتر الفكر، مشوَّه الكيان، فاقد الثقة بنفسه والأصالة في رأيه، مغرقًا في بؤرة التناقضات.

ولكـي نُعيد المسـلم إلى واقعه، وننقذه من سـلبيته وتبعيته، لابـد أن نُعيد إليه الثقافة الإسلامية الحقة التي ترتكز على العقائد الإسلامية.

كيف ندرس العقائد؟.

أمام دارس العقائد ثلاثة مناهج مختلفة:

١- **منهـج الفلسـفة**؛ ويعتمـد عـلى المنطق الأرسـطي (الشـكلي) وفلسـفة الإغريق الإلهيين، وعلم الكلام الإسلامي المقتبس منها، وهو منهج شكلي تجريدي. ودراسة العقائد وفق هذا المنهج استعارة ناشزة للقالب الفلسفي في عرض العقائد الإسلامية حيث تتلوث بتصـورات البـشر الوثنية، إذ إن الإسـلام مبدأ حنفـي جديد على الإنسـان موحى إليه من الغيب، وله قالب يناسبه، وأي إقحام لمفاهيم الفلسفة ومناهجها وألفاظها في بنائه الفكري يشوه صبغته ويُخل بتوازنه ويقضي على وحدته العضوية الداخلية.

ومن هنا فقد أخطأ أولئك الذين حاولوا صياغة الإسلام في قوالب أجنبية غريبة في مناهجها وألفاظها وإيحاءاتها عن روح الرسـالة الإسـلامية، كعلـماء الكلام قديمًا ومقلدي الغـرب حديثـًا. وقد نعت الإمـام أمير المؤمنـين عليه السلام أول من قام بهـذه المحاولة الخاطئة في المسـلمين، نعته بأنه «**سَامِرِيُّ هَذِهِ الْأُمَّةِ**»[1]؛ لأنه بدَّل عبادة الله الأحد بعبادة التوهمات الغريبة عندما أشاب نقاء الحنفية الإسلامية بوثنية الأغارقة المشركين!.

---

(١) بحار الأنوار: ج٤٢، ص١٤١.

٢- **المنهج الصوفي**؛ وقد انبثق هذا المنهج من الإغراق في التقشف وجَعَلَ الإنسان رمز الشرور والخطيئات الذاتية، وجَعَلَ فناء الإنسان في غياهب العدم والسلبية هو المنهج القويم الموصل بهم إلى الحقيقة. ونرى هذا التصور الخاطئ بارزًا في الفلسفة البرهمية والفلسفات الآسيوية البعيدة، وقد طرقت أبواب المسلمين في بداية القرن الثاني مع نشاط حركة الترجمة بين المسلمين.

وهذا المنهج ينكر دور العقل في معرفة حقائق الكون، ويدعو إلى السلبية ونبذ النظم الدينية والاكتفاء بالصفاء الروحي الذي يتحوَّل شيئًا فشيئًا إلى الانطواء أو اللامبالاة. والواقع أن ابتعاد هذا المنهج عن روح الإسلام هو كبعد الإسلام عن روح الجاهلية. إذ إن هذا المنهج يعتمد على العمل أكثر من اعتماده على العقل!. بل ويكفر بدور العقل والاستدلال النظري بتاتًا، ويتصوَّر أن معرفة الله هي فوق مستوى العقل. وهذا قول مرفوض وباطل كما تحدثنا عنه في القسم الأول من هذا الكتاب.

٣- **المنهج الإسلامي**؛ ويستوحى من القرآن الحكيم، ويقوم على أصول ثابتة من الفطريات المسلمة والمتميزة عن دواعي الهوى والغضب، وميزته الأساسية إيقاظ الوعي وإثارة العقل والدعوة إلى التدبر والتفكر والتوجيه إلى الانفتاح على الحياة لمعرفة أعماقها وملامسة أغوارها ومخاطبة روحها النقية الخالصة. ولا ينسى هذا المنهج دور العمل كما لا يجرد العقل عن العمل، وأسلوب الحديث في هذا المنهج التذكرة والتنبيه والابتعاد أبدًا عن المراء والجدل والمكابرة على الحق.

وركيزة الحديث فيه التبشير والإنذار وذكر الأمثال من الأمم السابقة، كيف نجا فيها من نجا؟. وكيف هلك منها من هلك؟.

ونحن نتبع هذا المنهج لأن الإسلام لا يمكن فهمه إلَّا من حيث المجموع؛ لأنه بناء متين ينبغي أن يُدخَل فيه برفق وتدبر، ولأنه طريق قريب، واضح المعالم، بليغ البينات، منسجم مع الفطرة، وضرورات الحياة.

ولقد استوحينا المنهج من هدى القرآن حين حاولنا التلمذة عليه دون أن نحاول التأويل فيه، أو مواجهته برواسب الثقافات الغريبة[١].

---

(١) راجع مقدمة الطبعة الرابعة في مطلع هذا الكتاب.

⟨٥⟩ ٢ - أي رب ندعو إليه؟

إلى أي إله ندعو الناس؟.

لابد أن نُوضِّح عدة نقاط مبدئية لكيلا تكون دعوتنا إلى الله مشوبة برواسب الثقافات الأخرى، وبالتالي تُرفَض هذه الدعوة بسبب تلك الخرافات التي زعمها الآخرون ونحن منها براء.

والواقع أن أكثر المشركين بالله هم الذين تصوروا الله بأوهام بعيدة عن الحق فأنكروا الله، وهم لم ينكروه في الواقع بل أنكروا من تصوروا أنه الله، وإلَّا فأي شيء أكبر شهادة من الله؟.

القرآن نجاة من الأساطير:

ولابد لنا أن نتبع القرآن في التذكرة بالله والدعوة إليه، ويكمن السبب في أن البشر عاجزون عن بلوغ المعرفة الصحيحة إلَّا بسبب من الله تعالى. ولذلك تخبط الإنسان في ظلمات الأوهام حينما ترك الاهتداء بنور القرآن فاعتقد بالخرافات وزعم أن الله جسم لا نهاية له أو أنه جسم محدود، وقد تنزل فأصبح الخلق، فإذا ارتفع الناس أصبحوا آلهة، وأنه بعيد عن خلقه بمباينة، ويده عنهم مغلولة، وأنه أولد عيسى وعُزير، وأن اليهود أبناؤه، وأنه تعالى عاجز عن إزالة الشر، وأنه يبغض البشر ولكن لا يقدر عليهم[١].

ولم يفضح هذه الخرافات إلَّا القرآن وما صح من تفسيره على لسان نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام، فعلينا الاهتداء بهداه والاقتباس من نوره.

---

(١) كانت هذه بعض خرافات الفلسفة وأساطير مشركي أهل الكتاب، وقد سبقت طائفة منها لدى بيان الفلسفة الإسلامية.

والواقع أن البشر أثبت عمليًّا عجزه عن بلوغ المعرفة الخالصة لله سبحانه دون التنور بهـدى الأنبيـاء عليهم السلام؛ إذ إن تاريـخ الإيمان بالله يرشـدنا إلى أن الإنسـان كان يتخبط، حين ابتعد عن منهج الله تعالى، في ظلمات الجهل والغفلة. فالناس كانوا بين من أنكر الله أو أثبته وأنكـر صفاته الحسـنى، ومن أثبـت له صفة العجز والـذل -سـبحانه- أو بالغ في إلصاق الصفات البشرية حتى زعم أنه مركَّب. ومن يطَّلع على ركام الجهالات البشرية هذه يعرف مـدى الحاجـة إلى الرجـوع إلى الله في تعريفه لنفسـه، وذلك في كتابه الكريـم الذي تجلَّى فيه لعبـاده لو أنهم كانوا يبـصرون. قال الله تعـالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ﴾[1].

أنواع المعرفة:

وللإنسان في المعرفة أحوال ثلاثة: المعرفة التامة، والجهل التام والمعرفة البسيطة.

١- فقد تعرف مثلًا تفاصيل حدث كائن غدًا.

٢- وقد لا تعرف شيئًا من ذلك.

٣- وتارة تعرف أن شيئًا ما كائن غدًا، ولكن لا تعرف كيف هو وأنَّى هو؟.

فهـذه ثلاثـة أحوال في المعرفة بصفة عامة، أما حـول الله فليس لنا معرفة الله تفصيلًا ولسـنا عاجزين عن معرفته رأسًـا، وإن لنا بين ذلك سبيلًا وسطًا وهو أن نعرفه بآياته دون أن نُحيط علماً بكنهه وذاته.

وإليك مثالًا نقدمه عن معرفة العلم (تعالى الله عن الأمثال): حينما ترى آيات العلم ترى أنك تحيط ببعض الأشـياء علمًا وأنت على يقين بأن علمك هذا شيء غيرك. عند ذلك تصـدق بواقـع العلـم، ولكن كيف عرفت العلـم؟. أم كيف أحطت به؟. وبأي وسـيلة؟. أبعلم أحطت به، ولا يحيط الشيء بنفسه؟. أم بالجهل عرفت العلم، وكيف يرشدك الجهل إلى العلـم؟. وهل يكون الظلام رائد النور؟. لابد لـك من أن تُصدِّق بوجود العلم وليس لك أمر فوق ذلك تصدق به، لأنك لا تستطيع أن تُنكره بعد أن رأيت آياته الباهرات، ولا تحيط به لأنك لا تملك وسيلة إلى ذلك.

---

(١) سورة إبراهيم، آية: ١-٢.

حتى أن العلم بوجود واقع العلم لا يعني أننا نثبت للعلم وجودًا كما نثبت للمعلوم وجـودًا. ذلك لأنه ليس لنا طريق إلى إثبـات وجود للعلم، بل كل ما يعني ذلك أننا نخرج العلم عن إطار العدم وننكر أن يكون معدومًا.

فالمعرفـة التـي يمكننا تحصيلها في هـذا المجال هي التي تجعلنا بـين النفي والإثبات، حيـث ننفـي العدم، ولا يمكننا أن نشـير إلى الوجـود. صحيح أن إنكار العـدم بذاته دليل الوجـود؛ إذ لا وسـيط بينهـما، ولكن لا يمكننا الإثبـات الصريح؛ لأننا لم نؤتَ وسـيلة إلى ذلك. وهكذا تكون المعرفة بالله!.

حينـما نرى السـماوات والأرض وما بينهما مـن مخلوقات في غاية الدقـة والنظام، لا نملـك إلَّا أن نعـترف بـأن موجدها وخالقهـا ليس عدمًا. ولكـن هيهات لنـا أن ندَّعي له وجـودا إلَّا بقـدر (أن كل ما ليس بمعـدوم فهو موجود). وهذا يختلف عـن القول بثبوت الوجود له على غرار (الوجود) الذي نعهده في الأشياء سبحانه.

وحينما نرى في آيات الله آثار التدبير والتقدير نعلم أن بارئها يتعالى عن الجهل والضعف. وهل يعني هذا أننا عرفنا (علم الله) وأحطنا (بقدرة الله)؟. كلَّا!. لا يعني هذا إلَّا نفي الجهل والضعـف عنـه، وأن نقول: تعـالى الله عما هو صفة المخلوقـين. وما قولنـا: إن الله قدير عليم إلَّا إشـارة إلى نفي الضعف والجهل عنه، لا أننا علمنا منه (العلم والقدرة)؛ لأنه قد سـبق أن عقولنا أعجز من أن تصل إلى مستوى الخالق. وإلى هذه الحقيقة تشير الأحاديث التالية:

* سـأل سائل الإمام الصادق عليه السلام عن الله؟. فقال عليه السلام: **«هُوَ الرَّبُّ وَهُوَ المَعْبُودُ وَهُـوَ اللهُ. وَلَيْـسَ قَـوْلِي (اللهُ) إِثْبَاتَ هَـذِهِ الحُرُوفِ (أَلِـفٍ، وَلَام وَهَـاءٍ، وَلَا، رَاءٍ، وَلَا بَاءٍ) وَلَكِـنِ ارْجِـعْ إِلَى مَعْنًـى وَشَيْءٍ خَالِقِ الْأَشْـيَاءِ وَصَانِعِهَا وَنَعْتِ هَذِهِ الحُـرُوفِ، وَهُوَ المَعْنَى سُمِّيَ بِهِ اللهُ وَالرَّحْمَنُ وَالرَّحِيمُ وَالْعَزِيزُ وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ مِنْ أَسْمَائِهِ، وَهُوَ المَعْبُودُ جَلَّ وَعَزَّ.**

قَالَ لَهُ السَّائِلُ: فَإِنَّا لَمْ نَجِدْ مَوْهُومًا إِلَّا مَخْلُوقًا؟.

قَـالَ أَبُو عَبْـدِالله عليه السلام: **لَوْ كَانَ ذَلِكَ كَمَا تَقُولُ لَكَانَ التَّوْحِيدُ عَنَّـا مُرْتَفِعًا لِأَنَّا لَمْ نُكَلَّفْ غَـيْرَ مَوْهُوم، وَلَكِنَّا نَقُولُ: كُلُّ مَوْهُوم بِالحَوَاسِّ مُدْرَكٍ بِـهِ تَحُدُّهُ الحَوَاسُّ وَتُمَثِّلُهُ فَهُوَ مَخْلُوقٌ. إِذْ كَانَ النَّفْيُ هُوَ الْإِبْطَالَ وَالْعَدَمَ، وَالجِهَةُ الثَّانِيَةُ التَّشْبِيهُ إِذْ كَانَ التَّشْبِيهُ هُوَ صِفَةَ المَخْلُوقِ الظَّاهِرِ التَّرْكِيـبِ وَالتَّأْلِيفِ فَلَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ إِثْبَاتِ الصَّانِعِ لِوُجُودِ المَصْنُوعِينَ وَالاضْطِرَارِ إِلَيْهِمْ. إِنَّهُمْ**

مَصْنُوعُـونَ وَإِنَّ صَانِعَهُـمْ غَيْرُهُـمْ وَلَيْسَ مِثْلَهُمْ. إِذْ كَانَ مِثْلُهُمْ شَبِيهًا بِهِـمْ فِي ظَاهِرِ التَّرْكِيبِ وَالتَّأْلِيـفِ وَفِيـمَا يَجْرِي عَلَيْهِمْ مِنْ حُدُوثِهِمْ بَعْدَ إِذْ لَمْ يَكُونُوا وَتَنَقُّلِهِمْ مِنَ صِغَرٍ إِلَى كِبَرٍ وَسَـوَادٍ إِلَى بَيَاضٍ، وَقُوَّةٍ إِلَى ضَعْفٍ، وَأَحْوَالٍ مَوْجُودَةٍ لَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى تَفْسِيرِهَا لِبَيَانِهَا وَوُجُودِهَا.

قَالَ لَهُ السَّائِلُ: فَقَدْ حَدَدْتَهُ إِذْ أَثْبَتَّ وُجُودَهُ؟!.

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام: لَمْ أَحُدَّهُ وَلَكِنِّي أَثْبَتُّهُ إِذْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ مَنْزِلَةٌ.

قَالَ لَهُ السَّائِلُ: فَلَهُ إِنِّيَّةٌ وَمَائِيَّةٌ(١)؟.

قَالَ عليه السلام: نَعَمْ لَا يُثْبَتُ الشَّيْءُ إِلَّا بِإِنِّيَّةٍ وَمَائِيَّةٍ.

قَالَ لَهُ السَّائِلُ: فَلَهُ كَيْفِيَّةٌ؟!.

قَالَ عليه السلام: لَا؛ لِأَنَّ الْكَيْفِيَّةَ جِهَةُ الصِّفَةِ وَالْإِحَاطَةِ، وَلَكِنْ لَا بُدَّ مِنَ الْخُرُوجِ مِنْ جِهَةِ التَّعْطِيلِ وَالتَّشْـبِيهِ؛ لِأَنَّ مَنْ نَفَاهُ فَقَدْ أَنْكَرَهُ وَدَفَعَ رُبُوبِيَّتَهُ وَأَبْطَلَهُ، وَمَنْ شَـبَّهَهُ بِغَيْرِهِ فَقَدْ أَثْبَتَهُ بِصِفَةِ الْمَخْلُوقِينَ الْمَصْنُوعِينَ الَّذِينَ لَا يَسْتَحِقُّونَ الرُّبُوبِيَّةَ، وَلَكِنْ لَا بُدَّ مِنْ إِثْبَاتِ أَنَّ لَهُ كَيْفِيَّةً لَا يَسْتَحِقُّهَا غَيْرُهُ وَلَا يُشَارِكُ فِيهَا وَلَا يُحَاطُ بِهَا وَلَا يَعْلَمُهَا غَيْرُهُ...»(٢).

* وَسُئِلَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: «أَيَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللهَ شَيْءٌ؟.

قَالَ عليه السلام: نَعَمْ يُخْرِجُهُ مِنَ الْحَدَّيْنِ: حَدِّ التَّعْطِيلِ وَحَدِّ التَّشْبِيهِ»(٣).

* وَقَـالَ الإِمَـامُ الصَّـادِقُ عليه السلام: «إِنَّ الْعَقْـلَ يَعْرِفُ الْخَالِـقَ مِنْ جِهَةٍ تُوجِـبُ عَلَيْهِ الْإِقْـرَارَ، وَلَا يَعْرِفُهُ بِمَا يُوجِبُ لَـهُ الْإِحَاطَةَ بِصِفَتِهِ. فَإِنْ قَالُوا: فَكَيْفَ يُكَلَّفُ الْعَبْدُ الضَّعِيفُ مَعْرِفَتَهُ بِالْعَقْلِ اللَّطِيفِ وَلَا يُحِيطُ بِهِ؟.

قِيلَ: لَهُمْ إِنَّمَا كُلِّفَ الْعِبَادُ مِنْ ذَلِكَ مَا فِي طَاقَتِهِمْ أَنْ يَبْلُغُوهُ، وَهُوَ أَنْ يُوقِنُوا بِهِ وَيَقِفُوا عِنْدَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَلَمْ يُكَلَّفُوا الْإِحَاطَةَ بِصِفَتِهِ...»(٤).

وذلك لأن الله لا يُرى بعين الوهم.

---

(١) أي هل أن الله شيء محقق له صفات خاصة؟. وكلمة «إنية» مشتقة من حرف «إنّ» وهو للتحقق، وكلمة «مائية» مشتقة من لفظة: ما هو؟ وهي سؤال عن صفة الشيء.

(٢) الأصول من الكافي: ج١، ص٨٣.

(٣) الأصول من الكافي: ج١، ص٨٥.

(٤) بحار الأنوار: ج٣، ص١٤٦.

المعرفة فطرة الإنسان:

الإنسـان جزء متفاعل مع العالم كله، يرتبط معه في كل شيء؛ في مواد جسـمه وسنن حياته ومعارف عقله وشهوات قلبه. وأي محاولة لفصله عن طبيعته المتفاعلة المنسجمة مع الكون تكون فاشـلة. والمعارف البشرية سـعي متواضع لكشف بعض مناحي هذا التفاعل الواسع بين البشر والكون من حوله.

والدين الحق تعبير صحيح عن الكون؛ روحه وجسـمه، باطنه وظاهره. وفي الكون هذا الإنسـان المتفاعـل معه، والكون خليقة الله العظمى ومظهر أسـمائه الحسـنى فهو أبرز شاهد وأكبر آية على الله تعالى.

وبحكم تفاعل الإنسان مع هذا الكون، وبحكم أن الكون شاهد على الله؛ فهو مفطور عـلى الدين ليس في عقله وروحـه فقط بل في كل شيء منه، فهو مرتبط بأكثر من خيط بأصله وطبيعته. وشعوره لا يعدو أن يكون مفطورًا على معرفة الله وحبه والإنابة إليه، وهذا نوع من المعرفة الفطرية تأكدت بمعرفة أخرى عندما بدأ الله خلق الإنسـان، حيث أشـهده على نفسه وعرّفه خلقه. وهنالك عرفنا ربنا معرفة تامة، وعلق بأنفسـنا ما يشـبه الظل من تلك المعرفة، ذلـك الظـل الذي يدفعنا أبـدًا إلى البحث عن الله، فتـارة نهتدي إليه وتارة نضـل عنه فنتخذ أندادًا من دون الله ونزعم بأنها هو الذي عرفناه سابقًا. ولولا هذه المعرفة الأولية التي تدغدغ ضمير كل بشر لما بحث الناس عن إله، ولما ابتغوا إليه الوسيلة بشتى الأسباب.

وهذه الفطرة تسـاعد الإنسـان عـلى معرفة الله الحـق. فليس أمامه سـوى أن ينبه به ويذكر إليه فإذا بشـعاع المعرفة يغمر فـؤاده، إلَّا أن يجحد عنادًا وطغيانًا.. قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾[1]. وجـاء في الحديث في تفسـير هـذه الآية: «قُلْتُ مُعَايَنَةً كَانَ هَذَا؟.

قَالَ (الإِمَامُ الصَّادِقُ عليه السلام): نَعَمْ فَثَبَتَتِ المَعْرِفَةُ وَنَسُـوا المَوْقِفَ وَسَيَذْكُرُونَهُ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَدْرِ أَحَدٌ مَنْ خَالِقُهُ وَرَازِقُهُ..»[2].

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٧٢.

(٢) بحار الأنوار: ج٥، ص٢٣٧.

وفي تفسـير قوله: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ قَالَ (الإمَامُ الصَّادِقُ عليه السلام): «فَطَرَهُمْ عَلَى التَّوْحِيدِ»(١).

إن هذه الحقيقة لتهدينا إلى عدة حقائق:

ألف: إن البشر لا يحتاج لمعرفة الله إلى أكثر من التوجيه والتذكير.

بـــاء: إن ما قاله الماديون في تفسير توجه الناس إلى الدين ورغبتهم الملحة إلى معرفة الله: إن ذلك من ضعفهم وجهلهم عن التفسير الصحيح للحوادث؛ إنما هي ضلالة بعيدة، إذ لو لم تكن لديهم فطرة أولية تهديهم إلى الله لما أظهروا ضعفهم بهذا الشكل.

جيم: إنما السبب في توجُّه الناس إلى الله وترك ما كانوا يعبدون من الشركاء، وذلك حين تمسـهم الضراء والبأساء، إنما السبب في ذلك وجود معرفة فطرية لديهم بالله، إذ تنقشع عن أنفسهم آنئذٍ حجب الغفلة والمصلحة ويتوجهون إلى الله.

دور الأنبياء في المعرفة:

بـما أن الإنسـان مفطـور على المعرفة في عالم سـابق على هـذا العالم، ولم يحـدث له إلَّا النسـيان والغفلة عن تلك المعرفـة والاحتجاب عنها باتِّباع الشـهوات، فإنه لا يحتاج الآن إلَّا أن يُلفَـت نظـره إلى ما غفل عنه من المعرفة بعد أن تُرفع عن وجهه غشـاوة الحجب. ولم يكن من الممكن عودة الإنسـان اللاصق بالأرض بمباهجها ومشاكلها وأمانيها البعيدة إلَّا برسـول مبعوث من الله؛ إذ إن هذه العودة تسـتوجب تناسي الإنسـان لعالمه المادي القريب وتطلُّعـه إلى الآفـاق البعيدة حيث الغيب الذي يُدبِّر أمور الحياة، وذلك أمر مسـتصعب لا يلائم طبيعة الإنسان، ولهذا بالذات بُعث الأنبياء عليهم السلام؛ فقد جاؤوا لكي يُنذروا البشر عن التمادي في الغفلة عن معرفة الله تعالى، ويذكروهم بربهم الذي أنعم عليهم بنعم لا تحصى.

ولقـد كانـت هذه سـنة الأنبيـاء عليهم السلام. فهـذا القرآن تذكـرة بالله، فليـس في القرآن سـورة، بل ولا آية، إلَّا وتُذكِّر بالله بصورة مباشرة أو غير مباشرة، ورفع حجب الغفلة من

---

(١) بحار الأنوار: ج٣، ص٢٧٧.

هناك مجموعة ضخمة من الشواهد العلمية الحقيقية والأدلة الفلسفية تؤكد الحقيقة إلَّا أن المجال لا يسع لذكرها؛ لأننا لسنا الآن في معرض بيان هذه الحقيقة، بل إنما نريد هنا عرض الفكرة الإسلامية عن التوحيد وتفسير عدة ظواهر وجدانية عنها.

دونـه. وهكذا كانوا يُصرِّحون للناس أن الهدف الرئيسي من بعثهم كان تذكرة العباد بربهم وتوجيههم إلى خالقهم. قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[1].

وفي الحديث: سئل الإمام الصادق عليه السلام عن الناس: «أَفَضلالًا كَانُوْا قَبْلَ النَّبِيِّيْن أَمْ عَلَىَ هُدىً؟.

قَـالَ عليه السلام: لَمْ يَكُوْنُـوْا عَلَىَ هُدىً، كَانُوْا عَلَىَ فِطْـرَةَ الله الَّتِيْ فَطرَهُـمْ عَلَيْهَا لا تَبْدِيْلَ لِخَلْقِ الله، وَلَمْ يَكُوْنُوْا لِيَهْتَدُوَا حَتَّىَ يَهْدِيْهِمُ الله»[2].

---

(١) سورة الغاشية، آية: ٢٢.

(٢) تفسير العياشي: ج١، ص١٠٤.

٣ - الدليل إلى الله

آيات اللَّـه:

ألـف: مـا هو الدليل إلى الله؟.. تدبَّر في نفسـك واسرح ببصرك في الآفاق فانظر ماذا تـرى؟.. ألسـت ترى ما تعجز عن وصفـه عالمًا متوازنًا مبدعًا مدبـرًا وأنت فيه صغير يدبر شؤونك مولى عطوف ويربيك طورًا فطورًا.

بـــاء: ويقولون: إن الكون جاء صدفة ونظم صدفة ويسير بغير دليل. سبحان الله، ما هي الصدفة؟. هل يمكن تفسـيرها؟. أَوَلَا تعني الصدفة سـوى أن حادثتين وقعتا في حالة واحدة، وكان لكل واحدة منهما سـببها، إلَّا أنه كانت في وقوعهما معًا حكمة جديدة؟ هذه هي الصدفة التي نعرفها، ولا نعرف الصدفة عملًا بغير عامل، أو خلقًا دون خالق، أو حادثًا دون سبب!!.

جيم: الكون لم يحدث بل كان أزليًّا. هل هذا صحيح؟.

كلَّا!.

إن جميع شواهده يدل على حدوثه، تطوُّره، تناميه، تناقصه، تناقضه، حاجة بعضه إلى بعضه، تركيب أجزائه بدقة وتناسق.

إن في هذه آيات الحدوث.. بل كل اكتشافات العلم تهدي إلى أن للوجود عمرًا محدودًا. فالحرارة المتاحة للحياة تتناقص، وعمر النجوم محسوب، والأرض لم تكن ثم كانت، والوجود كان مركزًا ثم حدث فيه انفجار هائل ثم أخذ يتباعد وأنه سيرسو في نهاية محدودة[1].

(١) سبق الحديث حول ذلك عند الحديث عن طبيعة الوجود.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾[(١)]، وهل هي بحاجة إلى أكثـر مـن لفتة نظر، حتى نعرف أن هناك من نحتار في كنهه ولا نعرف إلَّا أنه شيء فوق الأشياء، شيء لا يشبه الأشياء، وهو قادر عليم، وهو الذي أبدع الكون إبداعًا.

دال: يقولون: هي الصدفة التي نسَّـقت علاقة الأشـياء ببعضها. فصدفة وبدون أية حكمـة أو تدبـير كانت حركـة كوكبنا (الأرض) حول الشـمس منضبطة تمام الانضباط، بحيـث لا يمكـن أن يحـدث أدنى تغيُّر في سرعـة دورانها حتى بعد مرور قـرن من الزمان. وصدفـة كان نظـام القمر الـذي يتبع في حركتـه الأرض يدور في فلك مقـرر ومنضبط مع تفاوت يسير يتكرر بدقة فائقة.

هل هي صدفة؟.

نحـن لا نفقه من لفظـة الحكمة إلَّا النظام الدقيق، فهل هـم يفهمون منها ما يُرادف كلمة الصدفة. إن الفضاء الكوني فسـيح جدًّا تتحرك فيه كواكب لا حصر لها[(٢)]، بحيث لو أُوتيتَ -فرضًا- أجنحة من نور وسـارت بك ألف مليون سـنة في سرعة الضوء لما قدرتَ أن تحيط بالكون؛ لأنه في توسُّع مستمر يسبق أجنحتك الخيالية السرعة.

إن دقة التنسـيق وروعته تبهران الإنسان وهو يتدبر في آفاق السماوات التي تهتف به أنها تُدَبَّر من لدن حكيم عليم.

هاء: إن شـواهد العمد والتصميم السـابق متوافرة في كل حركة في الكون. فبالرغم من وجود سنن كونية تجري عبرها الكواكب والمنظومات، فإنها ليست كآلة ميكانيكية، بل إنما هي كسيارة في عراء قد استوى عليها صاحبها وسيَّرها بقدرةٍ وخبرةٍ بالغةٍ.

فالآلـة الميكانيكيـة تفترق عن السـيارة في أنهـا ذات محدودية ضيِّقـة، وبرغم تحرُّكها فهي لا تتطور ولا تتوسـع. وإن الكون يجري لمسـتقر معلوم، له بداية وله توسُّـع وتناقص وله نهاية. ومن هنا فليسـت المجرات -وهي تتغير وتتطور- كالسـاعة الأوتوماتيكية التي صُنعـت ثم جُعلت تتحرَّك بذاتها، بل هي كالسـاعة وهي تُصنـع وتُكمل لحظة بعد لحظة؛ لأنها في صنع وتقدير مسـتمرين. فمثلًا: مجرات الكون تسـير حينًا باتجاه بعضها ولكنها لا

(١) سورة الأنبياء، آية: ٣٠.

(٢) أقوى تلسكوب في العالم يستقر في (ماونت بالومار) في الولايات المتحدة، ويشاهد بلايين النجوم.

تتصادم أبدًا، بل تتداخل ثم تتوادع وتتابع كل واحدة منها مسيرتها بسلام.

وهناك تكوّن جديد للنجوم ولكنه لا يتكوّن في أي موقع كان وفي أي زمان كان، بل يتكوّن في لحظة معينة وفي موقع معين ولهدف معين؛ ليُعرف أن وراء الأمر حكيمٌ يُدبِّره تدبيرًا.

وإن للصدف مجالًا واسعًا فيها ولكنها صدف مقصودة، الشهب تتقاذفها الصدف ولكنها في النهاية صدف حكيمة تنطلق في وقت معين ولهدف معين.

سبحان من يرصدها وسبحان من يرميها.

واو: وحسب أحدث النظريات الكونية، إن في آفاق السماء خلقًا مستجدًا دائمًا ولكنه خلق مقصود ومتعمَّد.

والميكنة قد تُفسِّر شكلاً خاصًّا من الأحداث، ولكن هل بإمكان المصنع الذي ينتج السيارة أن يصنع الطائرة في لحظة معينة؟.

كلَّا!. لقد عبَّر عن هذه الحقيقة عالم كبير بطريقة لطيفة فقال: إنه يستحيل على مصنع يخرج منه الرجل أن يصنع المرأة لو لم تكن هناك حكمة بالغة تُدبِّر الأمر بالغيب! وكذلك قال الله في كتابه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[(١)].

وفي الأرض آيات للسائلين. فكل ما في الأرض جاء لمصلحة كل فرد. وجدير بنا أن نسأل كيف خلقت الصدفة كل شيء في صالح الإنسان؟.

فحجم الأرض لو كان بحجم القمر، إذًا لقلَّت جاذبيتها إلى السدس واشتدت البرودة فيها ليلًا والحرارة نهارًا، ونقصت مياهها، وانهار توازنها، واستحالت فيها الحياة... ولو كان حجمها أكبر منها بضعف إذًا لانكمش غلافها الجوي، واشتد ضغط الهواء فيها، وأثَّر في استمرار الحياة عليها. والضغط الجوي لا يزيد عن ١٥ رطلًا لكل بوصة مربعة؛ لأن هذا القدر فقط يفيد حركة الإنسان ونشاطه.

---

(١) سورة الروم، آية: ٢٥-٢٧.

والضغط من الجاذبية، وقد كشف نيوتن عن وجود تجاذب بين أي جسم وجسم، وبقي متسائلًا: كيف ينجذب جسم ميت إلى جسم ميت إن لم تكن لهما أهداف مشتركة وراءهما، وممسك عظيم؟! وفي الأرض اختلاف الليل والنهار واختلاف المواسم، ولم يكن ممكنًا وجود هذا الاختلاف دون تدبير دقيق جعل الأرض تدور في زاوية ٣٣ درجة. تصوَّر لو لم يكن فيها هذا التدبير، أفلم يكن قد غمر الظلام القطبين أبدًا وما بقي على الأرض غير جبال الثلج والفيافي الجرد واستحالت الحياة؟.

فسبحان من علَّم وقدَّر وقضى ونفذ القضاء بقوة، ويقولون صدفة، بئس ما يخدعون به أنفسهم.

إن سمك الأرض لو كان أكثر عشرة أقدام لامتصت الأرض الأوكسجين واستحالت الحياة، ولو كانت البحار أعمق بضعة أقدام لاستحالت الحياة أيضًا.

أكان كل ذلك صدفة؟.

سبحان الله عما يصفون.

زاي: إن منظر المطر رائع، وفيه منافع للناس جميعًا. فلنتصور أي تدبير حكيم هذا الذي يجعل البحر يتبخر صاعدًا ويأمر الرياح أن تحملها إلى حيث (يشاء هو) فيهطل عليهم بقدر ما يُصلحهم، ويزيد لهم الرعد والبرق وهما ضرورتان للزراعة.

وتقول صدفة تمطر سنة هنا وسنة هناك؟! كلَّا، إنما هو وفق نظام دقيق يناسب تدبير الحياة والأحياء كما يناسب سائر قوانين الكون.

قال الله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ﴾(١).

وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾(٢).

حاء: وحياتنا الشخصية هل تُدبَّر بالصدفة؟.

---

(١) سورة عبس، آية: ٢٤-٣٢.

(٢) سورة الأنعام، آية: ٩٩.

قليل من الناس يستطيع أن يقول ماذا سيصبح في المستقبل، بل ماذا يكسب غدًا ومتى يموت. ولو تدبَّرتَ قليلًا لوجدتَ أن صدفًا ما غيَّرت مسيرة حياتك، وحوادث ما جعلتك تُغيِّر أفكارك، بل إنك في لحظات اضطررت أن تختار طريقًا مختلفًا عن آمالك، بل اخترته بصورة فجائية لم تسبقك إليه بادرة أبدًا. ولقد عبَّرت عن هذه الحقيقة آية شريفة تعبيرًا لطيفًا، فقالت: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾(١).

وإنك تعلم كثيرًا، ولكنك لا تختار بالضبط متى تعلم وكيف تعلم. وبالرغم من أن هناك أسبابًا معينة للتعلّم فإن يدًا غيبية تُنظِّم التعليم وتُوجِّهه. وأكبر العلماء وأقدرهم يرى نفسه -حسب اعترافات فريق عظيم منهم- تلميذًا متواضعًا للغيب يفتح له أبواب العلم بقدر معلوم.

ولم تتم الاكتشافات العظيمة إلَّا في حالات تشبه الغيبوبة والتنبُّه الخاطف. ونعلم أشياء ثم ننساها وصدفةً نتذكرها، وحين نتدبر لحظات نرى أن هناك مصالح عامة عملت في ذهولنا.. ولا نعلم أشياء، وصدفةً نعرفها ويكون ذلك في صالحنا ونسميه الحاسة السادسة. هكذا يتقلَّب البشر بين أصابع الله سبحانه. فإذا به يجد ذاته مدبَّرًا محدود الاختيار. قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾(٢).

وقال الإمام أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في جواب سؤال وُجِّه إليه: «بِمَا عَرَفْتَ رَبَّكَ؟. قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: **بِفَسْخِ الْعَزْمِ وَنَقْضِ الْهِمَمِ**»(٣).

طاء: وفي حالات عديدة يرتبط وجداننا بقوة غيبية فنسأل صاحبها (باسم أو بآخر) ونتضرَّع إليه بقلوبنا، فنجدها ذات أثر فعَّال في توجيه حياتنا نحو الأفضل، ونجد الحياة المستصعبة تيسَّرت، حتى نخال أن القدرة كانت من ذواتنا بصورة أصيلة. وعندما تهجم علينا المصائب تتوسل قلوبنا بقوة غيبية قاهرة لا نعلم أين هي وكيف هي، بل لا نعرف عنها إلَّا أنها قادرة على إنقاذنا. وقد تصفو النفس إلى درجة تحسب أنها ترى الله، بل هو أشد من الرؤية وضوحًا آنذاك، ولو يتذكَّر الإنسان تلك اللحظات لعرف أن الله لا ريب فيه،

(١) سورة الأنفال، آية: ٢٤.
(٢) سورة لقمان، آية: ٣٤.
(٣) بحار الأنوار: ج٣، ص٤٢.

فاطر السماوات والأرض الرؤوف الرحيم.

قـال الله في كتابه الكريم: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾(١).

وَقَـالَ رَجُلٌ للإمَامِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلامُ: «يَا ابْنَ رَسُـولِ! الله دُلَّنِي عَـلَى الله مَا هُوَ؟. فَقَدْ أَكْثَرَ عَلَيَّ المُجَادِلُونَ وَحَيَّرُونِي!.

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلامُ لَهُ: **يَا عَبْدَ الله! هَلْ رَكِبْتَ سَفِينَةً قَطُّ؟.**

قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ عَلَيْهِ السَّلامُ: **فَهَلْ كُسِرَ بِكَ حَيْثُ لَا سَفِينَةَ تُنْجِيكَ وَلَا سِبَاحَةَ تُغْنِيكَ؟!.**

قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ عَلَيْهِ السَّلامُ: **فَهَلْ تَعَلَّقَ قَلْبُكَ هُنَالِكَ أَنَّ شَـيْئًا مِنَ الْأَشْـيَاءِ قَـادِرٌ عَلَى أَنْ يُخَلِّصَكَ مِنْ وَرْطَتِكَ؟!.**

قَالَ: نَعَمْ.

قَـالَ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلامُ: **فَذَلِكَ الشَّيْءُ هُوَ اللهُ الْقَادِرُ عَلَى الْإِنْجَاءِ حَيْثُ لَا مُنْجِيَ، وَعَلَى الْإِغَاثَةِ حَيْثُ لَا مُغِيثَ**»(٢).

وهكذا يعرّف الله نفسـه للإنسـان مرة بعـد أخرى، ويظهـر في كل شيء ظهورًا، لا تراه تلـك العيون التي تعودت رؤية الفقاعات الصغيرة دون ما وراءها، وإنما تراه القلوب البصيرة النافذة التي تخترق ظواهر الحياة إلى حقائقها، ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾(٣).

أسماء اللّـه الحسنى:

١ - إننا نجد في أنفسنا وفي الكون المحيط بنا نقطتين متقابلتين؛ نقطة الضعف ونقطة القـوة. فإننـا مثـلًا موجـودون، إلَّا أن وجودنا محدود بالزمـان والمكان، وإننـا عالمون لكن

(١) سورة يونس، آية: ٢٢.
(٢) بحار الأنوار: ج٣، ص٤١.
(٣) سورة فصلت، آية: ٥٣.

علمنا محدود بالوقت والكمية، ومثل هذا كل شيء في العالم.

٢- ليس لنا أن ندَّعي أن ما بنا من علم ووجود هو من معطيات ذواتنا الأولية، وأن ذواتنا هي الوجود والعلم، إذ لو كنا نملك بذاتنا أن نُوجد أنفسنا إذًا لأوجدناها كبيرةً قديرةً كما نُحب، باقيةً خالدةً كما نأمل، كذلك لو كنا نملك العلم بذاتنا إذًا لأعطينا أنفسنا علم كل شيء وبالتالي ما نسينا شيئًا أبدًا.

٣- فإذا لم تكن ذاتنا بالعلم والوجود كما هي الحقيقة، فلا بد أن نهتدي إلى أنها من طبيعة العدم والجهل. فنعرف أن ما بها من وجود وعلم هو من مصدر كامل الوجود وتام العلم، ذلك الذي لا نقص فيه ولا ضعف ولا عجز، وذلك الذي لا جهل معه ولا نضوب له، وأن مالك الوجود الذي يُعطينا منه قدرًا مقدورًا ومالك العلم الذي يفيض علينا منه قبسًا محدودًا، أنه لا يمكن أن يُحدَّد وجوده بعجز أو فقر أو ضعف، ولا يجوز أن يُقدَّر علمه بنوع دون آخر وبكيف دون كيف أو بشيء دون شيء، وإلَّا لكان مثلنا مخلوقًا مملوكًا، ويكون ذاته عدمًا وجهلًا كما هي ذاتنا.

٤- إن هذه الحقائق تهدينا إلى أن ما في الآفاق وما في أنفسنا من آيات الكمال والجمال دالةٌ على ما لواهبها من كمال ذاتي لا محدود وجمال تام لا متناهٍ، وأنها بما فيها من معالم الضعف والنقص دالةٌ على تعالي خالقها منها وتساميه عنها، وبهذا نهتدي إلى ما لله من أسماء حسنى وما هو منزَّه عنه من صفات المخلوقين.

قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(١).

وَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: «**الْحَمْدُ لله الَّذِي لَا مِنْ شَيْءٍ كَانَ، وَلَا مِنْ شَيْءٍ كَوَّنَ مَا قَدْ كَانَ، الْمُسْتَشْهِدِ بِحُدُوثِ الْأَشْيَاءِ عَلَى أَزَلِيَّتِهِ، وَبِمَا وَسَمَهَا بِهِ مِنَ الْعَجْزِ عَلَى قُدْرَتِهِ، وَبِمَا اضْطَرَّهَا إِلَيْهِ مِنَ الْفَنَاءِ عَلَى دَوَامِهِ، لَمْ يَخْلُ مِنْهُ مَكَانٌ فَيُدْرَكَ بِأَيْنِيَّةٍ، وَلَا لَهُ شَبَحُ مِثَالٍ فَيُوصَفَ بِكَيْفِيَّةٍ..**»(٢).

---

(١) سورة الحشر، آية: ٢٢-٢٤.

(٢) بحار الأنوار ج٤، ص٢٢١.

الأحدية:

الأحدية تعني أمرين:

الأول: أن الله تعالى صمد لا تركيب فيه.

الثاني: أن الله واحد لا شريك له.

والدليل على الأول:

ألف: إننا نلاحظ أن المخلوق يحتاج بعضه إلى بعض ولا يتم بعضه إلّا ببعض، ونعلم من وجداننا أن هذه صفة الذل والعجز، وأن هذا يدل على أن المخلوق ضعيف وقدرته محدودة. وهذا يهدينا -بالوجدان- إلى أن خالقنا مقدس عن أن يشارك خلقه في الضعف والعجز؛ إذ إن الضعيف لو كان قادرًا على الخلق لم نكن بحاجة إلى الخالق، بل كنا نقول: إن كل شيء قد خلق نفسه، فإذا هدانا العقل إلى الحاجة للخلق، هدانا أيضًا إلى أن الخالق لابد أن يكون مُنزَّهًا عمَّا يجري فينا من الصفات الناقصة.

وبما أن صفة التركيب صفة من صفات العجز والضعف فإننا نعرف أن الله مُقدَّس عنها، وأنه غير مركب.

جاء في الحديث: «.. **مُسْتَشْهِدٌ بِكُلِّيَّةِ الْأَجْنَاسِ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ، وَبِعَجْزِهَا عَلَى قُدْرَتِهِ، وَبِفُطُورِهَا عَلَى قِدْمَتِهِ، وَبِزَوَالِهَا عَلَى بَقَائِهِ.. تَعَالَى عَنْ ضَرْبِ الْأَمْثَالِ وَالصِّفَاتِ الْمَخْلُوقَةِ عُلُوًّا كَبِيرًا** ..»[1].

باء: إن التركيب يعني وجود عنصرين خالدين يحتاج أحدهما إلى الآخر، وإن هذا يعني عدم وجود إله أبدًا؛ ذلك لأن الحاجة من صفة المخلوق والخالق غني بالذات عن غيره، إذ لو لم يكن غنيًّا بالذات لم يمكن أن يكون أزليًّا دائمًا، بل كان يحتاج إلى خالق آخر غير محتاج.

هذا هو المعنى الأول للأحدية.

ولمعرفة الدليل على المعنى الثاني لابد من عرض بعض النقاط التمهيدية:

---

(١) بحار الأنوار ج٤، ص٢٢١.

التوحيد:

١ - قالت المجوس: إن للكون إلهين اثنين أحدهما للخير والثاني للشر، ويسمون إله الخير بإله النور، وإله الشر بإله الظلمة. والذي أضلَّهم هذا الضلال المبين هو جهلهم بطبيعة الشر وسبب وجوده في الحياة، فزعموا أنه لا يمكن أن يكون خالق النور هو خالق الظلمة، وربّ الخير هو رب الشر. ولقد أضلهم هذا الجهل إلى أن الإلهين لابد أن يكونا في صراع دائم يُمثِّله في الخارج جنود الخير والشر، والنور والظلمة. ومن هنا فهم قائلون بتعدد الآلهة ليكون أحدهما ممثلًا للخير وخالقًا له، والثاني ممثلًا للشر وخالقا له. ولابد عندهم من أن يكون النزاع دائمًا بين الإلهين، وإلّا فقد التعدد معناه.

ومن هنا فإنهم يزعمون أن كلًّا من إله الخير وإله الشر عاجزان عن التغلُّب على الآخر. فإن أثبتنا -كما سيأتي- أن الله الخالق لا يمكن أن يكون عاجزًا عرفنا أن الله أحد وهو إله الخير والشر، وجاعل النور والظلام، وأنه لا يمكن أن يكون هناك إله آخر ليس لله تعالى طرده والانتصار عليه.

٢ - إن الفلسفة الإغريقية، وروحها السارية في اليهودية والنصرانية، ادَّعت تعدُّد الآلهة بسبب زعمهم أن الله قد أولد الأشياء، فأضلهم جهلهم بطبيعة الخلق، وزعموا أن طبيعة الخلق إنما هي ولادة شيء عن الله سبحانه وصدوره عنه كما تفيض العيون بالماء.

فإذا ثبت لدينا أن خلق الله إنما هو بنحو الإبداع ﴿يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(١)، لأن قدرته ذاتية، وعرفنا أنه إذا حُدِّدَ الذاتي انقلب إلى أمر عرضي، إذ معنى ذاتية القدرة أن الذاتي لا يمكن أن يكون عاجزًا بل إنه كواقع العلم الذي لا يمكن أن ينقلب إلى الجهل، بل العلم علم بالذات. أقول: إذا ثبت لدينا هذا ثبتت سخافة الفلسفة الإغريقية وتابعتها اليهودية والنصرانية في هذا المجال، وانهار بناء القول بتعدُّد الآلهة، بناء الزردشتية الشرقية والإغريقية الغربية.

هذه بعض النقاط التمهيدية. أما تفصيل الأدلة على التوحيد، فهي:

١ - لكل اثنين ثالث ولكل ثلاثة رابع، والسبب أنه لابد لكل اثنين من عنصرين أحدهما يُميِّزه عن الآخر والثاني يحقق وجوده، فزيد وعمر يشتركان بعنصر الرجولة

---

(١) سورة البقرة، آية: ١١٧.

ويفترقان بعنصر العمر، والزمن، أو الحالة والمكان، وما أشبه.

ولو افترضنا إلهًا غير ذي العرش -تعالى- إذًا لكان بينه وبين الله سبحانه فارقًا يُميِّزه عنه كالمكان والزمان و.. و.. ولكان الفاصل خالدًا خلود الإلهين لأنه مُقوِّم لهما مُحقِّق لوجودهما ولولاه لما تميَّز عن الإله الآخر.

ثم يأتي الحديث عن هذا الفاصل الذي يُميِّز بين الإلهين والذي افتُرض أنه قديم؛ فنقول: إنه لو كان قديمًا لكان وجوده من نفسه، وإذًا لكان غنيًّا عن الخلق. إذ كل شيء قديم لا يمكن أن يكون مخلوقًا بل غنيًّا عن الخلق وبالتالي إلهًا، وإذا كان كذلك فلابد أن يكون بينه وبين الإلهين فارقان، ولكان الفارقان إلهين أيضًا، ولكان يجري فيهما ما قد جرى في الآلهة السابقة من لزوم الفارق بينهما وبين غيرهما من الآلهة، وهذا لا يقف عند حدٍّ محدود، إذ كلما افترضنا إلهين قلنا فيهما: إنهما يحتاجان إلى ما يُفرِّقهما عن بعضهما ولابد أن يكون الفارق إلهًا، وهكذا نستمر إلى ما لا نهاية.

كل ذلك فيما لو افترضنا أن الإلهين بعيدان عن بعضهما، أما لو قلنا: إن أحد الإلهين يكون حاملًا للآخر إذًا لكان المحمول مخلوقًا محتاجًا، ولم يكن في الكون إلّا إله واحد.

٢- ثم إن وجود إلهين اثنين لا يخلو من أن يكون واحدًا من أمرين؛ أما أن يقدر أحدهما على دفع الآخر عن موضعه أو لا يقدر. فإن كان قادرًا، لم يكن ذاك الآخر إلهًا، وإن لم يكن قادرًا لم يكن هذا إلهًا؛ إذ الإله لابد أن يكون قادرًا بالذات، ولا تكون القدرة الذاتية محدودة أبدًا؛ إذ -كما مرَّ- إن الذاتي يعني أن كون القدرة من ذات الفرد، ولا يناسب القدرة الذاتية العجز عن ناحية معينة. فمثلًا: يكون الله قادرًا بالذات ثم لا يكون قادرًا على خلق نجمة مضيئة؟!. هذا تناقض.

وبما أن العجز عن التغلُّب على الإله الآخر نوع من العجز، فإنه لا يناسب القدرة الذاتية، إذ إنَّا نعرف -بالوجدان- أن القدرة بالذات لا يمكن أن تنقلب إلى العجز ولو بالنسبة إلى شيء واحد.

جاء في السنة: عَنْ هِشَامِ بْنِ الْحَكَمِ أَنَّهُ سَأَلَ الزِّنْدِيقُ الإمَامَ الصَّادِقَ عليه السلام عَنْ قَوْلِ: «مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللهَ لَمْ يَزَلْ مَعَهُ طِينَةٌ مُوذِيَةٌ فَلَمْ يَسْتَطِعِ التَّفَصِّيَ مِنْهَا إِلَّا بِامْتِزَاجِهِ بِهَا وَدُخُولِهِ فِيهَا فَمِنْ تِلْكَ الطِّينَةِ خَلَقَ الْأَشْيَاءَ؟!.

قَالَ عليه السلام: **سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى مَا أَعْجَزَ إِلَهًا يُوصَفُ بِالْقُدْرَةِ لَا يَسْتَطِيعُ التَّفَصِّيَ مِنَ الطِّينَةِ، إِنْ كَانَتِ الطِّينَةُ حَيَّةً أَزَلِيَّةً فَكَانَا إِلَهَيْنِ قَدِيمَيْنِ فَامْتَزَجَا وَدَبَّرَا الْعَالَمَ مِنْ أَنْفُسِهِمَا، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَمِنْ أَيْنَ جَاءَ الْمَوْتُ وَالْفَنَاءُ، وَإِنْ كَانَتِ الطِّينَةُ مَيِّتَةً فَلَا بَقَاءَ لِلْمَيِّتِ مَعَ الْأَزَلِيِّ الْقَدِيمِ، وَالْمَيِّتُ لَا يَجِيءُ مِنْهُ حَيٌّ...**»(١).

- اذهب ببصرك أنّى شئت من لدن نفسك حتى تبلغ أبعد مجرة في السماء، فلن ترى إلَّا الترابط والتماسك التام، بعضها يحتاج إلى بعض ولا يتم إلَّا به، وليس ذلك إلَّا شاهدًا ودليلًا على وحدة التقدير والتدبير، والمُقدِّر والمُدبِّر، الذي يحفظ توازنهما ويُمسكهما أن يتصدعا، فكما يوجد نظام تجاذب الأجسام بين النجوم والمنظومات والمجرات، كذلك يوجد في داخل الذرة الصغيرة من أجسام أو إشعاعات. والنظام الذي يوجد في العوالم الكبرى نجده في صورته الكاملة في أصغر عالم عرفناه. فنحن نعرف -طبقًا لأحدث معلوماتنا- أن الذرة أصغر عالم، وأنها قد تناهت في صغرها حتى لا يمكن أن نشاهدها إلَّا بالمنظار الذي يكبِّر الأشياء ملايين المرات، ولكن هذه الذرة، مع ما وصفناه بها، تحتوي بصورة رائعة على نظام الدوران الموجود في النظام الشمسي.

والسؤال: على ماذا يدل الترابط والتشابه؟.

والجواب: إنك إذا رأيت كتابًا قد أُتقنت فصوله ونُسِّقت تنسيقًا قلت: إن مؤلفه إنما هو فرد واحد. وأما إذا رأيت كتابًا مختلف الفصول في المستوى وفي الموضوع عرفت أن من ألَّفه ليس بواحد. فكيف لا يشهد العقل بوحدة مدبر الكون من وحدة تدبيره وتناسق أجزائه وترابطها؟.

ولو كان هناك إلهان إذًا لكان يظهر في الكون آثار قدرتهما ولكان يختلف تدبيرهما، وإذًا لكان يفسد الكون بهما. قال الله سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾(٢).

٤ - لو كان مع الله إله آخر، لكان يبعث إلينا رسلًا نهتدي إليه بهم؛ إذ إن معرفة الله لا يمكن إلَّا به وبإرشاده، وإذ لم يبعث إلينا رسلًا عرفنا أنه لا يخلو من ثلاث:

- فأما أنه ليس بموجود.

---

(١) بحار الأنوار: ج٣، ص٢٠٩.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ٢٢.

- وأما أنه عاجز.
- أو أنه غير آبه بعباده.

وليس ذلك كله من صفة الخالق القادر الغني بالذات.

جاء في السـنة عن الإمام علي عليه السلام: «**وَاعْلَمْ يَا بُنَـيَّ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكٌ لَأَتَتْكَ رُسُلُهُ**»[١].

(١) نهج البلاغة (٣١) من وصية له عليه السلام للإمام الحسن عليه السلام كتبها إليه بحاضرين عند انصرافه من صفين.

٤ - التذكر باللّـه

إن لمعرفة الله مرحلتين:

الأولى: تتناول موضوع معرفة الله.

الثانية: في أنه كيف نُذكِّر الناس بالله، وكيف ندعوهم إليه.

وقد استوعبنا الحديث عن المرحلة الأولى، وها نحن نعرض المرحلة الثانية:

ملاحظات تمهيدية:

١- في هذه المرحلة، يسعى الداعي إلى إثبات الله للمنكرين، وتعتبر هذه المرحلة بمثابة تمهيد طريق يؤدي إلى المعارف التي بُيِّنت في المرحلة الأولى، ذلك لأنه يعرض في البدء الأدلة المثبتة لوجود الله سبحانه، فإذا آمن الفرد، يعرض له صفات الله وكيفية معرفته وما أشبه، مما سبقت الإشارة إليها في أحاديثنا السابقة.

٢- هل تستطيع العقول إثبات الله؟.

بالوجدان نرى أن كل ذي لب يستطيع -بعد التوجه إلى آيات الله- أن يهتدي إلى وجود الله. وإلى هذه الحقيقة تشير النصوص التالية:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾(١).

إذاً في الكون آيات لمن تفكَّر وعقل. فالفكر والعقل يهديان إلى وجود الله.

(١) سورة النحل، آية: ١٢.

في الحديث: «**لَمْ يُطْلِعِ الْعُقُولَ عَلَى تَحْدِيدِ صِفَتِهِ، وَلَمْ يَحْجُبْهَا عَنْ وَاجِبِ مَعْرِفَتِهِ**»[١].

٣- والناس في الدعوة إلى الله فريقان:

- منكر متردد.
- منكر جاحد.

وعلى الداعي أن يجاري كلًّا منهما بما يناسبه من دليل أو تذكُّر.

٤- على الداعي أن يُثبت وجود الله في ثلاث مراحل:

ألف: تذليل الغريزة الجاحدة، وأكثر من ينكر الحق تحت ضغط تلك الغريزة.

بــاء: رد الشبهات والأفكار الضالة التي ترسبت في النفس بسبب أو بآخر.

جيم: إضاءة الضمير بالتوجيه إلى آيات الله الدالة عليه.

وإذا نجح الداعي في دفع الفرد من مستوى الجحود إلى مستوى الشبهات ومنها إلى مستوى الآيات فقد انتصرت حجته ومضت دعوته.

وعلى الداعي أن يعرف أولًا مستوى صاحبه في مجال الدعوة. فبعض الناس مُسلِّمون للحق -بطبعهم- وليس لهم سوى الغفلة عنه، وهزة واحدة لهم بالتذكير تنقلهم من الضلال إلى الهدى، في حين أن لبعضهم قلبًا أقسى من الحجر، لا ينفذ فيه الهدى أبدًا. وإليك الآن بيانًا وتفصيلًا للمراحل ومقتضياتها:

مرحلة الجحود:

إن الجحود مرض نفسي، ناشئ من الطغيان والتكبُّر، وعلاجه الوحيد يكمن في تذليل النفس وتبديل طغيانها رضًا وتسلميًا. والطريق الإسلامي إلى هذا التبديل هو توجيه النفس بكل عنف وإصرار إلى ثلاث نقاط:

ألف: إن الكفر يوجب غضب الله وعذابه في الآخرة.

بــاء: إن الكفر يؤدي إلى عذاب عاجل في الدنيا.

جيم: إن الإيمان بالله يسبب مغفرةً من الله وأجرًا في الدنيا والآخرة[٢].

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة، (٤٩).

(٢) وينبغي أن نستفيد من الحقائق التي سوف نُبيِّنها إن شاء الله عند الحديث عن فوائد الإيمان، كما ينبغي أن نستفيد من نصوص الكتاب والسنة، وذلك في أسلوب تذليل النفس البشرية.

وبما أن البشر قد فُطِرَ على حب الذات فإنه يستسلم لدى تخويفه بالعذاب ويرجع عن طغيانه عندما يُرَغّب في الثواب.

والنصوص القرآنية تعطينا درسًا بليغًا في مجال دعوة الجاحدين، وتُبيِّن لنا سر نجاح القرآن في هداية الجاحدين، وكيف أذلت نفوسهم الطاغية وأخضعتها للحق.

وفيما يلي نُثبت نماذج قرآنية لذلك:

قال الله تعالى -وهو يُخوِّف الإنسان بالعذاب-: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2].

وقال الله تعالى وهو يجعل لمن آمن أجرًا عظيمًا في الآخرة ويُرغّبهم فيها: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾[3].

كما يجعل لمن آمن أجرًا عظيمًا في الحياة الدنيا، فيقول تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ

---

(١) سورة الانفطار، آية: ١-٧.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ١٤-١٧.

(٣) سورة طه، آية: ٧٠-٧٦.

مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾(١).

ومن تدبَّر في القرآن يجد أن أكثر آياته تسير على هذا النهج؛ ذلك لأنها تُجابه الملحدين بالإنذار والبشارة ثم توجههم إلى الله الحق. وتسلك نصوص السنّة الشريفة أيضًا الطريق نفسه.

نُثبت فيما يلي نموذجًا واحدًا منها نقتبسه من خطب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: «**الحَمْدُ لله المَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ، وَالخَالِقِ مِنْ غَيْرِ مَنْصَبَةٍ. خَلَقَ الخَلائِقَ بِقُدْرَتِهِ وَاسْتَعْبَدَ الْأَرْبَابَ بِعِزَّتِهِ، وَسَادَ الْعُظَمَاءَ بِجُودِهِ، وَهُوَ الَّذِي أَسْكَنَ الدُّنْيَا خَلْقَهُ، وَبَعَثَ إِلَى الْجِنِّ وَالْإِنْسِ رُسُلَهُ، لِيَكْشِفُوا لَهُمْ عَنْ غِطَائِهَا، وَلِيُحَذِّرُوهُمْ مِنْ ضَرَّائِهَا، وَلِيَضْرِبُوا لَهُمْ أَمْثَالَهَا، وَلِيُبَصِّرُوهُمْ عُيُوبَهَا، وَلِيَهْجُمُوا**(٢) **عَلَيْهِمْ بِمُعْتَبَرٍ مِنْ تَصَرُّفِ مَصَاحِّهَا**(٣) **وَأَسْقَامِهَا وَحَلَالِهَا وَحَرَامِهَا، وَمَا أَعَدَّ اللهُ لِلْمُطِيعِينَ مِنْهُمْ وَالْعُصَاةِ مِنْ جَنَّةٍ وَنَارٍ وَكَرَامَةٍ وَهَوَانٍ. أَحْمَدُهُ إِلَى نَفْسِهِ كَمَا اسْتَحْمَدَ إِلَى خَلْقِهِ، وَجَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا، وَلِكُلِّ قَدْرٍ أَجَلًا، وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابًا...**

ثم قال: **وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرْضَى عَنْكُمْ بِشَيْءٍ سَخِطَهُ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَلَنْ يَسْخَطَ عَلَيْكُمْ بِشَيْءٍ رَضِيَهُ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَإِنَّمَا تَسِيرُونَ فِي أَثَرٍ بَيِّنٍ وَتَتَكَلَّمُونَ بِرَجْعِ قَوْلٍ قَدْ قَالَهُ الرِّجَالُ مِنْ قَبْلِكُمْ...**

ثم قال: **وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ لِهَذَا الْجِلْدِ الرَّقِيقِ صَبْرٌ عَلَى النَّارِ، فَارْحَمُوا نُفُوسَكُمْ فَإِنَّكُمْ قَدْ جَرَّبْتُمُوهَا فِي مَصَائِبِ الدُّنْيَا، أَفَرَأَيْتُمْ جَزَعَ أَحَدِكُمْ مِنَ الشَّوْكَةِ تُصِيبُهُ وَالْعَثْرَةِ تُدْمِيهِ وَالرَّمْضَاءِ تُحْرِقُهُ؟. فَكَيْفَ إِذَا كَانَ بَيْنَ طَابَقَيْنِ مِنْ نَارٍ، ضَجِيعَ حَجَرٍ وَقَرِينَ شَيْطَانٍ أَعَلِمْتُمْ أَنَّ مَالِكًا**(٤) **إِذَا غَضِبَ عَلَى النَّارِ حَطَمَ بَعْضُهَا بَعْضًا لِغَضَبِهِ، وَإِذَا زَجَرَهَا تَوَثَّبَتْ بَيْنَ أَبْوَابِهَا جَزَعًا مِنْ زَجْرَتِهِ...**»(٥).

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٨٥-٩٢.

(٢) هجم عليه: دخل غفلة، ويعني عليه السلام: أنهم أثاروهم مفاجئة بالمواعظ.

(٣) مصاحّها: بمعنى الصحة والعافية.

(٤) هو الملك الذي وكله الله على النار.

(٥) نهج البلاغة: الخطبة ١٨٣. من خطبة له عليه السلام في قدرة الله.

هكـذا تحـاول الآيـات والنصوص الإسـلامية إزالة جحـود الجاحديـن بالتخويف والترغيب، وعلى الداعي أن يستعمل الأسلوب نفسه ليكون ناجحًا.

مرحلة الجدال:

تمهيدًا لعرض طائفة من الشبهات ودحضها، يجب أن نعلم أن الجدال يعني في منطق القرآن، المناقشة بصفة عامة، وهو على نوعين: جدال ممدوح وآخر مذوموم، وهما:

١- الجدال بالتي هي أحسن.

٢- الجدال بغير التي هي أحسن.

والحديث التالي يُفرِّق لنا بين النوعين، كما يُبيِّن حكمهما لدى الإسلام:

ذُكِـرَ عِنْـدَ الإمـام الصَّادِقِ عليه السلام الجِـدَالُ فِي الدِّيـنِ وَأَنَّ رَسُـولَ الله صلى الله عليه وآله وَالْأَئِمَّةَ المَعْصُومِـينَ عليهم السلام قَـدْ نَهَوْا عَنْـهُ؛ فَقَالَ الإمام الصَّـادِقُ عليه السلام: «**لَمْ يَنْهَ عَنْـهُ مُطْلَقًا لَكِنَّهُ نَهَى عَـنِ الْجِدَالِ بِغَيْرِ الَّتِي هِيَ أَحْسَـنُ، أَمَا تَسْـمَعُونَ اللهَ يَقُولُ:** ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾، **وَقَوْلَـهُ تَعَالَى:** ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾. **فَالْجِـدَالُ بِالَّتِـي هِيَ أَحْسَـنُ قَدْ قَرَنَهُ الْعُلَـمَاءُ بِالدِّينِ، وَالْجِـدَالُ بِغَيْرِ الَّتِي هِيَ أَحْسَـنُ مُحَرَّمٌ، وَحَرَّمَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى شِـيعَتِنَا. وَكَيْفَ يُحَرِّمُ اللهُ الْجِـدَالَ جُمْلَةً وَهُوَ يَقُولُ:** ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ ﴾، **قَـالَ اللهُ تَعَـالَى:** ﴿ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾؛ **فَجَعَـلَ عِلْمَ الصِّدْقِ وَالْإِيمَانَ بِالْبُرْهَانِ، وَهَلْ يُؤْتَى بِالْبُرْهَانِ إِلَّا فِي الْجِدَالِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ؟!.**

قِيلَ: يَا ابْنَ رَسُولِ الله! فَمَا الْجِدَالُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ وَالَّتِي لَيْسَتْ بِأَحْسَنَ؟.

قَالَ عليه السلام: **أَمَّا الْجِدَالُ بِغَيْرِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ: أَنْ تُجَادِلَ مُبْطِلًا فَيُورِدَ عَلَيْكَ بَاطِلًا فَلَا تَرُدَّهُ بِحُجَّةٍ قَدْ نَصَبَهَا اللهُ تَعَالَى، وَلَكِنْ تَجْحَدُ قَوْلَهُ أَوْ تَجْحَدُ حَقًّا يُرِيدُ ذَلِكَ الْمُبْطِلُ أَنْ يُعِينَ بِهِ بَاطِلَـهُ فَتَجْحَـدُ ذَلِكَ الْحَقَّ مَخَافَةَ أَنْ يَكُونَ لَهُ عَلَيْكَ فِيهِ حُجَّةٌ؛ لِأَنَّكَ لَا تَدْرِي كَيْفَ الْمَخْلَصُ مِنْهُ؛ فَذَلِكَ حَرَامٌ عَلَى شِيعَتِنَا أَنْ يَصِيرُوا فِتْنَةً عَلَى ضُعَفَاءِ إِخْوَانِهِمْ وَعَلَى الْمُبْطِلِينَ.**

أَمَّا الْمُبْطِلُونَ فَيَجْعَلُونَ ضَعْفَ الضَّعِيفِ مِنْكُمْ إِذَا تَعَاطَى مُجَادَلَتَهُ وَضَعُفَ فِي يَدِهِ حُجَّةً لَهُ عَلَى بَاطِلِهِ، وَأَمَّا الضُّعَفَاءُ مِنْكُمْ فَتُغَمُّ قُلُوبُهُمْ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ ضَعْفِ الْمُحِقِّ فِي يَدِ الْمُبْطِلِ.

وَأَمَّا الْجِدَالُ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَهُوَ مَا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِهِ نَبِيَّهُ أَنْ يُجَادِلَ بِهِ مَنْ جَحَدَ الْبَعْثَ بَعْدَ الْمَوْتِ وَإِحْيَاءَهُ لَهُ فَقَالَ اللهُ حَاكِيًا عَنْهُ: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾، فَقَالَ اللهُ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِ: ﴿قُلْ -يَا مُحَمَّدُ- يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ..﴾»[1].

نستنبط من هذا الحديث ثلاثة أمور هي:

١- على الداعي ألَّا يُورّط نفسه بالجدال ما دام لا يرى في نفسه الكفاءة التامة عليه.

٢- عليه ألَّا يجحد حقًّا لإثبات حق آخر، بل يُبيِّن الفارق بينهما. فلو قال المبطل للمحق: إنك تعتقد بأن للأرض نظامًا فلماذا نعتقد بالله مع أن النظام يكفي لتفسير ظواهر الخلق، فلا يقل المحق: ليس في الأرض نظام. فيكون قد أنكر حقًا. بل ليقل: «لا منافاة بين أن يكون للأرض نظام، وأن تحتاج الأرض في خلقها ونظامها إلى خالق مقتدر».

٣- يندب الجدال بالتي هي أحسن بالنسبة إلى كل مسلم قادر. وهذا الحديث يجعلنا نُثبت لأنفسنا الحق -ليس في عرض الفكر الإسلامي- بل وحتى في الاستدلال له، ذلك أن الدليل الباطل لن يهدي الإنسان إلى الحق، وإن تراءى للبسطاء كذلك، وهذا ذات ما قد سبق من وجوب الالتزام المطلق بالمنهج الديني، حتى لا نعرض الدين في ثياب غريبة عنه.

(١) بحار الأنوار: ج٢، ص١٢٥.

٥ - مغالطات مفضوحة

بعد تمهيد الطريق بذكر معنى (الجدال الحسن والجدال السيئ) نعرض جملة من مغالطات الماديين وشبهاتهم حول الله، نفضح ما فيها من تناقض.

١- يقول الدكتور الألماني (بخنر): بما أننا لم نجد ظاهرة واحدة في هذا الكون الرحيب، من أبعد نقطة اكتشفناها في الفضاء إلى أقرب جرم إلينا، لم نجدها شاذة عن النظام الكوني، فليس لنا الحاجة إلى افتراض وجود الله.

الجواب: إن عدم وجود شذوذ في النظام أو شمولية النظام في الكون لا يكون دليلًا على عدم وجود الخالق، بل يكون دليلًا قاطعًا على وجود من خلق النظام وهو الله الخالق العظيم، وإلَّا فمن جعل هذا النظام وقَدَّره وأجراه؟. وبعد هذا؛ فهل الكون كله خاضع للنظام، أو هل أثبت العلم الحديث هذا النظام؟.

لنسمع (هايزنبرغ) العالم الفيزيائي يقول -في نظام الذرة-: إن من المستحيل علينا أن نقيس بصور دقيقة كمية الحركة التي يقوم بها جُسيم بسيط، وأن نُحدِّد في الوقت عينه موضعه في الموجة المرتبطة به بحسب الميكانيكا الموجبة التي نادى بها (لويس دوبروغلي)، فكلما كان مقياس موضعه دقيقًا كان هذا المقياس عاملًا في تعديل كمية الحركة، ومن ثم في تعديل سرعة الجسيم بصورة لا يمكن التنبؤ بها. ومهما تعمقنا في تدقيق المقاييس العلمية ابتعدنا أكثر عن الواقع الموضوعي.

هذا في الذرة التي سمَّاها البعض بمبدأ النظام في اللانظام.

وأما في المجرة، وهي أكبر وحدة وجودية، فإن أحدث النظريات الفلكية أثبتت أنه

بالرغم من وجود نظام متناسق فيها فإن فيها مجالًا واسعًا لما نسميه بالصدف.

٢- قال طاليس (من قدماء فلاسفة اليونان): لقد كانت المادة ذرات أزلية فاصطدمت ببعضها وكان الكون... وإلى هذه النظرية ذهب بعض الماديين الجدد قائلين: إن المادة عبارة عن الذرات الصغار الخالدة التي لا عدم فيها، أنها تتكون بين فترة وأخرى بشكل أو بآخر ثم تتلاشى لتتكون بصورة جديدة.

ويقـول (هكسـلي): لو جلسـت سـتة قـرود عـلى آلات كاتبة تضرب عـلى حروفها ملايـين السـنين فلا نسـتبعد أن نجد في بعـض الأوراق الأخـيرة التي كتبوهـا قصيدة من قصائـد شكسـبير، فكذلك كان الموجـود الآن نتيجة لعمليات عمياء ظلَّـت تدور في المادة لبلايين السنين.

الجواب:

ألـف: كيـف ومن أين عرفتـم أن المادة كانت أزلية؟. هل كنتم مـع المادة في أزلها، أم آمنتم بها غيبًا؟.

فإذا أجبتم بالثاني قلنا: إذًا من أين وكيف آمنتم بأزلية المادة غيبًا وأنكرتم الله؟. كيف صـح أن تُؤمنـوا بما لا ترونه ولا يصحّ للموحدين الإيمان بما لم يروه؟. ونسـأل أيضًا: هل المادة الأزلية كانت حيّة؟. فمن أين جاء الموت، أم هي ميتة فمن أين جاءت الحياة؟. وإنكم تقولون: إن المادة تصادمت مع بعضها، فما الذي سبَّب تصادم أجزاء المادة؟. أبالصدفة كما يقول (طاليس) أم بالضرورة أم بإرادة واختيار؟.

بـاء: فإن قلتم بالصدفة.

قلنا: ألسـتم تقولـون: إن للطبيعة قوانين معينة لا يخرج عليها ولا يشـذّ عنها، فكيف حـادت عنهـا؟. أم كيف تركت نظامها إلى نظـام جديد؟. ثم هل تـأتي الصدفة بهذا النظام الدقيق المتناسق الذي يُحيِّر العقل من دقته وعمقه وإتقانه؟.

إن الصدفـة لا تصنـع سـاعة يد -كـما يقول آينشـتاين- فكيف تصنـع العقل المفكر والأجهزة المُحيِّرة للعقول الموجودة في الدماغ؟.

وكـما يقـول أحد العلماء: إن القول بـأن الحياة وُجدت نتيجة (حادث اتِّفاقي) شـبيه

في مغـزاه بأن تتوقـع إعداد معجم ضخم نتيجة انفجار يقـع في المطبعة دون فعل فاعل. إن احتمال أن يكون الضرب على آلة كاتبة على يد أمي سببًا لقصيدة شكسبير أبعد من أن يُشافى كل مـرضى العـالم بتناول مواد تقضي على أمراضهم صدفـةً؛ كأن يذهب أحدهم إلى الحقل ويتناول حشيشة وصدفة يكون فيها دواؤه، ويذهب الآخر إلى البحر فيتناول صدفة سمكة يكـون فيهـا شـفاؤه، ويذهب الثالـث إلى الصحراء وتلدغـه أفعى يكون فيـه دواء مرضه، وهكذا كل مريض في العالم وفي يوم واحد يشفى صدفةً بسبب مجهول. لو حدث مثل ذلك لما تمالكنا عن القول بأن معجزة إلهية كبيرة قد وقعت.

ثـم كيـف يمكن أن تكون الحيـاة صدفة مـع أن الخلية الحية تحتوي عـلى أجزاء منها البروتين، واحتمال أن يحدث بروتين واحد صدفة يتطلب -حسب نظام الاحتمالات- مادة يزيد مقدارها ألف مليون مرة عن المادة الموجودة؟. وأما المدة التي يمكن فيها ظهور نتيجة ناجحـة لهـذه العملية فهي أكثر مـن ١-٢٤٣ عامًا، أي مائتان وثلاثـة وأربعون صفرًا أمام عشر سنين. وبعد هذا هل يمكن القول بتكوُّن كل العالم صدفة؟.

جيـم: وإن قلتـم بالـضرورة، أي أن المادة مـن طبيعتها ومن قانونهـا الاجتماع. قلنا: فلـماذا كان ذلك حادثًا ولم يكن منذ القدم كذلـك؛ فإن المادة قديمة (كما تدَّعون) وقوانينها قديمـة فيجـب أن يكون هـذا العالم مـن قديم، ويجب أن تكـون ما فيها من صـور قديمة، وليس الواقع كذلك قطعًا.

وإن قلتـم: إنما صارت كذلك بإرادة واختيـار، قلنا: ممن كانت الإرادة؟ من الطبيعة أم من المادة أم من ذات أغلب وأقوى منهما؟.

إذًا دعنـا ننظر: ما هي الطبيعة؟!. إن هـي إلَّا النظام (وهل النظام عاقل؟). وما هي المادة، أليست المادة هذه الذرات، فهل هي الإرادة؟. ارجعوا إلى عقولكم وفكِّروا. ثم لماذا بدلت صورتها بعد أن كانت في صورة واحدة؟.

ثم من بدل صورتها؟.

الضرورة أم الإرادة أم بالصدفة، وكل ذلك من سفه الفكر.

٣- ويقولـون: لقـد تغلغلنا في أعماق المادة وكشـفنا غورها البعيد فلـم نَرَ غير المادة شيئًا وغير النظام مربيًا ومدبرًا.

الجواب: نحن لا ننكر النظام والمادة، ولكن من خلق المادة والنظام؟ إن العقل يحكم بأن المادة لابد لها من خالق وأن النظام لابد له من مُدبِّر عليم، وهل يمكن أن يُنكر الإنسان شيئا بمجرد أنه لا يراه؟.

٤- يقولون: إن الإيمان بالله نشأ من ضعف الإنسان أمام قوى الطبيعة القاهرة في تلك الحقب المعتمة من تاريخ البشر، حينما لم يكن له ملجأ من الحر والبرد، ولا مُنقذ من المرض والعاهة، ولا وسيلة يدفع بها عادية الأعاصير أو يقهر بها المسافات في البر والأمواج في البحر. أما اليوم فقد قهر الإنسان بعقله العملاق الطبيعة وأخضعها لإرادته الجبارة فلم يبقَ ما يبرر الإيمان بالله.

الجواب: بالرغم من أن هذه المغالطة تشغل فكر الرجل العصري في كل مكان اعتزازًا بنفسه وغرورًا بإنجازاته ومكاسبه، فإنها تافهة جدًّا. وأول تساؤل نوجهه إلى أنصار هذه الفكرة هو: هل تخلص البشر نهائيًّا من أسباب الضعف التي كانت قديمًا تدعوه إلى التوسل إلى الله؟. أَوَلَيست الأمراض تتصاعد خطورةً وتتزايد عددًا؟. أَوَلَيست الوفاة، وهي أشد الحوادث هولًا، لا تزال تهدم أحلام البشر؟. أَوَلَيست الحروب تُشكِّل زاوية خطرة في بناء الحياة السعيدة؟. أَوَلَيست الحوادث الطبيعية لا تزال تقوى على البشرية؟ بل أليس الخضوع للإقليمية والمصلحية والطائفية والعنصرية ضعف في الإنسان لم يستطع معالجته حتى الآن؟.

والتساؤل الثاني هو: هل يقضي تقدُّم العلم بعدم الإيمان؟ أيزعمون أن الله يجب أن يُعرف في غرفة الاختراع أو تحت مجاهر كهربائية فإذا لم يوجد وجب إنكاره، أم أن تقدُّم العلم دليل إلى الله؟.

والحقيقة أن اتِّجاه الحضارة اليوم اتجاه كافر وإلَّا كان تقدُّم العلم سببًا لزيادة الإيمان لأنه:

أولًا: يجعل البشر يعتقد بأن وراء أفقه آفاقًا، وأن ما وصل إليه فكره ليس المنتهى الأخير كما كان يعتقد الأولون.

ثانيًا: يكشف أسرار الطبيعة التي تدلّ على اتقان الصنع وإحكام الخلق؛ ولذلك فإن مشاهير العلماء أصبحوا أول المؤمنين بالله. ونكرِّر: هل العلم يتأثر بتقدُّم الكشوفات؟.

فمثلًا لو كان البشر يعتقد بأن ٢ × ٢ = ٤ قبل قرن يجب أن يقول ٢ × ٢ = ٥ لأن البشر أحرز مكاسب جديدة؟!. إن الإيمان بالله نابع من فطرة الإنسان التي لا تزداد بالتجارب إلَّا جلاءً وروعةً. فكيف نُنكر ربًّا يزيد علينا كل يوم فضلًا كبيرًا؟. وكيف نرفض الشكر لإله يُلهمنا كل يوم علمًا مستجدًا و.. و..؟؟.

٥- ويزعمون أن المؤمنين يقولون بأن الله صانع الخلق، بمعنى أنه أوجد الشيء من لا شيء وهذا أمر مستحيل عقلًا، فلا يمكن أن يكون العدم مبعث الوجود.

الجواب:

أولًا: من أين عرفتم استحالة وجود الشيء من العدم؟ هل لأنكم لم تروه من ذي قبل؟ أو أنكم لم تروه في المختبرات وتحت المجاهر؟. وهل عدم الرؤية دليل على عدم الوجود؟ كم من واقع لم يكن مرئيًّا ثم أصبح معروفًا. فهل كانت الأشعة مرئية حين كانت موجودة منذ أن كانت الشمس، أم كانت الجاذبية مرئية؟ إن الفطرة أمضى حكمًا وأنفذ بصيرةً من العين المجردة.

ثانيًا: لابد لنا أن نعترف ببداية الكون؛ لأنها تدلّ عليها تجاربنا العلمية ومعارفنا الفلسفية، وقد سبقت لمحة موجزة من أدلتها عند الحديث عن حقيقة الوجود.

ثالثًا: إن كثيرًا من الحقائق نضطر إلى الاعتراف بأنها حادثة. فمثلًا: حالة الاتصال والانفصال -كمثل اتِّصال يد بأخرى ثم انفصالها- حالة معدومة ثم يوجدها الإنسان، والإرادة كانت معدومة ثم وجدت. إذًا فليس هناك مانع من وجود شيء بعد عدم.

رابعًا: إن استحالة وجود شيء من العدم لا يرتبط بخلق الله سبحانه للأشياء، ذلك لأن الله هو الذي وهب الخلق للأشياء، فالأشياء جاءت من خلق الله لا من العدم، والله أبدعها بعد عدم ولم يخلقها من العدم.

قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[١].

وفي الحديث: «**وَأَنَّهُ كَوَّنَ الْأَشْيَاءَ لَا مِنْ شَيْءٍ**»[٢].

---

(١) سورة طه، آية: ٥٠.

(٢) بحار الأنوار: ج٧٥، ص٤١٦.

٦- لقـد ثبـت بالتجربـة العلمية أن كل شيء يحتـاج إلى مكان وزمان، فـإذا آمنا بالله فلابد أن نعتقد بوجود شيء لا مكان له ولا زمان، وهذا أمر غير ممكن.

الجواب: لابد أن نسأل:

أولًا: مـن أين اكتشـفتم أن كل شيء يحتاج إلى حيِّز يسـتوعبه مـن مكان وزمان لولا أنكم رأيتم المادة في زمان ومكان؛ فحسبتم أن كل شيء لابد أن يكون مقولبًا بهما، موجودًا فيهما؟. ولقد اكتشـف الإنسان أن بعض الحقائق تقع خارج حدود الزمان. فالجاذبية مثلًا: حقيقـة لا يمكـن أن يُنكرهـا رجل عـصري، بيد أنها حقيقـة تعيش خارج الزمـن. ولو أن (رد الفعـل الجـاذبي) كان يحتاج في قطع المسـافات إلى الزمان لكانـت نتيجة تبدل المجرات إلى أمـواج -الذي يحدث كثيرًا- يؤدي إلى تفجـر كافة المجرات، هذا عن الزمان. وأما عن المكان فأين مكان الحق والباطل، والفضيلة والرذيلة؟.

ثانيًا: إن الله سـبحانه محيط بكل زمان ومكان، فليست الأمكنة والأزمنة مباينة عنه. فهـو إله في السـماء، وإله في الأرض، وهو محيط بكل زمـان ومكان، ولكن لا بمعنى أن الله مُحاط من قبل الأزمنة والأمكنة. بل بمعنى أنه محيط بهما.

ثالثًـا: إن السـبب الذي بحثنا من أجله عـن الله هو: أن الفطرة تهدينـا إلى أن الكون عاجـز بذاته عن خلق نفسـه وتدبيرها؛ لأنه يجري في حـدود الزمان والمكان، فلا يمكـن أن نـسري الصفة ذاتهـا إلى الله خالقه؛ إذ نفقد المبرر الذي جعلنـا نبحث عن الخالق من أجله، وهو البحث عن إله لا يحتاج ولا يُحدُّ بزمان ومكان.

٧- إذا كان الله موجودًا فلماذا خلق الله الكون؟.

الجـواب: هل إن عدم معرفة سـبب الخلق دليل على عـدم حكمة الخلق؟. أليس من الجهـل أن نقـول: إن كل شيء لا نعرفـه فهو غير موجود؟. ثـم إني لا أعتقد أن أحدًا يحمل فكرًا مسـتقيمًا يُنكر فائدة المخلوقات كالشمس والقمر والأجرام السماوية والأحياء جميعًا. وهل هناك فائدة أكبر من ذات الحياة التي غمر حبها كل قلوبنا؟.

٨- نحن لم نُشاهد أول خلق المادة فلا يمكننا أن نؤمن بمبدأ لها، فهي إذًا أزلية.

الجـواب: هـل رأيتم أزليتها؟. ثم إن الأزلي لا يمكن حـدوث التغيّر فيه، فلا ينقص ولا يزيد؛ لأن النقصان والزيادة يأتيان من تأثير خارجي، والأزلي معناه أن وجود المادة من

نفسها ولا يمكن أن يحدث فيها التغيير، بينما نراه في المادة؛ فإذًا هي ليست أزلية. وقد سبق الحديث عن خرافة القول بأزلية المادة.

٩- وشبهة أخيرة تقول: إن تقدُّم العلم يناقض الإيمان بالله؟.

الجواب: ولكن لنتساءل: لماذا؟. هل إن العلم ينافي الإيمان لأن طائفة من المكتشفين كانوا ملحدين؟. وهل هذا دليل قوي على الكفر؟. فإذًا لابد أن يكون اعتقاد طائفة كبيرة بالله دليلًا على وجود الله. وفيما يلي نثبت بعض أقوال العلماء في الله:

١- يقول (هرشل) العالم الإنجليزي: كلما يتوسَّع أفق العلم تزداد البراهين الواضحة على وجود الله الخالق الأزلي الذي ليس لقدرته حدّ ولا نهاية.

٢- ويقول (لينه) الفسيولوجي الفرنسي: لقد تجلَّى لي الله الكبير المتعال ببدائع صنعه بحيث أدهشتني وحيرتني، أي قدرة وأي حكمة وأي إبداع جعلها في كل مصنوعاته ومخلوقاته من صغارها وكبارها!.

٣- ويقول (فونتل) في دائرة المعارف: ليست أهمية الكشوف الحديثة في إشباع نهمة العقول الفارغة، بل إن أهميتها البالغة هي ترفيع مستوى العقل إلى الخالق الذي يملأ مشاعرنا إحساسًا بالجمال والعظمة.

٤- ويقول (روسو) الكاتب الفرنسي الكبير: يجب أن نعترف بالخالق القدير الحكيم؛ وذلك لأن الحركة في الجسم ليست ذاتية، ولا بد أن تنتهي سلسلة المحركات إلى محرك واحد. وما أبعدها من فرضية تقول: إن هذا النظام العجيب جاء نتيجة الصدفة.

٥- ويقول (نيوتن): أتشكون في الخالق؟. ألا إن من السخف الاعتقاد بأن الضرورة هي الرائدة للكون.

مرحلة الهداية:

وبعد دحض الشبهات وتسفيه الأباطيل، تأتي مرحلة الهداية حيث يُذكّر الداعي بالآيات، ويُوجه الفرد إلى ربه. ويختلف توجيه الناس حسب اختلاف مستوياتهم وأفكارهم:

١- فقد يُستدل بآيات الله الكونية كالشمس والقمر والأجرام والمنظومات والمجرات وما فيها من دقة ونظام.

٢- وقد يُستدل بها في جسم كل بشر وكل حي من عظيم الآيات.
٣- وقد يُستدل بالنفس البشرية، وأنها كانت ضعيفة ثم قدرت، وكانت جاهلة ثم علمت، وأنها تحس في واقعها بالصغار والذل أمام قوة قاهرة عالمة، فلابد أن الذي أعطاني القوة والفهم هو أقوى مني وأفهم.
٤- وقد يُستدل بها في الكون من نظام شامل دقيق عميق على قدرة الخالق وعلى علمه.
٥- كما أنه قد يُستدل بها في الوجود من تناسق وترابط واتحاد في النظام على أن خالقها ومُدبِّرها فرد احد.

هذه هي الأصول المشتركة التي توحي إلى العقل بوجود الله وما له من صفات. ونذكر هنا جملة من الآيات والأحاديث التي تُعتبر نماذج حية للتوجيه إلى الخالق بهذه الطرق المذكورة.

قال الله سبحانه وتعالى:

- ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾(١).

- ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾(٢).

* قال الإمام أبو الحسن الرضا عليه السلام وقد سئل عن الدليل إلى الله: «**إِنِّي لَمَّا نَظَرْتُ إِلَى جَسَدِي فَلَمْ يُمْكِنِّي فِيهِ زِيَادَةٌ وَلَا نُقْصَانٌ فِي الْعَرْضِ وَالطُّولِ، وَدَفْعُ الْمَكَارِهِ عَنْهُ، وَجَرُّ الْمَنْفَعَةِ إِلَيْهِ عَلِمْتُ أَنَّ لِهَذَا الْبُنْيَانِ بَانِيًا فَأَقْرَرْتُ بِهِ، مَعَ مَا أَرَى مِنْ دَوَرَانِ الْفَلَكِ بِقُدْرَتِهِ، وَإِنْشَاءِ السَّحَابِ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَمَجْرَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ**

(١) سورة نوح، آية: ١٥-٢٠.
(٢) سورة الروم، آية: ٢٠-٢٤.

الْعَجِيبَاتِ الْمُتْقَنَاتِ عَلِمْتُ أَنَّ لِهَذَا مُقَدِّرًا وَمُنْشِئًا»[١].

* وقال رجل لعلي عليه السلام: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا عَرَفْتَ رَبَّكَ؟.

قَالَ عليه السلام: **بِفَسْخِ الْعَزْمِ وَنَقْضِ الْهِمَمِ، لَمَّا أَنْ هَمَمْتُ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ هَمِّي، وَعَزَمْتُ فَخَالَفَ الْقَضَاءُ عَزْمِي، فَعَلِمْتُ أَنَّ الْمُدَبِّرَ غَيْرِي..»[٢].**

* عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: «**وَلَوْ فَكَّرُوا فِي عَظِيمِ الْقُدْرَةِ وَجَسِيمِ النِّعْمَةِ لَرَجَعُوا إِلَى الطَّرِيقِ وَخَافُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ، وَلَكِنِ الْقُلُوبُ عَلِيلَةٌ وَالْأَبْصَارُ مَدْخُولَةٌ، أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى صَغِيرِ مَا خَلَقَ، كَيْفَ أَحْكَمَ خَلْقَهُ، وَأَتْقَنَ تَرْكِيبَهُ، وَفَلَقَ لَهُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ، وَسَوَّى لَهُ الْعَظْمَ، وَالْبَشَرَ انْظُرُوا إِلَى النَّمْلَةِ فِي صِغَرِ جُثَّتِهَا وَلِطَافَةِ هَيْئَتِهَا لَا تَكَادُ تُنَالُ بِلَحْظِ الْبَصَرِ وَلَا بِمُسْتَدْرَكِ الْفِكَرِ، كَيْفَ دَبَّتْ عَلَى أَرْضِهَا وَضَنَّتْ عَلَى رِزْقِهَا، تَنْقُلُ الْحَبَّةَ إِلَى جُحْرِهَا، وَتُعِدُّهَا فِي مُسْتَقَرِّهَا تَجْمَعُ فِي حَرِّهَا لِبَرْدِهَا، وَفِي وُرُودِهَا لِصُدُورِهَا مَكْفُولٌ بِرِزْقِهَا مَرْزُوقَةٌ بِوَفْقِهَا لَا يُغْفِلُهَا الْمَنَّانُ وَلَا يَحْرِمُهَا الدَّيَّانُ..**»[٣].

* عَنْ هِشَامِ بْنِ الْحَكَمِ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام مَا الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ اللهَ وَاحِدٌ؟.

قَالَ عليه السلام: «**اتِّصَالُ التَّدْبِيرِ وَتَمَامُ الصُّنْعِ. كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ:** ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[٤]»[٥].

* وقال أمير المؤمنين في وصيته لابنه الإمام الحسن عليهما السلام: «**وَاعْلَمْ -يَا بُنَيَّ- أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكٌ لَأَتَتْكَ رُسُلُهُ، وَلَرَأَيْتَ آثَارَ مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَلَعَرَفْتَ أَفْعَالَهُ وَصِفَاتِهِ، وَلَكِنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ..**»[٦].

ولو شئنا أن نعرض هنا -ولو موجزًا- معشار آيات الله إذًا لوجب أن نملأ أسفارًا طوالًا، ولكننا ذكرنا جانبًا من الآيات والأحاديث، لتكون هداية كافية لنا إلى كيفية الحديث حول التذكير بالله العزيز، وعلينا بعد ذلك أن نقولب كل ما نملك من ثقافة ومعرفة حول النفس البشرية من آفاق المعرفة في قالب التذكير بالله.

---

(١) بحار الأنوار: ج٣، ص ٣٦.
(٢) بحار الأنوار: ج٣، ص٤٢.
(٣) بحارالأنوار: ج٣، ص٢٦.
(٤) سورة الأنبياء، آية: ٢٢.
(٥) بحار الأنوار: ج٣، ص٢٢٩.
(٦) نهج البلاغة: (٣١) ومن وصية له عليه السلام لولده الإمام الحسن عليه السلام.

صفات اللّـه:

لقد سبق القول في أسماء الله الحسنى، وهناك قلنا: إن التفكُّر في الخلق يهدينا إلى أن في كل شيء مخلوق صغير أو كبير جوانبَ كمال وجوانبَ نقص، جوانب قوة وجوانب ضعف.. وقلنا: إن ذات المخلوقات إنما هي العجز والضعف والنقص، وما فيها من القدرة والمعرفة والكمال فهي موهوبة لها من لدن القادر القوي بالغ الكمال.

وعلى هذا فكل ما نرى من صفة كمال في الخلق تهدينا إلى أن الله الذي وهبها يملك ما لا نهاية له منها، وكل ما نرى في الخلق من صفة النقص نعلم أن بارئها مُنزَّه عنها. إذ -كما سبق- لا يمكن أن يجتمع النقص الذاتي والكمال الذاتي في شيء واحد، ويُبّين هذه الحقيقة الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول: «**أَمَّا التَّوْحِيدُ فَأَلَّا تُجَوِّزَ عَلَى رَبِّكَ مَا جَازَ عَلَيْكَ**..»(١).

ويقول الإمام علي عليه السلام: «**الحَمْدُ لله الَّذِي لَا يَمُوتُ وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، لِأَنَّهُ كُلَّ يَوْمٍ فِي شَأْنٍ مِنْ إِحْدَاثِ بَدِيعٍ لَمْ يَكُنِ. الَّذِي لَمْ يُولَدْ فَيَكُونَ فِي الْعِزِّ مُشَارَكًا، وَلَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْرُوثًا هَالِكًا، وَلَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ الْأَوْهَامُ فَتُقَدِّرَهُ شَبَحًا مَاثِلًا، وَلَمْ تُدْرِكْهُ الْأَبْصَارُ فَيَكُونَ بَعْدَ انْتِقَالِهَا حَائِلًا. الَّذِي لَيْسَتْ لَهُ فِي أَوَّلِيَّتِهِ نِهَايَةٌ، وَلَا فِي آخِرِيَّتِهِ حَدٌّ وَلَا غَايَةٌ. الَّذِي لَمْ يَسْبِقْهُ وَقْتٌ، وَلَمْ يَتَقَدَّمْهُ زَمَانٌ، وَلَمْ يَتَعَاوَرْهُ زِيَادَةٌ وَلَا نُقْصَانٌ، وَلَمْ يُوصَفْ بِأَيْنٍ وَلَا بِمَا وَلَا بِمَكَانٍ. الَّذِي بَطَنَ مِنْ خَفِيَّاتِ الْأُمُورِ، وَظَهَرَ فِي الْعُقُولِ بِمَا يُرَى فِي خَلْقِهِ مِنْ عَلَامَاتِ التَّدْبِيرِ. الَّذِي سُئِلَتِ الْأَنْبِيَاءُ عَنْهُ فَلَمْ تَصِفْهُ بِحَدٍّ وَلَا بِبَعْضٍ، بَلْ وَصَفَتْهُ بِأَفْعَالِهِ، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ بِآيَاتِهِ. لَا تَسْتَطِيعُ عُقُولُ الْمُتَفَكِّرِينَ جَحْدَهُ؛ لأَنَّ مَنْ كَانَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ فِطْرَتَهُ وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ، وَهُوَ الصَّانِعُ لَهُنَّ؛ فَلَا مَدْفَعَ لِقُدْرَتِهِ الَّذِي بَانَ مِنَ الخَلْقِ، فَلَا شَيْءَ كَمِثْلِهِ، الَّذِي خَلَقَ الخَلْقَ لِعِبَادَتِهِ، وَأَقْدَرَهُمْ عَلَى طَاعَتِهِ بِمَا جَعَلَ فِيهِمْ، وَقَطَعَ عُذْرَهُمْ بِالْحُجَجِ، فَعَنْ بَيِّنَةٍ هَلَكَ مَنْ هَلَكَ، وَعَنْ بَيِّنَةٍ نَجَا مَنْ نَجَا**..»(٢).

وهكذا تكون الوسيلة الوحيدة لمعرفة صفات الله الجميلة وأسمائه الحسنى، تقديسه عن شبه المخلوقين، وتسبيحه عن كل نقص يُرى فيهم، وتكبيره عن كل عجز يوصفون به سبحانه!.

---

(١) بحار الأنوار: ج٤، ص٢٦٤.

(٢) بحار الأنوار: ج٤، ص٢٦٤.

٦ - الإيمان بالله

كيف يؤمن الإنسان؟:

ألـف: نجد أنفسـنا تتردّد في قبال كثير مـن الأعمال، ولدى التدبّـر في حقيقة ترددها نجـد أن قوتـين تتنازعانهـا، فقـوة تريد لها اختيـار ما ينفع ودفـع ما يُضر، وقـوة تريد اتِّباع الحق والعدل. ولدى تدقيق النظر نرى أن التي تحبِّذها النفس هي التي تدعو إلى الشهوات مـن المـال والبنين ومظاهر الأبّهة والجمال[١]، والتي تدعـو إلى الحق هي التي تدعو إلى الخير والفضيلة والوفاء وأداء الأمانة والإحسان إلى المساكين وما إلى ذلك.

بـــاء: القوة الأولى تُدعى بالجهل والهوى وحب الذات، والقوة الثانية تُدعى بالعقل والعلم والضمير.

١- إن الجهـل يدعـو إلى المـادة ومـا يرتبط بهـا، ويدعو إلى الدنيـا وما فيهـا، ويُزيِّن الشـهوات العاجلـة للنفـس، ويُفضِّلها عـلى الحق والعدل الشـامل، ويدعو في سـبيلها إلى نسيان الواجبات واغتصاب الحقوق.

٢- ولذلـك فـإن طبيعة الجهل تمنع النفس عن التسـليم للحق والهـدى والطاعة لله تعـالى والشـكر له والتـزام أحكامه والعمل ليوم الحسـاب، كل ذلك لأنها تتنـافى واللذائذ التي يتعجَّلها حب الذات ويُزيِّنها الجهل له، وتتنافى مع كبرياء الجهل وغفلته عن المستقبل البعيد.

---

(١) ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾. سورة آل عمران، آية: ١٤.

أما العقل فإنه يدعو إلى المثل العليا والخير، ويفضلها على الشهوات العاجلة، ويدعو إلى الطاعة الصادقة، وأخيرًا إلى الإيمان بالله سبحانه والتسليم له ما دام ذلك كله يؤدي إلى حسن الثواب وحسن المصير، وما دام ذلك هو الحق والعدل اللذين يأمر بهما العقل.

جيم: وليس للإنسان من عمل إلَّا ويتأثر بنشاط إحدى هاتين القوتين، وبمدى إفساح المجال لواحدة منهما للعمل في ساحة النفس تنسحب الأخرى؛ للطبيعة المضادة بينهما، فإذا اختار الإنسان الجهل على العقل وأطاع الهوى واتَّبع الشهوات وترك الحق والعدل فقد أمات عقله؛ لأنه لم يترك مجالًا لطاعته في اتِّباع الهدى والعمل بالحق والعدل، فيتغلب لديه الجهل على العقل. ويكون العكس تمامًا إذا اختار العقل على الجهل؛ حيث لا يدع مجالًا للجهل ولا لحب الشهوات العاجلة واللذائذ القريبة المتواضعة.

دال: وتبقى النفس البشرية مُتوتِّرة بفعل هذه المنازعة حتى يتغلب أحد الجانبين على الآخر بالعمل به أو التفكير فيه، فإذا غلب الجهل على العقل ذهب نور العقل وطبع على النفس بطابع الكفر، وأصبح الفرد -حينئذ- لا يسمع ولا يُبصر ولا يفقه شيئًا.

إن هذا الفرد لا يُرجى منه الخير أبدًا، إذ إن القوة التي كان يعمل بها الخير قد ذهبت إلى غير رجعة، وتُدعى هذه الحالة في منطق الدين بالجحود والعناد. وإذا غلب العقل على الجهل تضاءل الجهل في النفس وانكمش ظل الهوى عنها، وضعف حب الشهوات فيها، وكان كل نشاط الفرد ذا صبغة واحدة هي صبغة العقل، وتُدعى هذه الحالة في منطق الدين بالإيمان.

فالإيمان إذًا حالة تنشأ من توجيه كافة نشاطات النفس بالعقل وتغليب جانبه على الجهل بحيث لا تبقى له قوة تُوجِّه نشاط الفرد بتوجيه منحرف، وهذا هو الذي يُشير إليه الإمام علي عليه السلام حيث يقول: «**الْعَقْلُ وَالشَّهْوَةُ ضِدَّانِ، وَمُؤَيِّدُ الْعَقْلِ الْعِلْمُ، وَمُزَيِّنُ الشَّهْوَةِ الْهَوَى، وَالنَّفْسُ مُتَنَازَعَةٌ بَيْنَهُمَا فَأَيُّهُمَا قَهَرَ كَانَتْ فِي جَانِبِهِ**»[1].

والسؤال الآن: كيف يتم تغليب جانب في النفس على جانب، وكيف يُصبح فرد مؤمنًا وآخر جاحدًا؟.

ينبغي أن نُؤكِّد الحرية التامة التي يتمتَّع بها البشر في اختيار الإيمان أو الجحود. وأن

---

(١) غرر الحكم، حكمة رقم: ٤٤٨.

ما نذكره من دوافع الإيمان والجحود لا تسلب النفس إرادتها، بل لا تعدو أن تكون أداةً ضاغطة عليها فقط.

بعد هذا نقول: إن الإيمان يكمل بالتسليم المطلق للحق، ولا يتم التسليم التام لو لم يتمتع الفرد بواحدة من ثلاث:

- إرادة صلبة؛
- أو عقل كامل؛
- أو شهوة ضعيفة.

ألف: فالإرادة الصلبة تُتجاوز كل السلبيات الداخلية وتُقهر النفس قهرًا حتى ولو لم يكن العقل تامًّا أو الشهوة ضعيفة.

وقوة الإرادة ناشئة عن التربية العائلية أو التربية الذاتية. فمن أراد العظائم أصبحت إرادته عظيمة هي الأخرى.

والتوجيه الخارجي قد يُؤثِّر في هذا الحقل لو ركَّز المُوجِّه كل نُصحة على ثقة الإنسان بذاته وتحسسه بشخصيته مما يشحذ عزيمته ويقوي إرادته.

باء: والعقل يزيد باتِّباعه والتفكُّر في أحكامه والمزيد من مدارسة العلم ومصاحبة ذوي العقول. والتوجيه الخارجي يُعطي قوة للعقل بالتذكرة المستمرة بحقائق الكون واستعراض آيات الله فيها، وشرح أسمائه الحسنى. وإذا تم العقل في الفرد لم يرضَ لنفسه بالدنيا ولا بالمخلوق، واستشرف الآفاق البعيدة متطلعًا إلى الأهداف السامية. وقال: ما دامت الآخرة خيرًا لي من الأولى فإن اختياري الدنيا عجز وصغار، ومادام الله أكبر من كل شيء فإن رضاي بغيره إلهًا أو حبيبًا ذل وخساسة، وما دمت قد خُلقت لكي أكون عظيمًا عند الله فَلِمَ أفضل اللذات العاجلة على التقوى؟!.

وهكذا جاء عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «**وَالْعَقْلُ أَصْلُ دِينِي..**»(١).

جيم: وإنما تضعف الشهوات بتوجيه النفس إلى أبدالها. فالشهوة القصيرة الأمد السريعة الزوال المشوبة بالألم خير أم ما عند الله من النعيم الدائم الخالص؟.

---

(١) مستدرك الوسائل: ج١١، ص١٧٣.

هكذا تُقارن كل شهوة في الدنيا بلذة في الآخرة فتضعف الشهوات.

والواقع أن النفس تستبدل بها شهوات أسمى منها. وإنما هو اختيار بين شهوتين عاجلة وآجلة تمامًا، كمن يُغري نفسه بالصحة واللذة الدائمة حينما يُريد أن يتجنب ما يضر بنفسه، ويقول: لو أكلت هذه اللقمة فصحيح أني سأحصل منها على لذة ولكنها ستمنع عني ألف لقمة هي ألذ وأطيب من هذه. وهكذا يُفضِّل الآخرة على الأولى.

ولو تدبرنا قليلًا في النصوص الشرعية إذًا لعرفنا أن الدين قد استخدم الطرق الثلاثة في بعث النفوس إلى الإيمان. فقد وجَّه الإنسان إلى نفسه وعرَّفه بكرامته عسى أن يُقوِّي ذلك إرادته، ومن ناحية أخرى ذكَّره بآيات الله في الكون لكي يزيد عقله، ومن ناحية ثالثة وجَّه أنظاره إلى جنات عدن تجري من تحتها الأنهار، وأنهار من عسل لذة للشاربين، وحور عين كأنهن اللؤلؤ والمرجان، لذة للناظرين.

وكل هذه الأمور تُشكِّل حقيقة الإيمان. وفيما يلي نص بشأنها:

جاء في السنة المروية عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«الْإِيمَانُ عَلَى أَرْبَعِ دَعَائِمَ: عَلَى الصَّبْرِ، وَالْيَقِينِ، وَالْعَدْلِ، وَالْجِهَادِ.

وَالصَّبْرُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَى الشَّوْقِ، وَالشَّفَقِ، وَالزُّهْدِ، وَالتَّرَقُّبِ. فَمَنِ اشْتَاقَ إِلَى الْجَنَّةِ سَلَا عَنِ الشَّهَوَاتِ، وَمَنْ أَشْفَقَ مِنَ النَّارِ اجْتَنَبَ الْمُحَرَّمَاتِ، وَمَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا اسْتَهَانَ بِالْمُصِيبَاتِ، وَمَنِ ارْتَقَبَ الْمَوْتَ سَارَعَ إِلَى الْخَيْرَاتِ[١].

وَالْيَقِينُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَى تَبْصِرَةِ الْفِطْنَةِ، وَتَأَوُّلِ الْحِكْمَةِ، وَمَوْعِظَةِ الْعِبْرَةِ وَسُنَّةِ الْأَوَّلِينَ. فَمَنْ تَبَصَّرَ فِي الْفِطْنَةِ تَبَيَّنَتْ لَهُ الْحِكْمَةُ، وَمَنْ تَبَيَّنَتْ لَهُ الْحِكْمَةُ عَرَفَ الْعِبْرَةَ، وَمَنْ عَرَفَ الْعِبْرَةَ فَكَأَنَّمَا كَانَ فِي الْأَوَّلِينَ.

وَالْعَدْلُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَى غَائِصِ الْفَهْمِ، وَغَوْرِ الْعِلْمِ، وَزُهْرَةِ الْحُكْمِ وَرَسَاخَةِ الْحِلْمِ. فَمَنْ فَهِمَ عَلِمَ غَوْرَ الْعِلْمِ، وَمَنْ عَلِمَ غَوْرَ الْعِلْمِ صَدَرَ عَنْ شَرَائِعِ الْحُكْمِ،

---

(١) إن معطيات هذه المقطوعة تنسجم مع السبب الثالث للإيمان وهو ضعف الشهوات بأن يستبدل بها رغبات الآخرة، وكشف نعيمها والحذر من جحيمها والزهد عن الدنيا ترقُّبًا للآخرة. والمقطوعة هذه آية في الروعة والعمق، حيث لم تغادر واحدة من لفتات النفس الشاردة إلَّا أحصتها وجعلت أمامها ما يُناسبها من تطلعات البشر نحو عالم أفضل.

وَمَنْ حَلُمَ لَمْ يُفَرِّطْ فِي أَمْرِهِ وَعَاشَ فِي النَّاسِ حَمِيدًا[١].

وَالْجِهَادُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ[٢]:

- عَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ،
- وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ،
- وَالصِّدْقِ فِي الْمَوَاطِنِ،
- وَشَنَآنِ الْفَاسِقِينَ.

فَمَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ شَدَّ ظُهُورَ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَنْ نَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ أَرْغَمَ أُنُوفَ الْكَافِرِينَ، وَمَنْ صَدَقَ فِي الْمَوَاطِنِ قَضَى مَا عَلَيْهِ، وَمَنْ شَنِئَ الْفَاسِقِينَ وَغَضِبَ لله غَضِبَ اللهُ لَهُ وَأَرْضَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ..»[٣].

---

(١) ونجد في هذا البند: العلم سببًا من أسباب الإيمان، وهو يستند إلى العقل الذي عبَّر عنه في الحديث بـ(غامض الفهم) وغمر العلم، وهو واسع العلم الذي يغمر صاحبه، وزهرة الحكم تعني لباب الأحكام. وأما روضة الحكم فهي حالة الهدوء التي تسبق وترافق التعلُّم. وهذه الفقرة تشرح أحد شروط العمل بموجبات الإيمان وهو العلم بها.

(٢) والجهاد: هو جانب النضال من العمل والإيمان، وهو في جبهتين: جبهة الكفار وجبهة الفسّاق، غير الملتزمين بالأحكام.

(٣) نهج البلاغة: الحكمة رقم: ٣١.

٧ - معطيات الإيمان

ما هي معطيات الإيمان في النفس والحياة؟.

«**الْإِيمَانُ مَعْرِفَةٌ بِالْقَلْبِ وَإِقْرَارٌ بِاللِّسَانِ وَعَمَلٌ بِالْأَرْكَانِ**»[١]. هكذا يُحدِّد النبي ﷺ واقع الإيمان، فهو يستقر في النفس لكي يظهر على اللسان ثم تُصدِّقه سائر الجوارح.

١- إذًا فالذي يعرف ولا يُقرّ كافر وليس بمؤمن. قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ (أي الكفار) بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[٢].

٢- والذي يُقرّ ولا يعمل فهو مسلم وليس بمؤمن. قال الله تعالى: ﴿۞ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[٣].

٣- والذي يُقرّ بالذي يعرف، ويعمل بالذي يُقرّ، فهو مؤمن حقًّا. ولا بد للمؤمن أن يُسلِّم لله وحده جميع أموره، ويتَّصف بكل صفة يُريدها الله له، ويعمل بكل فعل يأمر به الله. والحديث التالي يُفصِّل هذا الواقع.

* قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**الْإِيمَانُ فِي عَشَرَةٍ:**

- **المَعْرِفَةِ** (بالله واليوم الآخر، والكتب، والأنبياء عليهم السلام)؛
- **وَالطَّاعَةِ** (لله)؛
- **وَالْعِلْمِ** (بأحكام الله)؛ **وَالْعَمَلِ** (بها)؛

---

(١) بحار الأنوار، ج ٦٦، ص ٦٤.

(٢) سورة النمل، آية: ١٤.

(٣) سورة الحجرات، آية: ١٤.

- **وَالْوَرَعِ** (الخوف من الله)؛
- **وَالِاجْتِهَادِ** (بذل كل الجهد في سبيل الله)؛
- **وَالصَّبْرِ** (في النوائب وعلى الطاعات الشاقة)؛
- **وَالْيَقِينِ وَالرِّضَا** (بأمر الله)؛
- **وَالتَّسْلِيمِ** (لأمر الله)؛

فَأَيَّهَا فَقَدَ صَاحِبُهُ بَطَلَ نِظَامُهُ»[١] (أي إذا كانت للفرد صفة واحدة من هذه الصفات ولم تكن له أخرى لم يكن مؤمنًا حقًّا).

ما هي فوائد الإيمان؟

إن الإيمان أثقل ما في ميزان العدالة، فلابد أن يُقابَل بأجر عظيم. وإذا كانت الأعمال تُقوَّم بما لها من الصعوبة فلابد أن يكون الإيمان أعظمها أجرًا؛ لأنه أشـقها جميعًا. ونحن إذ نُشير إلى فوائد الإيمان لا ندَّعي استيعابها جميعًا:

١ – **الفلاح في الآخرة**؛ لنفترض أن وراءنا عالم آخر يصيبنا فيه جزاء أعمالنا إن خيرًا وإن شرًا. فمن هو رب ذلك العالم؟ وما هي الأعمال التي تُجزى بخير؟ وما هي التي تُجزى بشر؟.

بكل بساطة: إن رب هذا العالم، الخالق الواحد هو رب ذلك العالم لأنه لا إله إلَّا الله[٢].

وبكل بساطة إن صفات الصدق والوفاء والصلاح والعمل على خدمة الناس، وعبادة الله، وطهـارة القلـب من الحسـد والبخـل والحقد والجبن والكـبر والغـرور، إنّ هذه صفات وأعـمال إن كان هنـاك خير فإنما هو فيها، وإن كان هناك جزاء حسـن فإنما هو لها. وإن صفات الكـذب والنفـاق، ونقـض العهـد، والفسـاد في الأرض، وهـدم المجتمع وتفكيـك أواصره والاعتداء على حقوق الآخرين، إن تلك هي الشر الذي لا يُمكن أن يبقى دون عقاب.

إن هذا أمر وجداني لا ريب فيه. وهنا نسـأل: ما هي الوظائف الدينية التي يلتزم بها المؤمن؟.. من المعلوم أنها لن تقع إلَّا في صف الخير فلابد أن يكون جزاء المتدين في الآخرة جزاءً حسنًا.

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٦، ص١٧٥.
(٢) وإلى ذلك تشير آيات الحمد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

إذًا فإن كانت وراء هذه الحياة حياة أخرى فإن المؤمنين هم الفائزون فيها لا ريب في ذلك، بشهادة الفطرة والوجدان بأن جزاء الخير لا يمكن أن يكون شرًّا.

وفي النصوص التالية شهادة على الفلاح الذي يُحرزه المؤمنون في الآخرة، ولكن يجب أن نعلم في البدء أنه لا يمكن أن نعتقد -ونحن عقلاء- بأن الله يأمر عباده بطاعته ويعدهم بالجزاء الحسن في الآخرة ثم يُخلف وعده. فلماذا يُخلف؟. هل لأنه كان محتاجًا إليهم فأراد أن يخدعهم ليُطيعوه ثم يُخلف وعده، أم أنه عاجز عن الوفاء لهم بوعده؟. سبحانه!. ليست هذه من صفة الخالق الغني الوهَّاب.

وبعدُ؛ فلنعرف ما هي حقيقة الفلاح في الآخرة التي أثبتتها النصوص للمؤمنين:

يموت المؤمن بعد أن يرى محله من الجنة ثم تزف روحه إلى جنة البرزخ، حتى تتمتع بالملاذِّ الروحية. ويؤمن من قبل الملائكة عن أهوال يوم القيامة، ثم ينتظر في ظل عرش الله حتى يتم الحساب، ثم تزلف إليه الجنة فيدخلها آمنًا. ويجد على أبواب الجنة مكتوبًا (للخلود)، ويهب له الله خيرات ليست الدنيا بالنسبة إليها إلَّا كالرمل في البادية الفضفاضة، له سبعمائة ضعف مثل الدنيا، وله سبعون ألف قبة، وسبعون ألف قصر، وسبعون ألف حجلة، وسبعون ألف إكليل، وسبعون ألف حلة، وسبعون ألف حوراء عيناء، وسبعون ألف وصيف، وفي الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وفيها ملاذّ روحية، وفيها رضوان الله، وفيها أمان من النار، تلك النار التي يصفها جبرئيل عليه السلام للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: **«.. أَوْقَدَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَام فَاحْمَرَّتْ، ثُمَّ أَوْقَدَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَام فَابْيَضَّتْ، ثُمَّ أَوْقَدَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَام فَاسْوَدَّتْ، فَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ لا يُضِيءُ جَمْرُهَا، وَلَا يَنْطَفِئُ لَهَبُهَا. وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ نَبِيًّا، لَوْ أَنَّ مِثْلَ خَرْقِ إِبْرَةٍ خَرَجَ مِنْهَا عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ لَاحْتَرَقُوا عَنْ آخِرِهِمْ. وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ جَهَنَّمَ ثُمَّ أُخْرِجَ مِنْهَا لَهَلَكَ أَهْلُ الْأَرْضِ جَمِيعًا حِينَ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ لِمَا يَرَوْنَ بِهِ، وَلَوْ أَنَّ ذِرَاعًا مِنَ السِّلْسِلَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ وُضِعَ عَلَى جَمِيعِ جِبَالِ الدُّنْيَا لَذَابَتْ عَنْ آخِرِهَا، وَلَوْ أَنَّ بَعْضَ خُزَّانِ (جهنم) التِّسْعَةَ عَشَرَ نَظَرَ إِلَيْهِ أَهْلُ الْأَرْضِ لَمَاتُوا حِينَ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وَلَوْ أَنَّ ثِيَابًا مِنْ ثِيَابِ أَهْلِ جَهَنَّمَ خَرَجَ إِلَى الْأَرْضِ لَمَاتَ أَهْلُ الْأَرْضِ مِنْ نَتْنِ رِيحِهِ..»**[(١)].

هذا فلاح المؤمن في الآخرة، إنه ينجو من هذه النيران.

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٧، ص٣٩٣. ولسنا بحاجة إلى ذكاء خارق حتى نُقارن هذه النيران بالقنابل النووية التي تصنعها يد الإنسان فيزول عجبنا ونعلم أنها الجد لا الهزل.

٢- الفلاح في الدنيا؛ فإن الفلاح هو السعادة، فما هي سعادة الإنسان في الدنيا؟.

إن السعادة تنشأ من تزاوج عاملين:

- القضاء على أسباب الشقاء.
- توفير سبب الفلاح.

وللشقاء أربعة أسباب نُبيِّنها ونُشير إلى كيفية قضاء الإسلام عليها، أو لا أقل من تهوينها:

ألف: الخلق السيئ؛ إن الحسد، والحقد، والغرور، والكبر، والقلق، وسوء الظن، والشعور بالنقص، وعقدة الحقارة، وما أشبه تُنغِّص عيش طائفة كبيرة من الناس.

ومهما توفرت أسباب الرفاه، فإن عذاب النفس الداخلي لا يدع الفرد يتمتع بالرفاه أبدًا. والإيمان يقلع جذور الفساد من قلب صاحبه ويجعل نفسه نقية راضية مرضية[1].

وفيما يلي نرى كيف يقضي الدين على ذلك. إن الدين يُغيِّر نظرة الإنسان المادية فيستهين بالدنيا التي هي منشأ الرذائل، ففي القرآن: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2].

وفي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «**أَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ، وَوَاسِهِمْ مِنْ مَالِكَ، وَارْضَ لَهُمْ مَا يَرْضَوْنَهُ، وَاذْكُرْ ثَوَابَ الله، وَإِيَّاكَ وَالْكَسَلَ، وَالضَّجَرَ فِيمَا يُقَرِّبُكَ مِنْهُ..**»[3]. والمؤمن يجُيد هذه التعاليم.

باء: ظلم الناس بعضهم بعضًا؛ والمجتمع المؤمن يسوده العدل والإحسان. والإسلام -الدين الذي يُلزم المؤمن بتطبيق شرائعه- يضمن للناس العدالة التامة، ويتمتع كل فرد تحت ظله بالكرامة والأمن لا فرق في ذلك بين عربي أو أعجمي، أبيض أو أسود، صغير أو كبير، فقير أو غني، ويضمن لهم حقوقهم جميعًا ويقول: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[4].

هكذا يُعالج الإسلام الظلم لو كان المجتمع المؤمن قائمًا، وأما لو لم يكن فإن المؤمن

---

(١) سنُفصِّل القول في أن الإيمان يُسبِّب التحلي بالفضائل.

(٢) سورة يونس، آية: ٦٢.

(٣) مستدرك الوسائل: ج١١، ص١٨٩.

(٤) سورة الزلزلة، آية: ٧-٨.

يتمتع أيضًا بالكرامة والأمن في ظل المجتمع الجاهلي؛ ذلك لأنه لا يظلم أحدًا أبدًا.

ومن لا يَظلم لا يُظلم. ولو أنه ظُلِم، فلأنه يحتسب مظلمته عند الله، فإن شقاءه سوف يُخفّف كثيرًا؛ لأن هناك فرقًا نفسيًّا كبيرًا بين من يعلم بأنَّ بعد هذه الحياة يومًا ينتقم الله فيه من الظالم أضعافًا مضاعفة، ومن لا يعلم ذلك؛ فإن الأول يستسلم لما لا بد منه راضيًا بالانتقام الآجل بينما يحترق الثاني بنار الحقد والقلق الذي لا مناص له منها. هذا فيما إذا كان الظالم أقوى منه، وإن كان أضعف فمن خصال المؤمن العفو عمَّن ظلمه، وهذا العفو تنازل اختياري عن الحق المشروع فلا يكون شقاءً عليه[١].

إذًا فالإيمان يُجنِّب الإنسان من الشقاء المتسبب عن مظالم الناس بعضهم لبعض بطرق ثلاثة:

١- تشريع نظم تضمن للناس -كل الناس- حقوقهم العادلة.

٢- تحريم الظلم الفردي مهما كان صغيرًا، ورد المظالم مهما كانت حقيرة.

٣- تسلية النفس المؤمنة بالرضا لما لابد منه في انتظار يوم القيامة. أو العفو عن الظالم لمن انتصر على الظالم، وهذه معالجة نفسية، وتلك معالجة خارجية عامة وخاصة.

قال الله تعالى في صفة المتقين: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾[٢].

وجاء في الحديث عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**إِنَّ لِأَهْلِ الدِّينِ عَلَامَاتٍ يُعْرَفُونَ بِهَا: صِدْقُ الحَدِيثِ، وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ، وَالْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ، وَرَحْمَةُ الضُّعَفَاءِ، وَقِلَّةُ الْمُؤَاتَاةِ لِلنِّسَاءِ، وَبَذْلُ المَعْرُوفِ، وَحُسْنُ الخُلُقِ، وَسَعَةُ الخُلُقِ[٣]، وَاتِّبَاعُ الْعِلْمِ وَمَا يُقَرِّبُ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، طُوبى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ..**»[٤].

---

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ خَلاَئِقِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ؟. الْعَفْو عَمَّنْ ظَلَمَكَ، وَأَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَالإِحْسَانِ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ، وَإِعْطَاءِ مَنْ حَرَمَكَ. وَفِي التَّبَاغُضِ الحَالِقَةُ، لَا أَعْنِي حَالِقَةَ الشَّعْرِ وَلَكِنْ حَالِقَةَ الدِّينِ» (مستدرك الوسائل: ج٩، ص٩).

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٣٤-١٣٥.

(٣) حسن الخلق يعني أن يكون هشًّا بشًّا كريم النفس. وسعة الخلق يعني إلاَّ يضيق صدره عند نزول بلاء أو رؤية سيِّئ لا يُلائمه.

(٤) بحار الأنوار: ج٦٤، ص٢٨٩..

جيم: الحـوادث الطبيعية؛ (الزلازل، الأوبئة، الفيضانات، حوادث السـير، الحرق، الغـرق، العواصف، الأمطار المهلكة، والجفاف الطبيعي وغيرها). إن هذه أسـباب أخرى لشقاء البشر، والإيمان يدفع هذه بطرق عديدة نتعرض لبعضها:

١- تدبـير الغيـب؛ النظر الرشـيد في الكون يهدينا إلى أن هناك نظامًـا دقيقًا وَمَرِنًا في الكـون، ولا بـد لكل نظام مـن مُدبِّر يُجريه. وبالرغم من أننا لم نكتشـف إلَّا القليل من هذا النظام، وأننا نزعم أن لا نظام ولا تدبير في بعض حوادث الكون (كالزلازل والفيضانات)، وبالرغـم مـن ذلك لا بـد أن نعترف أنه لا ريـب في أنها خاضعـة لنظم دقيقـة. إذ إن مُدبِّر الشـمس والقمـر لا يعجز عن تدبير الزلـزال والفيضان، بل هنـاك إرادة موجِّهة لها، وهي إرادة الله، فإذا آمن به البشر وسألوه وهو الغني الكريم فلماذا لا يُعطي ولا يدفع البلاء؟!(١).

٢- إن طائفـة مـن الآفات -كموت الفجأة- تتسـبَّب عن أسـباب طبيعية، والدين الإسلامي يُشرِّع أحكامًا للتحصُّن ضدها، وبذلك يتخلَّص الملتزم بأحكام الشرع منها(٢).

٣- وبالرغم من أن بعض الآفات تُصيب المؤمن، فإن وراءها حكمة الابتلاء، حيث إن الله يمتحن العباد المؤمنين ببعض البلاء، فإن صبروا واستقاموا أعطاهم أجرهم مرتين؛ مرة في الدنيا ومرة في الآخرة(٣).

الإيمان وقاية وعلاج:

دال: الأمـراض؛ وتُشـكِّل الأمـراض نوعًا من الشـقاء البشري. فالمريـض لا تتوافر عنده متعة الحياة وإن توافرت له سـائر أسـباب الرفاه. والإيمان يدفع شقاء المرض بوسائل شتى:

١- إن كثـيرًا مـن الأمراض تنشـأ من الصفات النفسـية كالقلق والعقـد(٤)، وبما أن

---

(١) قال الله سبحانه: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. سورة الزمر، آية: ٦١.

(٢) في الحديث: قَالَ رسول الله ﷺ: «**إِذَا ظَهَرَ الزِّنَا مِنْ بَعْدِي كَثُرَ مَوْتُ الْفَجْأَةِ**». وسائل الشيعة: ج١٦، ص٢٧٣.

(٣) قال الله سبحانه: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ (سورة الأنبياء، آية: ٣٥). وقال: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (سورة العنكبوت، آية: ٢). يعني أن الله يمتحن المؤمنين ببعض المصائب ولكن يرفع درجاتهم إن أحسنوا العمل ويجزيهم خيرًا في الدنيا والآخرة. وقال عز وجل: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝١٥٥ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، سورة البقرة، آية: ١٥٥-١٥٦.

(٤) قال الله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ (سورة طه، آية: ١٢٤) والعالم يعاني أكثر شيء

الإيمان يُعالج الأمراض النفسية فإنه يقضي على ما ينشأ منها من أمراض.

٢- في أحكام الشريعة كثير من الوقايات المُحصِّنة ضد الأمراض كالطهارة (الوضوء والغسل)، واجتناب النجاسات التي تُسبِّب الأمراض، وتحريم الخمر، والزنا، واللواط، والسحاق، والعادة السرية، وتحريم الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أشبه من السباع والهوام والمضر من صيد البحر. إن تحريم ذلك كله لم يكن إلّا لما تُسبِّب من الأمراض، بل الإسلام يُحرِّم كل ما فيه ضرر على صحة الإنسان ضررًا كبيرًا ويقول: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾(١).

وما دام المؤمن ملتزمًا بأحكام الشرع هذه، فإنه يقي نفسه طائفةً كبيرةً من الأمراض.

٣- إن هناك تعاليم كثيرة يفرضها الدين وأخرى ينـدب إليها، نجد فيها الوقاية أو العلاج التام لطائفة كبيرة من الأمراض. فالصلاة تهدئة سيكولوجية وتمارين رياضية، والصوم ترويض نفسي ووقاية صحية، وآداب الأكل والشرب والنكاح وغيرها كلها وقاية عن الأمراض. والمؤمن حيث يلتزم بها يتخلَّص من غائلة قسم كبير من الأمراض الناجمة عن تركها.

٤- إن الدين يدعو إلى العلم، والطب بصورة خاصة، وينشر الطب ويوفر الأدوية، كل ذلك من خلال نظمه وتعاليمه الرائعة، وهذا يؤدي إلى التقليل من انتشار المرض في المجتمع(٢)، وبالتالي يقضي على جانب كبير من جوانب الشقاء الإنساني.

٥- ويبقى من شقاء المرض الشيء القليل، والإيمان يجعل المبتلى به يحسّ بأن هذا المرض سعادة له بما يُسليه به من مثوبات يُعوِّض الله بها مرضى المؤمنين. وإليك بعض ما يقوله الدين عن المرض والمريض المؤمن:

ألف: إن المؤمن إذا مرض كُتب له كل ما كان يعمله في الصحة، وإنه تُغفر له ذنوبه كلها.

باء: إن المؤمن إذا أصابته الحمى ليلة واحدة كُتب له عبادة سنة كاملة.

من الأمراض الناشئة عن القلق كالأمراض العقلية وضغط الدم وبطالة الكبد وما أشبه، مما يجعلنا نعترف بمدى السعادة التي يوفرها الدين للمؤمنين.

(١) سورة البقرة، آية: ١٩٥.

(٢) الإحصاءات الدقيقة تُبيِّن أن المتدينين -ولاسيما رجال الدين- من أطول الناس أعمارًا. ومن تدبَّر في من يلتزمون بتعاليم الدين كلها عرف أنهم قليلًا ما يُبتلون بالأمراض ولو كانوا في ضنك من العيش وضيق من الحياة.

التطلع نور السعادة:

هـذه هي عوامل الشـقاء وهكذا يقضي عليهـا الإيمان أو يخفف من شـقائها، ولكن الإيـمان لا يكتفـي بذلك بل يُعطي الفرد نور السـعادة ليجعله مفلحًا حقًّا. وذلك أن البشر قـد خُلـق طموحاً لا يكتفي بما تكفيه من ضرورات الحيـاة حتى يطلب المزيد؛ ولذلك فهو يحـرص على جمع المال حرصًا عجيبًا ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[١]. ليس فقط لأن المال يفي بحاجاته الضرورية، بل لأنه -حسب اعتقاده- يجعله شيئًا، كما جاء في المثل (إذا ملكت شيئًا فقد أصبحت شيئًا). وطموحه لا يقتصر على الملاذِّ المادية، بل إن ملاذَّه الروحية تدعوه إلى النشاط أكثر؛ فمثلًا: حب المعرفة وحب السيطرة وحب الشهرة قد يبلغ بالبشر حدًّا يُضحي في سبيله بالمال والأهل جميعًا، وهذا الطموح إن لم يتحقق عمليًّا بقي الإنسان يشعر بفراغ، وكلما تحقق شيء منه طار فرحًا وغمر نفسـه شـعور بالسـعادة، وإذا وجَّه الإنسان طموحه إلى حطام الدنيا ازداد شقاء بعد شقاء؛ لأنه كلما جدَّ في طلب الدنيا اصطدم بقوى خارجية تُوقفه، بينما إذا وجَّه طموحه نحو العالم الروحي تقدَّم إلى الأمام دون أي اصطدام. والدين يوجّه طموح الإنسان هذا في مجالات ثلاثة مما يجعله سعيدًا متطلِّعًا:

١- في مجال التحلي بفضائل إنسانية تزيد الفرد قيمة إلى قيمته ورفعة بعد رفعة.

٢- في مجـال طلب النعـم في الآخرة والتي عرضها كعرض السـماوات والأرض مما تمتص تطلعات المؤمنين وتزيد.

٣- في مجال الاتصال بنور الله والقرب من رضوانه الذي يُعطي الإنسان فيضًا من السعادة التي لا تنتهي. وأين تلك السـعادة من سعادة الجسـم[٢]. وبكل هذا يؤتي الله المؤمن فلاحه في الدنيا والآخرة، ويقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[٣].

الإيمان نبع لا ينضب:

كل فرد يريد أن يفعل الخيرات، بيد أن شـهواته النفسـية والقوى الخارجية هي التي تمنعه منها وتجرّه إلى اقتراف السيئات. وكثيرًا ما يندم البشر من بعض تصرفاته السيئة ولكنه

(١) سورة الفجر، آية: ٢٠.

(٢) قال الله سبحانه وتعالى في صفة المؤمن: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ۝٣٦ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ (سورة النور، آية: ٣٦).

(٣) سورة البقرة، آية: ٥.

سرعان ما يرجع إليها مرة أخرى إذا واجه الظروف نفسها التي واجهها أول مرة. والإيمان يزيد من قوة العقل ويبعثه إلى فعل الخيرات؛ ذلك لأنه يجعل صاحبه بين أيدي الله العليم القدير الذي بيده أمره وإليه مصيره، ذلك الله الذي أعد للمحسن ثوابًا عظيمًا وللعاصي عقابًا أليمًا. فالمؤمن يجد نفسه أمام سلطان الله الدائم فتذل نفسه ويضعف هواها فلا يستطيع أن يردعه الهوى عن الخير. والمؤمن يشعر كأنه مُنعَّم في الجنة وكأنه مُعذَّب في النار (من شدة يقينه بالمستقبل وتطلُّعه لحياة الخلود) فتزيد رهبته ورغبته شدةً وعمقًا وتجعلانه نشطًا سبّاقًا إلى الخيرات مهما كانت صعبة، وحذرًا من السيئات مهما كانت صغيرة[1].

جاء في القرآن.. ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾[2]. هكذا يكون الإيمان نبعًا لا ينضب لفعل الخيرات!.

التحلي بالفضائل:

ما هي الرذيلة؟. ما هي صفة الكبر، والغرور، والبخل؟.

لدى التحليل تبيَّن أنه إذا التهب حب الذات في زاوية من الزوايا سبَّب صفة نفسية رذيلة؛ فمثلًا: إذا التهب حب الذات في زاوية الدفاع عن الذات حدثت صفة الكبر التي لا تعدو أن تكون مغالاة في تقييم الإنسان لنفسه، والحرص لا يعدو أن يكون زيادة في حفظ الذات، والبخل إفراط في الإحساس بالخوف من الحوادث وهكذا. ومن هنا فالذي يتغلَّب على هوى نفسه بقوة عقله، فإنه سوف يقضي على الرذيلة قضاءً باتًّا.

والنفس المؤمنة تُميت الهوى وتجعله تابعًا لإرادتها فتقضي على الرذيلة. أضف إلى ذلك أن النفس التي تشعر بعظمة الله لا يمكن أن تتكبر، وأن النفس التي تعلم أن لا حول لها ولا قوة إلَّا بالله لا يمكن أن تغتر، والنفس التي تعلم أن الله يملك الخير والشر كله، لا يمكن أن تحسد الآخرين وتحقد عليهم.

ومن جهة أخرى النفس المؤمنة بالله الجميل الجليل، لا تملك إلَّا أن تكنَّ حبًّا عميقًا

---

(١) يقول الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في صفة المتقين: «.. **فَهُمْ وَالجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ**» (نهج البلاغة: الخطبة ١٩٣).

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٩١-١٩٢. هذه صفة المؤمنين الذين لا ينفكون يشعرون بعظمة الله فيتعوذون به من النار المرة بعد الأخرى، ويدفعهم ذلك إلى المزيد من العمل والمزيد من النشاط.

لله وحبـا لمـن خلقه الله. فالنفس المؤمنة نفس محبة للنـاس أجمعين ولا يمكن لهذه النفس أن تحقد أو تحسد أو تبغض أو تغضب (إلّا للحق)، ولا يمكن أن يقوم صاحبها بما ينغص على الناس عيشهم كالنميمة والغيبة والسب والإهانة، وكل أذى.

والخلاصة: النفس المؤمنة يغمرها الحب؛ ولهذا فهي مبعث الخير والجمال.

في القرآن يصف الله المؤمنين: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ...... وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴾[1].

وجملـة أخيرة: إن الإيمان بـالله هو الذي يُنفِّذ شرائع الديـن وتعاليمه، ولا يمكن أن يُستغنى عنه بأي شيء آخر:

١- فالتربيـة مهـما تكن صالحة، فإن النفس قد تهوى الرذيلة بسـبب اتِّباع مصلحتها الذاتية، هذا مع أن الحصول على التربية الصالحة قد يتعذر للناس جميعًا.

٢- وقوانين العقوبات، مضافًا إلى أنها تختص بما إذا كانت هناك حكومة صالحة، فإنها لا تستطيع أن تمنع الجريمة، كما تدل على ذلك زيادة الجريمة في الدول المتقدمة.

٣- والضغط الاجتماعي لا يؤثر إلّا في مجال محدود.

وفي الإيمان بعد ذلك قوة لا توجد في أي شيء آخر، ذلك لأنه يقوم بتوجيه رشيد من داخل الذات ويجعل فيها ما يراقبها ويوجه خلجات النفس وانحرافاتها الداخلية.

وأخـيرًا المؤمن يعيش مع الله الخالق القدير الذي يقول: «**يَا ابْنَ آدَمَ! أَنَا أَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ، أَطِعْنِي فِيمَا أَمَرْتُكَ أَجْعَلْكَ تَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُون**»[2]. فما أعظمه مقامًا.

والآن دعنـا نسـأل: أليس مـن الأفضل أن نكون مؤمنين حقًّـا وأن نغرس في قلوب الآخرين بذور الإيمان؟.

مـاذا يضرنا لو آمنا بربنـا الذي يدعونا إليه ويهب لنا فـلاح الدنيا والآخرة، ويوفقنا للخيرات، ويعصمنا من السيئات، ويستجيب لنا الدعوات؟.

فلنؤمن بالله ولنزدد إيمانًا.

---

(١) سورة الفرقان، آية: ٦٣-٧٢.

(٢) بحار الأنوار: ج٩٠، ص٣٧٦.

المبحثُ الثّاني: الرِّسالةُ

١- الرسالة والرسول.

٢- محمد ﷺ رسول الله.

١ - الرسالة والرسول

قبل كل شيء لابد لنا من تحديد هذين اللفظين لتتبين بعض الأخطاء التي وقعت في تفسيرهما.

الرسالة تعني: توجيه الله غيبيًّا لشؤون الإنسان الفكرية والعملية.

الرسول هو: الوسيط بين الله والناس في نقل هذا التوجيه.

فالرسالة من الله، والرسول من البشر.

الرسالة وحي يوحى، والرسول صاحب هذا الوحي.

الرسالة أمر مخالف لسنن الحياة، إنها أمر جديد في مسيرة الكون، والرسول خليفة الله ليس بطبيعته ولا بمؤهلاته وإنما لأن الله قد شاء ذلك، فجعل الرسول خليفة من لدنه جعلًا.

إن عملية (الجعل هذه ترتبط) بالغيب وليست عملية نمو طبيعية كما ينمو الطفل فيصبح يافعًا واليافع شابًا، أو كما يصبح المفكر مصلحًا والعالم مكتشفًا.

إن الرسول رجل مختار من قبل الله ومبعوث عنه كما تبعث الدولة سفيرًا إلى دولة أخرى وتعتمده عندها. فالعملية بحاجة إلى اعتماد ولا تكون بتدرج ذاتي. هكذا يُحدِّد الله سبحانه واقع الرسالة وواقع الرسول ويقول: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾[1]، و﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾[2]، و﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ﴾[3].

(١) سورة الجن، آية: ٢٣.
(٢) سورة الأعراف، آية: ١٤٤.
(٣) سورة ص، آية: ٢٦.

ففي هذه الآيات كما في مئات الآيات الأخرى، تقرير لحقيقتين:

١- إن لله رسالة تُنسب إليه وتُضاف إلى اسمه، إنها رسالة الله وكلامه.

ورغم أن كل شيء هو من الله، فإن للرسالة إضافة خاصة إليه، نابعة من أن الرسالة إنما هي خرق لسنة الله سبحانه في خلق الأشياء عن طريق أسبابها؛ فهي موهوبة للإنسان بطريق مباشر بينما أوجد الله سبحانه سائر الأشياء بطريق الأسباب الظاهرة.

إذًا فالرسالة آتية بطريق غيبي لا بطريق عادي.

٢- إن الله -حينما يُنزل رسالة- يُحمِّلها رجلًا مصطفى من عباده عن علم واختيار. فالرجل الموحى إليه ليس بشيء لولا الوحي. ومن هنا يأتي الاختلاف بينه وبين العباقرة والنوابغ الذين ترتفع بهم العظمة الشخصية إلى قمم الحياة دون أن يكون للغيب أي تأثير في عظمتهم.

هكذا يُحدِّد الله واقع الرسالة، وهكذا يدَّعي الرسل أنفسهم.

ولكن الماديين الذين يبغون الحقائق عوجًا، يخترعون لكلمة الرسول والرسالة معنى جديدًا، ويقولون: إنما الرسول إنسان عبقري يتمتع بمواهب وافرة ترفعه مكانًا محمودًا عند الناس، شأنه شأن الألوف من العباقرة في التاريخ، ولا فرق إذًا بينه وبين أي عظيم آخر.

فالعظماء كلهم من فصيلة واحدة ويجب أن ينظر إليهم بالإجلال دون أي اعتبار لاتجاهاتهم الفكرية، أهي مستقيمة أم منحرفة، ولا ملاحظة لأعمالهم أهي صالحة أم مُضرة، ولا تقييم لمنجزاتهم أهي مفيدة للإنسانية أم لا. ذلك لأن كُلًّا منهم يملك موهبة تميزه عن سائر الناس وتجعلنا نُقدِّره بها تقديرًا.

ويقولون: إن محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يختلف شيئًا عن أبي سفيان. كما أن عليًّا عليه السلام خليفة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لا يفترق عن معاوية بن أبي سفيان. أما إبراهيم وموسى وعيسى والنبيين عليهم السلام فليسوا إلَّا نظراء أديسن وروسو وماركس. لأولئك مواهب ولهؤلاء مواهب، فهم جميعًا رسل الله إلى البشرية وليست الرسالة سوى إنجاز تلك المواهب، سواء كانت في طريق مشروع أم غير مشروع، يحبها الله أم يبغضها.

ويزعمون أن كل كاتب وشاعر ومفكر فهو رسول من عند الله، أبى الله أم رضي، ولكل منهم رسالة أحب الله ذلك أم كره.

والواقع أن الذي يعتقد بالرسول عبقريًّا -فقط- وبالرسالة موهبة فحسب ليس بمعتقد بالرسالة أبدًا. ذلك لأن الرسول ﷺ يُصرِّح أنه مبعوث من قبل الله سبحانه، وأنه عبد كسائر العباد، وأنه يتخذ كل اعتباره وقيمته من الوحي، ويقول: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾(١). وأما القرآن فيقول في صفة الرسول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾(٢)، ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾(٣).

في الآية الأولى: يُؤكِّد الله سبحانه أن الرسول يُطاع بإذن الله، لا بما فيه من موهبة ونبوغ.

وفي الآية الثانية: يُصرِّح القرآن أن الله قد جعل داود خليفة في الأرض جعلًا.

وعلى هذه الحقيقة يبني الدين كل بنائه، فالرسول مبعوث من قبل الله، وحكمه حكم ربه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾(٤)، وليس الرسول حالًّا في الله سبحانه إنما هو رجل يُوحى إليه من ربه، ولا الله تعالى قد وَلَدَهُ، ولا هو منطو على جزء من الألوهية -كما زعمت الفلسفات الجاهلية والأديان المتأثرة بها-؛ ذلك لأن اعتباره لم يكن نابعًا من ذاته حتى يكون دليلًا على الوهيته -كما زعموا- بل لو تجرد عن الوحي عاد بشرًا مثل سائر البشر.

ولهذا ينسف الإسلام كل مزاعم اليهود والنصارى بما ظنوا في أنبيائهم من مراتب الألوهية؛ زعمًا منهم أن ما في الأنبياء من علم وحكمة، وأن ما تجري على أيديهم من معاجز وخوارق للعادة، إنما هي ناشئة من ذواتهم التي فيها نوع من النبوغ يُميِّزهم عن سائر البشر بدرجة.

فعيسى الذي كان يحيي الموتى كان نبيًّا وكان إلهًا بزعمهم، وعزير الذي مات ثم أحياه الله كان نبيًّا وكان إلهًا في الوقت ذاته. ذلك لأنهم لم يعرفوا واقع الرسالة فزعموا أن عيسى وعزير حين شذَّا عن الآخرين وعملا أعمالًا خارقة فإنما كان بسبب ما كان فيهما من الإلوهية. ومثلهم في ذلك مثل الذين زعموا أن النبوة موهبة ذاتية ونبوغ شخصي للرسول، فكلاهما لم يفهم واقع النبوة فتخبطا في الظلمات خبطًا. وإنما الفرق بينهما أن الفلسفة القديمة كانت تعترف بأن كل من فاق البشر كان إلهًا دون أنصار الفلسفة الحديثة.

---

(١) سورة الكهف، آية: ١١٠.
(٢) سورة النساء، آية: ٦٤.
(٣) سورة ص، آية: ٢٦.
(٤) سورة النجم، آية: ٣-٤.

شبهة المنكرين:

شبهة واحدة تشبَّث بها المنكرون كلما بُعثَ إليهم رسول أو دعوا إلى اتِّباع رسول. شبهة واحدة لا تختلف منذ عهد نوح وإبراهيم عليهما السلام وإلى هذا اليوم إلَّا في المظاهر والأشكال، فما هي تلك الشبهة؟.

قالوا: كيف يمكن أن يتدخل الله سبحانه في أوضاع الأرض. أهو قادر على ذلك؟. كلَّا؛ إذ إنه حين خلق الكون وقدَّر ما فيه من النظم غُلَّت يداه -سبحانه- فلم يعد يؤثر فيه أي تأثير.

تلك هي شبهة واحدة ولكن تُصاغ في قوالب شتى:

١- فمرة يقولون: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾(١)، كما قالت اليهود.

٢- وأخرى يقولون: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾؟(٢)، كما قال الناس لرسلهم.

٣- وتارة يقولون: أيعتني الله الكبير، خالق هذه السماوات العظيمة، بهذا البشر الحقير. كما قال بروفيسور ألماني.

٤- وأخرى يقولون: إن الله رب كبير لا شأن له بالتشريع، ولهذا فالدين لله والقانون للبشر. كما يقول كاتب عربي ملحد.

ومرد هذه الشبهة إلى أن الله قد صدر منه الخلق صدورًا كما يصدر الماء من النبع دون أن تكون له إرادة ومشيئة في ذلك، ولهذا فهو ليس بقادر على أن يُغيِّر شيئًا مما أوجده.

فالشبهة -إذًا- ناشئة من عدم معرفة الله سبحانه كما ينبغي أن يُعرف.

أما جوابها فيتلخص في كلمة هي:

إن الله القادر الذي رأينا في الكون آثار قدرته البالغة، لا يمكن أن يعجز عن الخلق، ذلك أن الخلق أضعف من الخالق بصورة ذاتية، والأقوى يستطيع أن يؤثر في الأضعف، وإذا ثبتت قدرة الله غير المحدودة، فإن أي اعتراض آخر حول إمكانية الوحي يغتدي تافهًا جدًّا.

وقد سبق الحديث حول ذلك لدى التكلُّم حول الفلسفة الميكانيكية.

ويقصُّ القرآن الحكيم نبأ هذه الشبهة التي كانت تُثار حول الأنبياء عليهم السلام ثم يُجيب

---

(١) سورة المائدة، آية: ٦٤.

(٢) سورة الإسراء: ٩٤.

عنها جوابًا متينًا فيقول: ﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[1].

في هاتين الآيتين معالجة شاملة لكافة القضايا الرسالية لابد أن نشير إليها إشارة خاطفة:

ألف: إن الناس كانوا يشكُّون في الأنبياء، وكان مبعث شكهم هو أن الأنبياء عليهم السلام إنما هم بشر مثلهم وكيف يمكن أن يبعث الله بشرًا رسولًا؟.

باء: لم ينكر الأنبياء أنهم بشر، كما أنكر اليهود ذلك في عزير عليه السلام والنصارى في المسيح عليه السلام، بل قالوا: إنْ نحن إلَّا بشر مثلكم. فلسنا نوابغ أفذاذ، نملك مواهب جمة بها نسألكم الطاعة. ولكننا أناس لا نستحق طاعة ولا ولاء لو تجردنا عن الرسالة الموحاة إلينا من الغيب.

جيم: بيد أنه ليس من العجيب أن يمنَّ الله على من يشاء من عباده بشيء يُميِّزه عن الآخرين؛ إذ ما دمنا عباده فهو الذي يدبر أمورنا كيف يشاء ويختار للرسالة من يشاء. نحن عباده، والعبد لابد أن يكون خاضعًا لتدبير مولاه خضوعًا تكوينيًّا شاملًا، فإذا كان خاضعًا هذا الخضوع فليس من المستحيل أن يهب له علمًا وحكمًا ويبعثه إلى الناس رسولًا مطاعًا بإذنه.

دال: بيد أن رسالتنا -كما يقول الرسول- لا تجعلنا فوق مستوى الناس من حيث الذات، بل إننا لا نزال خاضعين لله؛ ولذلك ما كان لنا أن نأتيكم بسلطان فيه نوع من السلطة عليكم إلَّا بإذن الله، ذلك لأننا وإن كنا أنبياء إلَّا أننا لا نملك شيئًا من دون الله.

واو: وليست لدينا أية قوة ظاهرية نعتمد عليها، بل كل ما في الأمر أننا نتوكل على الله، وكذلك نقول للناس: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾. فالمؤمنون إنما يتقون بالله -سبحانه- لا بما لنا من قوة ذاتية.

هذه هي الرسالة في منطق القرآن، وهذه هي الشبهة الوحيدة عليها، وهذا هو الرد الحاسم. وسنذكر -إن شاء الله- أن هذه الرسالة تنسجم مع العقل وفيها حجة على ذاتها.

---

(١) سورة إبراهيم، آية: ١٠-١١.

لماذا يجب أن نستمع لمدعي الرسالة؟.

هناك سـبب بسـيط لوجوب الاستماع إلى مدعي الرسـالة هو أن الرسالة ممكنة عقلًا -كما سبق آنفًا-، وهي ضرورية عقلًا -كما سيأتي قريبا إن شاء الله-؛ فإذا ادَّعاها أحد وكان مـن الممكن أن يكون صادقًا وجب على الناس الاسـتماع إليـه والبحث عن صدقه أو كذبه لكـي يشـغل هذا الفراغ. ولكن إذا ثبـت بصورة جازمة انتهاء الرسـالات فليس لأحدٍ أن يستمع إلى مدعي الرسالة لأنه إذًا كاذب لا ريب في كذبه.

وبما أن القرآن هو الرسـالة الخالدة التي انطوت على كل حاجات الإنسـان، وبما أن النبي محمد ﷺ خاتم النبيين حسـب ما ثبت بصـورة جازمة؛ فليس لأحدٍ أن يُصغي إلى من يدَّعي الرسالة، بل يجب عليه أن يعتقد كذبه سلفًا.

ما هي وجوه الحاجة إلى الرسالة؟.

هل البشر يستطيع أن يستغني عن الرسالة؟.

فيما يلي الإجابة الموضوعية عن ذلك:

قبل أي شيء لابد أن نعلم حقيقتين:

١- إن شواهد كبيرة في الكون تدل على أن الإنسان خُلق ليعيش سعيدًا.

فهـذه آثـار رحمة الله وعطفه وحنانه قد غمرت الحياة، وما هيّأ للإنسـان من وسـائل العيش، وأسـباب الرفـاه، وما فطر عليه الخلق من ابتغاء السـعادة بصورة دائمة. كل ذلك بعض الشواهد التي تهدي إلى حقيقة أن الهدف من خلق الإنسان هو أن يعيش سعيدًا.

ولكن هل السعادة تُفرض على الإنسان؟.

كَلَّا.

٢- أما الحقيقة الأخرى التي لابد أن نعترف بها، فهي أن الإنسـان خُلق حرًّا مريدًا، وأن الله ضمن للإنسان استمرار حريته في الحياة الدنيا؛ ذلك أن الحرية تساوي عند الإنسان السعادة، وتزيد قيمة عليها.

ومن هنا نعلم أن الإنسـان خُلق حرًّا سـعيدًا، وأي تفضيل لسـعادته على حريته، أو

لحريته على سعادته انتكاس وتجريد له عن إنسانيته.

إن منطلقنا في الحديث عن ضرورة الرسالة، ينبغي أن يكون من هاتين الحقيقتين.

ولكن كيف؟.

١- حاجة العقل إلى مذكِّر:

إننا نجد في أنفسنا طاقتين تتصارعان، هذه تدعونا إلى الحق والخير والسلام، وتلك تدعونا إلى الباطل والشر، ونسمي إحداهما بالعقل والثانية بالجهل. والجهل هاوية والعقل قمة. والناس أهون عليهم النزول من الصعود. ومن هنا كانت الحاجة ماسة إلى ابتعاث أُناس مُنزَّهين ومُؤيَّدين من قبل الله ليدعوا الناس إلى اتِّباع عقولهم ونبذ أهوائهم ثم يتحملوا مسؤولية هذه الدعوة الكبيرة، إذ لولا هذه الطائفة لما كان للعقل الداعي إلى الحق والخير فائدة أبدًا، وكان صنع الله لغوًا -تعالى الله عن اللغو-؛ لأننا نجد كل موجود يؤدي عملًا مفيدًا وقد خُلق لهدف، وأن الله قد فتح له المجال لتحقيق ذلك الهدف الذي خلقه من أجله؛ فلا يمكن أن يكون العقل قد خُلق دون أية غاية؟!. فمن الضروري أن يبعث الله الأنبياء عليهم السلام لكيلا يكون خلق الله لغوًا.

وبكلمة موجزة؛ للناس عقول هي التي تهديهم إلى الرشاد ولكن هذه العقول لا تفيدهم إلَّا إذا ذكَّرهم بها مُذكِّر، ولا بد لهذا المُذكِّر أن يكون مُسدَّدًا بالغيب، ليكون هو بنفسه متذكرًا مهتديًا، وهذا لا يكون إلَّا ببعث الرسل.

وقد سبق القول عند البحث حول العقل: بأن من يغفل عن عقله لابد أن يوجَّه من خارج ذاته إلى عقله. جاء في الحديث عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ، وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ، لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ..**»[1].

فإثارة كنوز العقول ضرورة بشرية يقوم بها الأنبياء عليهم السلام.

٢- ضرورة المذكر:

لا يعرف الناس ربهم إلَّا بمذكر يُذكِّرهم به وداعٍ يدعوهم إليه؛ ذلك لأن طبيعة

---

(١) نهج البلاغة: خطبة رقم: ١.

البشر الجهل والنسيان[١]، فكان على الله أن يختار لهم من يدعوهم إليه حتى يعرفوه فينالوا به السعادة والفلاح[٢].

٣- حاجة الإنسان إلى موجه:

كلما كررنا النظر إلى ما في أنفسنا وما في الكون المحيط بنا من تكوين ونظام أيقنا أكثر فأكثر بأننا عباد خُلِقنا ولم نكن شيئًا مذكورًا، ثم أُودعت نطفنا أرحامًا لم نكن قد عرفناها أو هيَّأناها من قبل، وفي ظلماتها رُزِقنا وأُنشئنا، ثم أُخرجنا إلى الدنيا في وقت لم نُحدِّده وبكيفية لم نُعيِّنها، وعشنا في ظروف لم نعرفها ولم نُنشئها، وأُوتينا الرشد بقدر غير مُقدَّر من قبلنا، والآن نأكل من رزق لا نملكه ونمشي على أرض لم نعمرها.

هذا بالنسبة إلى ما يحيط بنا، أما بالنسبة إلى العالم الذي نحيط به، أي عالم الإنسان؛ فإن آلاف النظم وملايين الأجزاء وبلايين الخلايا تحيط بها أجسامنا قد أُنشئت ونمت على غير إرادة منا ولا حتى معرفة لنا بها. العقل والعلم والعاطفة والخيال والحافظة وعشرات أمثالها مما أُودعت أرواحنا كانت هي الأخرى ولا تزال مُقدَّرة ومُسيَّرة من لدن غيرنا لم نكن نستطيع تغييرها أبدًا. كل ذلك يُلهمنا واقع أنفسنا أنها مخلوقة وأننا عباد مخلوقون مربوبون. وما دمنا كذلك فعلينا أن نتَّبع رضوان الرب العظيم الذي وهب لنا كل ذلك، وألَّا نقوم بأي عمل لا نعلم أنه راضٍ عنه.

جاء في القرآن الكريم:

- ﴿ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ ﴾[٣].
- ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾[٤].

وجاء في السنةعن رسول الله ﷺ: «**لِأَنَّا عِبَادُ الله مَخْلُوقُونَ مَرْبُوبُونَ، نَأْتَمِرُ لَهُ فِيمَا أَمَرَنَا وَنَنْزَجِرُ عَمَّا زَجَرَنَا، وَنَعْبُدُهُ مِنْ حَيْثُ يُرِيدُهُ مِنَّا، فَإِذَا أَمَرَنَا بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ أَطَعْنَاهُ، وَلَمْ نَتَعَدَّ إِلَى غَيْرِهِ مِمَّا لَمْ يَأْمُرْنَا وَلَمْ يَأْذَنْ لَنَا، لِأَنَّا لَا نَدْرِي لَعَلَّهُ أَرَادَ مِنَّا الْأَوَّلَ وَهُوَ يَكْرَهُ الثَّانِيَ،**

(١) يراجع (دور الأنبياء عليهم السلام في المعرفة)، في فصل: (الدليل إلى الله).
(٢) انظر: (الإيمان بالله)، من فصل: (الدليل إلى الله).
(٣) سورة سبأ، آية: ٣٩.
(٤) سورة الذاريات، آية: ٥٦.

وَقَدْ نَهَانَا أَنْ نَتَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ...»[١].

إذًا فلابد أن نبتغي رضوان الله. ولكن كيف؟.

من الواضح أنه لا يمكن أن نتصل جميعًا بالله سبحانه مباشرة؛ لأنه أجلُّ من أن يُلامس ويُواجه من قبل كل أحد، فوجب أن يجعل بينه وبين الخلق رجالًا يوحي إليهم. جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إِنَّا لَمَّا أَثْبَتْنَا أَنَّ لَنَا خَالِقًا صَانِعًا مُتَعَالِيًا عَنَّا، وَعَنْ جَمِيعِ مَا خَلَقَ، وَكَانَ ذَلِكَ الصَّانِعُ حَكِيمًا، لَمْ يَجُزْ أَنْ يُشَاهِدَهُ خَلْقُهُ، وَلَا أَنْ يُلَامِسُوهُ، وَلَا أَنْ يُبَاشِرَهُمْ، وَيُبَاشِرُوهُ، وَيُحَاجَّهُمْ، وَيُحَاجُّوهُ، ثَبَتَ أَنَّ لَهُ سُفَرَاءَ فِي خَلْقِهِ وَعِبَادِهِ، يَدُلُّونَهُمْ عَلَى مَصَالِحِهِمْ، وَمَنَافِعِهِمْ، وَمَا بِهِ بَقَاؤُهُمْ، وَفِي تَرْكِهِ فَنَاؤُهُمْ فَثَبَتَ الْآمِرُونَ وَالنَّاهُونَ عَنِ الحَكِيمِ الْعَلِيمِ فِي خَلْقِهِ، وَثَبَتَ عِنْدَ ذَلِكَ أَنَّ لَهُ مُعَبِّرِينَ، وَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَصَفْوَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ، حُكَمَاءَ مُؤَدَّبِينَ بِالْحِكْمَةِ مَبْعُوثِينَ عَنْهُ، مُشَارِكِينَ لِلنَّاسِ فِي أَحْوَالِهِمْ عَلَى مُشَارَكَتِهِمْ لَهُمْ فِي الخَلْقِ، وَالتَّرْكِيبِ مُؤَدِّينَ مِنْ عِنْدِ الحَكِيمِ الْعَلِيمِ بِالْحِكْمَةِ..**»[٢].

٤- حاجة البشر إلى المنهاج:

لا ريب أن في العالم أشياءً نافعة وأخرى ضارة، وفيه عمل ينبغي القيام به وآخر يجب تركه. ودون أن نعرف الذي ينفع و الذي يضر لا نتمكن من تحقيق السعادة؛ ذلك لأنه قد نعمل ما يُضر فنشقى وقد نترك ما ينفع فنشقى أيضًا -ولا ريب في هذا أيضًا-، ومهما أوتي البشر من علم وحكمة لا يكفي لمعرفة كل ما نحتاج إليه من خير وشر وصالح وفاسد.

إن معرفة هذا الأمر تحتاج إلى معرفة ما في الكون وما في النفس من نظم متماسكة، والآن حيث بلغ العلم ما بلغ لا يزال يُصرِّح بعض من هو أعرف الناس بالثقافة بعجز الإنسان عن الإحاطة بعشر معشار ما في النفس وما في الآفاق من أسرار مدهشة.

يقول نيوتن -وهو من أكبر المكتشفين-: إن نسبة معرفتنا إلى الواقع ليست إلّا كنسبة القطرة إلى البحر.

ويقول ابن سينا -وهو من أكبر الفلاسفة الأقدمين- بعد أن سئل ماذا عرفت؟: عرفت أني لم أعرف شيئًا،...

---

(١) بحار الأنوار: ج٩، ص٢٦٥.

(٢) بحار الأنوار: ج١٠، ص١٦٤.

ولا يأمـل أحـد من العلماء اليوم أن يبلـغ العلم يومًا إلى الإحاطة بـها في الكون كله. وحسب تعبير بعض الفلاسفة المعاصرين: العلم مركبة في فضاء لا تحدّ!.

ويقول الكسيس كاريل، وهو من أكبر العلماء الذين يتمتع بمختلف جوانب الثقافة الحديثـة، وأحرز جائزة نوبل، وهو يسـتعرض بعض جوانب الجهل بحياة الإنسـان: «لقد بـذل الجنس البشري مجهودًا جبّارًا لكي يعرف نفسـه، ولكن بالرغم من أننـا نملك كنزًا مـن الملاحظة التي كدّسـها العلماء والفلاسـفة والشـعراء وكبار العلـماء الروحيين في جميع الأزمان؛ فإننا استطعنا أن نفهم جوانب معينة فقط من أنفسنا.

إننا لا نفهم الإنسان ككل. وواقع الأمر أن جهلنا مطبق، فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسـهم أولئك الذين يدرسـون الجنس البشري تظل بلا جواب؛ لأن هناك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنية ما زالت غير معروفة. ثم يقول: فالعقل يتصف بعجز طبيعي عن فهم الحياة.

إن هـذه الشـهادة ذات قيمـة علمية بالغـة إذا لوحظـت أنها تأتي متزامنة مع شـعور متزايد باكتفاء الإنسان عن الوحي.

ويقول الأسـتاذ ج. و. ن. سـولفيان: إن الكون الذي كشـفه العلم الحديث هو أكثر غموضًا وإبهامًا من التاريخ الفكري بأكمله. ولا شك في أن علمنا عن الطبيعة أكثر غزارة مـن أي عـصر مضى، ولكـن هذه المعلومـات كلها غير مُقنعـة، فنحن نواجـه اليوم الإبهام والمتناقضات في كل ناحية.

فلابد للبشر -إذًا- من هادٍ عالم حكيم محيط بالكون كله وليس ذلك إلّا الله سبحانه، وكان على الله أن يرسل من لدنه أنبياء ينقلون إليهم أوامره وإرشاداته وإلّا لم يفلح الإنسان في الحياة، ولم تتم ما خلق له وهي السعادة، ولزم اللغو في صنع الله المتعالي عن اللغو.

قال الله سـبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

في الحديـث عـن الإمام الرضا عليه السلام: «**فَـإِنْ قَالَ: فَلِـمَ وَجَبَ عَلَيْهِمْ مَعْرِفَةُ الرُّسُـلِ وَالْإِقْرَارُ بِهِمْ وَالْإِذْعَانُ لَهُمْ بِالطَّاعَةِ؟**.

---

(١) سورة الجمعة، آية: ٢. في هذه الآية يجعل الله تعالى أحد أسباب البعثة تعليم الحكمة، وهي معرفة المصالح العامة التي ينبغي أن تُتَّبع.

قِيلَ: لِأَنَّهُ لمَّا لَمْ يَكُنْ فِي خَلْقِهِمْ وَقُوَاهُمْ مَا يُكْمِلُوا [يُكْمِلُونَ] لِمَصَالِحِهِمْ، وَكَانَ الصَّانِعُ مُتَعَالِيًا عَنْ أَنْ يُرَى، وَكَانَ ضَعْفُهُمْ وَعَجْزُهُمْ عَنْ إِدْرَاكِهِ ظَاهِرًا؛ لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ رَسُولٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ مَعْصُوم يُؤَدِّي إِلَيْهِمْ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ وَأَدَبَهُ، وَيَقِفُهُمْ عَلَى مَا يَكُونُ بِهِ إِحْرَازُ مَنَافِعِهِمْ وَدَفْعُ مَضَارِّهِمْ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ فِي خَلْقِهِمْ مَا يَعْرِفُونَ بِهِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ [مِنْ] مَنَافِعِهِمْ وَمَضَارِّهِمْ، فَلَوْ لَمْ يَجِبْ عَلَيْهِمْ مَعْرِفَتُهُ وَطَاعَتُهُ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي مَجِيءِ الرَّسُولِ مَنْفَعَةٌ وَلَا سَدُّ حَاجَةٍ، وَلَكَانَ إِتْيَانُهُ عَبَثًا لِغَيْرِ مَنْفَعَةٍ وَلَا صَلَاحٍ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ صِفَةِ الحَكِيمِ ﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾..»(١).

٥- القضاء على خلافات البشر:

الاختلاف ظاهرة طبيعية للبشر في كل الشؤون وفي كل العصور وبين كل الناس، ورغم ما كتب الفلاسفة -قديمًا وحديثًا- من كتب في المنطق لإزالة الاختلاف الذي يُقلق الإنسان(٢) فإنه لا يزال هذا الاختلاف قائمًا، وقد سبَّب كثيرًا من المشاكل بل وكثيرًا من الويلات، فالحروب التي تشتعل بين فترة وأخرى وتُفني الحرث والنسل ليست إلَّا بعض نتائج هذا الاختلاف، فكان لزامًا أن يقضي الله سبحانه على هذا الاختلاف ويريح البشر من هذا العامل الخبيث من عوامل الشقاء، من أجل ذلك كان عليه أن يبعث أنبياء لكي يقضوا على الخلافات البشرية بما يوحى إليهم من حكم وعلم من قبل الله الذي لا يرقى إلى حكمه الريب ولا يحتمل منه الجهل أو الخطأ.

قال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾(٣).

٦- ضرورة النظام للإنسان:

الإنسان يأنس إلى الإنسان بصورة طبيعية ويجتمع إليه ويتعاون معه، ولكل تعاون نظام؛ فلولاه يغتدي الاجتماع ليس فقط تافهًا وغير مفيد، بل ويكون باعثًا على الشقاء أيضًا. فمن يضع هذا النظام العادل الذي يضمن سعادة الجميع؟.

ليس ذلك في استطاعة الإنسان إذ لابد أن تتوفر شروط ثلاثة لمن يضع النظام:

---

(١) بحار الأنوار: ج١١، ص٤٠.
(٢) فيما أعلم إلى الآن أكثر من عشرة نظريات حول المنطق وما به يرفع الناس خلافاتهم الفكرية والعملية.
(٣) سورة النحل، آية: ٦٤.

ألـف: أن يحيط علمًا بكل ما في الحياة من خير وشر، وبمعرفة مدى تأثير أعمال الفرد في إسعاده أو إشقائه ليس في الدنيا فقط بل وفي الآخرة أيضًا. ولم يأت إلى الحياة فرد أو طائفة ادَّعو هذا العلم.

بـاء: أن يتجرد عن كل هوى حتى لا يُفضِّل مصلحته أو مصلحة طبقته على المصالح العامة. وهذا لا يمكن أن يتحقق لأي بشر؛ إذ إن أفضلهم لا يخلو من التأثر بميوله وشهواته كما نشاهد ذلك في بني الإنسان جميعًا ويجده كل منا في نفسه، فما أن تعرض قضية ترتبط بمصلحة البشر حتى تختلف الأفكار فيها بسبب اختلاف المصالح.

جيـم: أن تكون له إرادة قوية تُعطيه الاستقامة التامة في سبيل تطبيق الحق الذي يحمله إلى الناس، ذلك لأنهم لا يفقهون أن في مصلحتهم تطبيق الحق فيثورون ضد الحق وضد كل من يدعو إليه، فلابد أن يكون للمبشر بالنظام الحق من الاستقامة ما يقابل هذه المقاومة ويزيد. ومن الواضح أن هذه الاستقامة لا توجد إلَّا عند من يُؤيَّد من لدن الله؛ ذلك لأن الفرد مهما كان نافذ العزيمة قوي الإيمان فإنه ينهار عند اختلاف النكبات عليه.

لهذه الأسباب الثلاثة لم تتمكن البشرية من وضع نظام صالح كامل عبر آلاف السنين، أي منذ أن سن حمورابي نظمه وحتى القوانين الغربية و الشرقية الأخيرة، رغم كل المحاولات المبذولة في هذا السبيل.

وبما أن البشر عاجز عن وضع هذا النظام وهذا النظام، ضرورة لسعادة الإنسان وقد خلق الله البشر ليسعدوا، كان على الله سبحانه أن يضع لهم نظام الحياة ويبعث ذلك على يد من يتحمل مسؤولية ذلك. ومن الواضح أن الله سبحانه لا يتأثر بالمصلحة ولا بالجهل ولا يبعث من يعجز عن تحمل مسؤولية الرسالة، بل لا يكون المبعوث إلَّا معصومًا[١].

قال الله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾[٢].

وفي حوارٍ جرى بين هشام بن الحكم تلميذ الإمام الصادق عليه السلام ورجل شامي (ماديّ)، قال له هشام:

---

(١) قال الله سبحانه: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾. سورة الجن، آية: ٢٧.

(٢) سورة النساء، آية: ١٠٥.

«يَا هَذَا! أَرَبُّكَ أَنْظَرُ[١] لِخَلْقِهِ أَمْ خَلْقُهُ لِأَنْفُسِهِمْ؟.

فَقَالَ الشَّامِيُّ: بَلْ رَبِّي أَنْظَرُ لِخَلْقِهِ!.

قَالَ: فَفَعَلَ بِنَظَرِهِ لَهُمْ مَاذَا؟

قَالَ: أَقَامَ لَهُمْ حُجَّةً وَدَلِيلًا كَيْلَا يَتَشَتَّتُوا أَوْ يَخْتَلِفُوا، يَتَأَلَّفُهُمْ وَيُقِيمُ أَوَدَهُمْ، وَيُخْبِرُهُمْ بِفَرْضِ رَبِّهِم..»[٢].

وَجَاءَ فِي عِلَلِ الْفَضْلِ عَنِ الرِّضَا عليه السلام: «**فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: لِمَ أَمَرَ اللهُ الْخَلْقَ بِالْإِقْرَارِ بِاللهِ وَبِرُسُلِهِ وَحُجَجِهِ وَبِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؟.**

قِيلَ: لِعِلَلٍ كَثِيرَةٍ مِنْهَا أَنَّ مَنْ لَمْ يُقِرَّ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَجْتَنِبْ مَعَاصِيَهُ وَلَمْ يَنْتَهِ عَنِ ارْتِكَابِ الْكَبَائِرِ وَلَمْ يُرَاقِبْ أَحَدًا فِيمَا يَشْتَهِي وَيَسْتَلِذُّ مِنَ الْفَسَادِ وَالظُّلْمِ، فَإِذَا فَعَلَ النَّاسُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ وَارْتَكَبَ كُلُّ إِنْسَانٍ مَا يَشْتَهِي وَيَهْوَاهُ مِنْ غَيْرِ مُرَاقَبَةٍ لِأَحَدٍ؛ كَانَ فِي ذَلِكَ فَسَادُ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ وَوُثُوبُ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، فَغَصَبُوا الْفُرُوجَ وَالْأَمْوَالَ، وَأَبَاحُوا الدِّمَاءَ وَالنِّسَاءَ، وَقَتَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا مِنْ غَيْرِ حَقٍّ وَلَا جُرْمٍ، فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ خَرَابُ الدُّنْيَا وَهَلَاكُ الْخَلْقِ وَفَسَادُ الْحَرْثِ وَالنَّسْلِ.

وَمِنْهَا: أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ حَكِيمٌ. وَلَا يَكُونُ الْحَكِيمُ وَلَا يُوصَفُ بِالْحِكْمَةِ إِلَّا الَّذِي يَحْظُرُ الْفَسَادَ، وَيَأْمُرُ بِالصَّلَاحِ، وَيَزْجُرُ عَنِ الظُّلْمِ، وَيَنْهَى عَنِ الْفَوَاحِشِ. وَلَا يَكُونُ حَظْرُ الْفَسَادِ وَالْأَمْرُ بِالصَّلَاحِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْفَوَاحِشِ إِلَّا بَعْدَ الْإِقْرَارِ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَعْرِفَةِ الْآمِرِ وَالنَّاهِي. فَلَوْ تُرِكَ النَّاسُ بِغَيْرِ إِقْرَارٍ بِاللهِ وَلَا مَعْرِفَتِهِ لَمْ يَثْبُتْ أَمْرٌ بِصَلَاحٍ، وَلَا نَهْيٌ عَنْ فَسَادٍ إِذْ لَا آمِرَ وَلَا نَاهِيَ.

وَمِنْهَا: أَنَّا وَجَدْنَا الْخَلْقَ قَدْ يُفْسِدُونَ بِأُمُورٍ بَاطِنِيَّةٍ مَسْتُورَةٍ عَنِ الْخَلْقِ؛ فَلَوْلَا الْإِقْرَارُ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَخَشْيَتُهُ بِالْغَيْبِ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ -إِذَا خَلَا بِشَهْوَتِهِ وَإِرَادَتِهِ- يُرَاقِبُ أَحَدًا فِي تَرْكِ مَعْصِيَةٍ، وَانْتِهَاكِ حُرْمَةٍ، وَارْتِكَابِ كَبِيرَةٍ إِذَا كَانَ فِعْلُهُ ذَلِكَ مَسْتُورًا عَنِ الْخَلْقِ، غَيْرَ مُرَاقَبٍ لِأَحَدٍ، وَكَانَ يَكُونُ فِي ذَلِكَ هَلَاكُ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ؛ فَلَمْ يَكُنْ قِوَامُ الْخَلْقِ وَصَلَاحُهُمْ إِلَّا بِالْإِقْرَارِ مِنْهُمْ بِعَلِيمٍ خَبِيرٍ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، آمِرٍ بِالصَّلَاحِ، نَاهٍ عَنِ الْفَسَادِ، وَلَا تَخْفَى

---

(١) أَنْظَرُ: أصوب نظرًا.

(٢) الأصول من الكافي: ج١، ص١٧١.

عَلَيْهِ خَافِيَةٌ؛ لِيَكُونَ فِي ذَلِكَ انْزِجَارٌ لَهُمْ عَمَّا يَخْلُونَ بِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الْفَسَادِ..»(١).

٧- ضرورة التزكية:

كل فرد يجد في نفسه الكفاءة التامة للرقي إلى أسمى مراتب التزكية النفسية وأرفع مستويات الثقافة الإلهية وما تتبعها من معرفة النفس والخلق، أصله ومصيره، وواقع الكون وأجزائه، والعلاقة التي تربط بعضها بالبعض الآخر.

ورغم بحث الإنسان عن هذه الحقائق منذ نشوئه وحتى اليوم بحثًا مستمرًا فإنه عجز عن تحقيق أي تقدُّم في هذا المجال، حتى أن النظريات الحديثة -ونحن نعيش في عصر الذرة والفضاء- لتتشابه مع نظريات الفلاسفة الإغريق الذين سبقونا بألفي عام فأكثر(٢).

واذا ثبت عجز البشر عن بلوغ هذا المستوى الرفيع من التزكية والمعرفة فلابد أن يبعث الله من يُعلِّم البشر ويُزكِّيهم وهم الأنبياء عليهم السلام، قال الله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾(٣).

وجاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله: **«إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»**(٤).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: **«أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمَّا خَلَقَ خَلْقَهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونُوا عَلَى آدَابٍ رَفِيعَةٍ وَأَخْلَاقٍ شَرِيفَةٍ، فَعَلِمَ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا كَذَلِكَ إِلَّا بِأَنْ يُعَرِّفَهُمْ مَا لَهُمْ وَمَا عَلَيْهِمْ، وَالتَّعْرِيفُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ...»**(٥).

---

(١) بحار الأنوار: ج٣، ص١٠. على الرغم من أن هذه الرواية تشير إلى بعض فوائد الإيمان فإن فيها نبذة من دواعي ابتعاث الأنبياء عليهم السلام، وتتلخَّص في منع الفساد الناجم عن الظلم الاجتماعي.

(٢) سبق الحديث حول ذلك حيث بحثنا عن دور العقل في توجيه الحس.

(٣) سورة الجمعة، آية: ٢.

(٤) بحار الأنوار: ج١٦، ص٢١٠.

(٥) بحار الأنوار: ج٥، ص٣١٦.

الامام عليه السلام أشار إلى ثلاثة حقائق تهدي إلى وجوب الرسالة وهي:

أولًا: إن الله أراد للبشر أن يكونوا على أحسن الآداب. وهذا أمر وجداني إذ إن الله كامل فلا يحب إلَّا الذي يتصف بالصفات الحسنة.

ثانيًا: إن الطبيعة البشرية لا يمكن أن تبلغ بالإنسان الأدب الرفيع بدون معلم يعلمهم ذلك.

وإن التعليم لابد له من وسيلة وهي تتحقق في التشريع وهو الأمر والنهي. وهذه الحقيقة **الثالثة** هي التي أشار إليها الإمام عليه السلام.

٨- إعادة توازن الحياة:

تـدل حوادث التاريـخ أنه بين فترة وأخـرى كانت الفوضى تعمُّ حياة الإنسـان على الكوكـب، فـكان الله سـبحانه يبعث إليهم رسـلًا يعيدون الإنسـان إلى وعيـه وإلى صراط مسـتقيم. وتاريخ الرسالات شـاهد واضح على هذه الحقيقة. فإنا نرى أن ابتعاث الرسول كان متزامنًـا مـع طغيـان البـشر في كل ناحيـة من نواحي حياتـه، حيث كان قد شـاع فيهم الظلـم، وانتشر الفسـاد، واختلـت الموازين، وافتُقِـدت القيم، ولم يبقَ من منهج السـماء في الأرض إلَّا شيء قليل، وكانت القوى البشرية عاجزة تمامًا عن إصلاح الوضع.

ومع أن كل الناس كانوا ينشـدون الخلاص فإنه لم يكن يسـتطيعه أي شـخص وأية فئـة وأية فكـرة، وهنا كان الغيـب، يتدخَّل ليُنقذ حيـاة البشر، ويُخلِّصه مـن تيهه وضلاله، وكان ضروريًّا أن يتدخَّل الغيب؛ ذلك لأن الله سبحانه لم يخلق الإنسان إلَّا ليسعد في الدنيا ويفلـح في الآخـرة، ولم يكن ممكنًا -في ظل تلك الظروف- التمتع بالسـعادة لأي فرد دون تدخُّل إلهي وبعث الرسل.

٩- التبشير و الإنذار:

إن الله قـد جعل الدنيا دار بلاء واختبار، وجعـل الآخرة دار جزاء وثواب[١]، وكان مـن تمـام النعمة عليهم أن يبعث مـن يُبشِّرهم بالجنة التي أُعدت للمتقـين، ويُنذرهم بالنار التي أُعدت للكفارين والفاسـقين، ويُبيِّن لهم ما يتقون عنه من السيئات. ولولا ذلك لكان للناس عليه الحجة البالغة، وكانوا يقولون: ربنا لولا أرسـلت إلينا رسولا فنتبع آياتك فإن كنت قد بعثته إلينا لكنَّا من المهتدين. ثم إن سـعادة الإنسـان في الآخرة تفوق أهمية سعادته في الدنيا؛ ذلك لأن الآخرة تدوم والدنيا تزول، وقليل يدوم أفضل من كثير يزول. ألم يكن إذًا من حكمة الله ورحمته الواسعة أن يبعث من يهدي الناس إلى السبل الموصلة إلى الجنة؟.

قال الله سبحانه: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[٢].

هذه طائفة من الحِكَم التي أرسل الله من أجلها الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وفيها الشهادة الكافية على الحاجة إلى الرسـول أيضًا؛ لأنه لابد للبشر من إنسـان يقودهم إلى الحق حتى يستجيبوا

---

(١) راجع فصل المعاد.
(٢) سورة الأنعام، آية: ٤٨.

له. أما إذا نزلت الرسالة على شكل ألواح بين الناس فمن المؤكد إلَّا يفيد شيئًا، كيف وقد جاء الرسل بالرسالة فلم يُؤمن الناس بهم إلَّا قليل.

بماذا يعرف الرسول؟

هناك عدة وسائل يعرف الناس بها الرسول، ونحن إذ نشير إليها لا يُمكننا أن ندَّعي أنها كل الطرق الممكنة إلى معرفة الرسول، بل لعله توجد وسائل أخرى إلى هذه المعرفة.

١- الرسالة:

لقد سبق آنفًا أن هناك عدة أسباب تدعو إلى الرسالة والتي لا يُفلح البشر من دونها، وعرفنا بها أن الرسالة واجبة، كما عرفنا أنها هي الغاية من بعث الرسول. ومن هنا نعرف أنه لابد لكل رسالة من الإحاطة بحاجات الناس ووفائها بها؛ إذ إن أي رسالة لا تفي بهذه الحاجات لا يمكن أن تكون من عند الله. إذ إن الله ليس بعاجز عن توفير كل ما يحتاج إليه الإنسان، ورحمته لا تضيق عن ذلك، فعدم توفرها في رسالة دليل على عدم صحتها، كما أن توفرها من حيث المجموع دليل على أن الرسالة من عند الله سبحانه؛ لأنه لم يأت من البشر أحد ادَّعى أنه جاء إليهم بكل هذه الحقائق التي يحتاج الإنسان إليها[1]، ولأنه لا يمكن لبشر عادي أن يأتي من عند نفسه بكل ذلك.

٢- الرسول:

إن شخصية الرسول وما لها من صفات حميدة، حجة أخرى على صدق رسالته. فإذا عُرِفَ بالطهارة من كل دنس والتعالي عن كل رذيلة، لا يستهويه عن الحق منصب ولا يستدرجه إلى الباطل مأثم، رأيناه يدَّعي أنه رسول من عند الله عالمًا بأن ادِّعاءه هذه المرتبة

---

(١) والسبب المعقول لذلك أن أحد الوجوه التي ذكرناها لضرورة الرسالة هو التذكير بالله سبحانه، وما التذكير بالحق، ولا يُذكِّر بالله إلَّا من يعتقد به ويُديم ذكره، كما لا يُذكِّر بالحق إلَّا من يعمل به، وغير الأنبياء لا يريدون أن يلزموا أنفسهم بالحجة إذ ما أن يُذكِّروهم بها حتى يُطالبهم الناس بالعمل بما يقولون؛ ولهذا فإن أحدًا منهم لم يدَّع ذلك. فالفلاسفة لم يقولوا: إنهم جاؤوا من قبل الله وإن كُلًّا منهم يُصدِّق من سبقه ويُصدِّقه من لحقه، ولا إنهم جاؤوا مبشرين ومنذرين. والمصلحون سواء السياسي منهم أو الاجتماعي أو الاقتصادي لم يدَّعوا أن إصلاحهم شامل لجميع مناحي الحياة الفكرية والعملية في دار الدنيا وفي الآخرة، بل كانوا بين منكر للحشر والمعاد وبين من حصر إصلاحه على ناحية واحدة من الحياة، ثم إن أحدًا منهم لم يدَّع أنه جاء من عند الله تعالى. وقد سبق أنه يجب أن يكون النبي من عند الله. ولقد أوضحنا ذلك عند بيان الحاجة إلى الرسالة وكيف أن البشر عاجز بذاته عن تحقيقها.

لو لم يكن مالكها ظلم عظيم لنفسه وللناس أجمعين. إذا عُرِفَ الرسول كذلك عُرِفَ أنه رسول الله حقًّا. قال الله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾[(١)].

وقال سبحانه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[(٢)].

وقال عزوجل: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾[(٣)].

وجاء في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**اعْرِفُوا اللهَ بِاللهِ، وَالرَّسُولَ بِالرِّسَالَةِ..**»[(٤)].

---

(١) سورة المؤمنون، آية: ٦٩.

(٢) سورة هود، آية: ٨٨. لقد استدل النبي هود عليه السلام في هذه المقطوعة، التي ينقلها القرآن بحجج بليغة على صدق رسالته، وهي بالترتيب التالي: (إن لي بينة من ربي) وهي المعجزة التي كانت معه، وإن الله قد نفعني بالرسالة فرزقني بها السعادة والفلاح. لقد سبق أن الرسالة الإلهية تُسعد الإنسان في الدنيا كما تُسعده في الآخرة، ثم إني أول عامل بما أقول وفي هذا دليل صدق دعواي؛ إذ إن الكاذب لا يعمل بما يقول، وإني أريد الإصلاح فلست رجلًا استغلاليًّا، وإني أجهد نفسي بخوض المعركة دون أن أعتمد على قوة ظاهرية، والفرد الذي يعمل هذا العمل إما مجنون وأنتم ترونني رشيدًا وإما أعتمد على قوة هي أكبر من قوة الأرض وهي قوة الله تعالى الذي عليه توكلت، وليس في عملي علامة السفه أو الطيش حتى أُنسب إلى الكذب، والكاذب لا يُكذِّب إلَّا لأنه يُقدِّم مصلحته الخاصة، أما أنا فإنني رجل مُنيب قد قتلت هواي وأخضعت نفسي لتوجيه عقلي. وتدل هذه الآية على أن الله كان ينصر رسله بطرق غيبية، وهي الحجة البالغة على صدقهم.

(٣) سورة الأعراف، آية: ٨٥-٨٧.

هذه الآية المباركة نموذج خارجي لواقع دعوة الأنبياء عليهم السلام، ذلك لأن شعيبًا أمر قومه بما ينظم جميع نواحي حياتهم، فأمرهم أولًا بعبادة الله الواحد، ثم أمرهم بالعدل الاجتماعي وما يستتبعه من ضبط المكيال والميزان، والوفاء بالحقوق، والانتهاء من كل فساد، وعدم التآمر على الدولة الحقة لسرقة الحكم ظلمًا، ثم أمرهم بالتذكّر والاعتبار وهما توجيهان إلى العقل، ثم أمرهم بالصبر وهو تزكية للنفس. هذه هي الخطوط الرئيسية التي سار عليها كل الأنبياء، وهي بالذات ما سبق وأن قلنا: إنها وجوه الحاجة إلى الرسالة والرسول.

(٤) بحار الأنوار: ج٣، ص٢٧٠.

٣- الآيات:

ويُعـرف الرسـول بالآيـات البينات التـي يحكم العقل السـليم بأنها ليسـت من صنع البشر، وذلك مثل ناقة صالح عليه السلام، وتحوُّل النار بردًا وسـلامًا على إبراهيم عليه السلام، وعصى موسـى عليه السلام التي التقفت حبال السـحرة ثم ردها الله إلى سيرتها الأولى، وما كان يشعّ من يده من نور، وانفلاق البحر له اثني عشر قسمًا، وتكلم عيسى في المهد صبيًّا، وإحيائه الموتى وإبرائه الأكمه والأبرص -بإذن الله- وما أشبه ذلك من الآيات.

٤- الفطرة:

جـاء في الحديث عن الإمام علي عليه السلام: «**إِنَّ عَـلَى كُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةً، وَعَلَى كُلِّ صَوَابٍ نُورًا**..»(١). والواقع لا يحتاج الفرد إلى ذكاء خارق حتى يعرف مدى صدق دعوة إصلاحية معينة. إن ذات كل دعوة من هذا القبيل شاهدة على صدقها، فإن مقاومة الظلم والجريمة، ومحاربـة السـلبية والميوعـة، ونصرة المعدمـين والضعفاء، هي دلائل صـدق الدعوة، وهي أمور تعرفها فطرة كل إنسان التي لا تشك في أن مثل هذه الدعوة صادقة.

فالفطرة تُثبت صدق الرسول في دعوته؛ لأنها تنسجم مع معطيات الفطرة ذاتها.

وتزداد هنا المعرفة وضوحًا وعمقًا كلما ازداد الفرد تفاعلًا معها وممارسـة عملية لها؛ إذ يبدأ آنذاك بملامسة الواقع بصورة مباشرة.

٥- شهادة أمته:

وتأتي شـهادة أمته أكبر حقيقة يشـعر بها المؤمنون المخلصون برسـالة الرسـول. ولا تنحصر شـهادة أمته في بعث الآيات التي تدعم رسـالة النبـي صلى الله عليه وآله وسلم، ولا تنحصر أيضًا في صدق نبوءات الرسـول واسـتجابة دعواته، وانتصاره الخارق على أعدائه، بل تعمّ أكثر من ذلك حتى تشـمل نوعًا من الإلهام الشـخصي الذي يمنُّ به الله سبحانه على كل فرد حسب أهليته وبطريقة مناسبة له.

---

(١) بحار الأنوار: ج٢، ص٢٢٧.

٥ ٢ - محمد ﷺ رسول الله

كيف يمكن أن نثبت رسالة رسول الإسلام ﷺ؟.

إن طريقة إثبات رسالة الرسول متشابهة مع طرق إثبات سائر الرسالات التي سبقت الإشارة إليها، ولكن بالإضافة إلى دليل آخر هو ما بشَّر به الأنبياء عليهم السلام السابقون أممهم[١].

١- الرسالة:

إن رسالة الرسول محمد ﷺ نفسها شاهدة على أنها من عند الله؛ ذلك لأن الرسالة المحمدية لا تفي بكل الحاجات البشرية فقط، بل إنها أيضًا أكمل الرسالات وفاءً بها. أليس الإسلام يذكّر بنور العقل؟[٢]، أَوَلم يكن النبي ﷺ يهدي الناس إلى ربهم ويُذكّرهم بما له من نعماء، ثم يُبيِّن لهم ما يُرضيه وما يُسخطه من عقيدة وعمل وخُلق؟.

أَوَلم يكن يُبيِّن لهم الحكمة ويُبيِّن لهم ما يُصلحهم وما يضرهم، ويُزكّي الناس ويُربّيهم على مكارم الأخلاق؟[٣].

---

(١) سيأتي شرح ذلك فيما يلي من الفصول.

(٢) قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (سورة الحج، آية: ٤٦).

وفي الحديث: «تَفَكُّرُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سَنَةٍ» (مستدرك الوسائل: ج١١، ص١٨٣). ومن الممكن أن نجعل تذكرة الإسلام بنور العقل دليلًا كافيًا على أن الإسلام هو الدين الحق؛ ذلك لأننا نعلم أن أنصار الباطل يحاولون إبعاد الناس عن التعقل لكي يضعوهم في معزل عن التدبر في الكون تدبرًا منهجيًّا عقلانيًّا لأنه سيقضي على باطلهم، بينما يحاول المحقون تنشيط عقول الناس حتى يُبصروا الواقع بأنفسهم.

(٣) قال الله تعالى في صفة الرسول: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (سورة الجمعة، آية: ٢).

هذه رسالة محمد بن عبد الله ﷺ التي نزلت عليه من ربه. أليست تكفي البشر من كل النواحي التي يعجز الإنسان نفسه عن تأمينها، ويُرشد العقل إلى وجوب ابتعاث النبي بها؟ وقد جاء الرسـول بها كاملة من عند الله ونحن نعلم أنه لا يملك أن يأتي أحد برسـالة من نفسه تكفي الناس من كل الوجوه السابقة مهما كان عظيم الفكر واسع المعرفة.

فحيث جاء الرسول بها وقال إنها من عند الله تعالى، عرفنا صدقه فيها، وهكذا نجد في القرآن الكريم استدلالًا على صدق الرسول بحقيقة رسالته:

يقول الله سبحانه:

- ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾(١).
- ﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾(٢).
- ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾(٣).

فهذه هي الخطوط العامة لكل رسالة، وهي بالتالي الحاجات الضرورية للبشر.

وقد اعترف المستشرق (ليتن) برسـالة النبي محمد ﷺ عن طريق شهادة محتوياتها فقـال: «إنني لأجرؤ بـكل أدب أن أقول: إن الله الذي هو مصـدر الخير والبركات كلها لو كان يوحـي إلى عبـاده، فدين محمد ﷺ هو دين الوحي. ولو كانت آيات الإيثار والأمانة والاعتقاد الراسـخ القوي ووسائل التمييز بين الخير والشر ودفع الباطل هي الشاهدة على الإلهام فرسالة محمد ﷺ هي هذا الإلهام»(٤).

(١) سورة إبراهيم، آية: ١.
(٢) سورة إبراهيم، آية: ٥٢.
(٣) سورة النحل ٨٩.
هذه الآيات وإن كانت في الظاهر تبيانًا للحقيقة فقط ولكنها في الواقع دليل عليها أيضًا؛ إذ إنها تشرح واقع رسالة الرسول ﷺ. فهي قد أُوحيت على شكل كتاب مُنزل من عند الله يهدي الناس من الظلمات إلى النور، وهو بلاغ ونذير للبشر، وتذكير بالله، وإثارة لدفائن العقول، وتوجيه للفكر، وإنهاء للخلافات البشرية، وتبيان لكل شيء يحتاج إليه الإنسان في الحياة، ثم هو هدى للمؤمنين، وبشرى للمسلمين بصفة عامة لا طائفة دون أخرى وشعب دون آخر بل لمن اتصف بالإيمان والإسلام من كان وأنّى كان. ومن الواضح أن هذه هي الصفات التي يهدينا العقل إلى ضرورة توفرها في الرسالة أية رسالة ولا يمكن أن تتوفر في غيرها. فرسالة الرسول رسالة حقة ما دامت تنطوي على هذه الحقائق جميعًا، فالآيات شاهدة على صدق الرسالة عن طريق بيان ما توفرت فيها.
(٤) الإسلام يتحدى، ص١٧٦.

٢- الرسول:

من خلال سيرة الرسول ﷺ منذ أن كان يافعًا يعزف عن اللهو، أو كان فتى يرعى تجارة خديجة فيلتزم بالصدق والأمانة، أو كان رجلًا يتميَّز بين أترابه بأنه يقبل الغريب ويرحم الضعيف ويؤوي المسكين، وإلى أن بُعث نبيًّا يحمل بين كفيه النور والهدى إلى العالم كله، وحتى أصبح سيد العرب جميعًا من خلال سيرته في سِنِيّ عمره وأطوار حياته، لم يعهد منه معاصروه الكذب والخيانة فسموه (الصادق الأمين)، فلم يستطيعوا نعته بالكذب حتى بعد أن بُعث بالرسالة وسفَّه أحلام قريش وقاد الحروب ضدها. رأوا فيه إنسانًا يزهد في الدنيا ويرغب في الآخرة ويتجنَّب الرذائل ويتحلَّى بالفضائل. هذا محمد بن عبد الله ﷺ الذي أُعجب به من عاصره -العدو والصديق- وأُعجب به من جاء بعده -من عدو وصديق-؛ هذا الإنسان ادَّعى النبوة وكان يعرف أبعاد دعواه، وهي أن من يدعو إلى النبوة فهو يدعو إلى الله ويدَّعي الاتصال به والبعثة من لدنه إلى الناس جميعًا في كل العصور[1].

كما كان يعرف بكل دقة أن الذي يدَّعي النبوة كَذِبًا فإنما هو أخبث الناس وأظلمهم لنفسه وللناس جميعًا؛ لأنه يُغرِّر بالناس ويخدعهم ويبعدهم عن الصراط المستقيم[2]، ذلك لأنه ينسب الكذب إلى الله رب العالمين ويتسلَّم قيادة الناس جميعًا وفي كل العصور، فإن كان غير كفؤ لها جرَّهم إلى الردى ليس في عصره فقط بل على مر العصور، حيث إن اتِّباع هذا الرسول لا يقتصر على زمان حياته بل قد يدوم إلى الأبد، كما هي الحال في رسالة النبي محمد ﷺ. فمعنى كذب مُدَّعي الرسالة إضلال الملايين عن السعادة. إن هذا الظلم ما أعظمه وما أكبره. ولا يقدم على هذا الظلم إلَّا أخبث الناس الذي انسلخ عن كل قيمة إنسانية، فكيف يدَّعيه محمد بن عبد الله ﷺ الذي عرفناه بالصدق والأمانة؟!.

إن دعوى الرسول -هذا الصادق الأمين- لا تحتاج إلى حجة تدعم صحتها، بل

---

(١) كان النبي ﷺ يقول عن الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ (سورة يونس، آية: ٥٧). ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ (سورة الفرقان، آية: ٦)، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ (سورة النجم، آية: ٣-٤). هذه هي دعوة الرسول التي هتف بها منذ البداية، وهي تدل -فيما تدل- على أن الرسول كان على يقين بما يدعو إليه وما فيه من ضخامة المسؤولية.

(٢) قال الرسول ﷺ عن الله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ٦٩ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ (سورة يونس، آية: ٦٩-٧٠). تدل هذه الحكمة على أن الرسول كان يعرف بكل تأكيد أن الكذب على الله ظلم عظيم وخطيئة كبيرة جزاؤها عذاب أليم.

إنها شـاهدة بذاتها على أنها الحق الواضح. ذلـك أن محمدًا ﷺ صادق وأمين، والصادق يصـدق في كل أمـر كما أن الأمين أمين مع كل أحد. وليس بصادق من يصدق مرة ويكذب مرة، وليس بأمين من وفى مرة وخان أخرى، وحيث نُعِتَ الرسول بالأمانة والصدق فلابد أن المجتمـع كان قد رأى فيه تجسيدًا لهذه من الصفات الحسـنة، فكيف يكون كاذبًا في هذا الأمر الذي هو أهم الأمور جميعًا؟!.

ولقـد كان أهـل مكـة يأتمنـون النبي محمـدًا ﷺ على أموالهـم حتى بعدمـا كفروا برسـالته. فبعد أن اضطروه إلى الهجرة إلى المدينة كانـت لديه أمانات أمر وصيه الإمام عليًّا عليه السلام بردِّها لأصحابها.

ولقـد كانـت قريش أعدى أعدائـه وكانت تعترف له بصفة الأمانـة. فهذا النضر بن الحارث، وقد كان من سـادة قريش وأكـبر المعارضين للنبي ﷺ وكان يعد من المحنكين في مكـة، ألقى يومًا خطابًا في جمع مـن الكفار وقال: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! إنَّهُ وَالله قَدْ نَزَلَ بِكُمْ أَمْرٌ مَـا أَتَيْتُمْ لَهُ بِحِيْلَةٍ بَعْدُ، كَانَ مُحَمَّدٌ فِيْكُمْ غُلامًا حَدَثًـا، أَرْضَاكُمْ خُلْقًا وَأَصْدَقَكُمْ حَدِيْثًا وَأَعْظَمَكُمْ أَمَانَةً، حَتَّى إِذَا رَأَيْتُمْ فِيْ صِدْغَيْهِ الْشَّيْبَ وَجَاءَ بِمَا جَاءَكُمْ بِهِ قُلْتُمْ: سَاحِرٌ. لَا وَالله مَا هُوَ بِسَاحِرٍ، لَقَدْ رَأَيْنَا الْسَّحَرَةَ وَنَفْثَهُمْ وَعَقْدَهُمْ.

وَقُلْتُمْ: كَاهِنٌ. لَا وَالله مَا هُوَ بِكَاهِنٍ، لَقَدْ رَأَيْنَا الْكَهَنَةَ وَتَخَالُجَهم وَسَمِعْنَا سَجَعَهُم.

وَقُلْتُمْ: شَاعِرٌ، لَا وَالله مَا هُوَ بِشَاعِرٍ، لَقَدْ رَأَيْنَا الشِعْرَ وَسَمِعْنَا أَصْنَافَهُ كُلَّهَا هَزَجَهُ وَرَجَزَهُ.

وَقُلْتُمْ: مَجْنُوْنٌ، لَا وَالله مَا هُوَ بِمَجْنُوْنٍ، لَقَدْ رَأَيْنَا الْجُنُوْنَ فَمَا هُوَ بِخَنْقِهِ وَلَا وَسْوَسَتِهِ وَلَا تَخْلِيْطِهِ. يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! فَانْظُرُوْا فِيْ شَأْنِكُمْ فَإِنَّهُ وَالله لَقَدْ نَزَلَ بِكُمْ أَمْرٌ عَظِيْمٌ»(١).

ولم يـدَّع أحـد من قريش عـلى النبي محمـد ﷺ الكـذب والخيانـة إلَّا وهو متردد بالرغم من أنهم قالوا فيه أعظم من ذلك وأكبر، وكان السبب لتحرُّزهم من اتِّهامه بالكذب أو الخيانة أنها كانت تهمة لا تنسجم أبدًا مع المشهور من حياة النبي قبل الرسالة.

فلنسـمع إلى حوار جرى بين هرقل(٢) ملك الروم وبعض كفار قريش -بعدما تسلَّم هرقل رسـالة من النبي ﷺ يدعوه فيها إلى الإسـلام-، فسأل عمَّن يعرفه من أهل وطنه

(١) سيرة بن هشام، ج١، ص٣١٩.
(٢) راجع بحارالأنوار: ج٢٠، ص٣٧٨.

فجيء إليه ببعض التجار، فسألهم هرقل عمَّن هو أقربهم نسبًا بالرسول.

فقال هرقل: هل أنتم كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟.

أبو سفيان: لا.

هرقل: هل يغدر؟.

أبو سفيان: لا ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها.

هرقل: قد أعرف أنه لم يكن يذر الكذب على الناس ويكذب على الله.

وأبو سفيان هذا كان من أبرز المعارضين للرسول الذي قاد حروبًا ضارية ضده وألَّب عليه العرب جميعًا، ولكنه يقول فيه: إنه لم يكن كاذبًا، ويُبرِّر قولته بعدئذ بأنه «والله لولا الحياء من أن يأثروا عليَّ كذبًا لكذبت عليه».

إن هذا المبرر شاهد على السمعة الطيبة التي أحاطت بالنبي ﷺ وجعلت أعداءه يعترفون -رغمًا منهم- بصدقه وأمانته.

وبهذا الدليل يكتشف البروفيسور بورسورت سميث شخصية النبي ﷺ البالغة البهاء والروعة فيقول: عندما أُلقي نظرة إجمالية أستعرض فيها صفاته وبطولاته، ما كان منها في بدء نبوته وما حدث منها فيما بعد، وعندما أرى أصحابه الذين نفخ فيهم روح الحياة وكم من البطولات المعجزة أحدثوا، أجده أقدس الناس وأعلاهم مرتبة حتى أن الإنسانية لم تعرف له مثيلًا.

ولقد كان النبي ﷺ قادرًا على إحراز أكبر قدر من السيادة والثروة والرفاهية؛ لأنه كان يتمتع بمركز اجتماعي فريد في قومه، بسبب أنه من قريش ومن بني هاشم ساداتها التقليديين. وقريش كانت سيّدة العرب بسبب حكمها على مكة عاصمة الجزيرة العربية. وأما الثروة فقد كان يتصرف في أموال زوجته البرّة خديجة عليها السلام التي كانت من أغنى الناس في مكة.

وأما من ناحية الرفاهية فقد كان يملك الوداعة والأمن والعيش المناسب لعصره، وفجأة دعا الناس إلى الرسالة الجديدة بعد الأربعين من عمره، و بالضبط حين يذهب عن النفس البشرية طيشها وغرروها ويبدأ المرء يتعقّل، وحين كانت التقاليد تقضي لصاحب الأربعين بالتفوق والكمال. في هذا الحين بالضبط عرّض نفسه لأكبر الأخطار وأعظمها ابتداءً من افتقاده سمعته كسيد قريش في المستقبل وتحوُّله في الإعلام المعادي إلى ساحر

ومجنون و..!. وإلى ضرب الحصار الاقتصادي عليه في شعب أبي طالب، وإلى أن ذهب إلى الطائف فعامله سادتها أسوأ معاملة. وقال أحدهم في وجهه مستهزئًا: «أَنَا أَسْرِقُ ثِيَابَ الْكَعْبَةِ إِنْ كَانَ اللهُ بَعَثَكَ بِشَيْءٍ قَطُّ». وقال الآخر: «أَعَجَزَ اللهُ أَنْ يُرْسِلَ غَيْرَكَ». وقال ثالث: «وَاللهِ لَا أُكَلِّمُكَ بَعْدَ مَجْلِسِكَ هَذَا أَبَدًا، وَلَئِنْ كُنْتَ رَسُولًا كَمَا تَقُولُ فَلَأَنْتَ أَعْظَمُ خَطَرًا مِنْ أَنْ يُرَدَّ عَلَيْكَ الْكَلَامُ، وَإِنْ كُنْتَ تَكْذِبُ عَلَى اللهِ فَمَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أُكَلِّمَكَ..»[١].

ثم أغروا به سفهاءهم فرموه بالحجارة حتى سقط على صخرة مُثخنًا بجروح بليغة فلم يدعوه يستريح حتى تابعوه بالحجارة والسب فتابع رحلته إلى خارج الطائف.

وناجى ربه قائلًا: «**لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ**»[٢].

دون أن يبالي بكل ذلك.

أقول: لم يكن للرسول أية دوافع شخصية ولا دوافع اجتماعية أو اقتصادية أن يُعرِّض نفسه ومركزه للخطر، ابتداءً بافتقاده مركزه الاجتماعي، ومرورًا بمصائبه الكبيرة في مكة، وانتهاءً بالحروب التي شُنَّت ضده في المدينة.

ولم يكن كل ذلك من مثل محمد ﷺ إلَّا شاهدًا كبيرًا على صدقه في دعوته وشدة يقينه برسالته. وهكذا نقول بكل تأكيد: إن الرسول ذاته دليل رسالته.

ثم ما الذي يدعوه إلى الكذب والخيانة؟.

أهو المال؟. وهو الذي رفض العرض المغري الذي قدَّمه إليه سادة قريش والذي احتوى على أكثر أموال العرب مقابل تنازل الرسول عن دعوته الرسالية.

أم هو الجاه؟. وقد عرض عليه أن يسود على العرب جميعًا بشرط أن يترك رسالته فرفض.

أم كان العيش الرغد؟. وهو الذي اكتفى بأزهد نصيب بين المسلمين وحَمَّل نفسه أشق الأعمال، ولم تختلف به الحال منذ أن كان يتيمًا في حضن عمه وإلى أن أصبح سيد العرب المطاع، بل زاد رغبة عن الدنيا وزهدًا فيها.

وكلمة الخلاصة: إن تحليل شخصية الرسول ﷺ يهدي إلى واقع رسالته، فإن

(١) بحار الأنوار: ج١٨، ص٧٦.
(٢) راجع: بحار الأنوار: ج١٩، ص٢١.

طهارة النفس ونقاءها لا تجتمع مع الكذب والخيانة في أمور بسيطة فكيف بالخيانة العظمى المتمثلة في دعوى الرسالة كذبًا، إن هذه الرسالة التي يدَّعيها إنما هي من الله إلى البشر جميعًا.

هذا من ناحية شخصية الرسول التي تدل على صدق رسالته، وهو:

١- رجل واحد يتحدى التاريخ كله والبشر كلهم، ويبعث الإنسان بعثًا جديدًا في تصوره وسلوكه وأخلاقه، ويكوِّن شخصيات نموذجية لا مثيل لها(١).

إن هذا لم يقع ولن يقع لغير الرسول الصادق المؤيَّد بالغيب، حيث لم يشهد التاريخ إنسانًا استطاع توحيد القبائل المتناحرة في وحدة تجعلهم كأنهم بنيان مرصوص، ثم قام ببعثهم إلى العالم حاملين رسالة العدل والحق والسلام إلى كل إنسان في الأرض.

٢- إنسان أمي لم يتعلَّم عند أي فرد ولم يدرس الكتب ولا خط بيديه شيئًا. هذا الإنسان ينقلب -بعد البعثة مباشرة- إلى بحر زاخر من المعارف التي عجزت البشرية عن سبر غورها حتى يوم الناس هذا. هل يكون ذلك إلَّا رسولًا صادقًا؟.

٣- ودليل آخر نلمسه في انقطاعه المديد إلى الله سبحانه، وعبادته التي لم يكن لها مثيل، والتزامه قبل كل أحد بشريعته التي أنزلت عليه، بل إيجابه على نفسه من فروضها أكثر من أمته كصلاة الليل والتهجد بها؛ وإن في ذلك دليلًا قويًّا على صدق دعوته، ولم يكن ليقول ما يقول إلَّا باعتقاد جازم وقناعة شخصية تامة، ذلك مهما استطاع المرء أن يخدع الناس فإنه لا يتمكن من أن يخدع نفسه خداعًا يحملها على الأعمال الصعبة دون عقيدة راسخة وإخلاص تام.

قال الله سبحانه:

- ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾(٢).

- ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(٣).

---

(١) وإلى هذا الدليل ترجع الكلمة الشهيرة التي تقول: إن علي بن أبي طالب عليه السلام من معاجز الرسول. والواقع أن بناء شخصية مثالية كعلي عليه السلام لدليل واضح على صدق رسالة النبي محمد ﷺ.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ٤٨.

(٣) سورة يونس، آية: ١٦. في هذه الآية تصريح بأن النبي ﷺ كان أميًّا، ومن الواضح أنه إن لم يكن كذلك لكذَّبه أعداؤه الذين لم يفتروا يراقبون جميع حركاته لعلهم يجدون مهمزًا يشنون من خلاله حملات دعائية ضده، فلو لم يكن أميًّا بالفعل لم يكن يُصرِّح بذلك ليُعطي مادة نقد دسمة بيد أعدائه وهم قد عاشروه خلال أربعين سنة.

٣- المعاجز الخارقة:

ما هي المعجزة؟ وهل يمكن عقلًا حدوثها؟.

في الكـون سـنن فطرية تجـري وفقها كل الأحـداث، فالنار تبعث الحـرارة والحرارة تولد الامتداد والامتداد يتسبب في التبخر و.. و.. طائفة من هذه السـنن معروفة للإنسان ويسـتخدمها في صالحـه، بيد أن طائفة أخرى منها غـير معروفة وهي كبرى الطائفتين، ولا يمكن لذلك استخدامها كما لا يمكن رفضها سلفًا.

والمعجـزة قد تعني خرق السـنن المعروفة بسـنن أخـرى غير معروفـة للبشرية بعد. ويكمن إعجاز المعجزة آنئذ في أن رجلًا ساذجًا (وأُميًّا في بعض الأحيان) كيف استطاع أن يعرف السنن التي لا يعرف أحد من العلماء شيئًا منها.

وهـذا النوع واقـع في حياة الأنبياء عليهم السلام، وأبرز الأمثلة عليها بسـاط سـليمان؛ فإن ركوب الريح سُنَّة فطرية بالرغم من أنها لم تكن معروفة في عهد سليمان عليه السلام.

والمثل الآخر معراج الرسـول صلى الله عليه وآله وسلم الذي يعتقد البعض أنه كان نوعًا من المركبات الفضائية التي لم تُعرف حتى اليوم خصائصها.

في مثل هذين النموذجين من المعاجز، إن الله سـبحانه لا يُغيِّر سُـنن الكون إنما يهدي نبيـه إليها بشـكل معجز ومن دون وسـائل مادية. وقـد تعني المعجزة اختراق كافة السـنن الفطرية، وذلك مثل القرآن الذي لم يُوحَ به بمقتضى سنة فطرية بل خرق لكافة السنن.

و**السؤال** هنا: هل يمكن حدوث المعجزة؟.

لدينا شهادتان على إمكان حدوث المعجزة:

الشـهادة الأولى: شـهادة الوقـوع؛ ذلك أننـا لم نعرف إمكانيـة وقوع أية حادثـة إلَّا بعد أن وقعـت تلك الحادثة فعلًا. فمثلًا: إمكانية وقوع أبسـط الحقائق وأوضحهـا وهي نمو البذرة بعد دفنها في التراب، لم نعرفها إلَّا بعد أن عرفنا وقوعها فعلًا. فالقول بعدم إمكانيتها غير وارد أصلًا.

ذلك لأن المعارضة الوحيدة لهذه الإمكانية تأتي من قبل العادة التي تعودنا عليها بالنسبة إلى سـائر الحالات، ولكـن تلك العادة لم تُكتشـف واقعيتها إلَّا بتكرار وقوعهـا فليكن تعودنا عـلى المعجزة سـببًا من أسـباب العـادة أيضًا. بل إن تحليل معارفنا يشـهد بأن الإنسـان لا يزال

يعرف قدرًا ضئيلًا من السنن الكونية، ولعله لدى تطور العقلية البشرية من واقعها الضحل إلى مستوى أرفع يتبين أن سننًا أخرى تحكم الحياة جنبًا إلى جنب مع السنن المعروفة. فمثلًا: نحن نُنكر إمكانية المعراج لأنه يُنافي معارفنا حول الجاذبية، ولا ننكر إمكانية الصعود إلى القمر لأننا عرفنا أن استخدام الصواريخ والوقاية الكافية و.. و.. يجعل المركبة الفضائية تتحكم بالجاذبية فلا يجري آنئذ قانون الجاذبية في هذه الحالة المعينة، ولعله لو تقدَّم العلم اكتشفنا طريقة أبسط وأسهل للتحكم بالجاذبية التي تجعلنا نطير حول الفضاء دون الاستعانة بالمركبة الموجودة.

وهنالك نعرف أن نسبة معارفنا اليوم إلى معارفنا ذلك اليوم كنسبة معارف القرون الوسطى إلى معارف القرن العشرين، وعندئذ يُمكننا التصديق بالمعراج حتى دون مركبة فضائية.

فالمعجزة ظاهرة تعيش إلى جانب الظواهر الواقعة يوميًّا. وكما لا يسعنا إزاء هذه الظواهر إلَّا البحث عن سُنتها بموضوعية دون ردها سلفًا، فكذلك لا يسعنا أمام المعجزة إلَّا البحث عن واقعها دون إنكارها اعتمادًا على سائر الظواهر المعروفة.

الشهادة الثانية: وهي تأتي من الإيمان بالقدرة اللامتناهية لخالق الكون سبحانه، الذي لم يعجز عن خلقه بأية صورة شاء، بل جعل الاختلاف في مظاهر القدرة دليلًا بارزًا على إحاطة قدرته لكافة المحتملات. وقد سبق الحديث منا حول أن قدرة الله غير متناهية، وأن من مظاهر قدرته: إجراء السنن، وأنه لولا هذا الإجراء لما كان هناك أي تسلسل بين خط الأسباب وخط المسببات.

فهاتان شهادتان دلتانا على إمكانية حدوث المعجزة. بعد هذا نقول: من الشواهد الواضحة على نبوة الرسول ﷺ الآيات التي أظهرها الله على يديه.

وقد ثبت لنا بالنقل المتواتر الذي لا يحتمل الكذب(١)؛ حيث إن المسلمين باختلاف

(١) يعتمد الإنسان في كل شؤونه على النقل المتواتر، وهو نقل طائفة كبيرة من الناس يضمن الإنسان معهم عدم الكذب. فمثلًا: يُثبت الإنسان وجود البلاد البعيدة بالنقل المتواتر كما يُثبت وجود الأمم البالية -كعاد وثمود- بالتواتر. وكذلك ثبت أن للنبي محمد ﷺ معاجز بيِّنات؛ ثبت بالنقل المتواتر حيث لم نر أحدًا من المؤرخين المعاصرين للنبي ﷺ يُبدي أية معارضة لها، مع أنها لو كانت كذبًا إذًا كان يُعارضها طائفة كما أثبتها طائفة، لاسيما مع وجود معارضة قوية للرسول ﷺ متمثلة في المشركين واليهود والمنافقين الذين لم يؤمنوا بالرسول ولا بصحة معاجزه إلَّا أنهم لم يسعهم إنكارها بل نسبوا السحر إليه حيث زعموا: أن المعاجز نوع من السحر. وإلى هذه الحقيقة ترشدنا الرواية التالية:

في الحديث عن الرسول ﷺ أنه قال لأبي جهل حينما أنكر الآيات المنقولة له بطريق متواتر: «**يَا أَبَا جَهْلٍ! فَإِنْ كَانَ لَا يَلْزَمُكَ تَصْدِيقُ هَؤُلَاءِ عَلَى كَثْرَتِهِمْ وَشِدَّةِ تَحْصِيلِهِمْ فَكَيْفَ تُصَدِّقُ بِمَآثِرِ آبَائِكَ**

فرقهم وتشتت مذاهبهم، أنبؤوا عن الرسـول ﷺ أنه جاء بمئات من المعاجز التي تدل بصفة قاطعة على وجود طائفة منها قطعًا.

هذا بالإضافة إلى بعض القرائن الأخرى التي تؤكد ظهور المعجزة على يد الرسـول ﷺ، وهي الأمور التالية:

١- إن الرسـول ﷺ كان يقـصّ على المسـلمين معاجـز الأنبياء السـابقين، وكان يقـول: إن عـلى النبي ﷺ أن يـأتي بآية بينة لقومه حتى يصدقوه، فلـو لم يكن يأتي هو لهم بمعاجـز كان مُكذِّبا لنفسـه؛ إذ كان لقومه أن يقولـوا له: إذا كنت قد نَبُؤْتَ فعلًا وتزعم أن النبي يأتي قومه بالمعاجز فلماذا لم تأتنا بها؟[1].

٢- إن القرآن نقل للناس طائفة من معاجز الرسول ﷺ؛ مثل محاربة الملائكة معه يوم بدر، وإخباره بالغيب كفتح مكة، والتغلُّب على ملك الفرس والروم وما أشـبه... ولو

وَأَجْدَادِكَ وَمَسَاوِي أَسْلَافِ أَعْدَائِكَ؟ وَكَيْفَ تُصَدِّقُ عَنِ الصِّينِ وَالْعِرَاقِ وَالشَّامِ إِذَا حُدِّثْتَ عَنْهَا؟! هَلِ الْمُخْبِرُونَ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا دُونَ هَؤُلَاءِ الْمُخْبِرِينَ لَكَ عَنْ هَذِهِ الْآيَاتِ مَعَ سَائِرِ مَنْ شَاهَدَهَا مِنْهُمْ مِنَ الْجَمْعِ الْكَثِيفِ الَّذِينَ لَا يَجْتَمِعُونَ عَلَى بَاطِلٍ يَتَخَرَّصُونَهُ إِلَّا كَانَ بِإِزَائِهِمْ مَنْ يُكَذِّبُهُمْ وَيُخْبِرُ بِضِدِّ أَخْبَارِهِمْ..» (بحار الانوار، ج١٧، ص٢٤٤).

وفي حديث احتجاجي بين الإمام الرضا عليه السلام وعلماء اليهود، قال عليه السلام: «يَا رَأْسَ الجَالُوتِ! فَمَا يَمْنَعُكَ مِنَ الْإِقْرَارِ بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ عليه السلام، وَقَدْ كَانَ يُحْيِي الْمَوْتَى، وَيُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَيَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ؟.

قَالَ رَأْسُ الجَالُوتِ: يُقَالُ إِنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ وَلَمْ نَشْهَدْهُ!.

قَالَ الرِّضَا عليه السلام: أَرَأَيْتَ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى مِنَ الْآيَاتِ شَاهَدْتَهُ، أَلَيْسَ إِنَّمَا جَاءَتِ الْأَخْبَارُ مِنْ ثِقَاتِ أَصْحَابِ مُوسَى أَنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ؟. قَالَ: بَلَى!.

قَالَ عليه السلام: فَكَذَلِكَ أَيْضًا أَتَتْكُمُ الْأَخْبَارُ الْمُتَوَاتِرَةُ بِمَا فَعَلَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ عليه السلام فَكَيْفَ صَدَّقْتُمْ بِمُوسَى عليه السلام وَلَمْ تُصَدِّقُوا بِعِيسَى؟. فَلَمْ يُحِرْ جَوَابًا. قَالَ الرِّضَا عليه السلام: وَكَذَلِكَ أَمْرُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَمَا جَاءَ بِهِ، وَأَمْرُ كُلِّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ..». (بحار الأنوار: ج١٠، ص٣٠٩).

والواقع أن المعجزة لا تعدو أن تكون كأية حادثة تاريخية أخرى لابد أن نبحث عنها بصورة موضوعية مجردين تمامًا عن الاستبعاد الذي يكتنف الموضوع لأنه بعيد عما باشرناه من السنن الكونية. بلى؛ لو لم نستطع أن نؤمن فلسفيًّا بإمكان المعجزة إمكانًا عقليًّا، إذًا أمكننا نبذ الأنباء المتواترة منها وغير المتواترة؛ لأن العقل أمتن ثقة من النقل. بيد أنه ثبت لنا فلسفيًّا إمكان بل وضرورة المعجزة فلا يسعنا إلَّا قبول الأخبار الموثوقة بها على صحتها.

(١) في القرآن آيات كثيرة تدل على ظهور المعاجز على أيدي الأنبياء السابقين وإليك بعضها. قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (سورة سبأ، آية: ١٠-١١)، وقال: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (سورة الأعراف، آية: ٧٣).

كان كاذبًا في نقله إذًا لكذَّبه الكفار فورًا[١].

٣- المعهود من أقوال الكفار المعاصرين للرسول ﷺ أنهم كانوا ينسبونه إلى السحر، وقد قصَّ لنا القرآن ذلك نقلًا عنهم فقال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[٢].

ولابد أنهم شاهدوا منه ما يتشابه والسحر في أعينهم فنسبوه إليه، جهلًا منهم بواقع السحر والفرق بينه وبين المعجزة. في حين أن الفارق بين السحر والمعجزة كبير، ويكمن في ثلاثة أمور:

الأول: إن السحر يحتاج إلى تعلُّم والمعجزة تأتي موهبة من عند الله، ولذلك فإن الساحر لا يكون ساحرًا إلَّا بعد سنين من الدراسة المرهقة، أما الرسول فإنه تصدر منه المعجزة بغير تعلُّم. والساحر لا يعرف إلَّا نوعًا خاصًّا من السحر بعد أن يُتقن معرفته، في حين يتمكن النبي من القيام بعدة معاجز مختلفة نوعًا في وقت واحد؛ فَمِنْ شقِّ القمر إلى تسبيح الحصى إلى انقلاب الجذع نخلة باسقة.

الثاني: إن السحر يأتي باختيار الساحر وإرادته بينما لا يأتي الإعجاز إلَّا بإرادة الله سبحانه، ولذلك فإن السحر قد يأتي مؤيِّدًا للحق وقد يأتي مخالِفًا له، أما المُعجز فلا يقع إلَّا موافِقًا للحق، وللحكمة التي تُرشد إليها الرؤية الصائبة وفي سبيل الإصلاح.

وبكلمة: إن السحر يُستخدم في المطامع والأهواء بعكس المعجزة، التي لا يمكن استخدامها إلَّا في سبيل الخير، ولا يُؤتى بها إلَّا بإرادة الله. ومن هنا كان الكفار يطالبون الأنبياء عليهم السلام بالمعجزة في بعض الأحيان، ولا يستجيب لهم الأنبياء عليهم السلام قائلين: أنْ ليس لهم من الأمر شيء بل إن يشأ الله نزَّل عليهم آياته، في حين كان هوى النبي ﷺ موافقًا مع إبداء الآية بحسب الظاهر، ولكن حيث إن الحكمة لم تكن مع إبدائها لم يكن الله تعالى يبعثها.

وأوضح شاهد على ذلك قصة موسى عليه السلام مع السحرة إذ لم يأذن الله لموسى بإلقاء

---

(١) قال الله تعالى، وهو يُبيِّنُ بعض آيات الله التي ظهرت على يد الرسول ﷺ الخارقة: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (سورة الإسراء، آية: ١). وقال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (سورة آل عمران، آية: ٤٤). وقال: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ (سورة التوبة، آية: ٤٠).

(٢) سورة الأنعام، آية: ٧.

عصاه إلَّا بعد أن امتلأ رعبًا وخاف ألَّا يؤمن الكفار، وكان في ذلك دليل على أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكن بذاته قادرًا على إحداث الخارقة بل بإذن الله، حيث إن السحر يؤثر في إطار محدود بينما المعجزة لا تتحدَّد بإطار. فالساحر مثلًا لا يتمكن من إحياء الميت وإبراء الأكمه والأبرص أو قلب العصى الصغيرة إلى ثعبان مبين يلقف الحبال ثم يرجع إلى أصله وكأن شيئًا لم يكن، أو خلق طوفان يملأ الأرض ماء، إن الساحر لا يفعل مثل هذه وقد فعلها الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

الثالث: بل لعل السحر لا يتمكن من البناء بل الهدم فقط، بينما يستطيع النبي أن يبني كما يستطيع أن يهدم بالمعجزة. فالساحر قد يتمكن من أن يجعل شجرة باسقة أعوادًا يابسة ولكنه لا يجعل العود اليابس شجرة باسقة.

وأما المعجزة فإنها التي تجعل من الجذعة الذابلة نخلة تساقط رطبًا جنيًّا.

الساحر يمكن أن يجعل الناس فرقًا شيعًا ولكن لا يستطيع أن يُؤلِّف قلوبهم كأنهم بنيان مرصوص ويبعثهم أمة وسطًا.

السحر قد يجعل الأمة القوية شعبًا مستضعفًا ولكنه لا يتمكن من أن يفعل خلاف ذلك -كما تفعل المعجزة- فتبدل الشعب المستضعف أمة قوية.

السحر قد يجعل من النظام فوضى ولكن لا يخلق من الفوضى نظامًا يُبهر العقول.

إذًا فهناك فروق أساسية بين السحر والمعجزة نابعة من مصدر السحر الذي لا يعدو أن يكون استخدام بعض السنن الخفية بعد دراستها وإتقانها. ثم يكون استخدام الساحر الذي يتأثر بالضعف البشري فيستخدم ذلك في الغالب فيما يُضر الناس دون ما ينفعهم. وعلى ذلك نعرف أن إنكار الكفار المعاصرين للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ معجزاته واتِّهامه بالسحر لم يكن إلَّا خلطًا ساذجًا بين معطيات السحر والمعجزة، لجهلهم أو استكبارهم عن الحق. فإذا عرفنا نحن أن ما أتى به الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لم يكن من السحر علمنا أنه كان معجزة، فكان كلام الكفار دليلًا على صدق نبوة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وثبوت المعجزة له.

الكتاب المعجزة:

القرآن هو المعجزة التي تبقى دليلًا واضحًا على رسالة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مدى الدهر. رجل أُميّ -عرفه معاصروه أنه لا يقرأ ولا يكتب- يأتي بكتاب مفصل فيه علم كل شيء، بلغ في الفصاحة والبلاغة الذروة، وضرب في الأسلوب والمحتوى أرقى رقم يُقاس، ثم

يتحدَّى به العالم كله ويقول لهم -بأعلى صوت-: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(١). ثم يقول: ﴿... لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾(٢).

القرآن يتحدى العالم:

إن مجرد التحدي من رجل أميّ في الجزيرة العربية لَشهادة كبيرة على أن صاحبه ليس برجل عادي، لاسيما وأن هذا التحدي لازم الرسول ﷺ حتى نهاية حياته، حيث لاحظ حضارات البشرية عن كثب، وعرف أبعاد ما فيها. وقد عجزت البشرية رغم تكاثر الأعداء الألداء، عجزت حتى عن محاولة التحدي المضاد.

وفي بداية البعثة، زعم بعض العرب المغرورين بفصاحتهم؛ أنهم قادرون على التحدي المضاد، إلَّا أنهم سرعان ما اكتشفوا ضلالهم البعيد.

فالشاعر العربي (بشير) الشهير ببلاغته قال أبياتًا زعم أنها أفصح من القرآن فعلقها على الكعبة، ولم يكن يُعلَّق عليها إلَّا شعر أفصح العرب، ولما رأى المسلمون إعجاب (بشير) بأشعاره كتبوا بعض آيات القرآن وعلقوها إلى جنب أشعار بشير، فلما مر بها بشير أبهرته قوة البلاغة في القرآن وهتف قائلًا: والله ما هذا بقول بشر، وأنا من المسلمين.

وبعد قرن من بزوغ الإسلام زعم بعض المنافقين أن الوقت حان للإجابة على تحدي القرآن، فاتصل بالأديب العربي الشهير (ابن المقفع) الذي أغرته ثقافته الفارسية الفلسفية الواسعة فقبل الدعوة إلى التحدي المضاد، ولكنه اشترط على صاحبه المقترح أن يتكفَّل له بما يحتاج إليه خلال سنة، وهي المدة التي زعم أنه قادر على إنجاز مهمته فيها، ولما مضى نصف عام عاد إليه صاحبه ليعرف مراحل العمل في مواجهة تحدي القرآن فوجده جالسًا والقلم يرتعش بين أصابعه وقصاصات الورق تتناثر من حوله، فاعترف بأنه قد أصيب بفشل ذريع في محاولته هذه رغم ما بذله من جهود جبارة؛ إذ إنه لم يستطع أن يأتي بآية واحدة من طراز القرآن.

ولسنا بحاجة إلى ذكر المزيد من القصص التاريخية بعد أن اعترف بعظمة القرآن كل من

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٣.
(٢) سورة الإسراء، آية: ٨٨.

تدبَّر فيه. ولم يظهر حتى الآن من نجح في صياغة آية واحدة ولو بصورة تقليدية كآيات القرآن الحكيمـة، وإن أغمضنـا النظر عن تحدي القـرآن فإن ذاته يدل على صدق هـذا الكتاب الذي ظاهـره أنيـق وباطنه عميق، ظاهره حكم وباطنه علـم، قيّم لا عوج فيه، حق لا باطل معه، لا تختلف أحكامه ولا تتناقض مبادئه، ولا تتعارض أصوله وفروعه ومفاهيمه وأحكامه.

هذا الكتاب الذي بهر البلغاء فرفعت أعلام الاستسـلام، واسـتهوى العالم كله فظل يسـتلهم منـه طيلـة أربعة عشر قرنًـا، فلم تَبْلُ عجائبـه ولم تَخْلُق نضارته، بـل جاء كل جيل فاقتبس من نوره واهتدى بهداه، وذهب ليستخلفه الجيل الثاني في ذلك دون أن يُؤثِّر تطوُّر الحياة وتقدُّم العلوم واختلاف الزمن شيئًا في عظمته وأهميته. هذا الكتاب يأتي به رجل أميّ محض، أليس في هذا معجزة دونها معاجز الأنبياء عليهم السلام.

أين معجزة القرآن؟

القـرآن معجـزة لا شـك في ذلك، إذ لو لم يكـن معجزة إذًا لاسـتطاع البشر أن يأتوا بمثله وقد تحداهم جميعًا من أول يوم، وإذا كان يُشبه كتب البشر في شيء واحد بينما يختلف عنهـا في كل شيء فـلا يكـون إلَّا معجـزة، ولكن أين من القـرآن المعجزة؟ في أيـة ميزة منه اختبأت المعجزة؟

في الجواب نقول:

ألف: قد احتوت آياته على علوم لم يعهدها البشر ذلك اليوم واكتشـفها عصر النور. فبالرغم من أن رموز القرآن لم تحل بصورة دقيقة نظرًا لضحالة معارف الإنسان، فإن آيات قرآنيـة كثيرة أشـارت إلى حقائق علمية لم تُعرف إلَّا منـذ زمن قريب. وإن مقارنة القرآن في هذا الحقل بأي كتاب تاريخي يظهر لنا بوضوح مدى الفرق بين كتاب البشر وكتاب الخالق الأبـدي الـذي لا يمكن أن يتجاوزه الزمن، أنَّى سـارع في مسـيرته. بل إنه يبقـى أبدًا أمام الاكتشافات، فيعود الإنسان إليه كلما عرف سرًّا ليجد فيه إشارة بارزة إليه، حتى أنه يعتقد بيقين أن القرآن يحتوي على العلم كله.

ونحن إذ نذكر بضعة أمثلة فإنها ليسـت سوى طليعة الشواهد العلمية التي تتلاحق لتكشف عن إعجاز القرآن:

١ - لقـد اكتشـف العلـم أن المادة كانت جامدة وسـاكنة وحدث فيهـا انفجار هائل

قبل خمسة ملايين مليون سنة فبدأت المادة تتمدد، حتى أن دائرة المادة كانت ألف مليون سنة ضوئية وأصبحت الآن عشرة أمثال ذلك. وهكذا تتوسع المادة إلَّا أنها كلما توسعت كَثُرَ بداخلها الفضاء الخالي، حتى أنه لو طوينا الكون بحيث لم يبق فيه فضاء خالٍ تضاءل الكون حتى أصبح كحجم الشمس بضع عشرة مرة. أليست تدل هذه الكشوف العلمية على بعض رموز الآيتين الكريمتين:

ألف: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾[١].

هل هناك تعبير أفصح من تعبير الرتق والفتق تكشف عن هذه الحائق؟.

بـاء: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾[٢].

أليس الطي أصدق تعبير لإخلاء المادة عن الفضاء؟.

٢- من المفهوم لدى العلماء اليوم أن المادة الخفيفة وزنًا ارتفعت على سطح الأرض وكانت الجبال، وبقيت المادة الثقيلة مكانها فكانت البحار، واستطاع ارتفاع مكان وانخفاض آخر أن يُحافظ على توازن الأرض وإلَّا لمادت بأهلها. هذه الحقيقة، ألا ترى دلت عليها الآية التالية بأبلغ تعبير: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾[٣].

٣- وتتفق نظريات علماء الجغرافيا والنبات وغيرهم على أن الأرض كانت متمركزة في البدء ثم انتشرت. وهذه تتفق تمامًا مع كلمة (دحو) التي استعملتها آية قرآنية عند بيان بداية الأرض، ذلك لأن (الدحو) يعني التسوية في الانتشار من مكان تتجمع فيه المادة.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾[٤].

ألـف: وكفى بهذه الأدلة دليلًا على مدى الانسجام بين آيات الكتاب وكشوفات العلم الحديث، وهي مقتبسة من موضوع تكون المادة فقط. وفي سائر المواضيع شواهد أكبر وأكثر.

بـاء: والقرآن ليس فيه اختلاف بين المبدأ والشريعة والأخلاق الذي نجده في

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٣٠.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ١٠٤.

(٣) سورة لقمان، آية: ١٠.

(٤) سورة النازعات، آية: ٣٠-٣١.

المبـادئ الأخـرى. فالقرآن مثلًا يقرّ مبدأ التوحيد ثم لا يشـذ عنه في صغير أو كبـير، بل يصدر عنه كل شيء، بعكس المبدأ الماركسي –مثلًا– فإنه يتبنى مبدأ في الفلسفة يناقضه في التشريع أو في الأخلاق.

جيم: وهو أفصح ما عهده العرب وأبلغ ما عهده الإنسان من ألفاظ وتراكيب، ولذلك أنزلـت العرب معلقاتها العـشرة الفصيحة عندما نزلت بعـض الآيات، قائلين: إنها سوف تفضحنا؛ لأنها من قبيل وضع الحصى في عرض الأحجار الكريمة.

دال: وأعتقـد أن أهـم مـا في القـرآن هـي معارفه التـي حلَّت للناس كل مشـاكلهم الفكريـة والتـي عجزت عن حلها البشرية جميعًا. والقرآن نفسـه يذكر أن سر عظمته بالدرجة الأولى هي معارفه فيقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[١]... يظهـر من هذه الآية أن شـفاء مـا في الصدور والهدى هي السـمه الكبرى الموجـودة في القرآن، وهي مرتبطة بظاهرة كشف الحقائق في القرآن.

ومن هنا فقد تحدى القرآن بتلك المعارف البشر جميعًا، لا العرب وحدهم.

تبشير الكتب المنزلة:

وحجة أخرى على صدق رسالة النبي محمد ﷺ، بشارة الكتب السماوية به.

يمكننا معرفة هذه البشارة بطرق ثلاثة:

الأول: لقد ذكر القرآن في عدة آيات أن الأنبياء السـابقين قد بشَّروا بالنبي محمد ﷺ، فقـال سـبحانه ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾[٢].. ولعن الأحبار والقسيسـين الذين كتموا الحق بالبشارة به ﷺ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَـٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾[٣].

وقال في سـياق الحديث عن رسـالة النبي عيسـى عليه السلام: إنه كان يبشِّر بنبي يأتي من بعده، فلو لم يكن الرسـول صادقًا في قوله: إنه قد بشَّرت به الكتب السـماوية السـابقة، إذًا

(١) سورة يونس، آية: ٥٧.
(٢) سورة الأعراف، آية: ١٥٧.
(٣) سورة البقرة، آية: ١٥٩.

لكان يُكذِّبه اليهود والنصارى مع أنَّا لا نعهد منهم ذلك أبدًا. بل كل ما في الأمر أنهم قالوا -استكبارًا عن الحق-: إن الرسول الذي وُصِفَ في الكتاب إنما يأتي بعد قرن من تاريخ بعثة الرسول، وأظهرت الأيام كذبهم؛ ولم يكن ذلك إلَّا من بعضهم، أما الآخرون فإنهم آمنوا به اعتمادًا على الأوصاف التي اعتقدوا بأنها ظاهرة في الرسول ﷺ بالضبط.

والخلاصة: أن الرسول ادَّعى أنه المبشر به الموعود في الكتب السابقة، وحيث لم يُنكر ذلك أحد من معاصريه عرفنا أنه كان صادقًا في هذه الدعوى.

الثاني: القدر الموجود بأيدينا من الكتب السماوية تتضمن، على الرغم من كثرة التحريف فيها بأيدي المعاندين للرسالة الجديدة الذين هددت الرسالة مصالحهم الشخصية؛ على الرغم من كل ذلك فإن الكتب السماوية الموجودة لا تزال تحتوي على بشائر كثيرة بنبوة الرسول ﷺ، وإليك طائفة منها:

١- في إنجيل برنابا؛ الفصل الثاني بعد الأربعين: «وَلَسْتُ أَحْسَبُ نَفْسِيْ نَظِيْرَ الَّذِيْ تَقُوْلُوْن عَنْهُ، لِأَنِّيَ لَسْتُ أَهْلًا أَنْ أَحُلَّ رِبَاطَاتِ جُرْمُوق أَوْ سُيُوْرَ حِذَاءِ رَسُوْلِ اللهِ الَّذِيْ تُسَمُّونَهُ (مَسِيًّا) الَّذِيْ خُلِقَ قَبْلِي وَسَيَأْتِي بَعْدِي، وَسَيَأْتِي بِكَلَامِ الْحَقِّ وَلَا يَكُوْنُ لِدِيْنِهِ نِهَايَةٌ»(١).

٢- «لِأَنَّهُ هَكَذَا وَعَدَ اللهُ إِبْرَاهِيْمَ قَائِلًا: انْظُرْ فَإِنِّيْ بِنَسْلِكَ أُبَارِكُ كُلَّ قَبَائِلِ الْأَرْضِ، وَكَمَا حَطَّمْتَ يَا إِبْرَاهِيْمُ الْأَصْنَامَ تَحْطِيْمًا هَكَذَا سَيُفْعَلُ نَسْلُكَ»(٢).

٣- وفي سفر التكوين: «وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَقَدْ سَمِعْتُ لَكَ فِيهِ. هَا أَنَا أُبَارِكُهُ وَأُثْمِرُهُ وَأُكَثِّرُهُ كَثِيرًا جِدًّا. اثْنَيْ عَشَرَ رَئِيسًا يَلِدُ، وَأَجْعَلُهُ أُمَّةً كَبِيرَةً»(٣).

٤- وفي سفر التثنية: «وَهذِهِ هِيَ الْبَرَكَةُ الَّتِي بَارَكَ بِهَا مُوسَى، رَجُلُ اللهِ، بَنِي إِسْرَائِيلَ قَبْلَ مَوْتِهِ. فَقَالَ: «جَاءَ الرَّبُّ مِنْ سِينَاءَ(٤)، وَأَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ سَعِيرَ(٥)، وَتَأَلَّقَ فِي جَبَلِ فَارَانَ(٦)»(٧).

---

(١) إنجيل برنابا، ف٤٢، ص٦٤. ترجمه من الإنكليزية: د. خليل سعادة.
(٢) إنجيل برنابا، ف٤٣، ص٦٧.
(٣) الكتاب المقدس، (سفر التكوين: ١٧ - ٢٠)، تم جمعه وترجمته في: جي. سي. سنتر. مصر، ط٤، ١٩٩٤م.
(٤) وهو الوادي الذي بعث به موسى عليه السلام.
(٥) وهو مبعث عيسى عليه السلام.
(٦) وهي مكة المكرمة.
(٧) الكتاب المقدس، (سفر التثنية: ٣٣ - ١ و ٢).

والواضح أنه لم يُبعث من جبال مكة إلّا النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وهناك طائفة كبيرة أخرى من النصوص التبشيرية نتركها للإيجاز.

الثالث: المناظرات؛ وثالث ما نستكشف به البشارات الموجودة في الكتب السابقة ببعث النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم هو ما ذكر في المناظرات التي جرت بين علماء المسلمين وعلماء اليهود والنصارى. وبما أننا عرفنا من الرواة الناقلين لهذه المناظرات الصدق والضبط بطرق فنية دقيقة فإن هذه المناظرات معتمدة لدينا كما هي معتمدة لدى جميع العقلاء على أصلهم الثابت من الاعتماد على كل ما يفيد ثقة واطمئنانًا نفسيًّا.

ونحن فيما يلي نستعرض مناظرة واحدة فقط اختصارًا للحديث، وهي المناظرة التي جرت بين الإمام الرضا عليه السلام وكبير علماء اليهود والنصارى.

قَـالَ عليه السلام للجاثَلِيق -كبير علماء النصارى-: «**فَأَقْسَـمْتُ عَلَيْكَ هَلْ نَطَقَ الْإِنْجِيلُ أَنَّ يُوحَنَّا قَالَ: إِنَّ المَسِيحَ أَخْبَرَنِي بِدِينِ مُحَمَّدٍ الْعَرَبِيِّ وَبَشَّرَنِي بِهِ أَنَّهُ يَكُونُ مِنْ بَعْدِهِ فَبَشَّرْتُ بِهِ الحَوَارِيِّينَ فَآمَنُوا بِهِ؟**.

قَالَ الْجَاثَلِيقُ: قَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ يُوحَنَّا عَنِ المَسِـيحِ وَبَشَّرَ بِنُبُوَّةِ رَجُلٍ وَبِأَهْلِ بَيْتِهِ وَوَصِيِّهِ، وَلَمْ يُلَخِّصْ مَتَى يَكُونُ ذَلِكَ، وَلَمْ يُسَمِّ لَنَا الْقَوْمَ فَنَعْرِفَهُمْ.

قَـالَ الرِّضَـا عليه السلام: **فَإِنْ جِئْنَاكَ بِمَنْ يَقْـرَأُ الْإِنْجِيلَ فَتَلَا عَلَيْكَ ذِكْرَ مُحَمَّـدٍ وَأَهْلِ بَيْتِهِ وَأُمَّتِهِ أَتُؤْمِنُ بِهِ؟**.

قَالَ الْجَاثَلِيقُ: شَدِيدًا. (أي نعم بالتأكيد).

قَالَ الرِّضَا عليه السلام: **لِنِسْطَاسَ الرُّومِيِّ.. كَيْفَ حِفْظُكَ لِلسِّفْرِ الثَّالِثِ مِنَ الْإِنْجِيلِ؟**.

قَالَ: مَا أَحْفَظَنِي لَهُ.

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى رَأْسِ الْجَالُوتِ؛ فَقَالَ عليه السلام: **أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْإِنْجِيلَ؟**.

قَالَ: بَلَى لَعَمْرِي.

قَالَ عليه السلام: **فَخُذْ عَلَيَّ السِّفْرَ الثَّالِثَ، فَإِنْ كَانَ فِيهِ ذِكْرُ مُحَمَّدٍ وَأَهْلِ بَيْتِهِ وَأُمَّتِهِ فَاشْهَدُوا لِي، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ ذِكْرُهُ فَلَا تَشْهَدُوا لِي.**

ثُمَّ قَرَأَ عليه السلام السِّفْرَ الثَّالِثَ حَتَّى إِذَا بَلَغَ ذِكْرَ النَّبِيِّ ﷺ وَقَفَ ثُمَّ قَالَ عليه السلام:

يَا نَصْرَانِيُّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ المَسِيحِ وَأُمِّهِ أَتَعْلَمُ أَنِّي عَالِمٌ بِالْإِنْجِيلِ؟.

قَالَ: نَعَمْ.

ثُـمَّ تَـلَا عَلَيْنَا ذِكْرَ مُحَمَّدٍ وَأَهْلِ بَيْتِهِ وَأُمَّتِهِ. ثُمَّ قَالَ عليه السلام: **مَا تَقُولُ يَا نَصْرَانِيُّ هَذَا قَوْلُ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ، فَإِنْ كَذَّبْتَ مَا يَنْطِقُ بِهِ الْإِنْجِيلُ فَقَدْ كَذَّبْتَ مُوسَى وَعِيسَى** عليهما السلام...»(١).

ثُـمَّ الْتَفَـتَ عليه السلام إِلَى رَأْسِ الجَالُـوتِ فَقَـالَ: «**يَا يَهُـودِيُّ! أَقْبِلْ عَلَيَّ أَسْـأَلْكَ بِالْعَشْرِ الْآيَـاتِ الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَى مُوسَـى بْنِ عِمْرَانَ** عليه السلام **هَلْ تَجِدُ فِي التَّـوْرَاةِ مَكْتُوبًا نَبَأَ مُحَمَّدٍ وَأُمَّتِهِ إِذَا جَـاءَتِ الْأُمَّـةُ الْأَخِـيرَةُ أَتْبَاعُ رَاكِبِ الْبَعِيرِ يُسَـبِّحُونَ الرَّبَّ جِدًّا جِدًّا تَسْـبِيحًا جَدِيدًا فِي الْكَنَائِسِ الجُدَدِ، فَلْيَفْزَعْ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِلَيْهِمْ وَإِلَى مَلِكِهِمْ لِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُهُمْ؛ فَإِنَّ بِأَيْدِيهِمْ سُيُوفًا يَنْتَقِمُونَ بِهَا مِنَ الْأُمَمِ الْكَافِرَةِ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ، أَهَكَذَا هُوَ فِي التَّوْرَاةِ مَكْتُوبٌ.**

قَالَ رَأْسُ الجَالُوتِ: نَعَمْ إِنَّا لَنَجِدُهُ كَذَلِكَ»(٢).

إن هـذه الحادثة التاريخية التي أثبتتها كتب الحديث المضبوطة تدل على أن علماء أهل الكتاب لم يكن يمنعهم إنكار البشارة بالرسـول ﷺ، حتى في أواسـط القرن الثاني من الهجـرة، والواقـع أن علماء بني إسرائيل كانوا يقولون: إن البشـارة موجودة ولكنها تختص بمن يأتي بعد قرن من بعثة الرسول ولكنه لم يأت.

شهادة اللـه:

لقـد تحـدى النبي ﷺ كل البشر بما لهم من مبادئ وأفكار وبما ينتحلون من شرائع وأديان، تحداهم في أكثر من آية وأكثر من مشهد بأن الله شهيد بيني وبينكم.

قال الله في كتابه العزيز:

- ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾(٣).

- ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ

(١) بحار الأنوار: ج١٠، ص٣٠١.
(٢) بحار الأنوار: ج١٠، ص٣٠٥.
(٣) سورة الأنعام، آية: ١٩.

عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾(١).

ما هي هذه الشهادة وكيف يشهد الله على صدق نبوة محمد ﷺ؟.

إن الله يشهد من عدة طرق:

١- استجابة الدعاء لكل من توسَّل إلى الله بالنبي ﷺ وآله عليهم السلام، مما يدل على إخلاصهم لله.

٢- ونصرة الله لمن يؤمن بشريعة الرسول ويتمسك بها تمامًا.

٣- مضافًا إلى هاتين الشهادتين هناك نوع آخر من الشهادة هي:

إن من يؤمن بالله إيمانًا حقيقيًّا يجد نفسه أمام أسلوب جديد للتفكير، ومنهج جديد للسلوك، وقيم جديدة للأخلاق، ثم يجد نفس ذلك الأسلوب والمنهج والقيم موجودة في شريعة الرسول فيعلم أنها من عند الله.

وإليك مثلًا لذلك: من عرف الله بقلبه صدقًا وعدلًا، يعرف أن الأشياء تأتي من الله وإلى الله تعود، وأن خير الأعمال هي التي تُقرِّبه إلى الله زُلفى، وخير الأخلاق ما تُطهره من الهوى والغضب، ويشهد على هذه الحقائق وجدان كل من باشر بقلبه حقيقة الإيمان. فإذا وجد في الإسلام وفي شخص الرسول ﷺ نفس هذا الاتجاه وهذا الأسلوب عرف أنه من عند الله تعالى يقينًا. ثم إن من آمن بشريعة الرسول واستشعر قلبه التقوى دنا إلى الله أكثر فأكثر حتى أنه يرى الله بنور الإيمان، فيعرف أن دعوة الرسول كانت صادقة، ويكون مثل الدين بالنسبة إليه مثل من هُدي إلى طريق وقيل له: إنه يبلغ بالفرد إلى بلد معين، ثم سلكه فوصل إليه فعلًا. فلا تبقى لديه أية ريبة بالنسبة إلى صدق الهادي.

---

(١) سورة الرعد، آية: ٤٣.

البحثُ الثّالثُ: الوِلايةُ

١- الحاجة إلى الإمام.

٢- كيف نعرف الإمام؟.

٣- مسؤولية الناس تجاه الإمام.

٥ ١ - الحاجة إلى الإمام

كما لا تكمل الرسالة من دون الرسول ﷺ كذلك لا تتم الشريعة من دون إمام.

ذلك لأن طبيعة البشر تهوي به إلى أسفل ولا يكفيها وجود شريعة محفوظة في الأسفار، بل لا بد من تجسيد تلك الشريعة في إنسان يتمتع بتفوق تشريعي يُعطيه صلاحية تطبيق الشريعة على الناس؛ إذ لا بد لكل قانون من مُطبِّق نافذ الكلمة وإلَّا عاد القانون حبرًا على ورق.

ولقد شاء الله تبارك وتعالى أن يُسعد الإنسان في الحياة دون أن يضطره إلى ذلك فيسلبه كرامته وحريته، إذ إنهما أعز على الإنسان حتى من السعادة ذاتها. وهكذا كان ينبغي عليه أن يوفر له كل وسائل السعادة حتى إذا شاء أخذ بها، فشرع له الشرائع وعبَّد له المناهج، ثم بعث رسولًا يُبيِّن له ويُنذره ويُبشِّره ويدعوه إلى تطبيق ذلك ويُشرف على تنفيذه، وكان عليه لهذه الناحية ألَّا يترك الخلق فوضى دون مُنفِّذ للشريعة بعد الرسول ﷺ، بل كان ينبغي أن يُعيِّن لهم أئمة يتمتعون بما يتمتع به الرسول من صلاحيات، ويقومون بما يقوم به الرسول ﷺ من مهمات. كل ذلك إتمامًا للنعمة وتحقيقًا للحكمة وتوفيرًا لوسائل السعادة التي هي الهدف النهائي لحياة الإنسان.

ولكن كما لم يشأ الله أن يُكرِه الناس على الهدى في عهد الرسول إبقاءً لهم على النعمة الكبرى الموهوبة لهم، وهي نعمة الحرية؛ فكذلك لم يشأ أن يجبرهم على اتِّباع الإمام جبرًا. وهكذا أبقى على الإمام الأخير صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف إتمامًا لحجته على خلقه، وتوفيرًا لمنتهى ما يمكنهم أن يبلغوه من سعادة الدنيا والآخرة.

غـير أن الحـكام شرَّدوا الأئمة عليهم السلام وقتلوهم وأزالوهم عن مراتبهم ولم يسـتفيدوا من علومهم وكفاءاتهم، فكان مثل الأئمة بينهم كمثل سراج يُطفئه طاغية فلا يسـتفيد منه الناس.

هذا موجز الحديث عن فلسفة الإمامة عند الشيعة، وإن من يستوعبها يتمكَّن من رد الشبهات التي تلوكها ألسنة البسطاء، والتي تتلخص في الأمور التالية:

- يقولون: ألم يكفِ الناس كتاب الله وفيه علم كل شيء؟.

نقول: إذًا فماذا كان السبب في أن يبعث الله أنبياء إن كان يكفي الناس نزول الكتاب في قرطاس؟. إن الحاجة إلى وجود مُبلِّغ للرسـالة هي الحاجة إلى وجود مُنفِّذ للشريعة وهو الإمام.

- يقولون: إذًا فلماذا لم ينصر الله الأئمة بالغيب؟.

نقول: لأنه شاء أن يجعل الدنيا دار بلاء يعمل الناس فيها بحريتهم تمامًا كما أن كثيرًا من الأنبياء عليهم السلام لم يرد الله إجبار أممهم على اتِّباعهم!.

- يقولون: فما هي فائدة إمام غائب؟.

نقـول: مثلـه مثل طبيب لا يدعـوه الناس إلى مرضاهم، الذنب ذنـب الحكام الطغاة الذيـن تسـببوا في غيبته. أما الله فقد أتـم نعمته باصطفائه الإمام. وإن هنـاك ظهورًا ينتظره القدر حيث يعود الإمام عجل الله تعالى فرجه الشريف إلى المسرح لكي يطبق أحكام الله جميعًا، وهي فائدة كبيرة.

ونظـرًا لأهميـة الحديث يجب أن نُفصِّل وجوه الحاجـة إلى الإمام ضمن بضعة نقاط، وقبـل التفصيـل لابـد أن نعلـم أن الحاجـات تنبعث من منطلـق واحد هـو أن الله خلق في الإنسـان الكفـاءة التامـة لبلوغ أسـمى درجـات الفلاح في الدنيـا والآخـرة، وإنجاز هذه الكفـاءة يتوقَّـف على وجود الحجة الذي يأخذ بيد من يشـاء ويُبلِّغـه الفلاح المتوخَّى فلو لم يجعل الله حجة لخلقه إذًا لكانت هذه الكفاءة لغوًا، تعالى الله عنه.

الولاية للّـه:

إن الله هـو الحاكـم المطلق الذي لا يحـقّ لأحد أن يُشرِّع للخلق مـن دونه في قليل أو كثير. وبما أنه أجل من أن يباشر الخلق بالهداية والتشريع فإنه يبعث أنبياء يهدونهم ويبلغونهم

رسالاته. وبما أنه من الواضح أن المسلمين لم يبلغوا بعد عهد الرسول ﷺ درجة من النضج الفكري والرشد الاجتماعي، وأخيرًا لم يتقمَّصوا الشريعة الإسلامية بصورة كاملة لا علمًا ولا عملًا، لما دل على ذلك من اختلافهم الواسع في الأحكام والمعارف الإسلامية، لزم أن يكون لهم إمام معصوم من بعد الرسول يقوم ببيان الأحكام وشرح المعارف حتى يكتمل نضج طائفة طليعية في الأمة تستمر بها الأمة مدى الدهر محتفظة بالروح الإسلامية الكاملة. هذا من جانب، ومن جانب آخر لزم أن يكون لهم من يُجري عليهم الأحكام حتى لا تضيع الرسالة في زحمة الأهواء المادية.

والحديث التالي يشير إلى هذه الحقيقة، إذ يقول الإمام الرضا عليه السلام: «**فَإِنْ قَالَ: فَلِمَ جَعَلَ أُولِي الْأَمْرِ وَأَمَرَ بِطَاعَتِهِمْ؟**

قِيلَ لِعِلَلٍ كَثِيرَةٍ، مِنْهَا: أَنَّ الخَلْقَ لَمَّا وَقَفُوا عَلَى حَدٍّ مَحْدُودٍ وَأُمِرُوا أَلَّا يَتَعَدَّوْا ذَلِكَ الحَدَّ لِمَا فِيهِ مِنْ فَسَادِهِمْ، لَمْ يَكُنْ يَثْبُتُ ذَلِكَ وَلَا يَقُومُ إِلَّا بِأَنْ يَجْعَلَ عَلَيْهِمْ فِيهِ أَمِينًا يَأْخُذُهُمْ بِالْوَقْفِ عِنْدَمَا أُبِيحَ لَهُمْ، وَيَمْنَعُهُمْ مِنَ التَّعَدِّي، وَالدُّخُولِ فِيمَا خَطَرَ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ كَذَلِكَ، لَكَانَ أَحَدٌ لَا يَتْرُكُ لَذَّتَهُ وَمَنْفَعَةً [مَنْفَعَتَهُ] لِفَسَادِ غَيْرِهِ، فَجَعَلَ عَلَيْهِمْ قَيِّمًا يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْفَسَادِ وَيُقِيمُ فِيهِمُ الحُدُودَ وَالْأَحْكَامَ..»[(١)].

القيادة ضرورة أبدًا:

هل الأمة بحاجة إلى قيادة؟.

لقد كانت هذه الحقيقة موضوع نقاش حينما قالت طائفة الخوارج بعدم حاجة المجتمع إلى قيادة، أو عندما قالت الفوضوية بذلك، فإنها غير واردة أبدًا اليوم، إذ لم يعد هناك أي إنسان يشك في ضرورة القيادة للإنسان، والتاريخ لم يهدنا إلى مثال واحد استغنى فيه المجتمع عن القيادة. ومن هنا وجب على الإسلام أيضًا أن يُعيِّن القيادة الصالحة.

وبما أن الدين الإسلامي أتم الشرائع، كان لا بد أن تكون قيادته بمستواه، وهل يتحقق ذلك في غير الإمام المعصوم وهو أعلم أهل عصره وأتقاهم؟.

والخلاصة: إن المجتمع بحاجة إلى القيادة، وخير القادة المعصوم العالم المُؤيَّد من قبل الله

---

(١) بحار الأنوار: ج٢٣، ص٣٢.

تعالى، فكان من حكمة الله ورحمته أن يُعيِّن للمسلمين هذه القيادة التي تتمثَّل في الإمام عليه السلام.

الحديث التالي عن الفضل بن شاذان يوضح هذه النقطة: «**أَنَّا لَا نَجِدُ فِرْقَةً مِنَ الْفِرَقِ، وَلَا مِلَّةً مِنَ الْمِلَلِ، بَقُوا وَعَاشُوا إِلَّا بِقَيِّمٍ وَرَئِيسٍ، لِمَا لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهُ فِي أَمْرِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، فَلَمْ يَجُزْ فِي حِكْمَةِ الْحَكِيمِ أَنْ يَتْرُكَ الْخَلْقَ مِمَّا يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهُ، وَلَا قِوَامَ لَهُمْ إِلَّا بِهِ. فَيُقَاتِلُونَ بِهِ عَدُوَّهُمْ، وَيُقَسِّمُونَ بِهِ فَيْئَهُمْ، وَيُقِيمُ لَهُمْ جُمُعَتَهُمْ وَجَمَاعَتَهُمْ، وَيَمْنَعُ ظَالِمَهُمْ مِنْ مَظْلُومِهِمْ..**»[(١)].

الإسلام رسالة خالدة:

علم الله من خلقه أنهم لو تركوا وشأنهم لبدلوا السنن وأظهروا البدع ولم يدعوا للأجيال القادمة فرصة السعادة بالدين المبين، فلزم أن يجعل لهم من يحفظ السنة ويمحق البدعة.

وإذ كان الإسلام رسالة خالدة فكان لابد أن يوفر الله الوسائل الممكنة لبقائها عبر الأجيال نقية صافية.

قال الإمام الرضا عليه السلام: «**أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ** (أي للخلق) **إِمَامًا قَيِّمًا أَمِينًا حَافِظًا مُسْتَوْدَعًا، لَدَرَسَتِ الْمِلَّةُ وَذَهَبَ الدِّينُ، وَغُيِّرَتِ السُّنَّةُ وَالْأَحْكَامُ، وَلَزَادَ فِيهِ الْمُبْتَدِعُونَ، وَنَقَصَ مِنْهُ الْمُلْحِدُونَ، وَشَبَّهُوا ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، لِأَنَّا قَدْ وَجَدْنَا الْخَلْقَ مَنْقُوصِينَ مُحْتَاجِينَ غَيْرَ كَامِلِينَ، مَعَ اخْتِلَافِهِمْ وَاخْتِلَافِ أَهْوَائِهِمْ وَتَشَتُّتِ أَنْحَائِهِمْ، فَلَوْ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ قَيِّمًا حَافِظًا لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ فَسَدُوا عَلَى نَحْوِ مَا بَيَّنَّا، وَغُيِّرَتِ الشَّرَائِعُ وَالسُّنَنُ وَالْأَحْكَامُ وَالْإِيمَانُ وَكَانَ فِي ذَلِكَ فَسَادُ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ**»[(٢)].

لكي تتبين الشرائع:

هناك طائفة كبيرة من الشرائع والأحكام تُبيَّن في الكتاب والسنة، أما الكتاب فبسبب احتوائه على المتشابهات وعدم وجود تفسير صحيح لها. وأما السنة فلعدم وجود كل ما يحتاج إليه الناس فيها، ولبعد الناس عنها، وقلة الثقاة، وكثرة المحرفين ذوي الميول والأهواء المختلفة، كل هذا مضافا إلى كثرة الاشتباه في الموضوعات الخارجية وتطبيق الأحكام العامة عليها.

---

(١) بحار الأنوار: ج٢٣، ص٣٢.
(٢) بحار الأنوار: ج٢٣، ص٣٢.

ولـذا احتاج النـاس إلى إمام عالم معصوم لبيان الأحكام وتوضيح المتشـابهات، قال الإمـام الصـادق عليه السلام: «**لَمْ يَتْرُكِ اللهُ الْأَرْضَ بِغَيْرِ عَـالِمٍ يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَيْـهِ وَلَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِمْ، يَعْلَمُ الحَلَالَ وَالحَرَامَ..**»(١).

التذكرة بالآخرة:

الدنيـا قريبـة إلى حواس الناس بينـما الآخرة بعيدة عنها، وأكثر النـاس تغرُّهم الدنيا فينسـون ذكـر ربهم ويغفلون عـن الآخـرة. إذًا فلابد لهم مـن داع يُذكِّرهم بهـا، ذلك لأن الآخرة حق وفي نسـيانها الشـقاء العظيم!. جـاء في الحديث عن الإمـام الرضا عليه السلام: «**إِنَّ الْإِمَامَةَ زِمَامُ الدِّينِ، وَنِظَامُ الْمُسْـلِمِينَ، وَصَلَاحُ الدُّنْيَا وَعِزُّ الْمُؤْمِنِينَ. إِنَّ الْإِمَامَةَ أُسُّ الْإِسْلَامِ النَّامِي، وَفَرْعُهُ السَّامِي. بِالْإِمَامِ تَمَامُ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ وَالحَجِّ وَالْجِهَادِ، وَتَوْفِيرُ الْفَيْءِ وَالصَّدَقَـاتِ، وَإِمْضَـاءُ الْحُـدُودِ وَالْأَحْكَامِ، وَمَنْعُ الثُّغُـورِ وَالْأَطْرَافِ. وَالْإِمَـامُ يُحَلِّلُ حَلَالَ اللهِ، وَيُحَرِّمُ حَـرَامَ اللهِ، وَيُقِيـمُ حُدُودَ اللهِ وَيَذُبُّ عَنْ دِينِ اللهِ، وَيَدْعُو إِلَى سَـبِيلِ رَبِّهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَـنَةِ وَالْحُجَّةِ الْبَالِغَةِ..**»(٢). ثم يُضيف الإمام في مقطع آخر من الرواية نفسـه: «**عَالِمٌ بِالسِّيَاسَةِ، مَفْرُوضُ الطَّاعَةِ، قَائِمٌ بِأَمْرِ اللهِ، نَاصِحٌ لِعِبَادِ اللهِ، حَافِظٌ لِدِينِ اللهِ**»(٣).

مرجع الأمة:

لابـد للناس من مرجـع ينتهي إليه كل خلاف؛ ذلك أن الناس لا يزالون مختلفين في كل الأمور، وهذا الخلاف يؤدي بهم إلى الشـقاء الدائم. فلولا أن الله يصطفي من عباده من يحسـم لهـم الخلاف، فقد كان يقتضي سـلب الناس سـعادتهم بدوام الخلاف بينهـم، واقتضى ذلك أن ينقـض غرضـه الذي خلق لأجله الناس وهـو الفلاح، وتعالى الله الحكيم أن يفعل شـيئًا لغاية مُحدَّدة ثم لا يوفر الوسائل التي تُحقِّقها؛ أعجزًا أم جهلًا أم ظلمًا؟. سبحانه وتعالى عن ذلك.

جاء في حوار بين أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام، وكان يُدعى بهشـام، ورجل شامي، وذلك في حضور الإمام عليه السلام:

قَالَ هِشَامٌ: فَبَعْدَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم مَنْ؟.

(١) بحار الأنوار: ج٢٣، ص٤٠.

(٢) بحار الأنوار: ج٢٥، ص١٢٠.

(٣) بحار الأنوار: ج٢٥، ص١٢٤.

قَالَ الشَّامِيُّ: الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ.

فَقَالَ هِشَامٌ: فَهَلْ نَفَعَنَا الْيَوْمَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ فِيمَا اخْتَلَفْنَا فِيهِ حَتَّى رَفَعَ عَنَّا الاخْتِلَافَ وَمَكَّنَنَا مِنَ الاتِّفَاقِ؟!.

فَقَالَ الشَّامِيُّ: نَعَمْ!.

قَالَ هِشَامٌ: فَلِمَ اخْتَلَفْنَا نَحْنُ وَأَنْتَ؟ جِئْتَنَا مِنَ الشَّامِ فَخَالَفْتَنَا، وَتَزْعُمُ أَنَّ الرَّأْيَ طَرِيقُ الدِّينِ، وَأَنْتَ مُقِرٌّ بِأَنَّ الرَّأْيَ لَا يَجْمَعُ عَلَى الْقَوْلِ الْوَاحِدِ الْمُخْتَلِفَيْنِ.

فَسَكَتَ الشَّامِيُّ كَالْمُفَكِّرِ.

فَقَالَ أَبُو عَبْدِاللهِ عليه السلام: **مَا لَكَ لَا تَتَكَلَّمُ؟!.**

فَقَالَ الشَّامِيُّ: إِنْ قُلْتُ: إِنَّا مَا اخْتَلَفْنَا كَابَرْتُ، وَإِنْ قُلْتُ: إِنَّ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ يَرْفَعَانِ عَنَّا الاخْتِلَافَ أَبْطَلْتُ؛ لِأَنَّهُمَا يَحْتَمِلَانِ الْوُجُوهَ، وَإِنْ قُلْتُ: قَدِ اخْتَلَفْنَا وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا يَدَّعِي الْحَقَّ فَلَمْ يَنْفَعْنَا إِذًا الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، وَلَكِنْ لِي عَلَيْهِ مِثْلُ ذَلِكَ.

فَقَالَ لَهُ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام: **سَلْهُ تَجِدْهُ مَلِيًّا**[1].

فَقَالَ الشَّامِيُّ لِهِشَامٍ: مَنْ أَنْظَرُ لِلْخَلْقِ رَبُّهُمْ أَمْ أَنْفُسُهُمْ؟!.

فَقَالَ هِشَامٌ: بَلْ رَبُّهُمْ أَنْظَرُ لَهُمْ.

فَقَالَ الشَّامِيُّ: فَهَلْ أَقَامَ لَهُمْ مَنْ يَجْمَعُ كَلِمَتَهُمْ وَيَرْفَعُ اخْتِلَافَهُمْ وَيُبَيِّنُ لَهُمْ حَقَّهُمْ مِنْ بَاطِلِهِمْ.

فَقَالَ هِشَامٌ: نَعَمْ.

قَالَ الشَّامِيُّ: مَنْ هُوَ؟!.

قَالَ هِشَامٌ: أَمَّا فِي ابْتِدَاءِ الشَّرِيعَةِ فَرَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم، وَأَمَّا بَعْدَ النَّبِيِّ فَغَيْرُهُ.

قَالَ الشَّامِيُّ: مَنْ هُوَ غَيْرُ النَّبِيِّ الْقَائِمُ مَقَامَهُ فِي حُجَّتِهِ؟!.

قَالَ هِشَامٌ فِي وَقْتِنَا هَذَا أَمْ قَبْلَهُ؟!.

---

(١) أي واسع المعرفة.

قَالَ الشَّامِيُّ: بَلْ فِي وَقْتِنَا هَذَا.

قَالَ هِشَامٌ: هَذَا الْجَالِسُ (يَعْنِي أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام) الَّذِي نَشُدُّ إِلَيْهِ الرِّحَالَ وَيُخْبِرُنَا بِأَخْبَارِ السَّمَاءِ وِرَاثَةً عَنْ أَبٍ عَنْ جَدٍّ.

قَالَ الشَّامِيُّ: وَكَيْفَ لِي بِعِلْمِ ذَلِكَ.

فَقَالَ هِشَامٌ: سَلْهُ عَمَّا بَدَا لَكَ.

قَالَ الشَّامِيُّ: قَطَعْتَ عُذْرِي...»[١].

الإمامة ضرورة حضارية:

إن أبسط تعريف للإنسان وأشمله هو: أن الإنسان خُلِقَ حضاريًّا. وهذا يعني امتلاكه لمؤهلات الحضارة. وليست الحضارة سوى القدرة على التحكم في الذات.

ولا ريب في أن كل إنسان يجد أمامه آفاقًا واسعة يستطيع الانطلاق فيها إلى أسمى مراتب الضبط الذاتي. ولو فتشنا التاريخ لوجدنا أن قفزاته التقدمية كانت نتيجة البطولات السامية التي تتمتع بها فئة قليلة من بني آدم، ولم يكن الآخرون إلَّا مجرد أتباع اقتفوا آثار البطولات تلك. فلولا تلك البطولات إذًا لكان يلفُّ التاريخ ظلام كثيف. وأحداث التاريخ تدل على أن أعظم أولئك الرجال هم المؤيدون بالغيب. فلم يشهد التاريخ من استطاع أن يزكي الناس ويربِّيهم بسيرته المشرقة سوى الأنبياء ومن اتَّبعهم.

وهكذا كان مقتضى النظام الكوني الذي يتمتع بالدقة المتناهية ألَّا يدع مُدبِّرُها الإنسانَ، الذي جُعِلت فيه مؤهلات التقدُّم الحضاري، يعيش الهمجية دون أن يبعث إليه المزيد من هؤلاء الرجال الأفذاذ الذين يُعلِّمون الناس بسيرتهم الشخصية كيف يمكن لهم أن يبلغوا المجد الرفيع، وهذا التعليم العملي يُدعى في منطق الشريعة بالحجة، إذ إن هؤلاء سيكونون دليلًا واقعيًّا على إمكانية التقدُّم الحضاري.

والخلاصة: لابد للناس ممن يُربِّيهم على الضبط الذاتي والأخلاق الحضارية، ولابد أن يتفوَّق هذا الرجل علمًا وعملًا ويبلغ في ذلك المنتهى، ولا يكون ذلك إلَّا لمن عصمه الله.

فلزم أن يبعث الله من خلقه مِنْ يربيهم، فبعث الأنبياء عليهم السلام في حينهم، وجعل من

---

(١) بحار الأنوار: ج٢٣، ص٩.

بعدهـم حججًـا يمثلونهم وهـم الأئمة المعصومون عليهم السلام، ويحتج الله يـوم القيامة بهم على خلقه.

فإن قال أحد منهم: لم أتمكن.

قال له: كيف استطاع هذا الرجل وهو بشر مثلكم أن يقوم بما هو أهم من هذا؟.

إذًا فإن وجود نموذج بشري يمثل قمة الحياة الحضارية السـامية ضرورة إنسـانية لا يمكن أن يتخلَّف عنها نظام الخلق الدقيق الحكيم!.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «.. **يَا هِشَامُ لَا يَحْتَجُّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى خَلْقِهِ بِحُجَّةٍ لَا يَكُونُ عِنْدَهُ كُلُّ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ**..»[1].

أي لا يمكن ذلك أبدًا، بل يجب أن يكون الحجة قمة الفضيلة والمعرفة.

الإمام من يُعينه؟

هل يُعيِّن الله الإمام أم الناس أنفسهم؟.

من الواضح أن الذي يُعيَّن لتنفيذ النظام ينبغي أن يكون عالمًا به مطبقًا له. وأن الذي يُبعث لكي يُربِّي الإنسان حضاريًّا وخلقيًّا، يجب أن يكون زكي النفس طاهر القلب وأسمى حضاريًّـا من كل الناس. وأن الذي يُصطفى ليكـون مرجعًا لخلافات البشر في أمور الدين والدنيـا، يجب أن يتفوَّق عليهم بالعلـم والتقوى لكيلا يُختلف فيه بدلًا عن أن يُختلف إليه. وأن الـذي يُعلِّم الناس المعارف ويُذكِّرهم بربهم والدار الآخرة وينشر العدالة بينهم، يجب أن يكون أعلم الناس وأتقاهم وأعبدهم وأكثرهم ذكرًا لله. وأن الذي يقود أمة الإسلام في جمعتهم وجماعتهم وسياستهم الخارجية والداخلية، يجب أن يكون أعدل الأمة وأعلمها.

وبصـورة موجـزة أن الذي يقـوم بتغطية حاجات المجتمع المسـلم، يجـب أن يكون بحيث يستطيع أن يسوق الإنسان إلى السعادة التي خُلِقَ من أجلها البشر، ولا يمكن للبشر أنفسهم أن يصطفوا هكذا إنسان لعدة أسباب:

١- لأنهم لا يستطيعون معرفة هكذا إنسان، بل قد يُخيَّل إليهم أن رجلًا أعلم وأتقى وهو بالتالي أحرى بالإمامة، ثم لا يكون فيه أدنى جدارة.

---

(١) الأصول من الكافي: ج١، ص٢٦٢.

٢- ولو عرفوه لما قاموا باصطفائه واختياره، لأن الناس ينظرون إلى الزعماء من زواياهم الخاصة وحسب شهواتهم ومصالحهم، فلذلك يختلفون في اختيارهم له.

٣- وأخيرًا.. لأن الأهداف التي يجب أن يحققها الإمام تشترك مع الأهداف التي ينبغي أن يحققها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

وكما أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لا يمكن أن يُعيّن من قبل الناس أنفسهم؛ لأنه وسيلة متصلة بين الله والإنسان، فإن الإمام لا يمكن أن يُعيّن إلَّا من قبل الله أيضًا.

وبتعبير آخر: إن الإمام ينبغي أن يكون مؤيَّدًا بالغيب، عارفًا بالله ودينه ومعارفه، بعيدًا عن تأثرات المادة، وبعيدًا عن ظروفها الضيقة. ولا يؤيد الله من يختاره الناس بل من يصطفيه هو سبحانه، وليس للناس الخيرة إذا قضى الله أمرًا؛ ذلك لأنهم عباد مربوبون يجب أن يُسلِّموا بالحاكمية المطلقة لله في كل الشؤون. والواقع أن من عجيب الرأي ما يقوله بعض البسطاء من أن على الإنسان التسليم لله في كل مناحي الحياة سوى القيادة، في الوقت الذي تُعتبر القيادة أعظم ما يجب إصلاحها. أليست السياسة إن صَلُحَت صَلُحَت الحياة، وإن فَسَدَت ساد الأرضَ الفسادُ والفوضى؟. فلماذا يجب أن نخضع لله في شرائعه كلها ما سوى القيادة؟.

أم كيف نعتقد بأن على الله أن يُنزِّل إليهم الدين وليس عليه أن يختار من يُنفِّذه؟.

قال الله سبحانه مخاطبًا النبي إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾[2]. وقال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[3]. من هذه الآيات يظهر بوضوح أن الخلافة والإمامة - اللذين هما تعبيران عن واقع واحد- ليستا من حق أحدٍ، وإنما هما لله وحده لا شريك له.

وجاء عن الإمام الرضا عليه السلام: «**إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمْ يَقْبِضْ نَبِيَّهُ صلى الله عليه وآله وسلم حَتَّى أَكْمَلَ لَهُ الدِّينَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ فِيهِ تَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ، بَيَّنَ فِيهِ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ وَالْحُدُودَ وَالْأَحْكَامَ وَجَمِيعَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ النَّاسُ كَمَلًا. فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[4]. وَأَنْزَلَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ وَهِيَ آخِرُ عُمُرِهِ صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي**

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٢٤.

(٢) سورة ص، آية: ٢٦.

(٣) سورة البقرة، آية: ٣٠.

(٤) سورة الانعام، آية: ٣٨.

وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾(١). فَأَمْرُ الْإِمَامَةِ مِنْ تَمَامِ الدِّينِ وَلَمْ يَمْضِ صلى الله عليه وآله وسلم حَتَّى بَيَّنَ لِأُمَّتِهِ مَعَالِمَ دِينِهِ وَأَوْضَحَ لَهُمْ سُبُلَهُ وَتَرَكَهُمْ عَلَى قَصْدِ الْحَقِّ وَأَقَامَ لَهُمْ عَلِيًّا عليه السلام عَلَمًا وَإِمَامًا وَمَا تَرَكَ شَيْئًا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْأُمَّةُ إِلَّا بَيَّنَهُ. فَمَنْ زَعَمَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُكْمِلْ دِينَهُ فَقَدْ رَدَّ كِتَابَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمَنْ رَدَّ كِتَابَ اللهِ فَهُوَ كَافِرٌ هَلْ يَعْرِفُونَ قَدْرَ الْإِمَامَةِ وَمَحَلَّهَا مِنَ الْأُمَّةِ فَيَجُوزَ فِيهَا اخْتِيَارُهُمْ؟.

إِنَّ الْإِمَامَةَ أَجَلُّ قَدْرًا وَأَعْظَمُ شَأْنًا وَأَعْلَى مَكَانًا وَأَمْنَعُ جَانِبًا وَأَبْعَدُ غَوْرًا مِنْ أَنْ يَبْلُغَهَا النَّاسُ بِعُقُولِهِمْ أَوْ يَنَالُوهَا بِآرَائِهِمْ أَوْ يُقِيمُوا إِمَامًا بِاخْتِيَارِهِمْ.

إِنَّ الْإِمَامَةَ خَصَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ عليه السلام بَعْدَ النُّبُوَّةِ وَالْخُلَّةِ مَرْتَبَةً ثَالِثَةً وَفَضِيلَةً شَرَّفَهُ بِهَا وَأَشَادَ بِهَا ذِكْرَهُ فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ﴾ فَقَالَ الْخَلِيلُ عليه السلام سُرُورًا بِهَا: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ﴾ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فَأَبْطَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ إِمَامَةَ كُلِّ ظَالِمٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَصَارَتْ فِي الصَّفْوَةِ. ثُمَّ أَكْرَمَهُ اللهُ بِأَنْ جَعَلَهَا فِي ذُرِّيَّتِهِ أَهْلِ الصَّفْوَةِ وَالطَّهَارَةِ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ٧٢ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾(٢). فَلَمْ تَزَلْ فِي ذُرِّيَّتِهِ يَرِثُهَا بَعْضٌ عَنْ بَعْضٍ قَرْنًا فَقَرْنًا حَتَّى وَرِثَهَا النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلم فَقَالَ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾(٣). فَكَانَتْ لَهُ خَاصَّةً فَقَلَّدَهَا صلى الله عليه وآله وسلم عَلِيًّا عليه السلام بِأَمْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رَسْمِ مَا فَرَضَهَا اللهُ فَصَارَتْ فِي ذُرِّيَّتِهِ الْأَصْفِيَاءِ الَّذِينَ آتَاهُمُ اللهُ الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ﴾(٤)، فَهِيَ فِي وُلْدِ عَلِيٍّ عليهم السلام خَاصَّةً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِذْ لَا نَبِيَّ بَعْدَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم فَمِنْ أَيْنَ يَخْتَارُ هَؤُلَاءِ الْجُهَّالُ؟.

إِنَّ الْإِمَامَةَ هِيَ مَنْزِلَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَإِرْثُ الْأَوْصِيَاءِ، إِنَّ الْإِمَامَةَ خِلَافَةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَخِلَافَةُ الرَّسُولِ وَمَقَامُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَمِيرَاثُ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ عليهما السلام، إِنَّ الْإِمَامَةَ زِمَامُ الدِّينِ وَنِظَامُ الْمُسْلِمِينَ وَصَلَاحُ الدُّنْيَا وَعِزُّ الْمُؤْمِنِينَ.

---

(١) سورة المائدة، آية: ٣.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ٧٢-٧٣.

(٣) سورة آل عمران، آية: ٦٨.

(٤) سورة الروم، آية: ٥٦.

.. الْإِمَـامُ الْمُطَهَّرُ مِنَ الذُّنُوبِ، الْمُبَرَّأُ مِنَ الْعُيُوبِ، مَخْصُوصٌ بِالْعِلْمِ، مَوْسُـومٌ بِالْحِلْمِ، نِظَامُ الدِّينِ، وَعِزُّ الْمُسْلِمِينَ، وَغَيْظُ الْمُنَافِقِينَ، وَبَوَارُ الْكَافِرِينَ.

.. الْإِمَـامُ وَاحِـدُ دَهْرِهِ لَا يُدَانِيـهِ أَحَدٌ وَلَا يُعَادِلُهُ عَالِمٌ، وَلَا يُوجَدُ مِنْـهُ بَدَلٌ وَلَا لَهُ مِثْلٌ وَلَا نَظِيرٌ، مَخْصُـوصٌ بِالْفَضْـلِ كُلِّهِ مِنْ غَـيْرِ طَلَبٍ مِنْهُ لَهُ وَلَا اكْتِسَـابٍ بَـلِ اخْتِصَاصٌ مِنَ الْمُفْضِـلِ الْوَهَّـابِ، فَمَنْ ذَا الَّـذِي يَبْلُـغُ مَعْرِفَةَ الْإِمَـامِ وَيُمْكِنُـهُ اخْتِيَارُهُ؟. هَيْهَـاتَ هَيْهَاتَ ضَلَّـتِ الْعُقُولُ، وَتَاهَتِ الْحُلُومُ، وَحَارَتِ الْأَلْبَابُ! وَحَسَرَتِ الْعُيُونُ، وَتَصَاغَرَتِ الْعُظَمَاءُ، وَتَحَيَّرَتِ الْحُكَمَاءُ، وَتَقَاصَرَتِ الْحُلَمَاءُ، وَحَصِرَتِ الْخُطَبَاءُ، وَجَهِلَتِ الْأَلِبَّاءُ، وَكَلَّتِ الشُّعَرَاءُ، وَعَجَزَتِ الْأُدَبَاءُ، وَعَيِيَتِ الْبُلَغَاءُ عَنْ وَصْفِ شَـأْنٍ مِنْ شَـأْنِهِ أَوْ فَضِيلَةٍ مِنْ فَضَائِلِهِ؛ فَأَقَرَّتْ بِالْعَجْـزِ وَالتَّقْصِيرِ. وَكَيْـفَ يُوصَفُ أَوْ يُنْعَتُ بِكُنْهِهِ، أَوْ يُفْهَمُ شَيْءٌ مِـنْ أَمْرِهِ، أَوْ يُوجَدُ مَنْ يَقُـومُ مَقَامَهُ وَيُغْنِي غَنَـاءَهُ؟! لَا، كَيْفَ وَأَنَّى وَهُوَ بِحَيْثُ النَّجْمِ مِنْ أَيْدِي الْمُتَنَاوِلِينَ وَوَصْفِ الْوَاصِفِينَ، فَأَيْنَ الِاخْتِيَارُ مِنْ هَذَا؟. وَأَيْنَ الْعُقُولُ عَنْ هَذَا؟ أَوْ أَيْنَ يُوجَدُ مِثْلُ هَذَا؟.

.. ظَنُّـوا أَنَّ ذَلِـكَ يُوجَـدُ فِي غَيْرِ آلِ الرَّسُـولِ عليهم السلام كَذَبَتْهُـمْ وَاللهِ أَنْفُسُـهُمْ، وَمَنَّتْهُمُ الْبَاطِـلَ فَارْتَقَـوْا مُرْتَقًى صَعْبًا دَحْضًا تَـزِلُّ عَنْهُ إِلَى الْحَضِيضِ أَقْدَامُهُمْ. رَامُـوا إِقَامَةَ الْإِمَامَةِ بِعُقُـولٍ حَائِـرَةٍ بَائِـرَةٍ نَاقِصَـةٍ ... رَغِبُـوا عَـنِ اخْتِيَـارِ اللهِ وَاخْتِيَـارِ رَسُـولِهِ إِلَى اخْتِيَارِهِـمْ وَالْقُـرْآنُ يُنَادِيهِـمْ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1]، وَقَـالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[2]، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾[3].

إِنَّ الْأَنْبِيَـاءَ وَالْأَئِمَّـةَ يُوَفِّقُهُمُ اللهُ وَيُؤْتِيهِمْ مِنْ مَخْزُونِ عِلْمِهِ وَحُكْمِهِ مَا لَا يُؤْتِيهِ غَيْرَهُمْ

---

(١) سورة القصص، آية: ٦٨.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٣٦.

(٣) سورة القلم، آية: ٣٦-٤١. إن النص يستشهد ببعض الآيات التي تذكر الإنسان بحقيقة الألوهية الكاملة والسيادة المطلقة التي يختص بها الخالق الرزاق المدبر، ويقول: ما دام الله هو الذي خلق فهو الذي يختار، وإذا اختار فليس لأحد أن يردّ اختياره إن كان من المؤمنين. وما دام الله يقضي فإن قضاءه هو النافذ دون المؤمنين الذين ليس لهم من أمرهم الخيرة. وإذا كان الأمر كله لله، ومن ضمنه قيادة الناس، فإن أي اقتراح آخر سيكون إنكارًا لهذه الحقيقة وسببًا من أسباب الشرك. وهكذا نفت الآية الأخيرة وجود شركاء لله وتساءلت أيهم يضمن وجود هؤلاء الشركاء؟.

فَيكُـونُ عِلْمُهُمْ فَوْقَ كُلِّ عِلْم أَهْلِ زَمَانِهِـمْ فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾(١)، وَقَوْلِـهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًاۗ﴾(٢)، وَقَوْلِـهِ عَزَّ وَجَـلَّ فِي طَالُوتَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾(٣)، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ لِنَبِيِّهِ صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾(٤)، وَقَالَ عَـزَّ وَجَلَّ فِي الْأَئِمَّةِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وَعِتْرَتِهِ وَذُرِّيَّتِهِ عليهم السلام: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾(٥).

وَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اخْتَارَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِأُمُورِ عِبَادِهِ شَرَحَ صَدْرَهُ لِذَلِكَ وَأَوْدَعَ قَلْبَهُ يَنَابِيعَ الْحِكْمَـةِ وَأَلْهَمَهُ الْعِلْمَ إِلْهَامًا فَلَمْ يَعْيَ بَعْدَهُ بِجَـوَابٍ وَلَا يُحَيَّرُ فِيهِ عَنِ الصَّوَابِ وَهُوَ مَعْصُومٌ مُؤَيَّـدٌ مُوَفَّقٌ مُسَـدَّدٌ قَدْ أَمِنَ الْخَطَايَا وَالزَّلَلَ وَالْعِثَارَ يَخُصُّـهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِذَلِكَ لِيَكُونَ حُجَّتَهُ عَلَى عِبَادِهِ وَشَـاهِدَهُ عَلَى خَلْقِهِ وَ: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾، فَهَلْ يَقْـدِرُونَ عَـلَى مِثْلِ هَذَا فَيَخْتَارُوهُ أَوْ يَكُـونُ مُخْتَارُهُمْ بِهَذِهِ الصِّفَةِ فَيُقَدِّمُـوهُ؟، تَعَدَّوْا -وَبَيْتِ اللهِ- الْحَـقَّ وَنَبَـذُوا كِتَـابَ اللهِ ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٦). وَفِي كِتَابِ اللهِ الْهُدَى وَالشِّـفَاءُ فَنَبَـذُوهُ وَاتَّبَعُـوا أَهْوَاءَهُـمْ فَذَمَّهُمُ اللهُ وَمَقَتَهُمْ وَأَتْعَسَـهُمْ فَقَالَ عَـزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٧)، وَقَـالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾(٨)، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾(٩)»(١٠).

---

(١) سورة يونس، آية: ٣٥.
(٢) سورة البقرة، آية: ٢٩٦.
(٣) سورة البقرة، آية: ٢٤٧.
(٤) سورة النساء، آية: ١١٢.
(٥) سورة النساء، آية: ٥٤-٥٥.
(٦) سورة البقرة، آية: ١٠١.
(٧) سورة القصص، آية: ٥٠.
(٨) سورة محمد، آية: ٨.
(٩) سورة غافر، آية: ٣٥.
(١٠) بحار الأنوار: ج٢٥، ص ١٢١-١٢٨.

٥ ٢ - كيف نعرف الإمام؟

١- كيف نهتدي إلى الإمام؟.

بما أن الإمامة بمثابة النبوة، فإن هناك وسائل مشتركة بينهما في التعرُّف عليهما. ومن الطبيعي إذًا أن يكون العقل هنا -كما في الرسالة - هو الرائد الوحيد الذي يهدينا إلى الحق. ولقد سبق منا القول المفصل في آيات النبوة. ولذلك فلا ينبغي هنا إلَّا الإشارة إليها ونوعية تطبيقها على واقع الإمامة بإيجاز كثير!

نعرف الإمام:

١- بالإمامة.

٢- بالإمام نفسه.

٣- بالمعجزة.

٤- بالنص.

٥- بشهادة الله.

١- الإمامة:

لقد سبق الحديث عن حاجة الإنسان إلى الإمام، وهي حاجة متشابهة تمامًا مع حاجتهم إلى الرسول. فلو رأينا من اكتملت فيه شروط الاستجابة لحاجة البشر من هذه الناحية فكان مذكرًا بالله، وبما أودع في الإنسان من العقل والمعرفة الفطرية، مُبيِّنًا لما يُرضي الرب وما يُسخطه، دالًّا على مصالح البشر ومفاسدهم، ولديه علم يرفع به كل خلاف بين البشرية، ويُذكِّرهم بربهم وبمصيرهم، ويُعلِّمهم الفضائل ويُربِّيهم عليها، ويهديهم سبيل

الوصـول إلى ربهـم، وكان يدَّعـي أن ليـس له من الأمـر شيء، بل كل ذلك من الله بسـبب الرسول؛ فعند ذلك فقط نعرف أنه صادق، وأنه الإمام الحق.

وهذا الأمر لم يتحقق إلَّا بالأئمة الاثني عشر عَلَيهِمُ السَّلَامُ فقط. فَمَنْ أظهر غيرهـم فلسـفة الإسـلام المسـتوحاة مـن الكتاب والسـنة ودعمها بالحجـج والبراهين الوجدانيـة؟. ومَنْ سـواهم أرشـد الناس إلى واقع العقل وبَيَّن ما يحجبه وكشـف عن النفس وما يُرديها؟، مَنْ غيرهم كان دأبه التذكرة بالله وباليوم الآخرة؟ ثم كان يدَّعي إمامة الخلق جميعًا؟.

إن الذي ادَّعى الخلافة، ابتداءً من أول شـخص وانتهاءً إلى آخر خلفاء العثمانيين، لم يَدِّعِ أنه قائم بكل ما يُرشـد العقل إلى لزوم توفره في الإمام. والذي ادَّعى العلم في الأمة لم يَدِّعِ الولاية على الرقاب والأموال.

فَمَـنْ هو جامـع العلم والولايـة؟. مَنْ الذي يقول: سـلوني قبـل أن تفقدوني؟. ثم يقول: لم أزل مظلومًا منذ قُبِض رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -إشـارة إلى زحزحة الخلافة عنه-، ومَنْ يقول ذلك غير أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عَلَيهِ السَّلَامُ؟.

إن منصـب الإمامـة بالمعنـى الذي سـبق لم يَدَّعِهِ أحـد غير الأئمة الاثنـي عشر، ولم يُسجل التاريخ رجلًا كان لديه من مواهبها ما كانت فيهم.

إن الإمامـة هي الشـهادة الحقة عـلى صدق الأئمة عَلَيهِمُ السَّلَامُ. ونظـرة واحدة إلى أقوالهم وسيرتهم ونظرتهم إلى أنفسهم تدلنا على هذه الحقيقة.

٢- الإمام:

والإمـام نفسـه دليـل إمامته لما يتميَّز به مـن تفوُّق علمي وخُلُقي مـن دون أن يتعلَّم علومه من أحدٍ، فهو لا يحتاج إلى اكتساب علم في حين يحتاج إليه الناس أجمعون.

أرأيت ابن تسع سنين كالإمام الجواد عَلَيهِ السَّلَامُ يُجيب عن ثلاثين ألف مسألة علمية؟.

أم هـل سـمعت مثل الإمام الصادق عَلَيهِ السَّلَامُ مَنْ يُعلِّم تلاميـذه كل العلوم ولم يدرس عند أحد شيئًا؟.

إن العلم لا يأتي إلَّا بالاكتساب أو الوحي والإلهام، فإذا علمنا من تاريخ الائمة أنهم لم يكتسبوا العلم من أحدٍ، أيقنا أن علمهم كان من الله، فهم الأئمة صدقًا وعدلًا.

أما الأخلاق فإذا عرفنا من أحد الصدق والأمانة والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة والكرم والطهارة.

وبكلمة: رأيناه مثلًا لكل الفضائل، ثم رأيناه أعبد الناس وأتقاهم وأخشى الناس من الله.. كان هذا هو الإمام حقا، ذلك لأن حكمة الله تقتضي أمر الناس بطاعة هذا دون غيره.. أيأمر الحكيم العالم باتِّباع الجاهل، أو يأمر الله الورع باتِّباع الفاسق وهو يقول: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾[١]، ويقول ﴿هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾[٢]، ويقول ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[٣].

وبما أن التاريخ لم يهدنا إلى أفضل من الأئمة عليهم السلام علمًا وتُقى، فإنهم لا غيرهم الصالحون لقيادة الخلق[٤].

٣- المعجزة:

وأظهر معاجز الأئمة عليهم السلام علومهم التي لم يسبقهم فيها أحد من البشر والتي ثبت بالعلم الحديث صدقها. وقد كان الرأي السائد ذلك اليوم بخلافها، كأقوالهم في العوالم الأخرى، وفي حجم الأرض، وفي بُعْد الشمس، وفي جسم الإنسان وكثير من أمثال ذلك. فإذا أضفنا إلى ذلك أنهم لم يكونوا قد تعلَّموا عند أحد عرفنا أن علومهم من الله بالمباشرة والإلهام أو بالوراثة. وهناك طائفة من المعاجز التي ثبتت بالنقل الصحيح والمتواتر أو اعترف بها أعداؤهم.

ومن الواضح؛ أن الحكيم لا يُضل الناس بإعطاء الكذَّاب المعاجز الباهرة التي تُغري الناس وتُلحد بهم عن الصراط السوي، فَعُلم أنهم أئمة حق لا ريب فيه[٥].

٤- النص:

والنص ها هنا بمثابة البشارة للرسول، والنصوص الشرعية الشاهدة على إمامة المعصومين على ثلاثة أقسام:

---

(١) سورة السجدة، آية: ١٨.

(٢) سورة الأنعام، آية: ٥٠.

(٣) سورة الزمر، آية: ٩.

(٤) يراجع لمعرفة ذلك كتب التاريخ كلها، بالإضافة إلى أقوال الرسول صلى الله عليه وآله الشاهدة على فضائلهم. والرسول كما نعرف: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾، سورة النجم، آية: ٣-٤.

(٥) راجع موسوعة بحار الأنوار للعلامة المجلسي الخاصة بتاريخ الأئمة الاثني عشر عليهم السلام.

ألف: الآيات القرآنية:

وهي كثيرة نذكر منها نبذة يسيرة.

١ - ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[(١)]. بنـص هـذه الآية لا يكون الإمام والخليفة ظالمًا بإجماع المسلمين، ولم يدَّعِ أحد العصمة إلَّا الأئمة الطاهرون.

٢ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾[(٢)].

حيـث إن الآية وردت في المعصومين فقط. ذلك لأن غيرهم قد يأمر بخلاف الشرع ووجوب طاعته يعني التناقض في الدين.

٣- ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾[(٣)].

عـلى من تنزل الـروح -الذي هو جبرائيل أو ملك أعظم منـه- في ليلة القدر؟. على ولاة الأمر من ملوك الأمويين أو العباسيين أم على العالم المعصوم من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم؟.

٤ - ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾[(٤)].

إن رجس الشيطان أخبث رجس، والمعروف أنه لم يدَّعِ أحد ارتفاع رجس الشيطان -الذي هو الذنب- عن أحد سوى الشيعة في أهل بيت الرسول عليهم السلام.

إننا لم نعتمد في استنباط ولاية الأئمة من الآيات على التفسير ولا على الأحاديث؛ فـإن هنـاك بضع مئـات من الآيـات صرح مفسرو الفريقـين، وكما صرَّحـت رواياتهم عن الرسول أنها نزلت في أهل البيت عليهم السلام، وهي إما تدل على ولايتهم أو تدل على فضائلهم، والأول صريح والثاني يدل دلالة ضمنية على ولايتهم، ذلك لأنه لو ثبت أنهم أفضل الخلق بنص الآيات، فهل من المعقول أن يجعل الله عهده في المفضول ويترك الأفضل؟.

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٢٤.

(٢) سورة النساء، آية: ٥٩.

(٣) سورة سورة القدر، آية: ١-٥.

(٤) سورة الأحزاب، آية: ٣٣.

تعالى الله الحكيم العليم عن ذلك وهو يقول: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾(١).

باء: أحاديث الفضيلة:

طائفة كبيرة من الأحاديث جاءت من الرسول تؤكد أن أهل بيته لهم الفضائل الجمَّة التي دونها فضائل الآخرين، وهذه النصوص -التي تواتر نقلها لدى الفريقين- تدل دلالة ضمنية على إمامة أهل البيت، إذ مع العلم بأن الله حكيم يصطفي الأفضل، لا يبقى مجال للشك في أنه اصطفى أهل البيت، لأنهم أفضل من غيرهم بنص الرسول ﷺ وتواتر النقل عنه. ونحن إذ نذكر حديثًا واحدًا من مئات الأحاديث الواردة في هذا الموضوع، نُرشد القارئ إلى الكتب المطولة مثل: (الغدير)، و(الصواعق المحرقة)، و(فضائل آل الرسول)، و(المراجعات) من تأليف كبار الباحثين من الفريقين.

قال ابن أبي الحديد -وهو من علماء السنة-: «ونحن نذكر ما استفاض من الروايات عند مناشدته أصحاب الشورى وتعديده فضائله وخصائصه التي بان(٢) بها مَنْ هم ومَنْ غيرهم، قد روى الناس ذلك فأكثروا، والذي صحّ عندي أنه لم يكن الأمر كل ما رُوي من تلك التعديدات الطويلة. ولكنه قال لهم بعد أن بايع عبد الرحمن والحاضرون عثمان وتلكأ هو -أي علي عليه السلام- عن البيعة، قال بعد كلام: «**أُنْشِدُكُمُ اللهَ أَفِيكُمْ أَحَدٌ آخَى رَسُولُ الله ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ حَيْثُ آخَى بَيْنَ بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ وَبَعْضٍ غَيْرِي**؟. فَقَالُوا: لَا.

فَقَالَ عليه السلام: **أَفِيكُمْ أَحَدٌ قَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا مَوْلَاهُ» غَيْرِي**؟. فَقَالُوا لَا.

فَقَالَ عليه السلام: **أَفِيكُمْ أَحَدٌ قَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي» غَيْرِي**؟. قَالُوا: لَا.

قَالَ عليه السلام: **أَفِيكُمْ مَنِ ائْتُمِنَ عَلَى سُورَةِ بَرَاءَةَ؟. وَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «لَا يُؤَدِّي عَنِّي إِلَّا أَنَا أَوْ رَجُلٌ مِنِّي» غَيْرِي**؟. قَالُوا: لَا.

قَالَ عليه السلام: **أَلَا تَعْلَمُونَ أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ الله ﷺ فَرُّوا عَنْهُ فِي الْحَرْبِ فِي غَيْرِ**

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١٢٤.

(٢) أي تفوَّق بها عليهم.

مَوْطِنٍ وَمَا فَرَرْتُ قَطُّ؟. قَالُوا: بَلَى!.

قَالَ عليه السلام: **أَتَعْلَمُونَ أَنِّي أَوَّلُ النَّاسِ إِسْلَامًا**؟. قَالُوا: بَلَى!.

قَالَ عليه السلام: **فَأَيُّنَا أَقْرَبُ إِلَى رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم نَسَبًا**؟. قَالُوا: أَنْتَ..»[١].

جيم: أحاديث الولاية:

وهـي التـي تدل دلالـة صريحة على أنهـم الأئمة المصطفـون من قبـل الله. ورغم أن السـلطة السياسـية في عهد الرسـول صلى الله عليه وآله وسلم كانت تُعارض بشـدة نقل مثل هذه الأحاديث فقـد تواتر النقـل إلينا بطريق الفريقين، مما دعانا إلى القطع بصحتها كـما نقطع بصحة نقل الخبر عن وجود البلاد النائية والأمم الخالية بالخبر المتواتر. وإليك جزءًا يسيرًا منها:

نُقل بسند متواتر عن طرق السنة[٢]، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

١- «**إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَا يَنْقَضِي حَتَّى يَمْضِيَ فِيهِمْ اثْنَا عَشَرَ خَلِيفَةً**..»[٣].

أترى من كان هؤلاء الخلفاء؟. أمية أم بنو العباس؟. وقد كانوا أكثر من اثني عشر.. أم الراشـدون كما يعبرون، وهم أقل عددًا منهم؟. أليس الحديث ينطبق على الأئمة الاثني عشر عليهم السلام فقط؟.

٢- «**مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ**..»[٤].

لقد قال الرسـول صلى الله عليه وآله وسلم هذه الكلمة بعد أن قال للمسـلمين: «**أَلَسْتُ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِـهِمْ**..»[٥]. فكانت كلمة تشـير إلى تلك الولاية وهي صريحة نصًّا، ومقبولة عقلاً، ومقطوعة سندًا، فما بالنا لا نأخذ بها؟.

٣- قـول الرسـول صلى الله عليه وآله وسلم: «**سَـتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثَةٍ وَسَـبْعِيْنَ فِرْقَةً، فِرْقَـةٌ فِي الْجَنَّةِ،**

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٦، ص١٦٨، وراجع أيضًا: بحار الأنوار: ج٤٠، ص٨٩.

(٢) انظر مثلاً الصحاح الستة.

(٣) صحيح مسلم: ج٦، ص٣. وهناك روايات مماثلة رُويت عن طرق أهل البيت عليهم السلام. انظر مثلاً: بحار الأنوار: ج٣٦، باب٤١، نصوص الرسول عليهم.

(٤) المعجم الوسيط للطبراني: ج١، ص١١١، شرح نهج البلاغة: ج٣، ص٢٠٨. والحديث نقلته أكثر كتب الحديث لدى الخاصة والعامة، فراجع.

(٥) بحار الأنوار: ج٢٨، ص٩٨.

وَالبَاقُوْنَ فِيْ النَّارِ»(١).

وقوله ﷺ لعليٍّ عليه السلام: «**وَإِنَّ شِيعَتَكَ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ مُبْيَضَّةً وُجُوهُهُمْ حَوْلِي..**»(٢).

وقوله ﷺ: «**عَلِيٌّ مَعَ الحَقِّ وَالحَقُّ مَعَ عَلِيٍّ يَدُورُ مَعَهُ حَيْثُمَا دَارَ...**»(٣).

أترى من هي الفرقة الناجية وما هي الفرق الهالكة؟ أيعقل أن تكون الفرقة التي مع علي هي الهالكة مع هذا الحديث؟. كَلَّا!.

٤- رُوي عن ابن عباس قال: «خَرَجْتُ مَعَ عُمَرَ إِلَى الشَّام فَانْفَرَدَ يَوْمًا يَسِيرُ عَلَى بَعِيرِهِ فَاتَّبَعْتُهُ، فَقَالَ لِي: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ! أَشْكُو إِلَيْكَ ابْنَ عَمِّكَ -أي الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام-، سَأَلْتُهُ أَنْ يَخْرُجَ مَعِي فَلَمْ يَفْعَلْ، وَلَا أَزَالُ أَرَاهُ وَاجِدًا، فَبِمَا تَظُنُّ مَوْجِدَتَهُ؟.

قُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! إِنَّكَ لَتَعْلَمُ.

قَالَ: أَظُنُّهُ لَا يَزَالُ كَئِيبًا لِفَوْتِ الْخِلَافَةِ.

قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ، إِنَّهُ يَزْعُمُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَرَادَ الأَمْرَ لَهُ.

فَقَالَ: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ! وَأَرَادَ رَسُولُ الله ﷺ فَكَانَ مَاذَا إِذَا لَمْ يُرِدِ اللهُ تَعَالَى ذَلِكَ. إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ إِذَا أَرَادَ أمر [أَمْرًا] وَأَرَادَ اللهُ غَيْرَهُ، نَفَذَ مُرَادُ الله وَلَمْ يَنْفُذْ مُرَادُ رَسُولِ الله. أَوَكُلَّمَا أَرَادَ رَسُولُ الله ﷺ كَانَ، إِنَّهُ أَرَادَ إِسْلَامَ عَمِّهِ وَلَمْ يُرِدْهُ اللهُ فَلَمْ يُسْلِمْ»(٤).

كانت تعتلج في قلب عمر شبهة الجبر، وهكذا تهرَّب من المسؤولية، وإلَّا فكيف أراد الله شيئًا وأراد الرسول غيره وهو القائل: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾(٥) إلَّا أن نقول إن المذنبين غير مقصرين لأن الله أراد شيئًا فكان كما أراد الله.

٥-وعن إبراهيم بن محمد الحمويني -و هو من علماء السنة- مسندًا عن سليم

---

(١) هناك العديد من الروايات بهذا المضمون مع اختلاف العبارات راجع: بحار الأنوار: ج٢٨، ص٢، باب: ١، افتراق الأمة بعد النبي ﷺ.

(٢) بحار الأنوار: ج٣٧، ص٢٧٢.

(٣) هذا الحديث رواه العامة والخاصة وتلقوه بالقبول وذكروه في مصادرهم، راجع: بحار الأنوار: ج٣٠، ص٣٥٢.

(٤) بحار الأنوار: ج٢٩، ص٦٣٨، شرح نهج البلاغة: ج١٢، ص ٧٨-٧٩.

(٥) سورة النجم، آية: ٣-٤.

بـن قيـس في حديث طويل ذكـر فيه بضع عشرة مـن فضائل عـلي عَلَيْهِالسَّلَامُ إلى أن قال الإمام -والجمع بين المهاجرين والأنصار شـاهدون-: «.. **فَنَصَبَنِـي لِلنَّاسِ بِغَدِيرِ خُمٍّ، ثُمَّ خَطَبَ فَقَـالَ: أَيُّهَـا النَّاسُ! إِنَّ اللهَ أَرْسَـلَنِي بِرِسَـالَةٍ ضَاقَ بِهَا صَـدْرِي فَظَنَنْتُ أَنَّ النَّـاسَ مُكَذِّبُونِي فَأَوْعَدَنِي لَأُبَلِّغُهَا أَوْ لَيُعَذِّبَنِّي**، -أي أن الله هدده صَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ أن يبلغها وإلّا عذبه، وذلك في قوله تعـالى: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ ﴾-. **ثُـمَّ أَمَرَ فَنُودِيَ بِالصَّـلَاةِ جَامِعَةً، ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ! أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ عَـزَّ وَجَـلَّ مَوْلَايَ وَأَنَا مَوْلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنَا أَوْلَى بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِـهِمْ. قَالُوا: بَلَى يَا رَسُـولَ اللهِ!. قَـالَ: قُمْ يَا عَلِيُّ، فَقُمْـتُ، فَقَالَ: مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ، اللَّهُـمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ.**

فَقَامَ سَلْمَانُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! صَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ وَلَاءٌ كَمَاذَا؟.

قَالَ صَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ: وَلَاءٌ كَوَلَائِي، مَنْ كُنْتُ أَوْلَى بِهِ مِنْ نَفْسِـهِ فَعَلِيٌّ أَوْلَى بِهِ مِنْ نَفْسِـهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ﴾، **فَكَبَّرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ، وَقَالَ: اللهُ أَكْبَرُ تَمَامُ نُبُوَّتِي وَتَمَامُ دِينِ اللهِ وَلَايَةُ عَلِيٍّ بَعْدِي.**

فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَقَالَا: يَا رَسُولَ اللهِ! هَذِهِ الْآيَاتُ خَاصَّةٌ فِي عَلِيٍّ.

قَالَ صَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ: بَلَى، فِيهِ وَفِي أَوْصِيَائِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

قَالَا: يَا رَسُولَ اللهِ! بَيِّنْهُمْ لَنَا.

قَـالَ صَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ: أَخِـي وَوَزِيرِي، وَوَصِيِّـي، وَخَلِيفَتِي فِي أُمَّتِـي، وَوَلِيُّ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ بَعْدِي، ثُمَّ ابْنِيَ الْحَسَـنُ، ثُمَّ ابْنِيَ الْحُسَـيْنُ، ثُمَّ تِسْـعَةٌ مِنْ وُلْدِ الْحُسَـيْنِ(١) **وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ، الْقُرْآنُ مَعَهُمْ وَهُمْ مَعَ الْقُرْآنِ لَا يُفَارِقُونَهُ وَلَا يُفَارِقُهُمْ حَتَّى يَرِدُوا عَلَيَّ الْحَوْضَ.**

فَقَالُـوا كُلُّهُـمْ -وهم أكثر من مائتي رجل مـن الصحابة-: **اللَّهُمَّ نَعَمْ، قَدْ سَـمِعْنَا ذَلِكَ وَشَهِدْنَا كَمَا قُلْتَ سَوَاءً...**»(٢).

---

(١) وهم: الإمام زين العابدين علي بن الحسين، والإمام محمد بن علي الباقر، والإمام جعفر الصادق، والإمام موسى بن جعفر الكاظم، والإمام علي بن موسى الرضا، والإمام محمد بن علي الجواد، والإمام علي بن محمد الهادي، والإمام الحسن العسكري، والإمام الحجة بن الحسن المهدي عَلَيْهِمُالسَّلَامُ.

(٢) بحار الأنوار: ج٣١، ص٤١٠.

إن هـذا الحديث يشـهد على ولاية الأئمة عليهم السلام جميعًا كما يشـهد عـلى أن الثاني عشر منهم سيبقى إلى يوم القيامة، حيث قال الرسول: «**وَفِي أَوْصِيَائِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**».

وهنا دليل آخر وهو أن الإمامة -كما حددناها سابقًا- منصب إلهي ليس لأحد الحق في انتحاله من دون أمر الله. والشيعة فقط يحددون الإمامة هذا التحديد فهم فقط يعتمدون عـلى النص، وليس أحد من السـنة ادَّعى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم نـص على غير أهل البيت عليهم السلام، فهـم مجمعـون على عدم النـص في غير أهل البيـت. وقد عرفنـا بالدليل السـابق أن الإمام لابـد أن يُنتخب من قبـل الله. إذًا فلابد من النص، فلو فُرض أننا لم نعثر على نص موجود، فلابد أن نقول: إنه كان موجودًا ولكن السلطات الجائرة حذفته من التاريخ إثباتًا لسلطانها الظالم.

وبكلمـة موجـزة: من اعتقد أن الإمامة من الله، لا يمكنه إلَّا أن يعتقد أن أهل البيت هم الأئمة عليهم السلام؛ إذ لم يَدَّعِ أحد أن غيرهم قد انتُخب من قِبَل الله.

٥- شهادة اللّـه:

والله تبارك و تعالى يشهد بصدق الأئمة بالأسلوب نفسه الذي يشهد بصدق الأنبياء وهو:

١ – باستجابة الدعاء، إذا توسل الفرد بهم، وبالشفاء بتربة الإمام الحسين عليه السلام مثلًا وما شابه.

٢– بنصر من آمن بهم وهدايته في الدنيا والآخرة.

٣– بشهادة المؤمن على صدق الإمامة عندما يصفو من كل كدر.

٤– بالوصول إلى الحقيقة مع سلوك منهج الإمامة(١).

كيف نثبت الإمام؟.

ولابد لنا أن نُشير هاهنا إلى الحقيقة التي سبق وأن أشرنا إليها عندما تحدثنا عن كيفية إثبات وجود الله، وهي:

إن المهم في إقناع الناس في القضايا المبدئية تذليل أنفسـهم المستكبرة لقبول الحق عن

---

(١) راجع دليل (شهادة الله) في البحث السابق عن نبوة رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

طريـق الترهيـب والترغيب بـما في الدنيا والآخرة مـن أجرٍ للمحق ومن عـذابٍ للمبطل. والأسـلوب القرآني الناجح يسـتخدم قوة الترهيب بعـذاب الله في الآخرة ونقماته في الدنيا أكثر من الترغيب بثواب الله الجزيل في الآخرة والفلاح الدائم في الدنيا. ومن هنا فلابد:

أولًا: أن نـشرح للـذي نبتغـي هدايتـه للحق -في الإمامـة- أن المبطـل يلقى جزاءه الرئيـسي في الدنيا والآخرة، ولا يجني الإنسـان مـن معارضة الحق إلَّا الخزي والويـل، وأن الإمامـة لو كانت على بيِّنة من الله فما يزيد جاحدها غير تخسـير لنفسه، وأن التقليد واتِّباع الهوى والخوض مع المبطل كيفما يخوض؛ كل ذلك ويل وشر عريض. ولابد من دعم هذه الحقيقة بآيات قرآنية وأمثال من الأمم الماضية، كيف خسرت نفسها عندما عارضت الحق.

ثانيًا: ثم يأتي دور شرح معنى الإمامة، والحاجة إلى الإمام عقلًا بصورة مفصلة.

ثالثًا: بعرض صفات الأئمة عَلَيْهِمْ السَّلَامُ ومآثرهم وكيف ظُلِموا في سبيل الحق.

رابعًـا: وأخـيرًا ببيان النصوص المتفقة بين الفريقين، ونسـف الشـبهات التي تختلج في قلوب بعض البسـطاء من العامة، والتي يجب أن نشـير إليها هاهنا ونردها بالحجج الدامغة.

شبهات مردودة:

١- **يقولون**: لو كان الإمام علي -كما تزعمون- صاحب الحق الشرعي للخلافة بعد الرسول فلماذا بايع أبا بكر وعمر وعثمان وهو الرجل الشجاع؟.

نقول في الجواب:

السـبب نعرفـه مـن خطبة ارتجلهـا الإمـام عَلَيْهِ السَّلَامُ في الكوفة، ومن كلـمات له أخرى نوجزها فيما يلي:

ألف: لأن الإمام لم يجد أنصارًا يُحارب بهم الأعداء، ولقد صرَّح مرة بأنه لو كنتُ قد وجدت أربعين شخصًا لدافعت عن حقي.

بـــاء: إن الإمـام عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يعلم أن الأمة الإسـلامية لم تبلـغ النضج الفكري الذي يُؤهِّلهـا لتصحيح أخطائها بالحرب المسـلحة، فإذا كان الإمام يُقاوم أعداءه بالسـلاح كان يُعرِّض الأمة لما لا تطيق، فكانت تسـبب الـردة، ولذلك فقد آثر الإمام الإغماض عن حقه

في سبيل الإبقاء على الإسلام حتى يأتي ذلك اليوم الذي ينشر الحق بالتبليغ.

جيم: إن بيعة الإمام عليه السلام لأبي بكر وعمر وعثمان كانت بالإكراه، حيث كان مهددًا بالقتل في كل الحالات.

والحديث التالي أكبر شاهد على هذه الحقائق الثلاث في كتاب سليم بن قيس المعاصر للإمام عليه السلام:

قال قائل -ولعله أشعث بن قيس-: «فَمَا مَنَعَكَ -يَا ابْنَ أَبِي طَالِبٍ- حِينَ بُويِعَ أَخُو بَنِي تَيْم (أَبُو بَكْرٍ)، وَأَخُو بَنِي عَدِيِّ بْنِ كَعْبٍ (عُمَر)، وَأَخُو بَنِي أُمَيَّةَ (عُثْمَان)، بَعْدَهُمْ أَنْ تُقَاتِلَ وَتَضْرِبَ بِسَيْفِكَ وَأَنْتَ لَمْ تَخْطُبْنَا خُطْبَةً مُذْ كُنْتَ قَدِمْتَ الْعِرَاقَ إِلَّا قُلْتَ فِيهَا -قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ عَنِ الْمِنْبَرِ-: **وَاللهِ إِنِّي لَأَوْلَى النَّاسِ بِالنَّاسِ، وَمَا زِلْتُ مَظْلُومًا مُذْ قُبِضَ رَسُولُ اللهِ** صلى الله عليه وآله وسلم، فَمَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَضْرِبَ بِسَيْفِكَ دُونَ مَظْلِمَتِكَ؟.

قَالَ عليه السلام: **يَا ابْنَ قَيْسٍ! اسْمَعِ الْجَوَابَ، لَمْ يَمْنَعْنِي مِنْ ذَلِكَ الْجُبْنُ وَلَا كَرَاهَةٌ لِلِقَاءِ رَبِّي، وَأَلَّا أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِي مِنَ الدُّنْيَا وَالْبَقَاءِ فِيهَا، وَلَكِنْ مَنَعَنِي مِنْ ذَلِكَ أَمْرُ رَسُولِ اللهِ** صلى الله عليه وآله وسلم **وَعَهْدُهُ إِلَيَّ. أَخْبَرَنِي رَسُولُ اللهِ** صلى الله عليه وآله وسلم **بِمَا الْأُمَّةُ صَانِعَةٌ بَعْدَهُ.**

إلى أن قَالَ: قَالَ صلى الله عليه وآله وسلم: **إِنْ وَجَدْتَ أَعْوَانًا فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ وَجَاهِدْهُمْ، وَإِنْ لَمْ تَجِدْ أَعْوَانًا فَكُفَّ يَدَكَ وَاحْقِنْ دَمَكَ...**

.. **ثُمَّ حَمَلْتُ فَاطِمَةَ** عليها السلام **وَأَخَذْتُ بِيَدِ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ** عليهما السلام **فَلَمْ أَدَعْ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ وَأَهْلِ السَّابِقَةِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ إِلَّا نَاشَدْتُهُمُ اللهَ...**»[(١)].

وقال الإمام الصادق عليه السلام في جواب سؤالٍ وجَّهه إليه بعض أصحابه قائلًا: «مَا مَنَعَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام أَنْ يَدْعُوَ النَّاسَ إِلَى نَفْسِهِ، وَيُجَرِّدَ فِي عَدُوِّهِ سَيْفَهُ؟.

فَقَالَ عليه السلام: **الْخَوْفُ مِنْ أَنْ يَرْتَدُّوا فَلَا يَشْهَدُوا أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ** صلى الله عليه وآله وسلم»[(٢)].

٢- ويقولون: لو كان الله يريد لعليٍّ عليه السلام الخلافة بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فلماذا لم يُعلن ذلك في الكتاب المجيد؟.

---

(١) بحار الأنوار: ج٢٩، ص٤٦٧.

(٢) بحار الأنوار: ج٢٩، ص٤٤٥.

ونقول:

ألـف: أولًا يجب أن نعلم أن القرآن لم يكن كتاب دسـتور للتنظيم بقدر ما هو كتاب تربية وتذكير للبشر، ولذلك فهو خالٍ من طائفة كبيرة من الأحكام بيَّنتها السنة.

بـــاء: إن في القـرآن آيـات كثيرة هي كالنـص القاطع على خلافة الإمـام، وعلى أهم نقطـة في الخلافـة وهي أنهـا لله وليس لأحدٍ أن يتصرف فيها من قبل نفسـه، وهذا هو المبدأ الأساسي الذي يرتكز عليه أمر الخلافة.

جيم: لو كان في القرآن نص صريح على خلافة علي إذًا لحرفته السلطات التي قامت بجمع وتأليف القرآن. وكانت سـواء عندها آية القرآن وسـنة الرسـول في امتداد يد الخيانة إليهما.

٣- **ويقولون:** ما هو الدليل على وجود الإمام الثاني عشر؟.

ونقـول: هناك دليـل عقلي -وقد أشرنا إليـه- وهو لزوم وجود حجـة بالغة بين الله وبين الخلق، ومن المعلوم عدم وجود حجة غير الإمام المنتظر.

وأمـا الدليل اللفظي، فهـي الأحاديث المتواترة التي جاءت على لسـان النبي ﷺ والأئمة المعصومين.

٤- **ويقولون:** كيف يمكن أن يبقى إنسان -له مثل ما للآخرين من قوى وإمكانات- هذه المدة المديدة بأكثر من ألف وثلاثمائة سنة؟.

ونقول: من المعروف أن عقيدة الشيعة في الإمامة تعتمد على مبدأ المعجزة، وإذا ثبت أن الله قد يفعل بقدرته اللامحدودة أشـياء على غير مجرى السـنن الطبيعية، فكل شبهة حول عمـر الإمـام الطويل تغتدي تافهـة؛ ذلك لأن علم الإمام دون اكتسـاب أحرى بالشـبهة، ولكن من يعترف بقدرة الله الواسعة لا صعوبة عنده في ذلك.

٥- **ويقولـون:** ما هي المصالـح العامة التي نغتنمها من وجـود الإمام الحجة عليه السلام وهو مستور غائب عن أبصارنا؟.

ونقول: هناك عدة مصالح سوف نُشير إليها، ولكن يجب أن نعرف أولًا أن الله تبارك وتعـالى قـد أتم حجته على الخلـق إذ جعل من لدنه حجة وأعطاه كل مـا يحتاج إليه الناس،

ولكـن الناس أبـوا إلَّا التواثب عليه لقتله فأغابه الله عـن أبصارهم حفاظًا عليه. والآن إذا رجع الناس إلى الحق وسلَّموا أمورهم إلى الإمام صِدقًا وعدلًا، يُظهر الله إمامهم لهم.

ففي الحديث: «**إِذَا اجْتَمَعَ لِلْإِمَامِ عِدَّةُ أَهْلِ بَدْرٍ ثَلَاثُمِائَةٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ وَجَبَ عَلَيْهِ الْقِيَامُ وَالتَّغْيِيرُ**»[1].

إن الله أتـم حجته على الخلق ببعث الرسـل واصطفاء الحجـج -لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسـل- ولكن الله ليس مسـؤولًا عن رجوع الناس إليهم أو نكوصهم عنهـم. فـالله لا يُكـره الخلق عـلى الهدى، وقـد فعل ذلك بالنسـبة إلى الإمـام المنتظر ﷻ إذ اصطفـاه وجعلـه حجة حاضرة فـإن أرادوا أخذوا بـه والَّا فعليهم إجرامهـم. إن الله يوفر للمرضى الطبيب فإن أرادوا تداووا عنده وإلَّا فليموتوا!.

بعد هذا لنعرف:

١- أن مَثَلَ الإمام الحجة ﷻ كمَثَل الشمس وقد وارتها السحب ولكنها لا تمنع عن العـالم دفأهـا وضوأها ومنافعها العديدة. فإن الإمام يُؤيِّد وهو تحت سـتار غليظ من الغيبة أنصار الحق أنَّى كانوا، ولنا نحن الشيعة شواهد تاريخية جمة على ذلك.

٢- كما أن الإمام هو ملاذ الناس لدى هجوم الدواهي عليهم، فكم من مشـكلة تم حلها بالتوسل إليه، ولكل فرد تجربته الخاصة في ذلك.

٣- في الوقـت الـذي لا نسـتبعد -بـل هو كائن فعـلًا- وجود علاقـات خاصة بين الإمام عليه السلام وبين مراجع الشـيعة من حيث يشعرون أو من حيث لا يشعرون بالمباشرة أو بواسطة بعض وكلاء الإمام، وهذا هو السر العظيم.

---

(١) بحار الأنوار: ج٩٧، ص٤٩.

٣ - ما هي مسؤولية الناس تجاه الإمام؟

ماذا يجب على الناس تجاه الإمام؟.

هذا السؤال يفرض نفسه على من اعتقد أن الإمام شخص ينتخبه الله تعالى، وجواب هذا السؤال لابد أن يأتي من قبل الأئمة عليهم السلام أنفسهم -بعد الإيمان بهم مجملًا-، وهناك عدة وظائف مفروضة على الناس بالنسبة إلى الإمام نشير إلى عشر منها، ونذكر الدليل الشرعي القائم عليها:

١- معرفة الإمام بشخصه:

والدليل على ذلك قول أبي عبد الله الصادق عليه السلام: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**مَنْ مَاتَ لَا يَعْرِفُ إِمَامَهُ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً**.

قُلْتُ: جَاهِلِيَّةً جَهْلَاءَ، أَوْ جَاهِلِيَّةً لَا يَعْرِفُ إِمَامَهُ؟!.

قَالَ عليه السلام: **جَاهِلِيَّةَ كُفْرٍ وَنِفَاقٍ وَضَلَالٍ**»(١).

٢- أن يعتقد بولايتهم:

والحجة على ذلك قول الإمام الصادق عليه السلام: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ الْعَبْدُ إِذَا وَقَفَ بَيْنَ يَدَيِ الله جَلَّ جَلَالُهُ، عَنِ الصَّلَوَاتِ الْمَفْرُوضَاتِ، وَعَنِ الزَّكَاةِ الْمَفْرُوضَةِ، وَعَنِ الصِّيَامِ الْمَفْرُوضِ، وَعَنِ الْحَجِّ الْمَفْرُوضِ، وَعَنْ وَلَايَتِنَا أَهْلَ الْبَيْتِ، فَإِنْ أَقَرَّ بِوَلَايَتِنَا ثُمَّ مَاتَ عَلَيْهَا، قُبِلَتْ مِنْهُ صَلَاتُهُ وَصَوْمُهُ، وَزَكَاتُهُ وَحَجُّهُ، وَإِنْ لَمْ يُقِرَّ بِوَلَايَتِنَا بَيْنَ يَدَيِ الله جَلَّ جَلَالُهُ لَمْ**

(١) بحار الأنوار: ج٨، ص٣٦٢.

يَقْبَلِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهُ شَيْئًا مِنْ أَعْمَالِهِ»(١).

٣- أن يسلم لهم ولا يرد عملًا من أعمالهم:

والبرهان على ذلك قول الإمام علي بن الحسين عليه السلام: «إِنَّ دِينَ اللهِ لَا يُصَابُ بِالْعُقُولِ النَّاقِصَةِ، وَالْآرَاءِ الْبَاطِلَةِ، وَالمَقَايِيسِ الْفَاسِدَةِ، وَلَا يُصَابُ إِلَّا بِالتَّسْلِيمِ، فَمَنْ سَلَّمَ لَنَا سَلِمَ، وَمَنِ اهْتَدَى بِنَا هُدِيَ، وَمَنْ دَانَ بِالْقِيَاسِ وَالرَّأْيِ هَلَكَ، وَمَنْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ شَيْئًا مِمَّا نَقُولُهُ أَوْ نَقْضِي بِهِ حَرَجًا كَفَرَ بِالَّذِي أَنْزَلَ السَّبْعَ المَثَانِيَ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ»(٢).

٤- أن يطيعه في كل ما يقول:

قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: «ذِرْوَةُ الْأَمْرِ وَسَنَامُهُ وَمِفْتَاحُهُ وَبَابُ الْأَنْبِيَاءِ وَرِضَا الرَّحْمَنِ الطَّاعَةُ لِلْإِمَامِ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ. ثُمَّ قَالَ عليه السلام: إِنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾..(٣)»(٤).

٥- أن يُردَّ أمر المشاكل إليه:

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: «فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَأَرْجِعُوهُ إِلَى اللهِ وَإِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ»(٥). وَقَالَ عليه السلام «.. إِنَّمَا كُلِّفَ النَّاسُ ثَلَاثَةً: مَعْرِفَةَ الْأَئِمَّةِ، وَالتَّسْلِيمَ لَهُمْ فِيمَا يَرِدُ عَلَيْهِمْ، وَالرَّدَّ إِلَيْهِمْ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ»(٦).

٦- أن يتعلم منه الأحكام والعلوم والأخلاق:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، مِنْهَا فِرْقَةٌ نَاجِيَةٌ، وَالْبَاقُونَ هَالِكُونَ، فَالنَّاجُونَ الَّذِينَ يَتَمَسَّكُونَ بِوَلَايَتِكُمْ وَيَقْتَبِسُونَ مِنْ عِلْمِكُمْ، وَلَا يَعْمَلُونَ بِرَأْيِهِمْ، فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ..»(٧).

---

(١) بحار الأنوار: ج٢٧، ص١٦٧.
(٢) بحار الأنوار: ج٢، ص٣٠٣.
(٣) سورة النساء، آية: ٨٠.
(٤) بحار الأنوار: ج٢٣، ص٢٩٤.
(٥) بحار الأنوار: ج٢٣، ص٢٩٤.
(٦) بحار الأنوار: ج٢، ص٢٠٢.
(٧) بحار الأنوار: ج٣٦، ص٣٣٦.

٧- أن يرجع في تفسير القرآن وتأويله إليه:

قال الإمام الباقر عليه السلام: «قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾(١)، **نَحْنُ نَعْلَمُهُ**»(٢).

٨- أن يفزع إليه في الدواهي:

قال الإمام الرضا عليه السلام: «.. **الْإِمَامُ الْأَمِينُ الرَّفِيقُ، وَالْأَخُ الشَّقِيقُ** [الشَّفِيقُ]، **وَمَفْزَعُ الْعِبَادِ فِي الدَّاهِيَةِ**..»(٣).

٩- أن يعرض على الإمام النصرة متى شاء:

قال الإمام الباقر عليه السلام: «.. **إِنَّمَا أُمِرُوا أَنْ يَطُوفُوا (أي الكعبة)، ثُمَّ يَنْفِرُوا إِلَيْنَا فَيُعْلِمُونَا وَلَايَتَهُمْ وَيَعْرِضُونَ عَلَيْنَا نَصْرَهُمْ**..»(٤).

١٠- أن يؤمن به وبحقانيته:

عَنْ أَبِي خَالِدٍ الْكَابُلِيِّ قَالَ: «سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام عَنْ قَوْلِهِ: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(٥)، فَقَالَ عليه السلام: **يَا أَبَا خَالِدٍ النُّورُ -وَاللهِ- الْأَئِمَّةُ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ** صلى الله عليه وآله وسلم **إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**..»(٦).

***

هذه هي الوظائف العامة التي تلزمنا تجاه الإمام في كل عصر. ولكن هناك عدة مسؤوليات ضخمة مفروضة علينا اليوم بصورة خاصة بالنسبة إلى الأئمة عليهم السلام، وهي:

١ - أن نفهم معارف الأئمة التي هي بحق المعارف الإسلامية؛ نفهمها بعيدًا عن التيارات الدخيلة التي تلصَّصت في المناخ الفكري الإسلامي وهي ثلاثة:

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٧.
(٢) بحار الأنوار: ج٨٩، ص٩٢.
(٣) بحار الأنوار: ج٢٥، ص١٢٤.
(٤) بحار الأنوار: ج١٢، ص٩٠.
(٥) سورة التغابن، آية: ٨.
(٦) بحار الأنوار: ج٢٣، ص٣٠٨.

ألف: التيار الفلسفي؛ الذي دخل العالم الإسلامي في بداية القرن الثاني، ولبس ثوبًا إسلاميًّا في حين أن جوهره إغريقي مادي.

بـاء: التيـار الأجنبي؛ الذي لا يزال يتغلغل في أعماقنـا عن طريق الكتب التي تحتوي على سموم بالغة من حيث: البناء والإيحاء والاتِّجاه.

جيـم: التيار الجاهلي؛ الذي نبع عن ابتعاد الشـيعة عـن مصادر الأئمة عليهم السلام فذهبوا إلى ما أوحت إليهم أهواؤهم وآراؤهم.

والتحـاشي عـن هـذه التيـارات إنـما يُمكـن بالتوجُّـه إلى المنابـع الأوليـة للمعارف الإسـلامية، وهي الروايات دون أن نسـتعين في فهمها أو تأويلهـا بكتب مؤلفة، بل نعتمد على فهمنا الشخصي لظواهر الأحاديث كما لو كنا نحن المخاطبين بها.

٢- أن نُكيِّـف حياتنـا العمليـة والفكرية مـع توجيهات الأئمـة عليهم السلام دون أن ندع حرفًا واحدًا منها غير مُطبَّق تطبيقًا كاملًا.

٣- أن ننـشر معـارف الأئمـة عليهم السلام في الأوسـاط العامـة وبمختلـف المسـتويات، ونُضحِّي في سبيل ذلك بالوقت والمال والجهود.

نسأل الله أن يُوفِّقنا لذلك حتى نحظى بسعادة الدنيا والآخرة.

المبحث الرابع: الحياة بعد الموت

١- الدليل على البعث

٢- الجبر والاختيار

٣- القضاء والقدر

٤- الغاية من الخلق

٥ - ١ - الدليل على البعث

إن نظـرة واعيـة إلى مـا يجري حولنا من أحـداث في هذه الدنيا الواسـعة، تدعونا إلى الاعتراف بالبعث بعد الموت:

١ - فهناك طائفة كبيرة يعيشـون معنا يحيون ويموتون طيبين -أعمالًا وقلوبًا-، لا يبرحون عن إسداء الخدمات الإنسانية إلى بني نوعهم دون أن يريدوا منهم جزاءً أو شكورًا.. إنهم يعبدون ربهـم ويظلـون يذكرونه بالعشي والإبـكار، ولكن مع ذلـك يظلون مظلومـين مقهورين، منكدة عيشـتهم، طويلة أحزانهم، متوالية نكباتهم وويلاتهم. إلى جنب هذه الطائفة هناك أناس يتمتعون بالعـدة والثـروة والجاه العريض، وبعكس مـا قد يُتصور لا يزالون قاسـطين.. هناك بغاة يهتكون الحرمات، ويرتكبون الخطيئات، وكثير منهم يموت على ما هو دون أن يلقى جزاءه في الدنيا.

وإن كثـيرًا مـن أولئك الطيبـين يبلغـون في مكارمهم القمـة، كالأنبيـاء والصالحين والمتمسكين بالحق، وهم الألوف الألوف.

وإن كثـيرًا مـن هـؤلاء المجرمين يهبطـون في أعمالهم إلى الحضيـض ويقتلون الملايين ويقترفون الجرائم بحق البشرية جمعاء.

والله الحكيم الذي نرى آثار حكمته في السـماء والأرض لم يخلق شـيئًا عبثًا، ولا كان بحاجة إلى اللعب واللهو تعالى عن ذلك.. الله القادر الذي نجد في ذات أنفسنا، وفي كل ما حولنامن أشياء، آيات قدرته العظيمة التي لا تحد.. كيف لا يُعطي جزاء هؤلاء وهؤلاء؟.

أعبثًا خلقهم؟ أم خلقهم ليظلم قويُّهم ضعيفَهم بغير سبب؟. أم أراد بذلك أن يُؤذي غير المؤذي؟. أم عجز عن أن يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته؟.

سبحانه الحكيم الغني أن يخلق الخلق عبثًا، ولا حاجة له إلى العبث، وسبحانه أن يعجز عن أن يجازيهم، أو أن يعجز عن خلقهم مرة أخرى وهو الذي أنشأهم أول مرة.

٢- كل دلائل الكون تهدينا إلى أن ما فيه قد سُخِّر لنا (أو قد خُلِق لأجلنا)، كل ما فيه من شمس وقمر ونجوم تعمل ليل نهار لتبقى الحياة مستمرة. وكل ما فيها مسخر لنا، بما أوتينا من موهبة العقل والقدرة والحرية. وإذا كان كل شيء لنا، فنحن لماذا؟.

هل خُلقنا لكي نتمتع في الدنيا؟. ومَنْ مِنَّا استطاع أن يتمتع بها سعادة وافية؟. أكبيرنا أم صغيرنا؟. سيدنا أم مملوكنا؟. رئيسنا أم مرؤوسنا؟. ليس هناك من استطاع أن يستريح بما في الكلمة من معنى، فلماذا إذًا خُلِقنا؟.

هناك جوابان عن ذلك لا ثالث لهما:

ألف: إن الله سبحانه أراد أن يلعب ويعبث فخلقنا ليضحك علينا. وهذا بعيد عن دلائل حكمته التي نراها في الكون، وعما يهدينا إليه العقل من كمال ربنا، إنه قُدُّوس ليس فيه نقص.

باء: إنه خلقنا لعالم آخر، وجعل ما في هذه الدنيا من خير دليلًا على أفضل منه وأكمل منه يوجد في الآخرة. وما هنا من شر دليلًا على أسوأ منه وأطول منه يوجد في الآخرة. وأذاقنا من هذا حينًا ومن هذا حينًا، ثم بيَّن لنا عن طريق رسله كيف نتجنب الشر ونقترب إلى الخير.

وهذا هو التفسير الصحيح لظواهر الكون كلها.

٣- وإلى هذا تشير النصوص الشرعية التي سوف نُلِمَّ بنبذة يسيرة منها، والتي تعتبر بذاتها دليلًا مستقلًا على الحياة الآخرة؛ لما ثبت بالأدلة العقلية أن لنا إلهًا كاملًا، وأنه بعث رسلًا صادقين، ونقلوا عنه أن من عمل سوءًا جُوزي به، وأنه من صلح عملًا أُثيب عليه.. علمًا بأن وراءنا جزاءً وثوابًا، قال الله في كتابه الكريم: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾[1].

قال سبحانه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[2].

---

(١) سورة الروم، آية: ٦-٨.

(٢) سورة المؤمنون، آية: ١١٥.

شبهات وردود:

أما الشبهات التي أثيرت حول إمكانية البعث فهي على النحو التالي:

١- إمكانية البعث:

وهذه الشبهة هي من أكبر الشبهات تفاعلًا في ضمير المنكرين مع سائر العوامل؛ ولذلك فقد خصص الأنبياء عليهم السلام كثيرًا من الأدلة لدحض هذه الشبهة وتسفيه القائل بها. وأساس هذه الشبهة هو كيف يُحيي الله الموتى بعد أن تحوَّلوا إلى العناصر الأولى، وتبدلوا إلى أجزاء في الأرض والهواء والماء، وكما نقل عنهم الله سبحانه في الكتاب وأوضح الشبهة بلسان عربي مبين حيث قال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾[١]. ولكن أصل الشبهة نشأ من عدم الإيمان بالله وبقدرته، وإلَّا فأي عقل لا يهتدي إلى قدرة الله الواسعة؟ إن الذي قدر على خلق الكون وإخراجه من ظلمات العدم إلى نور الوجود قادر على أن يُعيده مرة أخرى؛ وهل الإعادة أصعب أم الإبداع؟

وقال الله سبحانه في الرد على هذه الشبهة: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٢].

بهذه الكلمة الفاصلة مزَّق القرآن الشبهة القائمة على عدم إمكانية البعث. والواقع أن العقل حينما هدانا إلى أن الله قادر على كل شيء، وأنه لا حدود لقدراته الواسعة، فمن السفه أن نُفكِّر بعد ذلك أنه كيف يُعيد الخلق مرة أخرى.

وفي الحوار الذي كان بين الإمام الصادق عليه السلام ومنكرٍ للمعاد توضيح وشرح لهذه الحقيقة:

قَالَ الزِّنْدِيقُ: «أَفَيَتَلَاشَى الرُّوحُ بَعْدَ خُرُوجِهِ عَنْ قَالَبِهِ أَمْ هُوَ بَاقٍ؟.

قَالَ عليه السلام: **بَلْ هُوَ بَاقٍ إِلَى وَقْتِ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَبْطُلُ الْأَشْيَاءُ وَتَفْنَى،**

---

(١) سورة يس، آية: ٧٨.

(٢) سورة يس، آية: ٧٩-٨٢.

فَلَا حِسَّ وَلَا مَحْسُوسَ، ثُمَّ أُعِيدَتِ الْأَشْيَاءُ كَمَا بَدَأَهَا مُدَبِّرُهَا، وَذَلِكَ أَرْبَعُمِائَةِ سَنَةٍ تَسْبُتُ فِيهَا الخَلْقُ، وَذَلِكَ بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ.

قَالَ الزِّنْدِيقُ: وَأَنَّى لَهُ بِالْبَعْثِ وَالْبَدَنُ قَدْ بَلِيَ وَالْأَعْضَاءُ قَدْ تَفَرَّقَتْ، فَعُضْوٌ بِبَلْدَةٍ يَأْكُلُهَا سِبَاعُهَا، وَعُضْوٌ بِأُخْرَى تَمْزِقُهُ هَوَامُّهَا، وَعُضْوٌ قَدْ صَارَ تُرَابًا بُنِيَ بِهِ مَعَ الطِّينِ حَائِطٌ.

قَالَ عليه السلام: **إِنَّ الَّذِي أَنْشَأَهُ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ، وَصَوَّرَهُ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ كَانَ سَبَقَ إِلَيْهِ؛ قَادِرٌ أَنْ يُعِيدَهُ كَمَا بَدَأَهُ.**

قَالَ الزِّنْدِيقُ: أَوْضِحْ لِي ذَلِكَ!.

قَالَ عليه السلام: **إِنَّ الرُّوحَ مُقِيمَةٌ فِي مَكَانِهَا، رُوحَ المُحْسِنِ فِي ضِيَاءٍ وَفُسْحَةٍ، وَرُوحَ المُسِيءِ فِي ضِيقٍ وَظُلْمَةٍ، وَالْبَدَنُ يَصِيرُ تُرَابًا مِنْهُ خُلِقَ، وَمَا تَقْذِفُ بِهِ السِّبَاعُ وَالهَوَامُّ مِنْ أَجْوَافِهَا مِمَّا أَكَلَتْهُ وَمَزَّقَتْهُ، كُلُّ ذَلِكَ فِي التُّرَابِ مَحْفُوظٌ عِنْدَ مَنْ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَيَعْلَمُ عَدَدَ الْأَشْيَاءِ وَوَزْنَهَا. وَإِنَّ تُرَابَ الرُّوحَانِيِّينَ بِمَنْزِلَةِ الذَّهَبِ فِي التُّرَابِ فَإِذَا كَانَ حِينَ الْبَعْثِ مَطَرَتِ الْأَرْضُ مَطَرَ النُّشُورِ، فَتَرْبُو الْأَرْضُ ثُمَّ تَمْخَضُ مَخْضَ السِّقَاءِ فَيَصِيرُ تُرَابُ الْبَشَرِ كَمَصِيرِ الذَّهَبِ مِنَ التُّرَابِ إِذَا غُسِلَ بِالمَاءِ وَالزُّبْدِ مِنَ اللَّبَنِ إِذَا مُخِضَ، فَيَجْتَمِعُ تُرَابُ كُلِّ قَالَبٍ فَيُنْقَلُ بِإِذْنِ الْقَادِرِ إِلَى حَيْثُ الرُّوحُ، فَتَعُودُ الصُّوَرُ بِإِذْنِ المُصَوِّرِ كَهَيْئَتِهَا وَتَلِجُ الرُّوحُ فِيهَا، فَإِذَا قَدِ اسْتَوَى لَا يُنْكِرُ مِنْ نَفْسِهِ شَيْئًا..»**(١).

٢- أي الأبدان تحشر؟

منذ أن يتكوَّن الجنين وإلى أن يموت وبعد سبعين عامًا مثلًا يتبدل جسم الإنسان أكثر من مرة، ففي كل سبع سنوات تتغيَّر كل خلايا الجسم، فإذا اعتقدنا بعودة الأجسام، فأي الأبدان، وأي الخلايا تعود مع الروح؟. كلها؟. فيكون جسم الإنسان أكبر من وضعه الفعلي عدة مرات عند الحشر، أو بعضها؟. وأي بعض؟. أم يحشر الإنسان في جسم جديد؟.

في الافتراض الأول -عودة كل الخلايا التي أصبحت في يوم ما جزءًا للإنسان- يلزم أن تكون الخلايا الكونية تُعذَّب حينًا وتستريح حينًا آخر؛ ذلك لأن المحتمل أن تصبح الخلية الواحدة بجسم كافر ثم تصبح جزءًا لجسم مسلم فيكون بعض جسم الكافر في الجنة

(١) بحار الأنوار: ج١٠، ص١٨٥.

وبعض جسم المسلم في النار، وهذا لا يكون.

وبعضهم صاغ الشبهة صياغة أخرى فقال: لو فرضنا أن الطغاة قتلوا مسلمًا ثم أكلوه ولم يبقوا منه شيئًا؛ فماذا سوف يحدث؟. هل يذهب هذا المسلم المأكول إلى الجنة، ومعناه أن يذهب الطغاة إلى الجنة، أو يذهب إلى النار؟. وكيف يُعذِّب الله جسم المسلم وقد أُكِلَ ظلمًا؟.

وفي الافتراض الثاني يلزم أن يُعذَّب أو يتنعَّم بعض الأبدان دون بعض بغير سبب معقول.

أما الافتراض الثالث فإنه يؤدي إلى أن يُعذَّب أو يتنعَّم جسم جديد لا علاقة له بالعمل الخاطئ أو الصالح، وكل هذا بعيد عن حكمة الله وعدله.

الجواب: هناك إجابة إجمالية عن الشبهة، وهي أن هناك جامعًا مشتركًا -لدى العقل والعقلاء- بين أطوار كل شخص منذ أن كان جنينًا وإلى أن يموت، جامعًا مشتركًا يرى العرف بموجبه أنه بعينه في كل الأطوار. فهو الجاني الذي يُؤخذ بجريمة اقترفها قبل عشر سنوات، وهو المثاب بعمل صالح أسداه قبل عشرين سنة؛ فهو هو يرى نفسه كذلك، ويراه الناس كذلك. وبتعبير أولى وأهدى: إن الإنسان الجنين هو الإنسان عند السبعين عند العقل والعقلاء، وإن الزيادة والنقصان عندهما بمثابة الهواء الذي يدخل الرئتين ثم يُلفَظ خارجًا، وإن الله يُعذِّب أو يُنعِّم نفس هذا الإنسان الجامع المشترك، بعمله ويُعيد نفس هذا الجسم الذي لم يتغيَّر منه بزيادة شيء عليه أو دون زيادة.

وهناك خلاف فلسفي واسع حول أن الذي يحسّ بالألم أو بالنعم ما هو؟. الجسم المادي أو النفس أو الروح؟. أو هما معًا؟. أو الجسم بالروح أو الروح بالجسم؟.

النظريتان الأخيرتان تتفقان في أن أحدهما وسيلة للآخر، والجسم في النظرية الأولى هو الذي يحسّ بالألم، ولكن لسبب وجود الروح فيه، كما أن المصباح الكهربائي هو الذي يشع ولكن بسبب جريان التيار فيه. كما أن الروح في النظرية الثانية هي التي تشعر بالألم أو بالنعم، ولكنها تتوسَّل بوسيلة المادة -الجسم- لكي تتمكَّن من هذا الإحساس. وقد ذهب إلى هذه النظرية الأخيرة طائفة كبيرة من الفلاسفة غير أنهم لم يكونوا عالمين بالعلوم الحديثة التي أثبتت تأثر الجسم بالألم واللذة بسبب الأعصاب.

والإسـلام يُقـدِّر أن الجسـم والـروح كلاهمـا يلتـذان أو يتألمان؛ مسـتدلًا على ذلك بالوجدان. فكل فرد منا يرى أن جسمه هو الذي يتألم ويلتذ بالإضافة إلى روحه الحساسة. وعـلى هـذا فلابد أن يُجـازي الله كِلَا الجزأين: الروح والجسـم معًـا؛ لأن الاكتفاء بمجازاة أحدهمـا دون الآخـر مخالـف لحكمة الله تعـالى. ولهذا فقـد أوضحت الأديـان، إلى جانب، العقول أن المعاد لا يقتصر على الأرواح بل يشـمل الأجسـام. ولابـد أن يكون المُعاد نفس الجسم المتألم والمتنعم.

إذًا ليس من الصحيح أن نقول: إن الله يُعذِّب أو يُنعِّم روح البشر في أجسام جديدة، كما قال به بعض من كتب حول المعاد.

ثـم إن الإسـلام يُقدِّر حقيقـة في أصل الخلـق كما يكتشـفها العلم الحديـث فيقول: إن الله خلـق النـاس جميعًـا أولًا وبدفعة واحـدة من دون أن يُخرج بعضهـم من أصلاب أو أرحـام بعض، خلقهم من الأرض بصورة أجسـام صغيرة للغايـة، عبَّرت عنها الأحاديث بالـذر؛ ولذلك سـمي العالم الذي كانت تعيش فيه بعالم الـذر، ثم أُدرجت الأبدان الصغار في أصـلاب الآبـاء وحوَّلها الآباء إلى أرحام الأمهات وجعل كل من شـاء في صلب كل من اختار.

وإن تلك الأجسـام الصغار تنمـو في الأرحام بجمع مواد جديدة إلى نفسـها تُصبح كثـيرة مـن دون أن يتغير مـن موادها الأصليـة شيء، وإنما التبدلات التـي تحدث في خلايا الجسـم لا تشـمل المواد الأصلية وإنما تقتصر على المواد الإضافية التي تعتبر بمنزلة الهواء في الرئة والغذاء في المعدة. تكشف لنا هذه الحقيقة ظواهر كثيرة من جملتها: بقاء جميع الخواص في الجسـم منذ أن كان جنينًا إلى أن يموت، وشـعور الإنسان بأن جسمه لم يتبدَّل رغم علمه ومعرفته بتبدل أجزائه كلها.

بعـد توضيـح هذه الحقيقة نقول: إن الذي يعود من جسـم الإنسـان هو ذلك البدن الـذري الناعـم الصغير الذي كان يتألم ويلتذ منذ أن كان جنينًـا إلى أن مات وقُبِرَ، وإن هذا البـدن لا يُعَدُّ من أجزاء بدن آخـر إلَّا في وقت محدود ثم يخرج ليعود في التراب أو في الهواء أو في أي مـكان آخـر، ثم يجمعه الله سـبحانه مرة أخرى وقد يُخرجه في يـوم البعث بإضافة أجزاء جديدة عليه ليكون إنسانًا عاديًّا. وقد لا يفعل ذلك، بل يُخرجه بنفس الحجم الأصلي

فيكون نوعًا من العذاب، كما جاء في الأحاديث: «**يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ كَأَمْثَالِ الذَّرِّ..**»[١]، ولكن كيف يُنميه الله مرة أخرى؟. هل يتم ذلك ضمن أرحام جديدة مثل ما نراه في هذه الدنيا في أرحام الأمهات؟.

تجيب بعض الأحاديث على ذلك بقولها: إن الله يجعل الأرض بمنزلة الرحم فيهطل عليها وابل من السماء ويوفر للبدن الذري وسائل التنمية الجديدة فيخرج كالنبات من الأرض إخراجًا.. أفليس الله الذي خلق الرحم ووفر فيه وسائل نمو الجنين بقادر على أن يجعل الأرض كذلك؟ ولهذا فإن الإنسان يوم القيامة يكون ابن الأرض وليس ابن أمه ولا ابن أبيه، ومن هنا جاء في الآية الكريمة: ﴿ **فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ** ﴾[٢].

المعاد في السنّة:

١ - قال الإمام الصادق عليه السلام: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَبْعَثَ الْخَلْقَ أَمْطَرَ السَّمَاءَ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا فَاجْتَمَعَتِ الْأَوْصَالُ وَنَبَتَتِ اللُّحُومُ**»[٣].

٢ - قال الإمام العسكري عليه السلام: «**أَمَّا -الإحياء- فِي الدُّنْيَا فَيَتَلَاقَى مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ فَيُحْيِي اللهُ الَّذِي كَانَ فِي الْأَصْلَابِ وَالْأَرْحَامِ حَيًّا. وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يُنَزِّلُ بَيْنَ نَفْخَتَيِ الصُّورِ بَعْدَمَا يُنْفَخُ النَّفْخَةُ الْأُولَى مِنْ دُوَيْنِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا مِنَ الْبَحْرِ الْمَسْجُورِ الَّذِي قَالَ اللهُ فِيهِ: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾[٤] وَهِيَ مِنْ مَنِيٍّ كَمَنِيِّ الرَّجُلِ فَيَمْطُرُ ذَلِكَ عَلَى الْأَرْضِ فَيَلْقَى الْمَاءُ الْمَنِيُّ مَعَ الْأَمْوَاتِ الْبَالِيَةِ فَيَنْبُتُونَ مِنَ الْأَرْضِ وَيَحْيَوْنَ..**»[٥].

هذان الحديثان اللذان يكشفان النقاب عن حقائق هامة تنتظر الإنسان على أبواب الآخرة يستدعي شرحهما بعض التوضيح فنقول:

إن الله خلق الأرواح قبل الأبدان بألفي عام، وكانت حية شاعرة، ثم خلق الأبدان بصورة الذرة ثم أسكنها الأصلاب، فانتقلت من صلب إلى آخر حتى استقر كل ذر في

---

(١) بحار الأنوار: ج٧، ص٤٩.
(٢) سورة المؤمنون، آية: ١٠١.
(٣) بحار الأنوار: ج٧، ص٣٣.
(٤) سورة الطور، آية: ٦.
(٥) بحار الأنوار: ج١٣، ص٢٧٢.

رحـم أمـه، وأُدخل في كل بدن بعد أن بلغ أربعة أشـهر في الرحم روحه الخاصة به بسـبب حكيم، وأخرجه إلى الدنيا ثم أماته فانتقلت الروح إلى مكانها معذبة أو منعمة حتى تُعاد إليه مـرة أخـرى.. والفترة التي تمتد بعد الموت إلى حين البعث تُعتبر فترة الهجعة والرقدة؛ ذلك لأن الروح في الوقت التي تنفصل عن الجسـم تبقى ذات علاقة به، تُشـبه علاقة الشـمس بالأرض، تبعث إليها بالنور من دون أن تدخل فيها.

هنا تنكشف عدة أمور:

١- أن الأرواح كان لها وجود مسـتقل وسـيبقى لها ذلك بعد انفصالها عن الأبدان، ولها أعمال خاصة بها قبل وبعد ورودها في الجسم. وهذا يعني أنها محدودة وبإمكانها القيام بأعـمال مسـتقلة. وقد كانت الفلسـفة اليونانية تعتقـد أن الروح مجردة عن المـادة وليس لها مكان ولا زمان ولا حد، ولكن الإسلام سفَّه هذه الفكرة وبيَّن أن الأرواح مادية[1] تتشكل من أجزاء لطيفة، وأن لها حدودًا وأعمالًا. فبالإضافة إلى وجدان كل منا بأن نفسـه ليسـت مطلقـة وإنما هي محدودة ضمن المـكان والزمان فتكون هنا ولا تكون هناك، وبالإضافة إلى شعور كل واحد منا بأن نفسه لم تكن ثم كانت، بالإضافة إلى هذا الوجدان فإن هناك دليلًا واضحًا على محدودية الأرواح ومحدودية إمكاناتها العملية بعد انفصالها عن الجسم، وهو ما كشـفت عنه الاتصالات التي جرت بطريق أو بآخر مع الأرواح بأسـاليب حديثة وسُئلت عـن إمكاناتهـا وخصائصها ممـا عُلِمَ منهـا أن كل روح محدودة بحدود خاصـة، ولها أعمال خاصة منفصلة عن الجسم.

ومـن هذا الواقع نعرف الرد على شـبهة فلسـفية حول المعاد تقـول: إن الروح تبقى -على القول بالمعاد- معطلة، فلابد لها من الحلول في جسـم جديد لكيلا تبقى معطلة. ورد هذه الشبهة أن الأرواح تتمكَّن من القيام بأعمال مستقلة، فإذا خرجت من الأجسام بدأت نشاطاتها الخاصة ولم تبقَ معطلة كما يقول صاحب الشبهة.

٢- أن الأرواح قد تتذكَّر من عالمها السـابق أشـياء، فقد ثبت علميًّا أن الإنسـان قد يعلـم كثيرًا من الأشـياء من دون معلم. مثـلًا: يذهب إلى مدينة لأول مـرة في عمره ثم هو يهتدي إلى أسواقها ومعالمها وشوارعها، ويتذكر أنه سبق له أن رأى هذه المدينة بكل تأكيد.

---

(١) حين نقول (مادية) لا نقصد بها أنها مثل المواد المحسوسة، ولكن نقصد أنها مخلوقة ومحدودة وذات كثافة من نوع مختلف عن كثافة ما نراه من المواد.

وأغرب من هذا أنه قد يتفق أن يرى الواحد منا رجلًا لأول مرة في عمره ويحسّ بأنه صديق منذ الأزل بما يكن له من حب ومعرفة سابقة. ولا يكون هذا دليلًا على أن الأرواح كانت تعيش في أبدان سابقة ثم انتقلت إلى أبدانها الجديدة كما زعم القائلون بالتناسخ حديثًا، وإنما هو دليل على وجود مسبق للروح على الجسم.

٣- أن حياة الجسم بالروح، وأن واقع الموت لا يعني سوى انفصال الروح عن الجسم، وهو أشبه شيء بالنوم الذي تنفصل فيه الروح عن الجسم قليلًا. وكما جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ: «**وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالحَقِّ لَتَمُوتُنَّ كَمَا تَنَامُونَ، وَلَتُبْعَثُنَّ كَمَا تَسْتَيْقِظُونَ..**»(١).

كما جاء في حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام: «**كَانَ فِيمَا وَعَظَ بِهِ لُقْمَانُ ابْنَهُ أَنْ قَالَ: يَا بُنَيَّ... وَإِنَّمَا النَّوْمُ بِمَنْزِلَةِ المَوْتِ، وَإِنَّمَا الْيَقَظَةُ بَعْدَ النَّوْمِ بِمَنْزِلَةِ الْبَعْثِ بَعْدَ المَوْتِ..**»(٢).

وكما تُعذَّب الروح في حالة النوم بالأحلام المزعجة ويتأثر البدن بذلك إيلامًا، وتنعم بالأحلام الطيبة فتنعكس آثارها على الجسم أيضًا؛ كذلك يكون بعد الموت.

الجبر والاختيار:

يتحدث الناس عما إذا كانوا مختارين في أعمالهم أم مجبورين من قبل الله عز وجل ومن قبل قوى الكون. وهناك موضوع آخر سيأتي تحت عنوان (القضاء والقدر) حيث يجري الحديث حول أنه ما معنى أن الله قدَّر هكذا، أو قضى هكذا؟ أيمكن أن يكون معناه أنه سبحانه يجبر الناس ويضطرهم على ما هم عاملون، أم له معنى آخر؟.

ولابد لنا في الموضوع الأول أن نقول:

إن الوجدان الشخصي الذي هو أكبر شاهد على الحقيقة، يشهد بأن الإنسان عندما يقوم بأعماله العادية، يكون متمتعًا بحرية تامة في الاختيار، ومعنى ذلك أنه يجد نفسه حينذاك غير مُكره على اختيار أحد الطرفين، وأن له استطاعة تامة في أن يُقْدم أو لا يُقْدم، يعمل أو يترك، يختار هذا الطريق أو ذاك. ألست ترى نفسك حينما تنتقل من وإلى البيت أنك تخطو باختيارك، ولك أن ترجع؟ وحينما تقرأ كتابًا أنك تقرأ بحريتك ولك ألّا

---

(١) بحار الأنوار: ج٧، ص٤٧.
(٢) بحار الأنوار: ج١٣، ص٤١٧.

تقرأ؟ ولكن هاهنا واقع يجب ألَّا ننساه وهو أن هذه القدرة التامة على الفعل والترك بنسبة واحدة ليست من ذات الإنسان. هذه السلطة والإرادة الحرة، قوة يهبها الله للإنسان حينما يتردد بين الفعل والترك. فهي تمامًا مثل موهبة العقل وموهبة العلم، فباستطاعة الله ألَّا يعطي عبده هذه القدرة فيصبح لا إراديًّا أو مجنونًا، ولذلك فإن العبد في الوقت الذي هو مختار بكل معنى الكلمة في أن يترك وأن يعمل، فهو تحت سلطان الله المطلق؛ لأن اختياره هذا وقدرته هذه مستمدة وموهوبة من الله. فهو مختار في حدود صلاحياته الموهوبة له لذاته، لذلك فإن الله إذا أراد أن يمنعه من الحرية سلبه هذا الاختيار. وهذا جوهر كلام الإمام الصادق عليه السلام: «**لَا جَبْرَ وَلَا تَفْوِيضَ بَلْ أَمْرٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ**»[1]، ذلك لأن الجبر يعني أن الإنسان لا إرادة له ولا رأي مستقل، بل إنه مضطر ومجبور من قبل الله أو بسبب القوى الطبيعية. وهذا يسلب الفرد تكاليفه ومسؤولياته تجاه أعماله؛ ذلك لأن المجبور لا تكاليف له ولا عقاب عليه.

والنصوص التالية تشرح هذا الواقع وتشهد له:

١ - عَنِ الْوَشَّاءِ عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الرِّضَا عليه السلام قَالَ: «سَأَلْتُهُ فَقُلْتُ: اللهُ فَوَّضَ الْأَمْرَ إِلَى الْعِبَادِ؟.

قَالَ عليه السلام: **اللهُ أَعَزُّ مِنْ ذَلِكَ!**.

قُلْتُ: فَأَجْبَرَهُمْ عَلَى الْمَعَاصِي؟.

قَالَ عليه السلام: **اللهُ أَعْدَلُ وَأَحْكَمُ مِنْ ذَلِكَ!**.

ثُمَّ قَالَ عليه السلام: **قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا ابْنَ آدَمَ! أَنَا أَوْلَى بِحَسَنَاتِكَ مِنْكَ وَأَنْتَ أَوْلَى بِسَيِّئَاتِكَ مِنِّي، عَمِلْتَ الْمَعَاصِيَ بِقُوَّتِيَ الَّتِي جَعَلْتُهَا فِيكَ**»[2].

ومثال بسيط يكفي معنى هذا الحديث، فلو وهبت لصديقك، وهو رجل عاقل، دينارًا فذهب واشترى به متاعًا حسنًا، فمن الذي يُنسب إليه شراء المتاع، أنت أم هو؟. طبعًا أنت؛ لأنه لولا أنك أعطيته الدينار لم يستطع من شراء المتاع. ولو أنه اشترى به مسدسًا وقتل به نفسه فمن المسؤول، أنت أم هو؟. طبعًا هو؛ لأنك أقدرته على المال ولم

---

(١) بحار الأنوار: ج٤، ص١٩٧.
(٢) بحار الأنوار: ج٥، ص١٥.

تجبره على شراء المسدس أو قتل نفسه. وهكذا الله حينما أعطانا القدرة على اختيار الحسنات كان أولى بها، وحينما اخترنا -بتلك القدرة- السيئات كنا أولى بها.

٢- عَنْ حَرِيزٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام قَالَ: «**النَّاسُ فِي الْقَدَرِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ:**

- رَجُلٍ زَعَمَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَجْبَرَ النَّاسَ عَلَى المَعَاصِي. فَهَذَا قَدْ ظَلَّمَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي حُكْمِهِ وَهُوَ كَافِرٌ.

- وَرَجُلٍ يَزْعُمُ أَنَّ الْأَمْرَ مُفَوَّضٌ إِلَيْهِمْ فَهَذَا وَهَّنَ اللهَ فِي سُلْطَانِهِ، فَهُوَ كَافِرٌ.

- وَرَجُلٍ يَقُولُ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ كَلَّفَ الْعِبَادَ مَا يُطِيقُونَ وَلَمْ يُكَلِّفْهُمْ مَا لَا يُطِيقُونَ، فَإِذَا أَحْسَنَ حَمِدَ اللهَ وَإِذَا أَسَاءَ اسْتَغْفَرَ اللهَ، فَهَذَا مُسْلِمٌ بَالِغٌ»[1].

شبهات وردود:

هنـاك بعض الشـبهات انتحلها بعض المنكرين، ممن قالـوا بالجبر، لابد من التعرض لهـا. ولكن قبل ذلك يجـب أن نعلم أنه حين عرفنا بوجداننا أن لنا كامل الحرية بأن نترك أو نعمل أي شيء، بعد هذا لا بد أن نتحقق عن واقع الاسـتطاعة هذه. الإسـلام يُقرِّر أن كل عمـل اختيـاري لابد له من عامـل، ولابد لهذا العامل من أن يملك القـدرة التي يُرجِّح بها أحـد الطرفـين على الآخر، وهذه القـدرة هبة من الله للنفس التي تريـد أن تُرجِّح، وهي لا تتأثر بأية دوافع خارجية.

وبكلمة أخرى: فإن الاستطاعة عند الإسلام نور يفيضه الله على النفس حين العمل فتصبح كل العوامل متسـاوية بالنسبة إليها، وتفقد كل قوتها أمام تلك الومضة الإلهية التي تُعطي النفس القوة الكاملة على الفعل والترك.

هكذا يقرر الإسلام واقع الاستطاعة، وعليه فالقوة الإرادية تأتي من الله حين العمل، فبمشـيئة الله وقوته يسـتطيع العبد أن يختار هـذا الجانب أو ذاك. وهذا ينـافي التفويض؛ إذ التفويـض يعنـي أن العبد يختـار بعيدًا عن مشـيئة الله. إذًا فلا جبر، إذ الجـبر يعني أن تختار للنفـس أحد الجانبين قوة خارجة عن ذات الإنسـان. ولا تفويـض لأن ذلك يعني امتلاك الإرادة بصورة ذاتية، وهذا مما يخالفه الإسلام.

(١) بحار الأنوار: ج٥، ص٩.

ولنعرج على الشبهات للرد عليها وبيان تفاهتها:

١- إن الإنسـان مفطور على حـب ذاته وحب مصلحته الخاصة، فهو يسـير بصورة طبيعيـة وراء مـا ينفعه. والمصالح المختلفـة هي التي تُحدِّد اتجاهه في الواقع وفقًا لملابسـات نفسه، فهي إذًا الرائدة للإنسان نحو ما تقتضيه من اتجاه. ومن هنا ظهرت الجبرية الاقتصادية والاجتماعية والنفسية التي قال بها كل من: (ماركس، دركهايم، فرويد).

والجـواب: صحيـح أن النفس تهوى ذاتها بصورة طبيعية، وأن الإنسـان يحاول دائمًا أن يجلب إلى نفسه النفع ويدفع الضرر، ولكن هذا لا يعني أن النفس مجبورة على اتِّباع هذا الهـوى وهـذا الحب. إن النفس تملك -بإذن الله- قوة فوق قوة الحب وهي قوة الرأي وقوة الإرادة، فتختـار حينًـا ما تحـب النفس فتتبع بذلك هوى النفس، وتختـار حينًا آخر ما تكره النفس وخلافًا لما تحب. وبعبارة شاملة: إن هناك فرقًا واضحًا بين أن تكون حركة الإنسان وراء مصالحه حركة لا إرادية وجبرية كحركة الشـمس حـول الأرض، وأن تكون إرادية. بمعنى أن باسـتطاعة البشر أن يتوقف عن السـير ولا يسـتمر في جلب المنافع، لا يأكل ولا يكتسب ولا ينكح تمامًا كما يفعل الزُّهَّاد وبعض الثائرين.

والوجدان شـاهد عـلى أن للبشر مقدرة كافية في مخالفة النفس بالسـير في اتجاه آخر، وهذا هو الشرف الإنسـاني الذي يتميَّز به عن كل حي آخر. كما أن باسـتطاعة الإنسـان أن يُخالـف تقاليـد الاجتماع وإن سـبب له ذلك ضررًا كبـيرًا، وأن يُغَلِّب حالته النفسـية باتجاه معاكس.

٢- و يقولـون: أليـس الله يعلم أن عباده يُذنبون علمًا سـابقًا على وجود ذنبهم؟. ثم أليس الله عليم ولا يجهل ولا يمكن أن يُخطئ؟. إذًا فلو علم الله أني أكذب فإني لا أقدر على ألَّا أكذب؛ إذ لو لم أكذب إذًا لزم أن يكون علم الله جهلًا؟.

الجـواب: بالرغـم من أن هذه الشـبهة تعتبر قوية في الأوسـاط الفلسـفية فإن جوابها واضح وبسيط يُعرف بعد أن نفهم واقع العلم، ولنأتِ له بمثل:

إنك تعلم أن أخاك سـوف يموت بعد مئة سـنة علمًا يقينًا فماذا يعني هذا العلم، وما هو تأثيره في الحدث؟. يعني أن الواقع الخارجي الذي يحدث بعد مئة سـنة قد انكشف لك بصورة واضحة، وهل هناك شيء آخر يؤثر في الواقع؟.

طبعًا لا!. حيث إن علمك لا يؤثر في الواقع الخارجي، فلست أنت الذي تقتل أخاك، بل إن لموته سببًا خاصًّا، وأنت فقط تعلم أنه سيموت.

فالعلم ليس إلَّا معرفة الواقع كما هو وليس سببًا في صنع الواقع.

وإليك مثلًا آخر:

تعلم أن زيدًا سوف ينتحر غدًا بصورة إرادية واختيارية، فهل يعني هذا: أنك قتلته؟ أبدًا؛ ذلك لأنه إنما انتحر بإرادته الخاصة ووفقًا لدواعي مخصوصة، ولست أنت إلَّا عالمًا بما سوف يجري. فالعلم لا يؤثر في صنع الأمر والواقع، بل في كشفه. ولدى مقايسه العلم بالمستقبل بالعلم بالماضي يُصبح الأمر أكثر وضوحًا، لو أنك علمت بأن زيدًا مات أمس فهل يعني هذا أن لعلمك تأثيرًا في هذا الموت؟.

وبما أن حقيقة العلم واحدة في الماضي والمستقبل فليس هناك مجال للقول بتأثير العلم في الواقع، وعلم الله بالأشياء لا يعني أنه هو الذي يفعلها مباشرة. فإنه يعلم مثلًا أن زيدًا سوف يختار الكفر بحريته وإرادته على الإيمان، وليس معنى هذا أنه تعالى يُجبره على ذلك.

وبتعبير آخر: إن زيدًا يختار بين الكفر والإيمان، ولابد أنه يختار بحريته التامة، فأيًّا منهما يختار؟ أنا لا أدري. ولكن الله يعلم بأنه سوف يختار -بكل حرية وإرادة- الكفر لا الإيمان. وهذا لا يعني سوى أنه يعلم بنتيجة الاختيار لا أنه هو الذي أجبر عليها صاحبها. أترى لو أنك عرفت أن لو خيَّرتَ ابنك بين دينار وبين متاع جميل قيمته نصف دينار، وعلمت بأنه سوف يختار المتاع -بكل حرية- فهل معناه أنك أجبرته على اختيار المتاع؟.

طبعًا لا!. إنما أنت عالم فقط.

٣- و يقولون: إن طينة كل فرد قد خُلقت بشكل خاص.. فـ: «**الشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ..**»(١)، وولد الزنا لا ينجب إلى سبعة بطون، ومن انعقدت نطفته في حرام لا ينجب(٢). وهكذا الجينات الوراثية تؤثر في تعيين سلوك الفرد فهو مضطر إلى اتخاذ نوع خاص من السلوك؛ فهو إذًا مجبور وليس بمختار، كما يزعمون.

(١) روضة الكافي: ج٨، ص٨١.

(٢) عَنْ أَبِي خَدِيجَةَ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام يَقُولُ: «**لاَ يَطِيبُ وَلَدُ الزِّنَا، وَلاَ يَطِيبُ ثَمَنُهُ أَبَدًا، وَالْمِمْرَازُ لاَ يَطِيبُ إِلَى سَبْعَةِ آبَاءٍ**. وَقِيلَ لَهُ: وَأَيُّ شَيْءٍ الْمِمْرَازُ؟. فَقَالَ عليه السلام: **الرَّجُلُ يَكْتَسِبُ مَالًا مِنْ غَيْرِ حِلِّهِ فَيَتَزَوَّجُ بِهِ أَوْ يَتَسَرَّى بِهِ فَيُولَدُ لَهُ فَذَاكَ الْوَلَدُ هُوَ الْمِمْرَازُ**». الفروع من الكافي: ج٥، ص٢٢٥.

الجـواب: إن الطينـة (متخذة من لفظ الطين باعتبـار أن أول الخلق كان طينًا لازبًا)؛ تعنـي خلق جوهر النفس. وهذا الجوهر قد يكون صالحًا يرغب في الصالحات، وقد يكون طالحًا فيهوى الخطيئات. الناس بطبعهم الأولي على قسمين: فريق يُحب الخير بذاته، وفريق يهوى الشر بذاته: ﴿ قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾[1] و: ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾[2].

بيد أن هناك شيئًا آخر يُثبته الإسلام غير حبّ النفس وغير هواها، ذلك هو الرأي.

تلـك هـي القدرة التـي تُوهب للإنسـان وتجعل الفعـل والترك سـواء عندها، تلك القدرة التي نُطلق عليها اسـم (الإرادة). وهي ليست مخلوقة مع النفس حتى تتأثر بالطينة، بـل إنها كالعلم موهبة إلهية. فولـد الزنا -مثلًا- يحبّ الشر بذاته ولكن حينما يعمل الشر لا يعملـه لأنـه يحبه بل لأنه أراد ذلك، بحيث لو أنه كان يريـد خلافه -وإن كان صعبًا عليه- كان يستطيع أن يأتي به أيضًا.

مثال ذلك: من تعود على التدخين يحب هذا العمل كثيرًا، ويصعب عليه تركه، ولكن لا يعني هذا أنه مجبور على ذلك. بل بإمكانه التغلُّب على هذه الصعوبة وترك التدخين.

فالطينـة والعادة وأكل مال الحرام وما أشـبه تحدث حالات نفسـية تهـوى جانبًا من جانبـين، ومـن الصعـب مخالفتـه باختيار الجانـب الآخر. ولكـن بما أن الإرادة ليسـت من النفس فإنها حاكمة على هذا الحب والهوى وباستطاعة الإنسان بها أن يختار الجانب الآخر.

وبعبـارة وجيزة: الطينة تُسـبِّب الحب والهوى، وللنفس فوق الحـب إرادة تُرجِّح ما تحبّ النفس وقد تُرجِّح ما تكره.

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٨٤.

(٢) سورة الروم، آية: ٣٢.

٥ ٣ - القضاء والقدر

١ - كلمة القدر (المشتقة من مادة قَدَّرَ، يُقَدِّرُ، تقديرًا) تعني: التحديد والتنظيم والتدبير. فالله قَدَّرَ كل شيء تقديرًا. فالشمس مُقدَّرة، فلا تقترب ولا تبتعد عن الأرض أكثر من المدار المقرر لها، ولا تبعث الضوء خارجًا عن المنطقة المحدودة له، وهكذا القمر مُقدَّر بمداره، ومقدار نوره، وكل شيء مُقدَّر بتحديد وتدبير.

وكلمة القضاء (مشتقة من مادة قضى، يقضي، قضاءً) تعني: إمضاء التدبير.

فبعد أن قَدَّرَ الله الأشياء أجرى هذا التقدير في عالم الكون. فمثلًا يُقدِّر الله ويُحدِّد إعطاء ولد لزيد ثم يقضي بذلك بأن يعطيه الولد فعلًا، فهنا يكون قَدَرٌ وقضاء حيث قَدَّر الله ذلك أولًا ثم قضى ما قَدَّره، وهذا المعنى للقدر والقضاء معترف به دينيًّا وعقليًّا، إلَّا أنه لا يُنافي حرية الإنسان؛ إذ إنه هو في حدود الأقدار المقضية.

وهناك معنى آخر للقدر وهو العلم، فقدر الله يعني: علم الله بالأشياء كيف تقع منذ الأزل. وقد سبق أن علم الله بالأمور لا يؤثر أيضًا في اختيار العبد لها وقدرته على تركها وفعلها جميعًا بنسبة متساوية، وفي الحديث المروي عَنْ حَمْدَانَ بْنِ سُلَيْمَانَ قَالَ: «كَتَبْتُ إِلَى الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ أَسْأَلُهُ عَنْ أَفْعَالِ الْعِبَادِ أَمَخْلُوقَةٌ أَمْ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ؟. فَكَتَبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: **أَفْعَالُ الْعِبَادِ مُقَدَّرَةٌ فِي عِلْمِ الله عَزَّ وَجَلَّ قَبْلَ خَلْقِ الْعِبَادِ بِأَلْفَيْ عَامٍ**»(١).

٢ - أما القضاء والقدر بمعناهما الاصطلاحي فيعني أن كل عمل للعباد مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ الذي ينظر إليه الأنبياء والملائكة والصالحون فيعرفون ما سوف

---

(١) بحار الأنوار: ج٥، ص٢٩.

يجري في المستقبل. ولكن ما كتب في هذا اللوح يتبدل بإرادة الله حيث قال: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾(١).

٣- إن كل عمل يجري من العبد، فهو إنما يُقَدَّر من قبل الله، أي بما أعطاه الله من قوة وبما وفَّر له من ظروف مواتية. وجاء في الحديث عَنِ الْبَزَنْطِيِّ قَالَ: «قُلْتُ لِلرِّضَا عليه السلام: إِنَّ أَصْحَابَنَا بَعْضُهُمْ يَقُولُ بِالْجَبْرِ وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ بِالِاسْتِطَاعَةِ؟!.

فَقَالَ عليه السلام لِيَ: **اكْتُبْ: قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ! بِمَشِيَّتِي كُنْتَ أَنْتَ الَّذِي تَشَاءُ لِنَفْسِكَ مَا تَشَاءُ، وَبِقُوَّتِي أَدَّيْتَ إِلَيَّ فَرَائِضِي، وَبِنِعْمَتِي قَوِيتَ عَلَى مَعْصِيَتِي، جَعَلْتُكَ سَمِيعًا بَصِيرًا قَوِيًّا، مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ، وَذَلِكَ أَنِّي أَوْلَى بِحَسَنَاتِكَ مِنْكَ وَأَنْتَ أَوْلَى بِسَيِّئَاتِكَ مِنِّي. وَذَلِكَ أَنِّي لَا أُسْأَلُ عَمَّا أَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ..**»(٢).

وفي حديث آخر عَنِ الإمام الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام قَالَ: «**سَمِعْتُ أَبِي عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام يَقُولُ: الْأَعْمَالُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَحْوَالٍ: فَرَائِضَ، وَفَضَائِلَ، وَمَعَاصٍ.**

فَأَمَّا الْفَرَائِضُ: فَبِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى وَبِرِضَا اللهِ وَبِقَضَائِهِ، وَتَقْدِيرِهِ، وَمَشِيَّتِهِ، وَعِلْمِهِ.

وَأَمَّا الْفَضَائِلُ: فَلَيْسَتْ بِأَمْرِ اللهِ، وَلَكِنْ بِرِضَا اللهِ، وَبِقَضَاءِ اللهِ، وَبِقَدَرِ اللهِ، وَبِمَشِيَّةِ اللهِ، وَبِعِلْمِ اللهِ.

وَأَمَّا الْمَعَاصِي: فَلَيْسَتْ بِأَمْرِ اللهِ، وَلَكِنْ بِقَضَاءِ اللهِ، وَبِقَدَرِ اللهِ، وَبِمَشِيَّةِ اللهِ، وَبِعِلْمِهِ ثُمَّ يُعَاقِبُ عَلَيْهَا»(٣).

(تقدير الله يعني: تحديده للأشياء. وقضاؤه: تهيئة الوجود للأشياء. ومشيئة الله: نعمته بهذا الإعطاء أولًا. وعلم الله: أنه كان يعلم منذ الأزل). هذا، وإن واحدًا من هذه لا يُخالف الاختيار؛ إذ إن الله شاء أن يكون العبد مختارًا ثم قَدَّر، وقضى ذلك بإعطائه الاستطاعة، فكان صدور الفعل منه بالاختيار وبقضاء من الله يعني: أن الله لم يمنعه بل أذن له في ذلك. فلو أنه كان يسلب القدرة في اللحظة الأخيرة لم يتمكن من الفعل أبدًا ولكنه لم يفعل.

(١) سورة الرعد، آية: ٣٩.
(٢) بحار الأنوار: ج٥، ص٥٧.
(٣) بحار الأنوار: ج٥، ص٢٩.

وبصورة موجزة أن للقدر ثلاثة معانٍ:

١ - إن الله عالم من الأزل بما هو كائن.

٢ - إن الله كتب ما يجري في اللوح المحفوظ وله تبديله متى شاء وهو المعبر عنه (بالبداء).

٣- إن كل شيء يقع في الأرض أو السماء، فإنه يقع تحت سلطان الله، وبما يعطي الله العباد من القوة والقدرة لحظة بعد أخرى.

ومن الواضح أن أيًّا من هذه لا يؤثر في اختيار العبد؛ إذ إن العلم تابع لما يقع، وإن اللوح -وهو نوع آخر من العلم- فيه البداء.

وأما أن كل شيء من الله فلا يؤثر في أن يكون العبد مختارًا بتلك القدرة الموهوبة التي أعطاها الله له.

٤ - الغاية من الخلق

ما هي الغاية من الخلق؟

سؤال يفرض نفسه على الإنسان ليوفق مسيره طبقًا للغاية التي جاء من أجلها.. الغاية ليست اللعب والعبث تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا. أيلعب أو يعبث الحكيم الذي ملأت آثار حكمته السماوات والأرض؟.

وليست الغاية حاجته إلينا ليدفع ضرًّا أو يجلب نفعًا، وهو القادر القاهر الغني المتعال.

والواقع أنه بتواتر النعم وتوالي الآلاء، وما سخَّر لنا من الشمس والقمر والنجم والشجر، وما كرَّمنا به من العقل والقدرة، وما فضَّلنا به على كثير ممن خلق تفضيلًا، بذلك كله نعرف: أن الغاية من خلقنا هي الرحمة بنا، بيد أنه لما نرى أن النعمة في الدار الدنيا تمتزج بالنقمة، وأن الراحة يعقبها التعب، وأن في العالم ظلمًا فاحشًا وفسادًا ظاهرًا، نهتدي بذلك إلى أن الله لم يجعل هذه الدار التي نعيش فيها دار الرحمة التي لأجلها خُلقنا، وإن كان قد أسبغ علينا فيها بالنعم والآلاء؛ فلا بد إذًا أن نبحث عن مكان آخر غير الدنيا، فيه الراحة الكاملة التي تتناسب وكمال الله سبحانه، فما هو ذلك المكان؟.

إنه الآخرة التي وُعِدْنا بها، فالغاية من الخلق السعادة في الآخرة. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لا ريب في أن الدنيا تنطوي على خير وشر، ولا يمكن أن يكون الشر فيها نعمة أيضًا، وبما أن الله متعالٍ عن الشر الذي يُنافي الرحمة الواسعة التي لا حدود لها، فلابد من القول بأن الله تعالى إنما جعل الخير والشر في الدنيا ليختبرنا بهما؛ إذ إنه كلَّفنا بأن

نختار بحرية أحدهما. وإلى هذه الحقائق تشير الآيات التالية:

١- ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾[1]، ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2].

٢- ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[3].

٣- ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[4].

٤- ﴿.. وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ..﴾[5] (أي للرحمة).

٥- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[6].

من الآية الأولى يظهر أن الله لم يخلق الخلق لعبًا بل خلق السماوات و الأرض بالحق، ويظهر من الآية الثانية أنه لم يخلقهم عبثًا. فلماذا خلقهم؟. لكي يعبدوه (كما في الآية الثالثة). ولماذا يعبدونه؟. يظهر من الآية الرابعة لكي يرحمهم؛ أي أن العبادة إنما فُرضت لتكون وسيلة لرحمة الله تعالى. وأين يرحمهم؟. ليس في الدنيا لأنهم جاؤوا هنا ليبلوهم أيهم أحسن عملًا، (كما في الآية الأخيرة) بل يرحمهم في الآخرة.

وجاء في السنة الشريفة:

* عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عُمَارَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «سَأَلْتُ الصَّادِقَ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ عليهما السلام فَقُلْتُ لَهُ: لِمَ خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ؟.

فَقَالَ عليه السلام: **إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمْ يَخْلُقْ خَلْقَهُ عَبَثًا وَلَمْ يَتْرُكْهُمْ سُدًى بَلْ خَلَقَهُمْ:**

١- لِإِظْهَارِ قُدْرَتِهِ؛

٢- وَلِيُكَلِّفَهُمْ طَاعَتَهُ فَيَسْتَوْجِبُوا بِذَلِكَ رِضْوَانَهُ؛

---

(١) سورة الدخان، آية: ٣٨.

(٢) سورة الدخان، آية: ٣٩.

(٣) سورة المؤمنون، آية: ١١٥.

(٤) سورة الذاريات، آية: ٥٦.

(٥) سورة هود، آية: ١١٨-١١٩.

(٦) سورة هود، آية: ٧.

وَمَا خَلَقَهُمْ لِيَجْلِبَ مِنْهُمْ مَنْفَعَةً وَلَا لِيَدْفَعَ بِهِمْ مَضَرَّةً، بَلْ خَلَقَهُمْ لِيَنْفَعَهُمْ وَيُوصِلَهُمْ إِلَى نَعِيمِ الْأَبَدِ»(١).

* عَنْ سَلَمَةَ بْنِ عَطَاءٍ عَنْ أَبِي عَبْدِالله عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: «خَرَجَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عَلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: **أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ الله جَلَّ ذِكْرُهُ مَا خَلَقَ الْعِبَادَ إِلَّا لِيَعْرِفُوهُ، فَإِذَا عَرَفُوهُ عَبَدُوهُ، فَإِذَا عَبَدُوهُ اسْتَغْنَوْا بِعِبَادَتِهِ عَنْ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ..**»(٢).

* رَوَى هِشَامُ بْنُ الْحَكَمِ أَنَّهُ سَأَلَ الزِّنْدِيقُ أَبَا عَبْدِ الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: **لِأَيِّ عِلَّةٍ خَلَقَ الْخَلْقَ وَهُوَ غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَيْهِمْ وَلَا مُضْطَرٍّ إِلَى خَلْقِهِمْ وَلَا يَلِيقُ بِهِ الْعَبَثُ بِنَا؟!.**

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: **خَلَقَهُمْ لِإِظْهَارِ حِكْمَتِهِ وَإِنْفَاذِ عِلْمِهِ وَإِمْضَاءِ تَدْبِيرِهِ..**»(٣).

أقوال وردود:

ولدى معرفة هذه الغاية تتوضَّح لنا طائفة من الحقائق التي يُسبِّب الجهل بها الوقوع في سلسلة من الشبهات، وهي شبهات بناها الماديون لتبرير إنكارهم لوجود الله سبحانه.

ونحن إذ نشير إلى هذه الشبهات وردودها نعتمد في التوضيح على وعي القارئ لما سبق من الحديث المفصل:

١ - يقولون: لو كان الله موجودًا، وكان قديرًا حكيمًا، فلماذا إذًا هذه النكبات وهذه الويلات التي تلفّ الناس من حين لآخر؟.

الجواب: إن الله القدير الحكيم لم يخلق الدنيا إلّا ليعلم من يصمد أمام نكباتها ومن ينهار. إذًا فالويلات ضرورية إلى حدٍّ ما لفلسفة هذا الكون؛ ذلك لأن للويلات غايات عديدة وأسباب مختلفة، نشير إلى بعضها اختصارًا، وهي:

ألف: إن الويلات تُسبِّب رجوع الناس إلى ربهم ومعرفتهم به واقترابهم إليه.

قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾(٤).

---

(١) بحار الأنوار: ج٥، ص٣١٣.
(٢) بحار الأنوار: ج٥، ص٣١٢.
(٣) بحار الأنوار: ج٥، ص٣١٧.
(٤) سورة الأنعام، آية: ٤٢.

وليس من ريب في أن العودة إلى الله تُوجب خيرًا كثيرًا.

بـاء: إنها تُكفِّر عنهم بعض ذنوبهم، أو تكون معاقبة من الله على تلك الذنوب؛ ذلك لأن طائفـة من المعـاصي يلقى فاعلها العقاب العاجل، ومن هـذا النوع كان العذاب الذي لفّ قوم عاد وثمود وأصحاب الأيكة وما أشبه.

جيم: إن الله بها يرفع درجات الصالحين من عباده.

ففـي الحديـث أن للإمـام الحسـين عليه السلام: «.. **فِي الجَنَّـةِ دَرَجَـاتٍ لَا تَنَالُهَـا إِلَّا بِالشَّهَادَة..**»[1].

دال: إن الكوارث تعمل على التمييز بين المؤمن والكافر.

قال سبحانه: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[2].

٢- ويقولون: قد نرى في حوادث الكون أنها تصيب أناسًـا لا يسـتحقون أي جزاء سيئ، فما سبب ذلك؟.

الجواب: إن هؤلاء الناس سوف يُضاعَف لهم الأجر في الآخرة، فإن الله ليس بظلّام للعبيد.

٣- ويقولـون: إن هنـاك طائفـة مـن الجبابـرة والطغاة يُسـلَّطون على رقـاب الناس ويُهلكون الحرث والنسل؛ فلماذا لا يعذبهم الله؟.

الجـواب: في الوقت الذي قد يكون تسـلُّط هؤلاء بسـبب أعمال الناس أنفسـهم كما ورد في الحديث: «**كَمَا تَكُونُوا يُولَّى عَلَيْكُم**»[3]،.. في الوقت ذاته فإن سبب بقاء هؤلاء ليس لكي يزدادوا ثوابًا؛ إذ لا ثواب لهم، بل ليزدادوا إثما ويزداد المظلومون أجرًا في يوم القيامة.

٤- ويقولـون: لمـاذا لا يهدي الله الناس جميعًـا؟. ولماذا ترك بعض الناس يفسـدون ويقترفـون المعـاصي الكبـيرة؟ فهـل يعنـي ذلـك أن الله راضٍ بالمعـاصي أو هـو عاجز عن هدايتهم؟.

(١) بحار الأنوار: ج٤٤، ص٣١٣.
(٢) سورة العنكبوت، آية: ١-٣.
(٣) كنز العمال: الخبر ١٤٩٧٩.

الجـواب: تعـالى الرب الحكيـم عن أن يـرضى بالقبيح أو يعجز عن ردعـه، وإنما الله أراد أن يجعـل الدنيـا دار بلاء وامتحان، وقد ترك الناس يختارون ما يشـاؤون حتى يختاروا طريقهم بأنفسـهم ويحصلوا على الجزاء المناسـب، ومجرد هذا الاختيار المخوَّل إليهم كرامة لا تُقدَّر.

٥ – و يقولون: لماذا نرى المؤمنين الصادقين أكثر الناس بلاءً وأضيقهم عيشًا وأشدهم عناءً مع أنهم مُتَّصلون بالرب العظيم وهو قادر رحيم؛ فلماذا لا يراعيهم؟.

الجـواب: إن الله لم يجعـل الدنيـا للمؤمنين إلَّا مزرعـة مباركة للآخـرة، ولذلك فإن نفوسـهم رغبت عنها وزهدت فيها، وليسـوا -كما زُعِمَ- أضيق الناس عيشًـا، بل العكس صحيح.

وبصـورة مجملة: الشـبهة نابعة من اعتبار الدنيا دار راحـة ومنزلة قرار، بينما هي دار بلاء وامتحان، وهي مجرد جسر نحو الآخرة.

وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**الْدُّنْيَا مَزْرَعَةُ الْآَخِرَة**»[١].

فطوبى لمن فهم ذلك.. واتَّخذها طريقًا.. ولم يتَّخذها قرارًا.

(١) عوالي اللآلي: ج١، ص٢٦٧ .

القِسمُ الثّالث

الإنسانُ والمجتمع

البحثُ الأوّلُ : الإنسانُ والمجتمع

البحثُ الثّاني : الإسلامُ والإنسانُ والمجتمع

البحثُ الثّالث : مِيزاتُ النّظامِ الاسلاميّ

القِسمُ الثَّالِث

الإنسانُ والمجتمع

البحثُ الأولُ: الإنسانُ والمجتمع

١- كلمة في البدء

٢- آراء و ملاحظات

١ - كلمة في البدء

بعدمـا طفنا حـول الفكر الإسـلامي ابتداءً مـن نظرتـه إلى العقل والعلـم، ومرورًا بالفلسـفة العامـة، وانتهـاء بالعقائد الإسـلامية؛ كان لابد من حديث موجز عن الإنسـان والمجتمـع في الفكر الإسـلامي، لكي نحصل على النظرة الإسـلامية الشـاملة في الحضارة الإنسـانية، ولكي نطَّلع على مدى الانسـجام بين الركائز الفكريـة والتشريعات العملية في البناء الحضاري للإسلام.

ونبـدأ الحديـث باسـتعراض الحلـول العامـة التـي وُضعـت حتـى الآن للمشـكلة الاجتماعية، ثم نقوم ببحث النظريات المادية، الواحدة تلو الأخرى، وما تنطوي عليه تلك النظريـات من أخطاء، ثم نسـتعرض الخطـوط العامة للفكر الإسـلامي، ونختم الحديث ببيان مقتضب حول ميزات التشريع الإسلامي. والله المسدد.

ماذا تعني المشكلة الاجتماعية؟.

لقد خُلِقَ الإنسان حضاريًّا يتطلَّع إلى آفاق أبعد من إشباع الحاجات الضرورية كما في سائر الاحياء. وقد اكتشف أن تحقيق تطلعه البعيد لا يمكن من دون تشكيل مجتمع يسوده التعاون.

ونبعت المشكلة من هنا. فما هو المجتمع المتعاون؟.

ليس من شك في أن الظلم عقبة تعترض طريق التعاون، ولكن كيف يمكن القضاء على الظلم الاجتماعي وكيف يحل العدل مكانه؟.

للإجابة عن هذا السؤال كان لابد أن يُحدَّد بدقة: ما هو الظلم؟ بل ما هو العدل؟

فجـاء الجـواب: العدل إعطاء الحقوق وافية. ولكن اسـتمر الغمـوض أيضًا، وجاء سـؤال آخـر: مـا هي الحقوق وكيـف يُمكن الوفاء بهـا؟. ما هو حق الفرد عـلى المجتمع؟. ومـا هـو حق المجتمع على الفرد؟. وبأي الحقين نُضحِّي لـدى تعارضهما؟. وما هي الدولة الصالحة التي تقوم بأداء الحقوق؟.

وكان مـن الطبيعـي أن يتَّصل الموضـوع مباشرة بمعرفة واقع الحـق ثم بمعرفة واقع صاحب الحق. فمن هو الإنسان؟. ما هي حقيقته؟. ما هي حاجاته؟. ما هي حقوقه؟. وما هو المجتمع؟. ما هي حقيقته، فحاجاته، فحقوقه؟.

والنظريـة الفكريـة التـي تُجيب عن هـذه الأسـئلة بدليل علمي أو فلسـفي تُسـمَّى بـ(الفلسفة الاجتماعية) أو (الفلسفة العملية). أما الإجابات الجانبية التي تقوم على أساسها فإنها تسمى بـ(النظام الاجتماعي).

وجملة المسائل الغامضة التي تُشكِّل مواضيع هذه الإجابات هي المشكلة الاجتماعية. إذًا:

١- الفلسفة العملية = نظريات حول حقيقة الإنسان والمجتمع.

٢- النظام الاجتماعي = الأحكام الواضحة التي تُستنبط من تلك النظرية.

٣- المشـكلة الاجتماعية = البحث عن إجابة صحيحة لهذا السـؤال: كيف يمكن أن يصنع الإنسان حضارته؟.

فالمشـكلة الاجتماعيـة تُعتبر الموضـوع الأول للفلسـفة العملية، ثم يـأتي دور النظام الاجتماعي. إذ نحن -في البدء- نطرح السـؤال عن الطريقة التي يُمكن أن يصنع الإنسـان بهـا حضارتـه؟ وفي الإجابة عـن هذا السـؤال نحـاول أولًا: وضع نظام اجتماعـي. إلَّا أن المحاولـة تبوء بالفشـل لعلاقـة الموضوع بالبحث عـن حقيقة الإنسـان والمجتمع، فنضطر أخيرًا إلى معرفة الفلسفة العملية التي تُعالج حقيقة الإنسان والمجتمع.

النظام الاجتماعي:

بعـد أن طاف البشر تِطوافًـا مرهقًا حول النظام الأصلح للمجتمع انتهى إلى نظامين رئيسيين نابعين من مفهومين متعاكسين:

١- التسليم لله، وتقبُّل تشريعه كاملًا. وهذا هو النظام الإسلامي في صيغته الأخيرة المتمثلة في دين النبي محمد ﷺ.

٢- الاستبداد بوضع النظام لنفسه، وهو ينقسم تبعًا لافتقاد البشر المقياس الدقيق لمعرفة الصحيح عن الباطل، ينقسم إلى نوعين:

ألف: النظام الفردي الرأسمالي.

باء: النظام الجماعي الشيوعي.

وبالرغم من أن الإنسان اضطر إلى تعديل كِلَا النظامين المتطرفين ذات اليمين وذات اليسار، تعديلًا جعلهما يقتربان نوعًا ما إلى النظام الإسلامي.. فإن الإنسان العصري لا يزال يسرح خياله في متاهة الجهل، ويعتقد بأن الشيوعية أو الرأسمالية المتطرفة أصلح الأنظمة التي تسير بحضارة الإنسان قُدُمًا إلى الكمال.

ومن هنا فإنه لا تزال توجد فكرة تُنادي بسلب حقوق الفرد بصورة تامة ودفع المجتمع إلى مستوى الإله المعبود. وتقابلها فكرة متطرفة تُنادي بوجوب إعطاء الفرد كامل حريته وجعله إلهًا من دون المجتمع.

ونحن إذ نتحدث عن النظريتين المتقابلتين نحاول تجريدهما عن التعديلات العملية التي طرأت عليهما اضطرارًا وبعد أن فشلا في حقل التطبيق الخارجي.

النظام الرأسمالي:

يرتكز هذا النظام على فلسفة عامة تقول: إنَّ تَصَارُع الأفكار والمصالح يُظهر على المسرح أفضل ما ينتجه الإنسان!.

ويلزم على النظام الاجتماعي أن يُهيِّئ ظروف هذا التَّصَارُع كأفضل ما يكون، وذلك بفسح المجال لأكبر قدر ممكن من الحريات الفردية؛ لتكون وسيلة مشجعة للإنسان تبعثه لإبداع أفضل الأفكار والقيام بأحسن الأعمال.

والحريات تتلخَّص في أربعة أقسام، هي: السياسية والاقتصادية والفكرية والشخصية.

فالحرية السياسية تعني إفساح المجال لكل فرد على أن يُقرِّر مصيره السياسي بنفسه عن طريق إعطائه حق التصويت والمحافظة على هذا الحق. وينشأ من هذا الحق: التنافس الحر على السلطة، ويكون أقدر الناس على السياسة هو المنتخب النهائي للمجتمع.

والحرية الاقتصادية تدفع بكل فرد إلى خوض صراع حر على العمل. وينشأ من هذا

أن كل فـرد يضـع كل طاقاته الممكنة في المعركة، وبهذا يحصـل المجتمع على أكبر قدر ممكن من طاقات أفراده الإنتاجية.

هذا من ناحية التنمية الاقتصادية. وأما من ناحية الاقتصاد السياسي فإن الحرية تُحفِّز كل فـرد إلى اختيار مصالحه الخاصة، وهذا الحافز يحفظ التوازن الاقتصادي للبلاد؛ فمثلًا: تبقى هناك نسـبة معينة بين دخل الفرد ومسـتوى معيشـته، إذ مجرد أن ينخفض دخل الفرد أو يرتفع مستوى معيشته حتى يطالب بازدياد الأجور وهو بدوره يقضي بتعديل الأسعار.

والحرية الفكرية تعني أن لكل شـخص حقًّا في التمسـك بعقائد وآراء معينة تروق له ولا يحـق لغيره منعه من الالتزام بتلك الآراء. ومن الحرية الفكرية تنبثق الحرية الدينية، وهي تقضي بتعديل الأفكار التي تنتشر في المجتمع بسبب التصارع بينها واختيار الجمهور لها.

والحرية الشخصية، تُعطي لكل فرد الحق في التزام سلوك يختاره دون أن يكون لأحد الحق في منعه عنه. وهذه الحرية تعين أيضًا أفضل أقسـام السـلوك عن طريق اختيار أكثرية النـاس له؛ فمثلًا: الزي المناسـب الجميل يختـاره المجتمع بعد تقارن الأزيـاء المختلفة التي تختارها كل فئة فتستقر الأكثرية على أنواع معينة من الزي.

نقد الرأسمالية:

إن الرأسـمالية لم تعـد اليوم تلك الجنة التي وُعِـدَ بها البشر منذ قرون طوال، إذ منيت بنكبات مريرة، كان من أهمها تمخُّض الشيوعية عنها كرد فعل عنيف لنظام النفاق والتنافس المرهق. وتتلخَّص نقاط ضعف الرأسمالية فيما يلي:

١- إنهـا نظـام مـادي ينطلق من مبدأ الاسـتبداد بالحكـم مـن دون الله، وهو لذلك ينطـوي عـلى أخطاء ضخمة لا يمكنـه التملُّص منها، لأن البشر مهـما أوتي من علم وقدرة وأخلاق فإنه لن يبلغ مستوى دين الله الذي يشعُّ علمًا وقداسةً وقوةً.

وقد تقدَّم في فلسفة الرسالة ما يدعونا إلى الأخذ بالإسلام جملةً وتفصيلًا.

٢- الرأسـمالية ماديـة لأنها تجعل القيمـة التامة للمصلحة، وتُقيِّـم الحقائق الأخرى من دين وأخلاق وفق ما تنطوي عليه من تلك القيمة؛ قيمة المصلحة الذاتية. وهذا التقييم المطلق للمصلحةالذاتية يُشكِّل جذر الأخطاء في النظام الرأسمالي.

٣- كانت الرأسمالية مادية مرة ثالثة حين شرعت نظمها بعيدًا عن التفكير في الحياة بعد الموت، تلك الحياة التي لو كانت واقعية، وهي كذلك، لكانت أسمى من هذه الحياة. فينبغي أن يُجنِّد الإنسان بعض طاقاته لا أقل لتلك الحياة ويعمل وفق معطياتها. هكذا تنطلق الرأسمالية من منطلق مادي سواء آمنت بذلك أو رفضت الاعتراف به كسبًا للمزيد من الأنصار.

٤- بانطلاق الرأسمالية من العقلية النفعية وتأليهها المصلحة الذاتية، قضت على أية قيمة للأخلاق؛ ذلك لأن من انحصر تفكيره ضمن نطاق ضيِّق من المصلحة لا يستشرف ليرى جمال القيم الخلقية وروعتها. ولذلك نلاحظ أن الرجل الرأسمالي يعيش بعيدًا كل البعد عن المناقبية السلوكية ولا ينظر إلى الحياة إلَّا من زاوية المصالح الخاصة. وفي تاريخ الاستعمار والعنصرية نقرأ ألف مأساة ومأساة استلهمت من الذاتية الغربية.

وبالرغم من أن الوعي الشديد بسبل الانتفاع يهدي الإنسان إلى تعديل سلوكه وفرض بضعة قيم خلقية على نفسه، فإنها لا تعدو أن تكون متواضعة ومجتثة الجذور. ذلك أن صاحب المصلحة قليلًا ما ينظر بعيدًا، ولئن نظر فقليلًا ما يعتقد أن في مصلحته الالتزام بالأخلاق، ولئن التزم فسرعان ما يتركها حينما تعارض مصالحه.

٥- الرأسمالية إذ تنطلق من المصلحة في كل مناحي الحياة، فإنها تُعطي الحق للأكثرية في وضع النظم الصالحة لها وإن كانت تُضارّ مصالح الأقلية. فالمصلحة إنما هي مصلحة الأكثرية، أما الأقلية فإنها ستعيش طبيعيًّا تحت رحمة الحكم ما دامت لا تملك ضمانًا من الأكثرية برعاية شؤونها.

ولقد كانت الشريعة الإسلامية واعية لمأساة الأقلية فلم تجعل المصلحة ولا مصلحة الأكثرية هي القيمة النهائية للنظام، بل الحق والحق وحده كان القيمة الأساس.

٦- القضية المأساوية العظمى التي تورَّط فيها النظام الرأسمالي كانت عودة الأكثرية أقليةً حاكمةً، إذ ما أن أُطلقت الحرية الاقتصادية حتى تكتَّلت الأدمغة البشرية الواعية ومضت قُدُمًا في تحقيق مصالحها الذاتية، وأحرزت لنفسها ثروة طائلة.

والثروة كل شيء بالنسبة إلى أمة المصالح التي تسودها العقلية النفعية بصورة كاملة. ولهذا فقد أمست الثروة الطائلة التي كدَّستها الأقلية هي سيدة الموقف تمامًا؛ إذ قامت الأقلية الثرية اعتمادًا على ثروتها الطائلة وحفاظًا عليها، قامت بضرب مواقع القوة التي

كانت تُهدِّد مصالحها. فالقوى السياسية لم تكن قادرة على الصمود بعيدًا عن الثروة.

وهكذا غُزِيَتْ الأحزاب السياسية في عقر دارها، باشتراء ضمائر سادتها، وكذلك تنازلت السياسة للاقتصاد بصورة كاملة. وتنازل الاقتصاد للصفوة الثرية، فكانت هي دون الأكثرية، الحاكمة المطلقة إلَّا أنها غطَّت حاكميتها تحت غطاء واسع من الدعاية. فإذا بالناس يختارون ما يُوافق مصلحة الأقلية وهم يحسبون أنها مصالحهم أنفسهم.

ولقد تسلَّحت الأقلية هذه باليقظة التامة بحيث كانت تتصدى لكل من أراد أن ينفلت من قبضتها وتقضي عليه قضاءً تامًّا، ولكن بعد أن مزجت السُّم بالعسل والموت بالأحلام.

ولسنا بحاجة إلى القول بأن العقلية الاستعمارية، وما أعقبت من مآسٍ وويلات وبلبلة وثورات، كانت نتيجةً حتميةً للعقلية النفعية الرأسمالية.

ذلك لان الترابط بين العقليتين إنما هو ترابط بين سبب ونتيجة وعلة ومعلول.. ذلك لأن تلك العقلية التي توحي باستثمار الأكثرية في بلدها هي التي تتطلَّع إلى استغلال البلاد الأخرى. هكذا كانت الرأسمالية جحيم الشعوب في الوقت الذي كانت تدَّعي أنها الجنة الوارفة.

النظام الشيوعي:

لقد أحدثت الرأسمالية أزمة حادة في صفوف تلك الأكثرية المحرومة، فبدأت تشعر بالسُّم في العسل، والموت في الأحلام، فتسلَّحت بنظرية الصراع الطبقي والتفسير الديالكتيكي لأحداث التاريخ، وصاغت نظرية (الشيوعية العلمية) التي انبثقت منها كمقدمة وتمهيد، الاشتراكية العلمية.

وانطلقت الشيوعية ووليدتها الاشتراكية من هذا المنطلق.

ما دامت الأقلية الثرية تُشكِّل بؤرة الفساد، فلابد من القضاء عليها، بل لابد من القضاء على تلك الأجواء المساعدة لنموها.

وبحثت عن البديل فجاء الجواب في البداية بتشكيل حزب يُمثِّل الطبقة المحرومة فيقودها إلى الحرب الباردة فالساخنة ضد الأقلية المستبدة وتبني دولة العمال. وتتسلم الدولة

مقاليد الحكم من أولئك المستغلين ريثما تنضج العقلية الشيوعية في المجتمع. فلا حاجة آنئذ إلى الدولة أيضًا فيمكن التخلُّص نهائيًّا من الدور السلبي للثروة. وكانت خطوط الشيوعية تتلخَّص فيما يلي:

١- تحديد الملكية الفردية لحساب توسيع الملكية الجماعية وتأميم وسائل الإنتاج والتوزيع كخطوة أولية لإلغاء الملكية الفردية نهائيًّا.

٢- توزيع الدولة للسلع المنتجة حسب القانون الشيوعي العام «من كلٍّ حسب قدرته ولكلٍّ حسب حاجاته».

٣- تخطيط الدولة لمناهج الاقتصاد العامة.

وينطوي النظام الشيوعي وما يتبعه على خطأ جذري هو: النظرة السطحية إلى مشكلة الثروة.

فمشكلة الثروة ليست مشكلة أُناس بأسمائهم وصفاتهم، وليست مشكلة أشخاص بمؤسساتهم، إنما هي أعمق من ذلك وأشمل. المشكلة هي أن البشرية حينما نظرت إلى نفسها نظرة مادية ضيقة تورطت في سلسلة لا تنتهي من المشاكل. فما دامت الحياة المادية هي كل شيء، فعلى كل فرد أن يحصل فيها على أكبر قدر ممكن من المُتع الذاتية.

ولذلك فإن أي فرد يُعطى له الحق في التصرف دون رقابة خارجية فإنه سوف يُقيم مصالحه على حساب المصالح الاجتماعية بصورة طبيعية.. ولا فرق بين أن يكون اسم هذا الشخص زيد وتكون صفته رئيس شركة كبيرة، أو يكون اسمه عمر وتكون صفته رئيس دولة كبيرة. وحتى لو افترضنا جدلًا أنه يبتغي الإصلاح وتقديم المصلحة العامة فإنه لا يستطيع أن يُراعي إلَّا مصلحة طائفة معينة هي طائفته التي كانت وراء سيادته، كالحزب في دولة العمال ومصالح الرأسماليين في الدولة الرأسمالية. فلو لاحظ رئيس الدولة أن الحزب أصبح بيروقراطيًّا وجائرًا فليس من المعقول أن يتمكَّن من ضربه أو تحديده؛ إذ هو الذي يُسيِّره ويدعمه، وضربه يعني الانتحار. وهكذا لا تتمكن الدولة الرأسمالية من تحديد الرأسمالي لأنه هو الذي يدعمها وينصرها. فما دامت المشكلة قائمة وهي نابعة من نظرة الشخص المادية إلى الحياة، فإن الخطأ موجود.

والفرق أن الأكثرية كانت خاضعة في الرأسمالية لحكم الأقلية المستغلة بأسماء

مستعارة وبطرق ملتوية، وكانت تلك تُرائي لها أنها حامية مصالحها، وتمزج السم بالعسل.. ولكن الأكثرية في الشـيوعية تخضع للأقلية الحاكمة تحت اسـم معـين وبطريق مباشر، ولا تحتـاج هـذه الأقلية إلى تبريـر حكمها بدليل ولا خسـارة بضعة دنانير في العسـل لتمزج به السُّم؛ ذلك لأنها ستُجبر الأكثرية على اجتراع السُّم قهرًا.

إن تجربـة أكثـر مـن نصف قـرن من قيادة الحـزب الشـيوعي لطائفة مـن دول العالم أظهـرت بوضـوح عدم قدرة الشـيوعية على كشـف جذر الخطـأ، وهو الـذي يتلخَّص في المفهوم المادي للحياة.

ومـن هنـا فإن النظام الإسـلامي اسـتطاع أن يقضي على الاسـتغلال، ليـس بتبديل شـخص المسـتغل من زيـد إلى عمر، ولا تبديل صفتـه من رئيس شركـة إلى رئيس دولة أو رئيـس حـزب، بل بتبديـل النظرة المادية إلى نظرة معنوية. وحين بنت الفلسـفة الإسـلامية بناءها على أساس معنوي - مناقبي، واستطاعت بناء طليعة مناقبية تفضل مصالح المجتمع عـلى مصالحهـا الذاتية؛ أوحـت إلى النـاس أنِ اتَّبعوا هـؤلاء، وأعطت بيدهـم القدرة على تحديد نشـاط الأثرياء ومنعهم من الاسـتغلال ومن الفساد، ثم أعطت للناس كلهم الحرية الكاملة.. هذه هي خطوط النظام الإسلامي والتي تتلخَّص في نقاط:

١- الإسـلام يُغيِّر الإنسـان المادي إلى الإنسان المعنوي بفلسفته العامة والصائبة عن الكون.
٢- الإسـلام يُبدِّل مقيـاس الانتخاب والقيادة من مقياس راعـي المصالح الطبيعية إلى راعي الحق والعدالة الاجتماعية بالنسبة إلى كل إنسان يعيش على الكوكب.
٣- حينـما يقوم أسـاس الديـن على النظرة المعنويـة و الروحية فـإن فريقًا من الناس ينمون في هذا الحقل فيكونون هم طليعة الأمة وقادتها.
٤- يُحدِّد الإسلام المصالح الشخصية بالحق والعدل ثم يُطلق الحريات.

هذه هي الخطوط العامة للنظم الاجتماعية الثلاثة، وهي تعتمد على الآراء الفلسـفية المتفاوتة في حقل الإنسان والمجتمع، وهذا ما نودُّ بيانه فيما يلي بإذن الله.

٥ ٢ - آراء وملاحظات

الحديث عن واقع الإنسان والمجتمع يتناول أعمال الإنسان الاختيارية.. كيف يجب أن تكون لكي تضمن له السعادة والرفاه؟ كما يتناول البحث في جوانب مختلفة من حياة البشر، هي:

١ - **الاجتماع**؛ ويبحث عما يرتبط بالمعاشرة مع الآخرين والذي ينبثق منه (علم الاجتماع).

٢ - **الأخلاق**؛ ويبحث عما هو أفضل أنواع السلوك.

٣ - **الاقتصاد**؛ ويبحث عن وسائل العيش وكيف يوفر الإنسان لنفسه حاجياته بصورة أفضل وجهد أقل.

٤ - **السياسة**؛ وتبحث عن الحقوق والواجبات وأنه كيف يحفظ الناس أنفسهم من تعدي بعضهم على بعض، وهي تكون بين أفراد أمة واحدة وتسمى بـ(بالحقوق المدنية)، وقد تكون بين أمم مختلفة وتسمى بـ(الحقوق الدولية).

ونحن نتعرَّض هنا للآراء والنظريات التي قدَّمها فلاسفة قدماء ومحدثون، ونكشف عن نقاط الضعف فيها، تمهيدًا للبحث عن موجز فلسفة الإسلام حول الإنسان والمجتمع.

أرسطو[(١)] (٣٨٤ ق م):

١- الاجتماع[(٢)]:

الإنسان مدني بطبيعته، ولابد لأفراد البشر من العيش معًا حتى يتعاون بعضهم مع بعض،

(١) للاطلاع على نظريات أرسطو لاحظ: موسوعة الفلسفة، ج١، بدءًا من ص٩٨.

(٢) إن كان للفيلسوف رأي في أحد أقسام الفلسفة العملية الأربع أثبتناه، وإلا تركنا التعرُّض لذلك القسم رأسًا. وغير خافٍ على القارئ أن تقسيم آراء الفلاسفة إلى آراء اجتماعية واقتصادية وأخلاقية وسياسية، لم يكن بالعملية السهلة نظرًا لعدم وجود هذا التقسيم في أقوالهم. بيد أن هذا التقسيم يُسهِّل على القارئ، ولاشك، فهم النظرية ومقارنتها مع الإسلام.

ويتقاسـموا الأعمال بينهم فينالوا السـعادة التـي هي الغاية المتوخاة من الحيـاة. وتندلع الثورات الاجتماعيـة (عند أرسـطو) عندما ينعدم التسـاوي بين الناس في الحقـوق، ولا تراعى الكفاءة في توزيع الأعمال والثروات والوظائف مما يحمل على إشـاعة السـخط بـين المقهورين فيثورون على الأوضاع. ولذلك لابد من تشريع قوانين ونظم تحفظ للناس حقوقهم حسب كفاءاتهم وأعمالهم.

٢- الاقتصاد:

يعتقـد أرسـطو أنه لابـد من تقريـر الملكيـة الفردية؛ ذلك لأنهـا إن أُلغيـت وبُدِّلت بالاشتراكية، سوف يحسب كل فرد أنه يعمل أكثر من غيره ويحصل على ثروة أقل فيسخط على الوضع ويثور!.

٣- الأخلاق:

ولابد لتقرير الصلاح النهائي للمجتمع من تحسين التربية العامة، ولابد من الأسرة لتنشئة الفرد الطيب الذي يتعلَّم من أبويه (المجربين الرشيدين) تعاليم الحياة.

ويعتقد أن للنفس الإنسـانية جانبين: عقلي ونباتي. ولابد للوصول إلى السـعادة من توجيه النباتي بالعقلي، واكتساب الفضائل بذلك.

والفضيلـة هي مراعاة التعادل في الأمور، فمثلًا: الشـجاعة هي الوسـط بين التهور والجبن، والتواضع هو الوسط بين التكبر والتملُّق، وهكذا.

٤- السياسة:

تتنوَّع الحكومات -عند أرسطو- بثلاثة أنواع:

ألـف: الحكومة العامـة (الجمهورية الديموقراطية) وفيها يشـترك الجميع في الرأي، ويفصلون النزاع باتِّخاذ رأي الأكثرية، ولابد فيها من تقرير العدالة والمساواة بين جميع الأفراد.

بـاء: حكومة الأعيان (الارسـتقراطية) حيث يتغلَّب على الحكم طائفة من الأقوياء النُّبهاء وينتحلون لأنفسهم الرتب المفتعلة.

٣- الحكومة الوراثية (الملكية): حيث يتسـلَّط على الناس رجل قوي ثم يجعل الملك إرثًا في عقبه.

ولا يفرق أرسطو بين هذه الأوضاع ولا يرى وجود ضمان في أحدها مفتقد في الآخر، بل يقول: إن هذه الأقسام الثلاثة إن عملت على الإصلاح والكفاءة والمسؤولية ورعاية القانون كانت صالحة.

أما إذا كانت تتبع الأهواء والمصالح فإنها تكون فاسدة. ويقول -في بيان نقطة الضعف في هذه الأقسام-: إن الظلم والاستبداد يسودان المجتمع في القسمين الأخيرين بينما يشيع المكر وتغرير الجماهير في القسم الأول.

الملاحظات:

نظريات أرسطو التي كانت سائدة أكثر من ألفي عام على الأوساط العلمية في العالم، قريبة نوعًا ما إلى الحقيقة، ولكنها تتميز بالضعف من جهتين:

الأولى: إنها لم تذكر إلَّا الكليات العامة، والمشكلة إنما هي في تفاصيلها.

الثانية: إنها في حين سكتت عن الحكومة التي تضمن سعادة الناس، لم تُحدِّد الملكية الفردية، ولم تُبيِّن مَنْ سوف يكون المُشرِّع الذي لا يتَّبع أهواءه ولا يضل بجهالته وكيف نضمن ذلك؟.

لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤م):

١- الاجتماع:

يعتقد جون لوك أن الحالة الطبيعية للإنسان ليست العداوة والبغضاء والحقد والحسد (كما يزعم بعض الناس)، بل إن حالته الأولية تقتضي سيطرة كل فرد على نفسه، ذلك لأن أفراد البشر كلهم أحرار مختارون ومتساوون.. إذًا فليس لأحد إلَّا السيطرة على نفسه، والسيطرة على ماله ناشئة من حقه هذا.

٢- الاقتصاد:

بما أن المال من عمل الإنسان فله الحق في التصرف فيه بحريته (الملكية الفردية)، وحق الحياة ناشئ من العمل أيضًا كما أن حق التصرف في المال هو الآخر ناشئ من هذا الحق ولكنه مشروط بأمرين:

الأول: أَلَّا يدع المالك ماله عاطلًا.

الثـاني: أَلَّا يحرم الآخرين من حقوقهم ولا يعتدي على ممتلكاتهم، ولابد أن يحفظ في ذلك، طريق الاعتدال.

٣- الأخلاق:

وليس لجون لوك آراء تُذكر في الأخلاق.

٤- السياسة:

يعتقـد لوك بأن سـيطرة الدولة على الشـعب ليسـت إلَّا مـن جهة التباني والمواضعـة؛ يعني أن الناس كانوا -أول الأمر- أحرارًا، وبما أن حرية بعضهم كانت تزاحم حريات الآخرين وتسلب منهم الراحة والأمن، تنازل كل منهم عن بعض حريته في مقابل تنازل الآخرين له عن بعض حرياتهم.

ومن هنا نشأت السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية، ويقول في كتابه (الحكومة المدنية): إن وظيفة القوة المدنية والسياسية إقرار العدالة؛ إذ إن الإنسان يدخل الحياة ليعيش بحرية، وأما الملك (أو أية سلطة سياسية أخرى) فإنه يكسب قوته من الشعب وليس هو إلَّا وكيلًا عنه، فإذا اسـتغل الملك تلك القوة التي أُعطيها ليحيد عن الصالح العام، فللشـعب الحق في الثورة عليه وخلع طاعته عن نفسه.

الملاحظات:

مع أن آراء لوك تحتل الصدارة في الفلسـفة الأوروبية، وكانت هي السـائدة في القرن الثامن عشر إلَّا أنها لا تخلو من نقاط ضعف نشير إلى بعضها:

١- إنها ناقصة من جهات شتى.

٢- إن النزوع إلى الشر أمر طبيعي في الإنسان بجانب حبه للخير، كما سيأتي الحديث عنه.

٣- إن الحكومـة لا يمكـن أن تكـون مواضعة من قبـل كل النـاس. إذ إن المخالف للحكومـة وإن كان غـير راضٍ فإنه لا يُسـمح له الخروج عـلى القانون. ولذلك نعرف أن النزعة الفردية التي تبدو ظاهرة في فلسـفة لوك تُشكِّل بؤرة الأخطاء، وسوف يأتي التفصيل في ذلك.

مونتسكيو[1] (١٦٨٩ - ١٧٥٥م):

لم يكـن مونتسـكيو يرى الثورة المفاجئة بصالحة للحيـاة، بل كان يعتقد أن الإصلاح لابد أن يكون بالتدرج.

١- الاجتماع:

إن الإنسـان خُلـق مدنيًّـا ولابد له من التعايـش مع نظرائه في الخلـق، ولابد له لكي يسـعد في تعايشـه هذا من أن يكون حـرًّا مطمئنًا، فلا مناص من أن يـشرع قانونًا في تنظيم العلاقات التي تربط الناس بعضهم ببعض بحيث إنه لو عاش قوم دون قانون يُنفَّذ عليهم لسُلبت عنهم الحرية والأمن والطمأنينة.

فأهم الأشياء للإنسان هو القانون وأحسن القوانين ما يضمن للناس أوسع ما تُجيزه المصلحة العامة من الحرية.

ويعتقـد بـأن هناك قوانين طبيعيـة لابد أن نتعرَّف إليها ثم نسـتعمل عقولنا في تعيين الظـروف الملائمة لتطبيقها. ويقول: العدل حسـن والظلم قبيـح، الحرية خير من العبودية والعلم أفضل من الجهل. ولكن هذه أمور عامة وليست بقوانين، إذ لابد في وضع القوانين مـن مراعاة الظـروف من جهـة القومية والمنـاخ والأخـلاق والآداب والتقاليـد والعقائد والاستعداد الطبيعي لكل بلد.

فلابد إذًا في وضع القوانين من مراعاة الأصول العامة إلى جنب الظروف الخاصة.

٢- الاقتصاد:

يـرى منتسـكيو في الاقتصاد: لابد أن يُعطي كل فرد قـدرًا من ماله (ضريبة) ليحفظ لـه سـائر أموالـه، ولابد أن تُراعـي الدولة حاجاتهـا الحقيقية، ولا تضع الضرائب حسـب الأهواء.. وعلى الدولة أن تهيِّئ فرص العمل للشعب كافة.

---

(١) شارل لوي دي سيكوندا، المعروف باسم مونتسكيو (Montesquieu)؛ (١٦٨٩ - ١٧٥٥م)، فيلسوف فرنسي. ولد في جنوب غرب فرنسا، حيث تعلّم الحقوق وأصبح عضو برلمان عام ١٧١٤م. صاحب نظرية فصل السلطات الذي تعتمده غالبية الأنظمة حاليًّا.

٣- السياسة:

الحكومات في نظر منتسكيو على ثلاثة أقسام:

١- الحكومة الجمهورية؛ التي تُعطي لكل الأمة أو بعضها الحق في السلطة.

٢- الحكومة الملكية الدستورية؛ وفيها يحكم البلد الملك بعد أن يستشير نواب الشعب.

٣- الحكومة الملكية غير الدستورية؛ حيث يعمل الملك وفق أهوائه الخاصة.

في الحكومة الجمهورية؛ إن كانت تُحكم من قبل كل الشعب كانت ديمقراطية، وإن كانت تُدار من قبل بعض الشعب كانت أرستقراطية (حكومة الأشراف).

على الحكومة وظائف ثلاث:

- تشريع النظم (القوة المُقنِّنة).
- وتطبيقها على الموارد الخاصة (القوة القضائية).
- وإجرائها (القوة التنفيذية).

ولابد أن تنفصل هذه القوى بعضها عن بعض حتى تتمكَّن من إتقان عملها بإخلاص. ولابد في الحكومة الجمهورية من أن يكون أفراد الشعب مخلصين لوطنهم والموظفون لمسؤولياتهم، وإلَّا ساد الفساد الحكم. ولابد في الحكومة الأرستقراطية، ألَّا يستغل الأعيان نفوذهم في سبيل مصالحهم الخاصة. ولابد للملك أن يتبع القانون.. أما إذا استبدّ برأيه فالحكومة فاسدة من رأس[١].

الملاحظات:

لم يجعل منتسكيو ضمانًا لعدم تسرُّب الفساد إلى هذه الحكومات من جهة -شأنها شأن حكومة أرسطو وغيره من الحكماء-، ومن جهة ثانية لم يُعيِّن ضمانًا كافيًا لصلاح القوانين المُشرَّعة من قبل هيئة التقنين.. في حين أن علمها بقوانين الطبيعة كلها لا ولن يمكن أبدًا؛ إذ قد اعترف العلم الحديث أنه لا يمكن أن يُحيط أحد اليوم بكل جوانب الإنسان[٢]. وبعد أن يعلم فرضًا، فما هو الضمان لعدم انحرافه إلى أهوائه أو أهواء سادته؟. (ومن الواضح أن قوانين الدول اليوم تجري طبقًا لأهواء الرؤساء).. وما قلناه في السياسة نقوله في الاقتصاد؛

---

(١) لاحظ: موسوعة الفلسفة، ج٢، ص٤٨٨.

(٢) انظر كتاب: الإنسان ذلك المجهول.

إذ إن منتسكيو لم يذكر لنا حدًّا للضرائب، ومن هو الأمين الذي يُوكل إليه أمر تعيين قدرها بحيث لا يُجحف ولا يعمل بأهوائه الخاصة.

روسو[1] (١٧١٢ - ١٧٧٨م):

١- الاجتماع:

يعتقد روسو أن جميع المشاكل ناشئة من اجتماع الناس، وأن الراحة كل الراحة في الانعزال، ولكن اعترافًا بالأمر الواقع لابد لنا أن نضع قوانين للتقليل من مفاسد الاجتماع.

٢- الأخلاق:

أساس الفلسفة عند روسو، حب الطبيعة. ويقول: إن القلب لا يخطئ، وكل مفسدة تنشأ فهي من جهة أن الإنسان لا يستعمل عقله في الأمور الداخلية (أي في توجيه نفسه).

ويعتقد أن حرية الإنسان جاءت من جهة أنه يملك -إلى جانب شهوات نفسه- عقلًا موجِّهًا يستطيع بتوجيهه أن يعرف خيره. والسعادة الحقيقية للإنسان تكمن في عدم الظلم، وأن يكون برًّا بالناس، وهذا يكفيه في حقل الأخلاق.

٣- السياسة:

وبعد أن اجتمع الناس بعضهم إلى بعض (وإن كان في ذلك ضررهم)، فلابد أن نُقلِّل من مفاسد الاجتماع بأمرين:

الأول: التربية.

الثاني: الحكومة. التي يجب ألَّا تتجاوز إطار بلد واحد.

وبما أن الناس كلهم لا يعرفون تشريع القوانين فلابد من تعيين من يُشرِّع لهم من الخبراء، والناس أحرار من حيث المجموع، وإن وجب على كل فرد منهم أن يتبع القانون ولا يخرج عليه.

---

(١) جان جاك روسو (١٧١٢-١٧٧٨م) فيلسوف سويسري، كان أهم كاتب في عصر العقل. وهو فترة من التاريخ الأوروبي، امتدت من أواخر القرن السابع عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر الميلاديين. ساعدت فلسفة روسو في تشكيل الأحداث السياسية، التي أدت إلى قيام الثورة الفرنسية. حيث أثرت أعماله في التعليم والأدب والسياسة.

هوبز[1] (١٥٨٨ - ١٦٧٩م):

١- الاجتماع[2]:

يعتقـد هابـر بأن مـا يقوله البعض من أن الإنسـان مـدني بالطبع خطـأ فاضح؛ لأن الإنسان بطبعه عدو الإنسان! وقد أُثر عنه قوله: «الإنسان للإنسان ذئب...».

لا يريد الإنسان شيئا إلَّا لنفسه وهو يحارب الآخرين أبدًا.

٢- الأخلاق:

وعلى هذا فليس هناك محل للأخلاق في قلب الإنسان بل الأخلاق تابع للمنافع فقط.

٣- السياسة:

وأسـاس الحكم هو الاسـتبداد والحكم عـن طريق القوة؛ وذلـك لأن الناس حيث يحارب بعضهم بعضًا، لا يسـتطيعون العيش بسعادة فلابد من تقرير الأمن الذي يُعتبر من أهم الضرورات له.

وتقريـر الأمن إنـما يمكن بأن يتنازل الكل عن حرياتهم ويُسـلِّموها بيد رجل واحد يحكمهم بالقوة.. ولا يجوز أن يوضع لهذا الواحد أي قانون ولا يُحدَّد بأي قيد[3].

---

(١) توماس هوبز (١٥٨٨ - ١٦٧٩) كان عالم رياضيات وفيلسوف إنجليزي، يعد توماس هوبز أحد أكبر فلاسفة القرن السابع عشر بإنجلترا وأكثرهم شهرة خصوصًا في المجال القانوني حيث كان بالإضافة إلى اشتغاله بالفلسفة والأخلاق والتاريخ، فقيهًا قانونيًّا ساهم بشكل كبير في بلورة كثير من الأطروحات التي تميز بها هذا القرن على المستوى السياسي والحقوقي. كما عرف بمساهمته في التأسيس لكثير من المفاهيم التي لعبت دورًا كبيرًا ليس فقط على مستوى النظرية السياسية بل كذلك على مستوى الفعل والتطبيق في كثير من البلدان وعلى رأسها مفهوم العقد الاجتماعي. كذلك يعتبر هوبز من الفلاسفة الذين وظفوا مفهوم الحق الطبيعي في تفسيرهم لكثير من القضايا المطروحة في عصرهم.

(٢) هناك حكماء آخرون أمثال أكوست كنت وسبنسر، ولكن نظرياتهم تُشبه إلى حد كبير ما سبقت من نظريات الفلاسفة السابقين وليس لديهم جديد، غير أنَّ كانْت يعتقد أن للإنسان عاطفتين: عاطفة (حب الذات) وأخرى (حب الغير) وهذه الأخيرة هي التي سبَّبت تكوين المجتمع من أسرة فعشيرة فأقوام، كما أنها أصبحت مبدأ الأخلاق كالصدق والتعاون والوفاء.

ويزعم سبنسر أن المجتمعات البشرية قسمان: مجتمع صناعي ومجتمع حربي، والمجتمع الحربي متقدم زمنًا على المجتمع الصناعي، ويعتقد بأن الناس لا يزالون في دور الحرب ولابد لهم من الانتقال إلى دور الصناعة، ويعتقد أن الثورة الاشتراكية إنما هي من ظواهر المجتمع الحربي.

(٣) لاحظ: موسوعة الفلسفة، ج٢، ص٥٥٦.

نيتشه[1] (١٨٤٤ - ١٩٠٠م):

١- الاجتماع:

الإنسان جاء إلى الحياة ليتمتع بها فيها، وكل ما يُهيِّئ له طريق التمتع فهو خير (وافق الحق أو خالفه)، وما يُقال عن تساوي الخلق بعضهم مع بعض خطأ، بل الحق أن في الناس سادة وعبيدًا، وعلى العبيد أن يُهيِّئوا وسائل الراحة للسادة.

إذًا فالمجتمع الطبقي في أسوأ حالاته هو المجتمع الطبيعي الأمثل عند نيتشه.

٢- الاقتصاد:

لابد أن يستثمر القوي الضعفاء بأقل ما يمكن، وأن يحاول كل مكَّار خدَّاع السيطرة على الآخرين في هذا المجال.

٣- الأخلاق:

والأخلاق من الضعف؛ إن الجزء الأعظم من فطرة الإنسان التعدي والظلم، وإن الجزء الأقل هو العقل والعاطفة، والجزء الأعظم هو الذي يجب أن يُتَّبع.

ولابد أن يُمارس الإنسان كل نوع من أنواع الإجرام ليعيش في رفاه وسعادة.

٤- السياسة:

وعلى هذا الأساس فالسياسة تقوم على خدمة الأقوياء وسحق الضعفاء وكل ما هناك من الدين والأخلاق فإنما هو وسيلة للسيطرة على المستضعفين[2].

---

(١) فريدريك فيلهيلم نيتشه (١٨٤٤ – ١٩٠٠) فيلسوف وشاعر ألماني، مؤسس فلسفة القوة، ومن أعظم فلاسفة القرن العشرين. كان من أبرز الممهدين لـ(علم النفس)، وكان عالم لغويات متميزًا. كتب نصوصًا وكتبًا نقدية حول المبادئ الأخلاقية، والنفعية، والفلسفة المعاصرة، المادية، المثالية الألمانية، الرومانسية الألمانية، والحداثة عُمومًا بلغة ألمانية بارعة. يعد من بين الفلاسفة الأكثر شيوعًا وتداولًا بين القراء. في مجال الفلسفة والأدب، يعد نيتشه في أغلب الأحيان إلهاماً للمدارس الوجودية وما بعد الحداثة. يعد نيتشه أول من درس الأخلاق دراسة تأريخية مفصلة. قدم نيتشه تصورًا مهمًّا عن تشكل الوعي والضمير، فضلاً عن إشكالية الموت. كان نيتشه رافضًا للتمييز العنصري ومعاداة السامية والأديان ولاسيما المسيحية لكنه رفض أيضًا المساواة بشكلها الاشتراكي أو الليبرالي بصورة عامة.

(٢) لاحظ: موسوعة الفلسفة، ج٢، ص ٥٠٩.

الملاحظات:

حقًّا إن لم يكن هناك رب، ولم يكن جزاء، ولم يكن العقل أكثر من محصول أعلى للمادة، ولم يكن هناك حق وباطل وخير وشر أبديين (كما يقول الماديون) كان ما رأى نيتشه هو الحق. (وهذا بالفعل هو الذي تراه الدول الكبرى -عملًا- بالنسبة إلى الدول الصغرى).

وليس ما يفعله فريق من الماديين من التظاهر بالعدالة الاجتماعية والمساواة وإعانة الضعفاء إلَّا خداعًا ومكرًا.

إن أرادت البشرية أن تعيش في ظل القيم السامية والعدالة و الحرية والمساواة وحفظ حقوق الضعفاء، وإن كانت تريد السعادة الحقة فلا بد لها أن تلوذ بحمى الدين والمذهب الحق.

ويستخدم الإيمان بالله واليوم الآخر وسيلة لتطبيق هذه المُثُل وإلَّا فليس من المعقول أن ينتظر من القاعدة المادية إلَّا البناء المادي المصلحي، الذي لا يرى الفرد بموجبه إلَّا نفسه فقط.

والواقع أن الخُلُق الرفيع والعقيدة بالمذهب الحق توأمان لا ينفصلان، وكلاهما من نتائج الوجدان النقي.. أليس كل منا يشعر في واقعه أنه يحب العدل والمساواة وينزجر من الظلم والتفاوت؟.

أجل، حتى هابر ونيتشه، حينما ينزلون من برج خرافاتهم إلى ساحة الواقع لابد لهم من الاعتراف بأن الذي يرحم الضعفاء ويلتزم بالوفاء والصدق والطهارة أفضل من غيره ألف مرة ومرة.

آراء اشتراكية:

خلال القرن التاسع عشر ظهر في أوروبا بعض مَنْ سُمُّوا بالحكماء والفلاسفة من دون أن يكون لديهم ما يستحقون به هذه التسمية.. نادوا بالإصلاح عن طريق الاشتراكية، ويُذكر من بينهم: فورييه[١]، وسن سيمون[٢]، ويرودن[٣].

(١) كان يرى لزوم تجمع الناس في كوادر صغيرة (عدد أفرادها ١٦٠٠ شخص) ويختار كل فرد منهم ما يناسبه من العمل بحسب المهن.... راجع: موسوعة الفلسفة، ج٢، ص٢٠٠.

(٢) كان يرى لزوم إبطال الثورات والالتزام بتعيين الدولة العمل للأفراد بمقتضى كفاءاتهم، وتُعين لهم مقدار معاشهم. أنظر: موسوعة الفلسفة، ج١، ص٥٧٠.

(٣) كان يعتقد بأن على الناس أن يجتمعوا بحريتهم في مكان ليقسموا بين أنفسهم العمل، ويكون التبادل بالحاجات وليس بالنقد، ولم يكن يرى حاجة إلى الدولة.

بيد أن نظرياتهم لم تلقَ رواجًا؛ إذ إنها لم تكن إلَّا مثاليات تافهة تعيش في عالم الخيال ولا يمكن تطبيقها أبدًا.

ماركس[١] (١٨١٨ - ١٨٨٣م):

يعتقد ماركس[٢] بأن من الضروري على عمَّال العالم قبل كل شيء أن يتَّحدوا ليُشكِّلوا جبهة قوية تُحارب رأس المال والرأسماليين في العالم، ويجب أن ينزع العمال الحكم من الرأسماليين عن طريق العنف الثوري.. ويؤسسوا دولة العمال الأممية.

تعتقد الماركسية أنها لم تتجاوز أبدًا الأصول العلمية، ولذلك فهي أحسن من سائر المذاهب الاشتراكية[٣]، وسمَّت نفسها الاشتراكية العلمية[٤].

والماركسية اليوم هي الفهم اللينيني لأفكار ماركس.

كما أنها مبنية على المنطق الديالكتيكي (والنظرة المادية) والتي تعتبر روح الاشتراكية العلمية. ولهذا يقول جورج فوليستر -أستاذ في جامعة باريس-: «لا يمكن تفكيك الماركسية واللينينية والمادية الديالكتيكية»[٥].

---

(١) كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣) فيلسوف ألماني، سياسي، وصحفي، ومنظّر اجتماعي. ولد بمدينة (ترير) في ولاية (رينانيا) الألمانية سنة ١٨١٨م والتحق بجامعة بون عام ١٨٣٣ لدراسة القانون. قام بتأليف العديد من المؤلفات إلا أن نظريته المتعلقة بالرأسمالية وتعارضها مع مبدأ أجور العمال هو ما أكسبه شهرة عالمية. لذلك يعتبر مؤسس الفلسفة الماركسية، ويعتبر مع صديقه فريدريك إنجلز المنظرين الرسميين الأساسيين للفكر الشيوعي. شكل وقدم مع صديقه فريدريك إنجلز ما يدعى اليوم بالاشتراكية العلمية. (الشيوعية المعاصرة). أظهر ماركس اهتمامًا بالفلسفة رغم معارضة والده الذي أراد لماركس أن يصبح محاميًا. وقام ماركس بتقديم رسالة الدكتوراه في الفلسفة سنة ١٨٤٠ وحاز على شهادة الدكتوراه.

(٢) لاحظ: موسوعة الفلسفة، ج٢، ص ٤١٨.

(٣) تقول بعض المذاهب الاشتراكية: لابد أن توزع الثروة حسب كفاءة الأفراد. ويقول بعضها: إن المقياس في التوزيع هو حاجة الفرد لا عمله ولا كفاءاته. ويقول آخر: كل بحسب كفاءته (يستخدم) ولكل بحسب عمله (يؤجر).

(٤) يقول ماركس: إن الاشتراكية لا بد لها من يوم تطبق فيه، فإن وافقت البرجوازية على ذلك طبقت الاشتراكية سلمًا وبسرعة وسهولة، وإلَّا طبقت بطرق حربية صعبة طويلة.

(٥) يقول فوليستر: إن تأسيس منطق الديالكتيك أعطى سلاحًا جبارًا بيد العامل ليستخدمه ضد المستغلين. ويقول: إن المادية كانت بمثابة سلاح قوي في يد الحزب الشيوعي الروسي لم يكونوا يستطيعون دحر البرجوازية بدونها. كما أن التفسير المادي للتاريخ يكشف -في عقيدة فوليستر- عن نوعية التحولات الاجتماعية وينبئ الإنسان بمستقبله في الحياة.

وأهم المباني العلمية التي تنادي بها الماركسية ثلاثة:

١- التفسير المادي للتاريخ.

٢- المادية التي تُنكر الدين والأخلاق.

٣- ديالكتيك المجتمع.

ولابد لنا أن نشرح هذه القواعد الفكرية لماركس ونذكر عندها النقد الفكري الموجه إليها:

١- المادية:

هـي إنـكار الروح والخالق واليوم الآخر والقيم.. (ولا نعود لننتقد هذه الخرافة بعد أن أشبعنا الكلام حولها في الفلسفة النظرية والعقائد).

٢- التفسير المادي للتاريخ:

يقول ماركس: «إن علة العلل لكل حوادث التاريخ هو العامل الاقتصادي، ولذلك فإن كل اتجاهات البشر تتبع طريقة الإنتاج».

ويستدل ماركس على ذلك بالرغم من أنه لم يكن مؤرخًا ولم يكن عنده علم بالماضي، بأن الإنسان تابع لحاجاته، إذ ليس له روح أو قيم أو دين أو وجدان أدبي، فليس هو إلَّا آلة جميلة تحتاج إلى وقود، إذًا فهو تابع لمصلحته.

الملاحظات:

ونحن نستطيع أن نرده من طريقين:

١- إثبات أن الإنسـان يملك روحًا وعقلًا وشـعورًا بالأخلاق والدين، وأن انبثاق الأديان إنما كان لحقانيتها. كل ذلك سبق الحديث عنه لدى البحث عن الفلسفة والعقائد.

٢- ظواهر كثيرة في التاريخ القديم والجديد.. ونكتفي في ذلك بذكر ثلاثة أمثلة:

ألف: في العهـد اليوناني نجد ظروفًا اجتماعية واحدة أنتجت أفكارًا متناقضة. مثلًا: في القرن السادس قبل الميلاد كان (طالس الملطي) ماديًّا وكان (فيثاغورس) ميتافيزيقيًّا.

وفي القرن الخامس كان (هرقليط) ديالكتيكيًّا وكان(كينوقانوس) ميتافيزيقيًّا.. وفي كل عهد وفي كل البيئات الأغريقية، كان يوجد المتناقض من الأفكار!.

بـاء: الدين الإسلامي جاء في مجتمع بدوي حيث ظهر في مكة المجدبة (ولم يظهر في اليمن الحضاري)، وساعد الفقراء، وأكد الملكية الفردية.

فكيف يمكن تفسيره بنزاع الطبقات؟. وإن كان جاء دعمًا للفقراء فكيف أكد الملكية الفردية؟. وإن كان في صالـح الأغنياء فكيف سـاعد الفقراء وسـاعدوه، وعارض الأثريـاء وعارضوه؟. وإن كان من نتائج المناخ فكيف جاء في الحجاز البدوي ولم يأت في اليمن أو الشام الحضاريتين؟.

جيم: لماذا تراجع الاتحاد السـوفياتي عن الاشـتراكية؟. ولمـاذا اختلف مع الصين؟. ولمـاذا تقدمـت بعض الدول في الصناعـة فلم يحدث فيها انقلاب اشـتراكي، وتأخر بعض فحدث فيها؟. ولماذا انقلبت أندونيسـيا والمجر وتشيكوسـلوفاكيا عن الاشتراكية؟. ولماذا كانت حالة العمال في ألمانيا الغربية أفضل من حالهم في ألمانيا الشرقية؟.

كل هـذه الظواهـر تناقض -لـدى التدبّر- التفسـير الجبري والمـادي للتاريخ، وهو خـلاف كل ما تنبأ به ماركس. والأفضل أن نريح أنفسـنا بما قالـه الدكتور إقبال في تاريخه: «بما أن ماركس لم يكن مؤرخًا فإنه لم يستطع أن يكتشف أسباب تقدم الأمم وتأخرها».

٣- ديالكتيك المجتمع

يعتقـد ماركـس أن ديالكتيك الفكر يـأتي بعينه في المجتمـع. فالجماعة كالفكر تخضع للقوانين الأربع للديالكتيك بالشرح التالي:

١ - أصل التغير والتطور (ليس في العالم ثابت).

بما أن المجتمع البرجوازي لابد أن يتغير، فهو ينقلب بالضرورة إلى مجتمع اشتراكي[١].

٢ - أصل التفاعل (كل شيء يؤثر في كل شيء).

والمجتمـع يـأتي نتيجـة للأوضاع التي سـبقته. فالمجتمع الاشـتراكي وليـد المجتمع البرجوازي، وثورة العمال على رأس المال.

---

(١) يقولون: إن التغير في العالم قد تناول المجتمع في حالات أربع:
١ - الشيوعية الأولى.
٢ - العبودية والإقطاع
٣- الملوك والطوائف.
٤ - الرأسمالية.
٥ - وأخيرا انتهى إلى نهاية الرأسمالية.

٣- أصل التناقض (كل شيء يحمل نقيضه في داخله).

فالرأسمالية تحمل في داخلها قوة مضادة، هي الاشتراكية. ذلك لأنها تتركب من (أصحاب الأموال) وهم يُشكِّلون القوة المتسلطة و(العمال) وهم القوة المضادة.

ويقول ماركس: «إن تقدم العالم ينشأ من تطاحن القوتين؛ قوة الرأسمال وقوة العمال». ويقول: «إن نزاع الطبقات ليس وليد المجتمعات المعاصرة إنما هو نزاع أزلي منذ فجر التاريخ الإنساني وحتى اليوم المعاصر».

بيد أن هذا النزاع القائم اليوم بين طبقتي البرجوازية والعمال سيكون الأخير؛ ذلك لأن الاشتراكية سوف تتغلَّب على البرجوازية فتزول الطبقات رأسًا، وبمحوها سيزول منشأ الخلاف والنزاع.

٤- التغيير الفجائي؛ (إن التغيير الكمي سوف ينقلب إلى تغيير كيفي كتغير الماء الحار إلى بخار).

والمجتمع تتفاعل فيه القوى المتعارضة وفجأة تشتعل الحرب، وعن طريق استخدام القوة العنيفة سوف تزول قوى البرجوازية ويستبد العمال بالحكم، (وهذا هو ما يقصد به من الاشتراكية الثورية).

الملاحظات:

هذه الأصول الأربعة قد سبق وأن نقدنا بعضها في الفلسفة النظرية ولكن تحميلها عمليًّا على واقع المجتمع خطأة كبيرة لابد من نقدها، ذلك:

١- لأن العلم الحديث قد أثبت صفات ثابتة للفرد والمجتمع لم تتغير منذ وجوده وحتى اليوم، ولا يمكن تغييرها أبدًا (ما دام يبقى الإنسان إنسانًا).. ومن جملة الصفات النفسية للفرد: حب الشر، وحب الخير، العاطفة، الحرية الشخصية.

ومن صفات المجتمع التي لا تتغير: تفاعل بعض الأفراد مع بعض «علمًا بأن إثبات صفة واحدة لا تقبل التغيير يكفي لنسف الفكرة التي تزعم أن كل شيء يتغير».. وإذا ثبتت صفات نفسية لا تتغير في الفرد، والمفروض أن المجتمع ليس إلَّا تجمعًا للأفراد، فإن هذه الصفات تثبت بحجم أضخم للمجتمع.

فالمجتمع؛ مركب من أفراد يحبون الخير ويحبون الشر ولهم عقل وهوى[١]، وطائفة من هؤلاء الأفراد يغلب فيهم الخير على الشر، وطائفة يغلب الشر فيهم على الخير، فتنقسم الجماعة إلى طائفتين: طائفة تؤيد الخير وأخرى تؤيد الشر، وهكذا تقوم الحرب الباردة أو الحارة بينهما. وهذا الأمر هو الثابت الذي لم يتغير على طول التاريخ وتدل عليه كافة الظواهر التاريخية.

أما ما قاله ماركس من تطور المجتمع من رأسمالية إلى اشتراكية، فهو عين الخطأ الذي لا يذهب إليه من له أدنى معرفة بالتاريخ. ومن حقنا أن نتساءل: هل كانت جهود الحزب الشيوعي، أم حتمية التاريخ هي التي أنتجت انقلاب روسيا؟ إنهم يعرفون أن جهودهم هي التي أثمرت الانقلاب ليس غير. ثم نتساءل: لماذا تغيَّرت الاشتراكية الأولى في الزمن الأول إلى دور العبادة؟ وكيف انقلبت أندونيسيا إلى رأسمالية بعد أن كانت اشتراكية؟ ثم إن ماركس لم يستند إلى دليل فيما قاله.

٢- والتفاعل؛ كلمة حق يريد بها ماركس أمرًا باطلًا؛ ذلك لأن حتمية الاشتراكية بعد البرجوازية لا دليل عليها. إذًا أفكار الناس يؤثر بعضها في بعض ولكن تأثير أفكار الاشتراكيين دون أفكار الرأسماليين لا دليل عليه إطلاقًا.

في حين أنَّا نلاحظ بالوجدان أن من كانت له دعاية واسعة وحزب قوي كانت أفكاره هي السائدة في العالم سواء كانت موافقة للاشتراكية أم لا.. ولذلك فإن الحزب الشيوعي يتقدَّم في أية منطقة تكون دعايته فيها قوية، ولا يتقدم في منطقة تكون فيها الدعاية الرأسمالية هي القوية.

٣- أما التناقض الطبقي فليس هناك دليل يبرر تعميمه على المجتمع؛ ذلك لأن العمال (الطبقة الضعيفة) إن رضيت بشروط العيش (كما هي الحال في أوروبا) فهي لن تعارض الطبقة القوية أبدًا. ورضاها وليد تحسين ظروف العمل ومراعاة حقوق العامل. نعم هناك تناقض[٢] بين أفراد المجتمع من جهة اختلاف نزعاتهم الفكرية والسياسية، فترى فريقًا من العمال ينضمون إلى حزب المحافظين (في بريطانيا مثلًا) وفريقًا من أصحاب الأعمال

(١) سوف نثبت -بإذن الله- هذا الواقع عندما نتحدث عن علم النفس والأخلاق الإسلاميين.

(٢) التناقض عند الأوروبيين مطلق التعادي، وليس بمعنى مقابلة الوجود والعدم (كما كان مشهورًا عن المنطقيين قديمًا).

يدخلون في حزب العمال.

والتناقض كما سبق ليس إلَّا من جهة أن الناس فريقان أهل حق وأهل باطل.

٤- والتغيير الفجائي باطل من أصله كما بيَّنا ذلك في الفلسـفة النظرية؛ إذ لا يمكن أن يحدث دون علة خصوصًا في المجتمع. إذ من المعلوم أن كل حركة سياسية أو إصلاحية تسـبقها جهـود جبـارة من بعض الأفراد وتسـاعدها عوامـل كثيرة. أمـا إذا جهل ماركس وأتباعه تلك العوامل فما هو ذنب الواقع؟.

البحث الثّاني : الإسلام والإنسان والمجتمع

1- كلمة في البدء
2- المجتمع الإسلامي
3- الاقتصاد الإسلامي
4- الأخلاق الإسلامية
5- السياسة الإسلامية

٥ ١ - كلمة في البدء

ينبغي أن نبدأ الحديث بعرض موجز لنظرة الإسلام إلى الإنسان والمجتمع، ثم تفصيلها كاملة؛ فالإسلام يعتقد بما يلي:

١ - أن معرفة واقع البشر وواقع خلقه ومبدئه ومنتهاه، هي التي تخطّ طريقه في الحياة. والإنسان -عند الإسلام- مركَّب من روح وجسم، ولابد من توفير السعادة لهما.

ولكن الجسم لابد أن يضمن له السعادة عن طريق توجيه الروح. وفي روح الإنسان طاقتان:

- طاقة ذاتية؛ هي الجهل.
- وطاقة موهوبة له؛ هي العقل.

وأهم ما في الجهل: هوى النفس (حب الذات) وافتقاد العلم.

كما أن أفضل معطيات العقل هو: العلم والحكمة (وهي: تمييز الشر من الخير) وللبشر فوق ذلك: الإرادة التي بها ترجح إحدى الطاقتين (الجهل أو العقل) على الأخرى.

٢- أن حب الذات يُؤدي -إن لم يُوجَّه بالعقل- إلى حب الدنيا وعبادة المادة، ومن حب الدنيا تنشأ الشهوات وهي تسبب الرذائل.

كما أن الحكمة -إن اتُّبعت- تجعل الفرد يتبع الحق، وباتباع الحق يتحلى الفرد بالفضائل، وهي تتلخص في مراعاة حقوق الآخرين واتباع الحق.

٣- لابد أن تسخّر كل قوى الحياة في تطبيق الحق، إذ به يتمكن الناس من أن يؤدوا

الحقوق، وبسببه يلتزم كل فرد بواجباته تجاه نفسه وتجاه الآخرين.

٤- حقوق البشر تنشأ من أحد أمرين:

- العمل؛
- الحاجة.

فمن عمل استحق الأجر بقدر ما أحسن، ومن احتاج كان له بقدر حاجته الحق على القادرين.

٥- أن البشر خلقوا شعوبًا وقبائل مختلفة لكي يتعاونوا في سبيل تحقيق سعادتهم، وهي استثمار الطاقات الموجودة في أنفسهم وفي الآفاق. ذلك لأن الأرض والسماء إنما هي مخلوقة للبشر ومسخرة من أجلهم.

٦- أن اتِّباع الحق هو السبيل الوحيد إلى استثمار هذه الطاقات، أما الحق فهو مطابقة العمل للواقع المفروض، والذي يُعيِّن هذا الواقع المفروض هو الله، عن طريق الرسل أو العقل السليم بتذكرة الأنبياء عليهم السلام.

٧- تعاون الناس في هذا السبيل ينشأ من خضوعهم جميعًا لتوجيه عقولهم وتسليمهم لنظام واحد وهو الإسلام، وتتمثل قيادته في إنسان تتوفر فيه شروط القيادة، يتعرف عليه الناس بالتجربة الشخصية ومتى فسق أو جهل بطل تمثيله للأمة. وكذلك فيما إذا عجز عن مواجهة المشاكل والأزمات وحلها.

٨- الناس باتباعهم لإرشادات عقولهم، يضمنون لأنفسهم الحريات الأربع وهي: حرية الفكر بالارتفاع عن الخضوع للشهوات أو التعصب والتقليد.

وحرية السياسة، باتباع من يمثل الدين وعدم الاستسلام لأي طاغوت آخر.

وحرية الاقتصاد، فلكل فرد أن يكتسب كما يشاء شريطة ألَّا يُسبِّب شقاءً لنفسه أو شقاءً للناس.

وحرية الشؤون الشخصية، بأن يعمل بما شاء وكيف شاء، وضمنها حرية السفر والإقامة.

٩- وبما أن الفرد له عقل وإرادة فهو مسؤول عن أعماله وعن تغيير الفاسد من واقعه

وواقع الناس بمقدار استطاعته، ولكنه من جهة أخرى يعتبر فردًا في العائلة البشرية. فهو غير مالك لنفسه بصورة مطلقة؛ إذ إن البشر مخلوقون لله صائرون إليه، فليس له أن يضر نفسه -لأنه ليس مالك نفسه- ولا بغيره. وبما أن البشر عائلة واحدة فعليهم أن يكفلوا من عجز منهم عن إدراك الحق في فكره، بأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وتوجيهه إلى الحق. أو عجز عن تحقيق الصحة والكرامة و.. و.. في جسمه، بتوفير الضمانات المحققة لحاجته جميعًا. وعلى هذا الأساس تنشأ بعض التحديدات كحرمة التجارة بالمحرمات وبعض الضرائب كالخمس والزكاة والضرائب الأخرى على الصعيد العام. كما ينشأ لزوم النفقة على المضطر في الصعيد العائلي الخاص.

١٠- وأن القوة التنفيذية لهذه الأحكام هي: الإيمان القلبي بالله الذي خلق البشر وملكهم، وباليوم الآخر الذي يجزي فيه كل صالح بثواب ويجزي كل طالح بعقاب.

١١- وأن التسليم للدين ناشئ من إيمان الفرد بأنه لا حق لأحد في التشريع غير الله أو التشريع من خلال القواعد والقوانين العامة التي وضعها الله؛ لأنه فقط مالك الناس وهو الحكيم العليم.

هذا موجز القول في نظرة الإسلام إلى الإنسان والمجتمع.

⟨٥⟩ ٢ - المجتمع الإسلامي

يقرر الإسلام أن كل فرد مسؤول عن أعماله مُكلَّف بواجباته، وله حقوقه في التمتع باللذائذ الفكرية والجسمية في حدود خدماته أو حاجاته، ويقول: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[١].

وتنشأ هذه الفكرة في الإسلام -والتي تبدو فيها النزعة الفردية بادئ الأمر- من تقرير الإسلام أن كل فرد عاقل حر في اتِّخاذ أي قرار في الحياة. وبما أنه حر فهو مالك لنفسه وليس لأحد عليه حق العبودية: «**وَلَا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللهُ حُرًّا..**»[٢].

وإذا كان كل فرد مالك نفسه فهو أملك لعمله وتصرفه من أي فرد آخر ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[٣].

وعلى هذا الأساس المتين يُشرِّع الدين أحكامًا خاصة بالفرد (ليس للمجتمع فيها دخل) كأفعال القلب -العقيدة والإيمان- والعبادات وكثير من الأحكام الأخرى.. وقد جاء في القرآن تقرير لهذه الحقيقة حيث صرح: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[٤].

ولكن هذه الفكرة -الناشئة من حرية كل فرد ومسؤوليته- لا تنافي فكرة أخرى تبدو فيها جماعية الاتجاه هي: أن الإنسان عبد الله، وأن امتلاكه لنفسه ناشئ من تمليك الله

---

(١) سورة الزلزلة، آية: ٧-٨.

(٢) نهج البلاغة: (٣١) من وصية له لولده الإمام الحسن عليه السلام كتبها إليه بحاضرين عند انصرافه من صفين.

(٣) سورة الطور، آية: ٢١

(٤) سورة المائدة، آية: ١٠٥.

له ذلك. وبما أنه عبد فهو مُسيَّر بأمر الله وفي صراطه ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[١].

وكما خلق الله هذا الفرد خلق الآخرين، فهما متساويان أمام الله، متكافئان في الحقوق والواجبات، كل منهما عبد لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا من دون الله.. فليس لأحد أن يطغى على الآخر، ولا أن يشبع هو بينما يجوع جاره، ولا أن يعتزل عن الناس باتِّباع الرهبانية وباستغلال حق حريته استغلالًا غير صالح بالنسبة إلى الآخرين. وعلى هذا الأساس فلا يصح أن يمحق الفرد حقوق الجماعة، ولا أن تهضم الجماعة حقوق الفرد.

وبما أن الدين يعترف بالفرد وحدةً مستقلةً في المجموع يؤكد على الجماعة ألَّا تغلب على الناس نزعتهم الفردية بحيث تطغى على علاقة بعضهم مع بعض. ولذلك فهو يُقرِّر عدة نظم في سبيل ربط الفرد بالجماعة هي.

١- أن الفرد إنما هو محاط بحلقات متداخلة هي بالترتيب:

عائلته[٢]، أسرته[٣]، عشيرته[٤]، جيرانه[٥]، أساتذته وتلاميذه[٦].

وكل من يمت إليه بصلة كالصاحب في السفر والصديق في الحضر وهكذا..

٢- ويقرر بعد ذلك ربط الفرد بالجماعة، فيرسم واقع العلاقة بينهما في أصل الخلق

---

(١) سورة الصافات، آية: ٩٦.

(٢) يقول الإسلام في توثيق علاقة الإنسان بأسرته: «**رِضَا الله مَعَ رِضَا الْوَالِدَيْن، وَسَخَطُ الله مَعَ سَخَطِ الْوَالِدَيْنِ**»، وَقَالَ صلى الله عليه وآله وسلم: «**نَظَرُ الْوَلَدِ إِلَى وَالِدَيْهِ حُبًّا لَهُمَا عِبَادَةٌ**». بحار الأنوار: ج٧١، ص٨٠.

(٣) ويقول في الأسرة: عَنِ الإمام الرِّضا عَنْ آبَائِهِ عليهم السلام قَالَ: «قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ عليه السلام: **صِلَةُ الْأَرْحَام وَحُسْنُ الْجِوَارِ زِيَادَةٌ فِي الْأَمْوَالِ**»، وَعَنْ جَمِيلِ بْنِ دَرَّاجٍ عَنْ أَبِي عَبْدِالله عليه السلام قَالَ: «سَأَلْتُهُ عَنْ قَوْلِ الله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ قَالَ عليه السلام: **هِيَ أَرْحَامُ النَّاسِ أَمَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِصِلَتِهَا وَعَظَّمَهَا، أَلا تَرى أَنَّهُ جَعَلَهَا مَعَهُ**». بحار الأنوار: ج٧١، ص٩٧-٩٨.

(٤) يقول الإسلام على لسان أمير المؤمنين عليه السلام: «**وَصَلَ امْرُؤٌ عَشِيرَتَهُ فَإِنَّهُمْ أَوْلَى بِبِرِّهِ وَذَاتِ يَدِهِ، وَوَصَلَتِ الْعَشِيرَةُ أَخَاهَا إِنْ عَثَرَ بِهِ دَهْرٌ وَأَدْبَرَتْ عَنْهُ دُنْيَا** ..» بحار الأنوار: ج٧١، ص١٠٥.

(٥) يقول الإسلام على لسان النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**مَنْ آذَى جَارَهُ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ رِيحَ الجَنَّةِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المَصِيرُ، وَمَنْ ضَيَّعَ حَقَّ جَارِهِ فَلَيْسَ مِنَّا وَمَا زَالَ جَبْرَئِيلُ يُوصِينِي بِالجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ**». بحار الأنوار: ج٧١، ص١٥٠.

(٦) يقول الإسلام على لسان الإمام علي بن الحسين عليهما السلام: «**وَأَمَّا حَقُّ سَائِسِكَ بِالْعِلْمِ؛ فَالتَّعْظِيمُ لَهُ وَالتَّوْقِيرُ لِمَجْلِسِهِ وَحُسْنُ الاسْتِمَاعِ إِلَيْهِ وَالإِقْبَالُ عَلَيْهِ** ...» بحار الأنوار: ج٧١، ص١٣، وَقَالَ عليه السلام: «**وَأَمَّا حَقُّ رَعِيَّتِكَ بِالْعِلْمِ فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّمَا جَعَلَكَ قَيِّمًا لَهُمْ فِيمَا آتَاكَ مِنَ الْعِلْمِ وَفَتَحَ لَكَ مِنْ خَزَائِنِهِ فَإِنْ أَحْسَنْتَ فِي تَعْلِيمِ النَّاسِ وَلَمْ تَخْرَقْ بِهِمْ وَلَمْ تَضْجَرْ عَلَيْهِمْ زَادَكَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ**..»، بحار الأنوار: ج٢، ص٦١.

فيعتبر أن أفراد (المجتمع المؤمن) إخوة فيجب أن يقوم بعضهم بإصلاح بعض ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(١).

وتارة يقول: إن أفراد الأمة المسلمة كأعضاء جسم واحد: «**الْمُؤْمِنُونَ فِي تَبَارِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، كَمِثْلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى تَدَاعَى لَهُ سَائِرُهُ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**»(٢).

٣- وأما حق الأمة فإنه يقرر هكذا: «**وَحَقُّ أَهْلِ مِلَّتِكَ** (أي أهل دينك) **إِضْمَارُ السَّلَامَةِ لَهُمْ، وَالرَّحْمَةُ لَهُمْ، وَالرِّفْقُ بِمُسِيئِهِمْ، وَتَأَلُّفُهُمْ، وَاسْتِصْلَاحُهُمْ، وَشُكْرُ مُحْسِنِهِمْ، وَكَفُّ الْأَذَى عَنْهُمْ، وَتُحِبُّ لَهُمْ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَتَكْرَهُ لَهُمْ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ، وَأَنْ تَكُونَ شُيُوخُهُمْ بِمَنْزِلَةِ أَبِيكَ، وَشَبَابُهُمْ بِمَنْزِلَةِ إِخْوَتِكَ، وَعَجَائِزُهُمْ بِمَنْزِلَةِ أُمِّكَ، وَالصِّغَارُ بِمَنْزِلَةِ أَوْلَادِكَ..**»(٣).

٤- أما أفضل الناس في المجتمع الإسلامي فهم:

- **التقي**(٤) **العالم**، يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(٥). ويقول: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾(٦).
- **المجاهد في سبيل الله**.. يقول الله سبحانه: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(٧).
- **السابق إلى الدين**.. قال الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾(٨). ولكن كل هذه المزايا لا تبرر تكبُّر هؤلاء على الناس أو تطاولهم على حقوق الآخرين.

٥- كما أن من أفضل الناس عند الله هو الذي ينفع الناس أكثر من غيره، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**خَيْرُ النَّاسِ مَنِ انْتَفَعَ بِهِ النَّاسُ**»(٩). وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**خَصْلَتَانِ وَلَيْسَ فَوْقَهُمَا خَيْرٌ مِنْهُمَا: الْإِيمَانُ بِالله**

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١٠.
(٢) بحار الأنوار: ج٧١، ص٢٣٤.
(٣) بحار الأنوار: ج٧١، ص٩.
(٤) الإسلام يقرر أن الحياة سواء ما يرتبط منها بالدنيا أو ما يرتبط منها بالآخرة إنما هي: مبنية على العمل ولا قيمة للعمل دون إخلاص، ولا إخلاص دون أن يكون العمل ناشئًا من وعي وإرادة، وكلمة التقوى تجمع هذه كلها؛ إذ تعني الخوف من الله الموجب للإخلاص في العمل الصالح المستمر.
(٥) سورة الحجرات، آية: ١٣.
(٦) سورة المجادلة، آية: ١١.
(٧) سورة النساء، آية: ٩٥.
(٨) سورة الواقعة، آية: ١٠-١١.
(٩) بحار الأنوار: ج٧٢، ص٢٣.

وَالنَّفْعُ لِعِبَادِ اللهِ. قَالَ: وَخَصْلَتَانِ لَيْسَ فَوْقَهُمَا شَرٌّ: الشِّرْكُ بِاللهِ وَالْإِضْرَارُ لِعِبَادِ اللهِ»(١).

٦- المؤمنون في منطق الإسلام وعلى لسان الإمام الصادق عليه السلام، عَنْ جَمِيلٍ قَالَ: «سَمِعْتُهُ عليه السلام يَقُولُ: **الْمُؤْمِنُونَ خَدَمٌ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ**. قُلْتُ: وَكَيْفَ يَكُونُونَ خَدَمًا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ؟!. فَقَالَ عليه السلام: **يُفِيدُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا**»(٢).

٧- لابد لأفراد المجتمع من أن يتراحموا ويتباروا.. يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**تَوَاصَلُوا وَتَبَاذَلُوا وَتَبَارُّوا وَتَرَاحَمُوا وَكُونُوا إِخْوَانًا بَرَرَةً كَمَا أَمَرَكُمُ اللهُ تَعَالَى**»(٣).

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**عَلَيْكُمْ بِالتَّوَاصُلِ وَالتَّبَاذُلِ وَإِيَّاكُمْ وَالتَّقَاطُعَ وَالتَّحَاسُدَ وَالتَّدَابُرَ..**»(٤). ويقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «**أَلَا إِنَّ فِي التَّبَاغُضِ الْحَالِقَةَ. لَا أَعْنِي حَالِقَةَ الشَّعْرِ وَلَكِنْ حَالِقَةَ الدِّينِ**»(٥). ويقول صلى الله عليه وآله وسلم: «**لِيَنْصَحِ الرَّجُلُ مِنْكُمْ أَخَاهُ كَنَصِيحَتِهِ لِنَفْسِهِ**»(٦).

ويقول الإمام الباقر عليه السلام: «**إِذَا احْتَجْتَ فَسَلْهُ** (أي أخاك المؤمن)، **وَإِذَا سَأَلَكَ فَأَعْطِهِ، وَلَاتَدَّخِرْ عَنْهُ خَيْرًا، فَإِنَّهُ لَايَدَّخِرُهُ عَنْكَ. كُنْ لَهُ ظَهْرًا فَإِنَّهُ لَكَ ظَهْرٌ، إِنْ غَابَ فَاحْفَظْهُ فِي غَيْبَتِهِ، وَإِنْ شَهِدَ فَزُرْهُ، وَأَجِلَّهُ وَأَكْرِمْهُ فَإِنَّهُ مِنْكَ وَأَنْتَ مِنْهُ..**»(٧).

٨- لابد لكل فرد في المجتمع المسلم أن يراقب الأمور العامة ويهتم بها، فإذا وجد فيها فسادًا سارع إلى إصلاحه. يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**مَنْ لَمْ يَهْتَمَّ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ بِمُسْلِمٍ**»(٨).

٩- أما التمايز الطبقي أو العنصري أو القومي، فإن الإسلام يتبرأ منه ويتبرأ من كل من ينادي به، ويضع كل تعاليمه على أساس المساواة والعدالة الشاملة، يقول الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾(٩).

---

(١) مستدرك الوسائل: ج١٢، ص٣٩٠.
(٢) وسائل الشيعة: ج٢٧، ص٨٧.
(٣) مستدرك الوسائل: ج٩، ص٥٤.
(٤) مستدرك الوسائل: ج٩، ص٤٩.
(٥) الأصول من الكافي: ج٢، ص٣٤٦.
(٦) الأصول من الكافي: ج٢، ص٢٠٨.
(٧) بحار الأنوار: ج٧١، ص٢٢٢.
(٨) بحار الأنوار: ج٧١، ص٣٣٨.
(٩) سورة الحجرات، آية: ١٣.

إن هـذه الآيـة لا تُقدِّم وصيـة خُلقيـة وتربوية إلى المسـلمين ولكنها تُوضِّح فلسـفة تشريعيـة يبنـي عليها الدين كل أسسـه، وهـي تُقرِّر ثلاثة حقائق أساسـية في بنـاء الحقوق الدولية والوطنية هي:

ألف: إن الناس مخلوقون فلا يملكون إلَّا ما وهب لهم الله تعالى.

بـاء: إن أصل خلقهم ذكر وأنثى فهم إخوة في الأصل، وما طرأ عليهم من الاختلاف فهو عرض يجب إلَّا يُعتنى به.

جيم: إن هناك شعوبًا متمايزة وقبائل مختلفة، ولكن كل هذه لا بد أن تُستغل في سبيل التعـارف والتعاون، فالقوميات لابد أن تُسـتغل للصالـح العام لا للتباغض والتحارب.

١٠- والإسـلام يقـرر العدالـة الاجتماعية عـلى الصعيديـن: الحكومـي والفردي. ويقـول: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾(١). هذه الآية تنسـف خرافة القرابة أو الصداقة أو الغنى نسـفًا وتجعل الميزان هو العدل والحق فقط.

١١- أما الحروب فإنها -حسب الرؤية الإسلامية- تنشأ في المجتمعات بأحد سببين:

الأول: إن الناس يُصبحون أمام الدعوات الخيرة إلى فريقين:

- مهتدٍ؛
- وضال.

ويحاول الضالون أن يقضوا على المهتدين لكي يصفو لهم الجو.

ولابـد مـن هذه الحرب حتـى تصبح كلمة الحق هـي العليا شريطة ألَّا تُسـتغل هذه الحرب للمصالح المادية.

الثـاني: إن بعـض الطبقات تريد أن تسـتغل طبقـة أخرى فتقوم الحـرب، ولابد من القضاء على هذا النوع من الحرب، بالقضاء على جرثومتها وهي الاستغلال.

---

(١) سورة النساء، آية: ١٣٥.

أما الاستغلال فإن سببه: حرص الإنسان على المادة. وعلاجه هو: توجيه الناس إلى الحق ومعاقبة المستغلين معاقبة صارمة.

ويقرر الدين أن رأس المال حيث يستغل العمال، وأن الحزب حيث يستغل الشعب؛ فإنما هو لأمر في قلب المُستغِل وأمر في قلب المُستغَل.. أما الأول فلأنه جعل المادة إلهه المعبود. وأما الثاني فلأنه سكت على الظلم وخضع للنظام الباطل، وكان عليه أن يثور ضده.

١٢- والإسلام يوفر (بالنظام السابق) ما تحلم به الرأسمالية من حرية الشعب، وما تدعو إليه الاشتراكية من الضمان الاجتماعي للفقراء؛ دون أن يجر إلى العالم الدمار الذي جرته هاتان الآفتان. أما الحرية فحيث يُقرِّر أن كل فرد مختار في أعماله، فهو حر فيما يعمله وله كل ما ينتجه. وأما الضمان فحيث يقول: إن الناس عباد الله فلهم جميعًا حق البقاء، وكذلك فعلى كل مسلم أن يوفر -حسب إمكاناته- ضرورات الحياة لكل إنسان مسلمًا كان أو كافرًا.

وكلمة الخلاصة: إن الإسلام يمزج مبدأين في الاجتماع مزجًا معتدلًا، وهما:

ألف: إن كل فرد حر ومسؤول، له مثل ما عليه من الحقوق والواجبات، وإن لكل فرد ما ينتج، ولكل امرئ حسب كفاءته.

باء: إن الناس عباد لله ومتساوون في الحقوق العامة فلكل حسب حاجته.

وعلى هذين الأساسين يبني الدين صرحه الشامخ في المجتمع الصاعد من دون أن ينزلق في أخطاء النظم المادية المعاصرة.

٥ ٣ - الاقتصاد الإسلامي

في حقل الاقتصاد يرى الإسلام أن الله خلق الأرض والسماء وجعلها مسخرة للبشر، وجعل فيها متاعًا إلى حين[١]، وأن ما جعل لهم يكفي لكل البشر[٢]، ويقول في ذلك ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[٣].

ويرى أن للإنسان صلاحية استخراج الرزق من الأرض بإذن الله؛ فيقول: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[٤].

ويرى أن على الناس أن يسعوا في سبيل تحصيل المعاش من الأرض، فيقول: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٥].

ويرفض أن يكسل الإنسان عن تحصيل رزقه أو يضعف، ويقول على لسان الإمام الصادق عليه السلام: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبْغِضُ كَثْرَةَ النَّوْمِ وَكَثْرَةَ الْفَرَاغِ**»[٦].

وإن الكسل يمنع حظ الدنيا والآخرة، ويقول عليه السلام في ذلك: «**إِيَّاكَ وَالْكَسَلَ وَالضَّجَرَ فَإِنَّهُمَا يَمْنَعَانِكَ مِنْ حَظِّكَ مِنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**»[٧].

(١) حينما نقول -تبعًا للتعبير القرآني- إلى حين، فلأن هناك غاية وراء هذا التركيز، وهي أن الحياة الدنيا ليست غاية السعادة البشرية، وأن من يأمل فيها ذلك فإنه يأمل باطلًا سرعان ما يصطدم بالواقع ويشقى ويُشقي الآخرين.
(٢) خلافًا لبعض النظريات المادية التي تعتقد أن ما في الأرض لا يكفي الناس جميعًا فلابد أن يتصارعوا لكي يُفلح الأقوى بالعيش ويفنى الضعيف.
(٣) سورة البقرة، آية: ٢٩.
(٤) سورة الأعراف:آية: ١٠.
(٥) سورة القصص، آية: ٧٣.
(٦) الفروع من الكافي: ج٥، ص٨٤.
(٧) الفروع من الكافي: ج٥، ص٨٥.

ويرى أنه لابد للمسلم أن يكون نشيطًا في طلب الرزق ساعيًا، كي لا يكون متأخرًا أو يكون كَلًّا على غيره.. ذلك لأن من ألقى كَلَّه على الناس فهو ملعون. ويقول على لسان الإمام الصادق عليه السلام: «.. **فَعَلَيْكُمْ بِالْجِدِّ وَالِاجْتِهَادِ، وَإِذَا صَلَّيْتُمُ الصُّبْحَ وَانْصَرَفْتُمْ فَبَكِّرُوا فِي طَلَبِ الرِّزْقِ، وَاطْلُبُوا الْحَلَالَ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ سَيَرْزُقُكُمْ وَيُعِينُكُمْ عَلَيْهِ**»(١).

ويرى أن البلد المسلم لابد له من زراعة وتجارة وصناعة(٢). وقد كان الأئمة عليهم السلام -وهم قادة الدين- يزرعون ويفلحون فيقول أحدهم: «.. **فَإِنِّي أَشْتَهِي أَنْ يَرَانِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَعْمَلُ بِيَدِي وَأَطْلُبُ الْحَلَالَ فِي أَذَى نَفْسِي**»(٣).

كما يرى الإسلام أن التجارة خير ويأمر بها ويرغب في أن يبكر الفرد إليها، وأن يتحمَّل المشاق في سبيلها. ولقد كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والإمام الصادق عليه السلام يزاولان التجارة شخصيًّا.

أما الصناعة فيُشجع الدين عليها ويذهب في تشجيعه بعيدًا حيث يرى أنه حتى لو كانت الصناعة تُستغل من قبل بعض المستهلكين في وجوه الحرام، فإن الإنتاج ذاته لا يكون حرامًا؛ ذلك لأن في إنتاجها منافع للناس (حسب ما جاء في نص إسلامي)(٤).

وإضافة إلى هذه التعاليم، فإن الدين يضع مناهج خاصة للتنمية الاقتصادية، وإليك طائفة منها:

١- إن الإسلام يُمَلِّك الأرض للذي عمرها، ويقول: «**مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَوَاتًا فَهِيَ لَهُ**»(٥).

٢- و يُمَلِّك المعادن وموارد الثروة الطبيعية لمن استخرجها.

٣- ويسهل للناس المعاملات ويكتفي بمجرد المعاطاة فيها، بينما تفرض الشرائع الأخرى قيودًا أخرى كالكتابة والإشهاد وما شابه ذلك.

٤- ويضع نظام القرض ويُشجّع عليه، ويعتبر الدرهم في القرض خيرًا من عشرة دراهم في الصدقة، كما يجعل من الزكاة حصة لأداء دين العاجز فيأمر الناس بأن يقترضوا فإن عجزوا عن الأداء أخذوا من أموال الدولة.

٥- ويجعل في أموال الدولة سهمًا يُصرف في الإعمار والتنمية.

---

(١) الفروع من الكافي: ج٥، ص٧٨.

(٢) هناك نظم كاملة في هذه الشؤون الثلاثة تتعرض لها كتب الفقه الحديث فراجع للتوسع.

(٣) وسائل الشيعة: ج١٧، ص٤٠.

(٤) راجع: تحف العقول، باب ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام جوابه عن جهات معائش العباد.

(٥) الحديث مروي عن الرسول صلى الله عليه وآله. وسائل الشيعة: ج٢٥، ص٤١٢.

٦- ويقر نظام المضاربة في حين يحرم الربا، ليشترك كلٌّ من صاحب المال والعامل بقدم المساواة في الربح والخسارة، وبذلك يشجعهما على العمل.

٧- ويحرم البطالة والاشتغال بالمحرمات ولعب القمار وكثيرًا من أقسام اللهو.

٨- ويمنع التبذير ويحجز أموال السفيه (الذي يصرف المال في غير أوجه الصلاح) وبذلك يوفر للأمة مالًا كثيرًا.

٩- ويُربِّي الناس على الجد وملأ الفراغ وضبط المواعيد والوفاء بالعهود والتعاون وتعلم الصناعة وما أشبه مما يساعد على التنمية الاقتصادية.

١٠- ويُسهِّل على الناس التبادل حينما يقول لهم على لسان الإمام علي عليه السلام: «.. **يَا مَعْشَرَ التُّجَّارِ!... وَتَنَاهَوْا عَنِ الْيَمِينِ، وَجَانِبُوا الْكَذِبَ، وَ تخافوا [تَجَافَوْا] عَنِ الظُّلْمِ، وَأَنْصِفُوا الْمَظْلُومِينَ، وَلَا تَقْرَبُوا الرِّبَا،** ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[(١)]»[(٢)].

وبهذا تشيع الثقة بين الناس فيسهل التبادل.

١١- وأخيرًا يُطلق جميع الحريات المشروعة التي تُنمِّي التجارة والصناعة[(٣)].

مشكلة الثروة:

ويمكن تحدي هذه المشكلة بالإجابة عن السؤال التالي: هل يمنح الناس الحرية التامة في جمع المال، حتى تتضخم الثروة في جانب وتنحسر عن جانب؟. هل ينبغي أن يمنح الناس هذه الحرية المطلقة لكي تكون مشجعة لهم وداعية إلى المزيد من النشاط والحركة؟. أم يُستعبد الناس للدولة ليأخذ كلٌّ حسب كفاءته ويُعطي لكلٍّ حسب حاجته فيكون في ذلك توجيه صحيح للاقتصاد، أم نُوزِّع الثروة ونتفادى في النهاية مشكلة التضخم ولكن على حساب كبت حريات الإنسان؟.

أي طريق من هذين، هو الطريق القويم؟. هل الطريق الأول الذي سلكه الاقتصاد الحر، أم الثاني الذي انتهجه الاقتصاد الشيوعي؟.

إن الإسلام يبدأ أولًا بتحليل المشكلة، ويُبيِّن أسبابها، ويقول:

---

(١) سورة هود، آية: ٨٥.

(٢) بحار الأنوار: ج٧٥، ص٥٤.

(٣) وبهذه الأسباب وما أشبهها أحرز المسلمون الأوائل ذلك التقدم الاقتصادي الباهر. أما الغرب اليوم فإن تقدمه إنما هو على حساب الشعوب الكادحة. (انظر كتابي: التنمية الاقتصادية في الإسلام، و: تشريح جثة الاستعمار).

إن الإنسـان خلق حرًّا مختارًا، وكل وجدان يشعر بذلك، وعليه فمن حق كل إنسان أن يسترشد بعقله ويستخدم حريته كيف شاء من دون أن يكون لأي شخص آخر أن يُحدِّد حريته، وما دام الإنسان خلق حرًّا وعاقلًا فإنه لا تمييز بين بني الإنسـان، ويقول على لسان الرسـول ﷺ: «**إِنَّ النَّاسَ مِنْ آدَمَ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، مِثْلُ أَسْنَانِ الْمُشْطِ، لَا فَضْلَ لِلْعَرَبِيِّ عَلَى الْعَجَمِيِّ، وَلَا لِلْأَحْمَرِ عَلَى الْأَسْوَدِ إِلَّا بِالتَّقْوَى..**»(١).

فما دام الناس عباد الله فهم سـواء، وليس لأحد أن يظلم أو يطغى على أحد ويقول: «**مَنْ ظَلَمَ عِبَادَ الله كَانَ اللهُ خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ..**»(٢).

وحرية الإنسان هي التي تُثبت ملكيته الخاصة، ذلك لأن الملكية تجسيد للعمل، والعمل جزء من الإنسـان، فإذا كان الإنسـان حرًّا كان مالكًا لعمله ولما يؤدي إليه عمله. ولهذا يقول الإسـلام: «**سِبَابُ الْمُؤْمِنِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ، وَأَكْلُ لَحْمِهِ** (غيبته) **مَعْصِيَةٌ، وَحُرْمَةُ مَالِهِ كَحُرْمَةِ دَمِهِ**»(٣).

ومـا دام البـشر كلهـم يملكـون أنفسـهم وأموالهـم فـ«**إِنَّ النَّـاسَ مُسَـلَّطُونَ عَـلَى أَمْوَالِهِمْ**»(٤)، فليس لأحد أن يُثري على حسـاب أحد، كأن يُسخِّره أو يخدعه أو يغصبه أو يأكل ماله بالباطل. يقول الإسلام: «**لَا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِطِيبَةِ نَفْسٍ مِنْهُ**»(٥).

ومـن ذلك العمل بالمحرمات التـي تضر المجتمع.. وهكذا عرفنـا كيف ولماذا تُحدَّد حرية كل شخص إذا عارضت حرية الآخرين؟.

وإذا كان النـاس أحـرارًا فمنهم من يعمل كثيرًا، ومنهم من يعمـل قليلًا ومنهم ذكي ومنهم غبـي(٦). وليـس لنا أن نقول لهم: كونوا متسـاوين؛ إذ لا حق لنا في ذلك مادامـوا أحرارًا. وحينذاك فهل نمنع أجر الأفضل والأكثر عملًا؟ فنمنعه حقه ونمنعه حريته (مع أنه سوف يكسل عن العمل الأفضل فيتضرر الجميع) أم الأفضل -كما يقول الإسلام- أن نُطلق حريته لكي ينشط ويتفنن ويُتقن

(١) بحار الأنوار: ج٢٢، ص٣٤٨.
(٢) نهج البلاغة: قسم الرسائل رقم: (٥٣) من كتاب له كتبه للأشتر النخعي لما ولّاه على مصر.
(٣) الأصول من الكافي: ج٢، ص٣٥٩.
(٤) بحار الأنوار: ج٢، ص٢٧٢. عن النبي ﷺ.
(٥) وسائل الشيعة: ج١٤، ص٥٧٢.
(٦) من الواضح أن الناس مختلفون اختلافًا طبيعيًّا بفعل العوامل الوراثية أو التربوية، هذا الاختلاف نعمة من الله كي يتخذ كل فرد مكانه من العمل؛ إذ من المعلوم أن الأعمال متفاوتة فإذا كان الناس متساوين اختار كلهم خير الأمور، فينشأ النزاع. قال الله سبحانه: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾. سورة الزخرف، آية: ٣٢.

عمله إتقانًا، ولكن بشرط ألَّا تكون حريته سببًا لسلب الآخرين حريتهم، وفي حدود القانون.

ومن ناحية ثانية: فإن الغني الذي يكتسب المال في ظل دولة توفر له الاطمئنان والأمن، من الطبيعي أن يكون بعض ماله من حق تلك الدولة (كالذي يكتسب المال في متجر غيره) فلابد إذًا أن يُؤدي حق هذه الدولة لتحفظ أمواله ونفسه وأمنه، ومن هنا ينشأ الخمس والزكاة.

ومن جهة ثالثة: فإن الإنسان الحريص على المال لابد وأن يغفل حينًا -ولو كان مسلمًا تقيًّا- ويسلب مال الناس من حيث لا يشعرون[١]، فلابد أن يُرجعه إليهم، ومن هنا ينشأ رد المظالم.

ومن جهة رابعة: فإن الناس كلهم -لاسيما في النظام الإسلامي- يشتركون في تنمية ثروة هذا الشخص الثري بتعاونهم وحفظهم للأمن وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وأمثال ذلك؛ فلابد أن يكون لهم سهم في أمواله، وهنا تنشأ سائر الضرائب.

وأخيرًا فإن الإسلام -بوحي من الله العليم البصير- وضع مناهج دقيقة ومضبوطة لاستخراج أسهم الدولة والناس الواقعية من ثروة الغني، ففرض عدة أنواع من الضرائب، تسبب التقليل من تضخيم الثروة، وهذه الضرائب تكفي لدى التدبير لسد حاجات الضعفاء والحاجات العامة.

وهذا هو الخط العريض والدقيق لفرض ضرائب عامة، وقد رأينا كيف أنه يوافق أدق أحكام الفطرة والوجدان.

ولكن هذا لا يعني أن الإسلام لا يتوسل بوسائل أخرى في سبيل تحديد الثروة، لكن حتى تلك الأمور تسير باتجاه صحيح على ضوء الفلسفة الإسلامية العامة[٢]، وهي:

١ - إن الإسلام يرى الإنسان في رحلة طويلة، وإن ما يقدمه لنفسه من خير يُوفَّاه في

---

(١) إن تضخُّم الثروة أكثر ما يكون من الاجحاف والتسعير الغالي والأرباح غير العادلة. وهذا وإن كان غير محرم إن كان عن غفلة ولكن فيه أثر الحرام، وهو أن المال لابد أن يرجع إلى أهله.

(٢) في الإسلام نوعان من التكاليف:

- **الأول**: الواجبات: وهي تحدد المسيرة اللازمة لترقية المسلم في الحياة.
- **الثاني**: المستحبات: وهي ما يزيد الحياة رفاهية وسعادة.

وفي مجال الحد من تضخم الثروة للإسلام نوعان من التكاليف:

- الضرائب اللازمة.
- والضرائب المندوبة (وهي ما وراء الواجب).

قال الله سبحانه: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾. سورة النحل، آية: ٩٠. وفي الحديث المفسر للآية: «**الْعَدْلُ الْإِنْصَافُ، وَالْإِحْسَانُ التَّفَضُّلُ**»، وسائل الشيعة: ج١٦، ص٢٩١.

الحياة الأخرى، ولذلك فهو يأمر بالصدقات، وهي زيادة في إعطاء المال للفقراء والمشاريع الخيرية.

٢- وعلى هذا الأساس يأمر الناس ألَّا يحرصوا في طلب الدنيا(١).

٣- وقانون الإرث يحدُّ نوعًا ما من تضخُّم الثروة في يد واحدة.

٤- حكـم عام بلـزوم الإنفاق في ضرورات الحيـاة للفقراء، (وقد مرَّت فلسـفته في فصل سابق).

٥- وإذا أُضيفـت هـذه الأحـكام إلى الحقـوق المشـار إليهـا سـابقًا وهـي: الـزكاة، والخمس، والخراج، والكفارات، والنذور؛ كانت الضرائب الإسلامية خمسة.

وخلاصة الحديث:

إن الإسلام يحل مشكلة التضخم في الثروة عن طريقين عادلين:

الأول: منع ظلـم النـاس بعضهم لبعـض وتحريم السـخرة والاسـتغلال، علمًا بأن التضخم ناشـئ عن طرق غير شرعية في كسب المال كالربا والحكرة والإقطاع والإجحاف والغش والتزوير وما إلى ذلك مما هو معروف في دوائر الرأسماليين(٢).

الثـاني: توزيـع الثـروات وتحديدها عن طريق فـرض الضرائب المناسـبة (كالخمس والـزكاة)، والترغيب عن الدنيـا، وفرض قانون الإرث والالتـزام بالنفقة على المضطرين، والترغيب على إعطاء الصدقات(٣).

---

(١) الإسلام ينهى عن الكسل في حين يأمر بعدم الحرص، وليست هناك منافاة بينهما؛ ذلك لأن العمل مرغوب فيه، ولكن تضخُّم الثروة غير مرغوب فيه، فيمكن أن يعمل ويُعطي للفقراء كما كان من دأب قادة الإسلام (النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام).

(٢) وإلى هذه الحقيقة قال الإمام علي عليه السلام: «**إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ فَرَضَ فِي أَمْوَالِ الْأَغْنِيَاءِ أَقْوَاتَ الْفُقَرَاءِ فَمَا جَاعَ فَقِيرٌ إِلَّا بِمَا مُتِّعَ بِهِ غَنِيٌّ وَاللهُ تَعَالَى سَائِلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ**». نهج البلاغة: قصار الحكم، رقم: (٥٣٣).

(٣) سيأتي في فصل الأخلاق شرح وتوضيح مدى تأثير الترغيب عن الدنيا في الاحتفاظ بتعادل الثروة وحل مشكلة تضخمها.

٥ ٤ - الأخلاق الإسلامية

دعنا نجري في العنوان على عادة الفلاسفة القدماء، ونطلق على الموضوع عنوان (الأخلاق)، وإن كان الأجدى أن يسمى الموضوع بـ(معرفة النفس) مثلما يُسميه الإسلام. أو (علم النفس) مثلما يسميه العلم الحديث؛ ذلك لأن الموضوع أشمل من الأخلاق بكثير، إذ إن معرفة النفس قاعدة أصلية تُبنى عليها كثير من البحوث في الإسلام؛ ففي القرآن الحكيم: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾[1]. وقال الإمام علي: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ»[2]. وقال:

وَتَحْسَبُ أَنَّكَ جُرْمٌ صَغِيْرٌ وَفِيْكَ انْطَوَى الْعَالَمُ الْأَكْبَرُ[3]

من هذا يظهر أن معرفة الله ومعرفة العالم إنما تكون عن طريق معرفة النفس، ومع أن البشرية قد أحرزت تقدُّمًا باهرًا في كل المجالات فإنها لا تزال عاجزة عن معرفة النفس البشرية وما فيها من طاقات[4].

وأهمية الموضوع تفرض توسُّعًا بالإجابة عن الأسئلة التالية:

- ما هي حقيقة النفس؟.
- ما هو واقع القوى المختبئة في النفس؟.
- هل للمُثُل أصالة في النفس؟.
- كيف يمكن إصلاح الناس إصلاحًا شاملًا؟.
- ما هي المؤثرات في النفس وكيف يستغلها الإسلام في الإصلاح؟.

(١) سورة فصلت، آية: ٥٣.
(٢) غرر الحكم، حكمة رقم: ٤٦٣٧.
(٣) ديوان الإمام علي عليه السلام: ص١٧٥.
(٤) راجع كتاب: الإنسان ذلك المجهول، للدكتور الكسيس كاريل.

١- حقيقة النفس:

حقيقة النفس (الروح، القلب) أنها مادة[١] لطيفة محددة تحيا إذا أوتيت الحياة وتموت إذا افتقدتهـا، وتعـرف إذا أُوتيت المعرفة وتجهـل إذا فقدتها. وهي غير البـدن وبإمكانها أن تعيش خارج الجسم -بعد الموت- دون أن تدخل في جسم آخر.

والدليل على كل هذه:

أولًا: الوجدان الإنساني.. ألسنا نحسّ بأنَّا نعلم ونقدر ونحيا، ولكن العلم والقدرة والحياة ليست من ذاتنا (أنا حي، أي أنا أملك الحياة ولكن لست جوهر الحياة نفسه)؛ ذلك لأننا لم نكن عالمين ثم علمنا، إذًا فالعلم ليس من ذاتنا الذي لا ينفصل عنه.

ثانيًا: تجارب احضار الأرواح المفصلة في كتبهم التي تبلغ المئات في الغرب والشرق.

ثالثًا: الآيات والأحاديث التالية:

١- ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ ﴾[٢]، وواضـح أن المجـرد لا يمكن أن يُصبـح جاهلًا، فحيث إن النفس تعـود جاهلة بعد العلم فهي غير مجردة بنص هذه الآية.

٢- في الحديث عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في حوار طويل مع أحد الزنادقة: «**وَالرُّوحُ جِسْـمٌ رَقِيقٌ قَدْ أُلْبِـسَ قَالَبًا كَثِيفًا**.. إلى أَنْ قَالَ: **الرُّوحُ بِمَنْزِلَةِ الرِّيـحِ فِي الزِّقِّ إِذَا نُفِخَتْ فِيهِ امْتَلأَ الزِّقُّ مِنْهَا فَلَا يَزِيدُ فِي وَزْنِ الزِّقِّ وُلُوجُهَا فِيهِ وَلَا يَنْقُصُهَا خُرُوجُهَا مِنْهُ، كَذَلِكَ الرُّوحُ لَيْسَ لَهَا ثِقْلٌ وَلَا وَزْنٌ**..»[٣].

---

(١) حينما نقول مادة لا نقصد أنها جسم، فالتيار الكهربائي من المادة أيضًا، مع العلم أنه ليس بجسم. وليست كل مادة تحس وتلمس بالحواس الظاهرية، بل المقصود بالمادة أن الروح محدودة الجوانب متقلبة الطبائع تغدو وتروح. وليست المعرفة والقدرة والحياء جزء من كيانها الذاتي، بل إنها أشياء خارجية رُكِّبت من قبل الله سبحانه وتعالى خلافًا لما قاله فلاسفة الإغريق وتبعهم غيرهم من أن نفس الإنسان مجردة غير محدودة، عالمة حية بذاتها، وبتعبير آخر: إنها تحمل صفات الله -سبحانه وتعالى عما يصفون-. وما أبعد ما بين هذا الرأي وبين ما زعمته المادية أن النفس غير موجودة رأسًا. وهكذا يتجاذب التطرُّف من هنا والتعدِّي من هناك كل الذين ابتعدوا عن هدى الله واتبعوا أهواءهم بغير علم.

(٢) سورة النحل، آية: ٧٠.

(٣) بحار الأنوار: ج١٠، ص١٨٥.

٢- قوى النفس:

كل عمـل يعملـه البـشر فإنما تعمله روحه بسـبب جسـمه، فالجسـم آلة للـروح[١]، (والأرواح القويـة كأرواح السـحرة والمرتاضين تعمل من دون الجسـم أيضًا)، كما أن كل صفة يمتلكها البشر فإنما هي صفة نفسه لا صفة جسمه.

وفي النفـس قوتان متعارضتـان: قوة تجرُّها إلى الأرض، وأخرى ترفعها إلى السـماء، وهما:

ألـف: الجهل، وهو من طبيعة النفس وذاتها وتنسـب إليـه الجاهلية. وهو منبت كل رذيلة كالشرك والكذب والكفر وعدم العلم وعدم الإرادة[٢].

بـاء: العقـل، وهو من الله سـبحانه وهـو أصل كل صفة حسـنة كالعلـم والحكمة ومعرفة الخير والشر والإرادة، وبه يدرك الإنسان كل ما يريد.

وأبسـط دليل على ذلك: أن كل فرد يشـعر في نفسـه أن قوتين تتغالبـان في ذاته: قوة تريـد مصلحتـه الخاصة وقوة تريد الحـق. وقبل كل عمل فيه مصلحة الإنسـان من جانب وضرر الآخريـن من جانب ثانٍ يجد الفرد نفسـه في معركة داخليـة. ومن الممكن أن تغلب إحـدى القوتـين على الأخـرى فيقوم الفرد بفعل مـا فيه مصلحته مثلًا دون أن يشـعر بقوة أخرى تمنعه عنه، ولكن سرعان ما يجد في نفسـه بعد إتمام العمل قوة تلومه وتوبِّخه، وهي القوة الثانية التي استترت حين العمل بعض الوقت وخرجت بعده تُوبِّخ وتلوم[٣].

ودليـل آخر على ذلك: أنَّا نجد أن بعض النـاس يعملون من الصالحات ما ليس لهم فيـه مصلحـة أبدًا، بل يقومـون به لمجرد أنه عمـل خيري، ولربما نكـون نحن -وفي بعض الأوقات- قد عملنا أعمالًا لم تكن فيها مصالحنا أبدًا.

---

(١) في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال: «**الرُّوحُ مَسْكَنُهَا فِي الدِّمَاغِ، وَشُعَاعُهَا مُنْبَثٌّ فِي الْجَسَدِ بِمَنْزِلَةِ الشَّمْسِ دَارَتُهَا (عينها) فِي السَّمَاءِ وَشُعَاعُهَا مُنْبَسِطٌ عَلَى الْأَرْضِ، فَإِذَا غَابَتِ الدَّارَةُ فَلَا شَمْسَ، وَإِذَا قُطِعَتِ الرَّأْسُ فَلَا رُوحَ**». بحار الأنوار: ج٦، ص١١١.

(٢) يمكننا أن نعرف ببساطة: لماذا تكون الرذائل من طبيعة النفس وذاتها؟، وذلك لأن كل ما يقترفه الإنسان من صفة نفسية سيئة كالكذب وما شابه ذلك فإنه إنما يرتكب ذلك لأن فيه هواه، أي أنه يحب ذلك؛ لأنه يتلذذ به أو بنتيجته. فنعرف من ذلك: أن هوى النفس وميلها مع الرذيلة. وإلى هذه الحقيقة يُشير الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «**وَنَعُوذُ بِالله مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا**».

(٣) قال الله سبحانه: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾، (أي قسماً بتلك الروح التي تُوبِّخ الإنسان على أعماله السيئة).

والإسـلام يقـول: إنـه نتيجة لتغالـب العقل والجهـل في البشر، فهو أكثـر ما يواجه ازدواجية المشاعر، فهو دائمًا يجد نفسه حرة في أن تختار الحق أو الباطل، ويجد أن لكل منهما في داخل قلبه قوةً ورصيدًا.

وللبشر قوة تسـمى بـ(الإرادة الحرة) تسـتطيع أن تتجَّه نحو العقـل فتختاره أو نحو الجهل فَتَرْجِمُهُ. وتلك الإرادة هي التي تُقرِّر المصير، كما أنها تحقق حرية البشر ومسؤوليته تجاه عمله السيِّئ واستحقاقه للثواب تجاه العمل الصالح. وليس أدل على هذه الحرية من أن كل فرد يشعر بأنه حر.

ومن هنا نعلم أن قوى النفس ثلاثة:

١- العقل؛ وهو منبع كل صفة خيرة كالعلم والصفات الحسنة والحكمة.
٢- الجهل؛ وهو منبع كل صفة سيئة كالرذائل وحب الذات.
٣- الإرادة؛ وهي قوة يختار بها الفرد الخير أو الشر وهي أصل حريته.

والدليل على وجود هذه القوى:

ألف: الوجدان، وهو شـعور كل فرد بعد التدبُّر في واقع نفسـه أنه يريد الخير ويريد الشر، وشعوره بالمعركة الحامية التي تقع في أعماق نفسه بين قوى الخير وقوى الشر، وشعوره بحريته في اختيار جانب أي من القوتين يشاء.

بـــاء: وجود أعمال لا تُفسَّر إلَّا بأنها عُمِلت لأجل الحق.

جيم: الدليل النقلي من القرآن الكريم، والحديث الشريف.

٣- المُـثُـل:

إن الإسـلام يرى أن المُثُل الخلقية تجتمع كلها في اتِّباع هدى العقل؛ ذلك لأن العقل يدعو الفرد -من داخله- إلى الحق والخير بصورة مستمرة ويدعم هذا الواقع بدليلين:

١- إننـا نـرى -بطبيعـة فطرتنـا- أن الصـدق والوفـاء وحب الآخريـن وخدمتهم والعفـو والحلـم عـن المكـروه والإيثار بالخـير والتضحية في سـبيل الإصـلاح.. نرى هذه الصفـات حسـنة مرغوبـة مئة بالمئـة، ونجـد إلى جانبها الكـذب والخيانة والغـدر وبغض الناس والإضرار بهم والحقد والغضب والحسد والاستغلال والجبن.. هذه الصفات نراها مذمومـة بذاتها وقبيحة، لا نحب أن نُنعت بها، ونحب أولئك الذين يتحلَّون بالنوع الأول منها ونبغض أولئك الذين يتخلَّقون بالنوع الثاني منها.

٢- أينما ذهبت من هذا العالم، ومن صادقت فيه من بني آدم؛ رأيته يمدح الصفات الحسنة ويبغض الصفات السيئة، فيرى الظلم والتعدي -مثلًا- أمورًا قبيحة بذاتها، ويرى العدل والاستقامة حسنة بذاتها.. وحتى أولئك الذين يعيشون في الغابات بإفريقيا، وأولئك الذين يهيمون في الصحاري والأدغال في أستراليا (من الهنود الحمر)، يرون ذلك ويجعلونه مقياسًا يعرفون به الصالح من السيِّئ في الناس. وحتى أولئك الذين يُنكرون وجود العدل والخير الأزليين، ويزعمون أن المادة هي كل شيء، وأن كل شيء نسبي كالشيوعيين عندما يريدون أن يمدحوا أحدًا يقولون: إنه يضحي، إنه يُؤثر المصلحة العامة، إنه لا يظلم أحدًا، إنه يُراعي حقوق العامل والفلاح، وهكذا. كما إنهم إذا أرادوا ذَمَّ أحد نعتوه بالظلم والاستغلال.

وإذا قلت لأحدهم: أنت ظالم أنت معتدٍ؟.

قال لك: كلَّا.. وجاء بألف تعليل وعذر حتى ينفي عن نفسه الظلم والتعدي.

إن هذا دليل صارخ على وجود أصالة للمثل.

والإسلام يقول: إن وجود العقل والجهل في النفس ليس على صفة الدوام؛ إذ إن من الممكن أن يضمحل أحدهما في مقابل الآخر إلى غير رجعة أو إلى حين.

أما قوة أحدهما فإنما هي بالممارسة، يعني أن الذي يُرجِّح الجهل على العقل باستمرار ولا يتبع عقله أبدًا لابد، يفقد عقله أخيرًا فلا يعود يشعر بحب الخير والحق[1]. أما الذي يتبع عقله باستمرار فإن الجهل سوف يذهب عنه نهائيًّا بحيث يصبح قدوة الآخرين في الفضيلة. إن هذا الفرد لا يحس بحبٍّ لنفسه، إذا خالف الحق، ولا يرى تعبًا في اتِّباع الحق والتضحية له.

كما أن العقل والجهل يتأثران بالتربية والتوجيه وبالوراثة والتغذية، ولذلك فإن الدين يستخدم كل ذلك للإصلاح.

٤- الاصلاح:

يرى الإسلام أن إصلاح الناس إصلاحًا شاملًا إنما يكون باتِّباع هدى العقل، ونبذ تسويلات الجهل؛ ذلك لأن العقل لا يُميِّز الخير للناس عن الشر فقط، بل يدفع الفرد

(١) قال الله سبحانه في صفة هؤلاء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ سورة البقرة، آية: ٦-٧.

إلى العمـل بالخير ونبذ الشر، وإذا اتَّبع الناس عقولهـم، أدوا حقوق بعضهم بعضًا، وزادوا بالإحسان إلى بعضهم بعضًا. وهل ترى سعادة خيرًا من هذا؟.

أمـا إذا غلب على الناس الجهل فانكب كلٌّ عـلى عبادة ذاته والعمل لمصالحه الخاصة وتطـرَّف كلٌّ في جلـب الملاذ لهـا، فهناك يعم الظلـم والطغيان والفوضى والحسـد والحقد واستعباد الآخرين.

أما سَـنّ القوانـين، المدعَّمة بالعقوبـات والتنظيمات، فهو لا يؤثـر في إصلاح الناس أبـدًا؛ لأن المجتمـع الذي يتَّبع الهـوى ويتَّصف بحب متطرف للمادة، هذا المجتمع لا يسـنّ قانونًا إلَّا متأثرًا بهذا الحب ولا يطبقه إلَّا كذلك. ومن هنا فسـوف يكون القانون والتنظيم وسـيلة إلى تحقيق شـهواته. أليس الإنسان هو الذي يسـنّ القانون ويقر النظام، أترى أنه لا يُمكنه الخروج عليه إذا أراد أو إذا خالف شهواته[(١)].

ولنفرض أن الإنسان قد نجح في تشريعه وتنظيمه وقلع جذور الجريمة، فهل ينجح في إصلاح نفسـه وتطهيرها من الحسـد والحقـد والقلق والاضطراب؟ فأية وسـيلة يتبعها لذلك ما دام قد نبذ العقل واتَّبع الهوى؟.

٥- المؤثرات:

إن الإسلام يهدف بتوجيهاته أمرين:

الأول: زيادة العقل.

الثاني: تربية النفس[(٢)].

أي أن تجعل النفس بحيث لا تهوى الشر كثيرًا.

---

(١) عندما نعرض ميزات الإسلام التشريعية سوف نُبين أن تشريعات الناس لن تنفع في قلع جذور الشر والفساد.

(٢) إن هناك فرقًا بين الأمرين في أن زيادة العقل تؤثر في الإنسان، وإن لم تكن تربيته النفسية مساعدة للصلاح، فالفرد الموجَّه بالإيمان والإرادة والعقل يتمكَّن من تحقيق المعاجز في مغالبة نفسه وقهرها على الفضائل، ولو كانت نفسه تتوق إلى الشر بسبب من التربية الفاسدة أو المحيط المائع أو ما أشبه.

ومن هنا فإن الإسلام يهتم بهذا الأمر كثيرًا، في حين أن التربية النفسية لا تفيد إلَّا بالنسبة إلى من رُبِّي في المجتمع المسلم ورُوعيت جميع أعماله بدقة متناهية. ومثل زيادة العقل كمثل زيادة قوة الجسم وحصانته عن الميكروبات، كما أن مثل تربية النفس كمثل حفظ الجسم عن دخول الميكروب إليه أو قتل الميكروب بعد أن يدخل؛ فالجسم القوي لا يبالي بالمكروب، وكذلك صاحب العقل الحاكم لا يخاف من المحيط أو التربية، ولكن الجسم الضعيف يراقب الميكروب حتى لا يدخل فيه.

وبالنسبة إلى الأمر الأول يستخدم الإسلام الأساليب التالية:

١- الترغيب في ثواب الآخرة والترهيب عن عقابها.. قال الله سبحانه: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[1].

٢- بيان أن السعادة تكمن في اتِّباع الحق، كما أن الشقاء يكمن في مخالفته. قال الله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[2].

٣- إلفات نظر الإنسان بأن له عقلًا وفكرًا لا بد من استخدامهما، ولهذا يكرر في القرآن كلمات مثل: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾.. ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾ وأمثالها.

وبالنسبة إلى الأمر الثاني يتخذ الإسلام عدة إجراءات نذكر منها ما يلي:

١- يُحرِّم الزنا، والجماع في حالة الطمث، ويدعو إلى المواظبة على عدم التغذية المحرمة حالة الحمل، والإرضاع. فهذه التعاليم من شأنها أن تمنع من تأثيرات العوامل السلبية في نفس الإنسان.

٢- التربية الصالحة للطفل التي أوصى بها الدين الحنيف ابتغاء أن تتعوَّد نفس الطفل منذ البداية على الصلاح فيسهل عليها عمل الخير فيما بعد.

والتربية الصالحة تعني: الاعتدال في إظهار الحب للولد ومصاحبته منذ أن يولد بالذكر كالأذان والإقامة عند الولادة، وتغذيته بالإيمان وتعليمه الواجبات وتأديبه بالآداب الحسنة والفضائل، كما هو مشروح مفصلًا في كتب الفقه والتربية الإسلامية.

٣- توفير البيئة الصالحة التي تساعد على نمو نفس الإنسان نقيَّة صالحة، وذلك بتطهير البيئة من الرذائل والمنكرات، حتى أن أهل الذمة لا يمكنهم التجاهر بالمنكرات، وإيجاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[3]، ومعاقبة وملاحقة المرجفين الذين يشيعون

---

(١) سورة الزلزلة، آية: ١-٨.

(٢) سورة طه، آية: ١٢٤. ومن هذا النوع ما ورد في القرآن من قصص الأمم الماضية التي عتت عن أمر ربها فأتبع بعضها بعضًا ودمر قراها وجعلها أحاديث.

(٣) قال الله سبحانه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ سورة التوبة، آية:٧١. ويقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «**لَا يَحِلُّ لِعَيْنٍ مُؤْمِنَةٍ تَرَى اللهَ يُعْصَى فَتَطْرِفَ حَتَّى تُغَيِّرَهُ**». وسائل الشيعة: ج١٦، ص١٢٥. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**إِذَا أُمَّتِي تَوَاكَلَتِ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ فَلْتَأْذَنْ بِوِقَاعٍ** (وهي النازلة الشديدة) **مِنَ اللهِ تَعَالَى**». بحار الأنوار: ج٩٧، ص٩٢.

الأفكار الباطلة في المجتمع.. قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[(١)].

٤- تقرير العقوبات الرادعة عن الجريمة كالقصاص والحدود والديات؛ وهذه العقوبات تقضي على الجريمة من الخارج في حين أن الإجراءات السابقة تقضي عليها من الداخل.. وهذا لا يعني أن لا أهمية لهذه العقوبات بل الواقع أن بعض النفوس لا ترتدع إلَّا بالعقوبات الحاسمة[(٢)].

هكذا يأتي الإسلام النفس البشرية من جميع جوانبها ويحيط بها من كل أطرافها، فيقضي على الجريمة والرذيلة من الداخل ومن الخارج معًا وبكل الوسائل الممكنة، مستفيدًا من كافة القوى التي لها تأثير في النفس. وبهذه الوسيلة يخلق المجتمع الفاضل الذي عجزت كل الحكومات وكل النظريات أن تخلقه حتى الآن.

ولا يملك الإنسان عندما يتدبر هذه الإجراءات، وتلك التجارب التاريخية التي شيَّدها الإسلام خلال أربعة عشر قرنًا، إلَّا أن يُبدي إعجابه الشديد بها، ويصرخ: ما أشد التعاسة التي تحكم الناس نتيجة تركهم مناهج الإسلام واستبدالها بنظريات تافهة مائعة لا تُغني عن الحق شيئًا.

---

(١) سورة النور، آية: ١٩.

(٢) قال الله سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾. سورة البقرة، آية: ١٧٩. وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِقَامَةُ حَدٍّ خَيْرٌ مِنْ مَطَرِ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا». وسائل الشيعة: ج٢٨، ص١٢.

٥ - علم النفس

ولابد أن نتطرَّق إلى علم النفس الإسلامي، لنُشير إلى بعض خطوطه العريضة؛ إذ إن معرفة النفس ضرورية لاستكمال الموضوع.

ولابد أن نُشير إلى أن للإسلام مذهبًا خاصًّا في علم النفس ناشئ من تعريفه للنفس، وهذا المذهب يتناول تارة المرض وأخرى العلاج. فالمرض النفسي في الإسلام ناشئ من تزاوج عاملين:

١- ضعف العقل.

٢- قوة الهوى.

فمثلًا: القلق ناشئ من شيئين:

الأول: فقدان الإرادة التي تضبط النفس وتقيمها في الطريق المستقيم.

الثاني: وجود نقص في الشؤون الدنيوية كخسارة تجارة وما شابه ذلك.

وهذا النقص لا يؤثر في النفس لولا حب الدنيا، وحب الدنيا ناشئ من حب الذات.

وعلاج هذا المرض يتم بأمرين:

١- بالتوجيه إلى نور العقل.

٢- وبالتقليل من أهمية الدنيا في نفس الإنسان القَلِق.

كما أن الإسلام يعتبر الكفر والجحود والنفاق وكل الرذائل الأخرى أمراضًا نفسية أولًا وبالذات، ولابد من علاجها هناك في داخل النفس.

فالكفر -عند الإسـلام- ناشـئ من الاستكبار وعدم التسـليم للحق.. والاستكبار ناشئ من هوى النفس والمبالغة في تقديرها.

أما الايمان فهو تماما ضد الكفر وهو: التسليم للحق.

أما كيف يمكن علاج الاسـتكبار وإقرار التسـليم في قلب الإنسـان فهو يتم بما سبق أن قلناه في بيان كيفية اصلاح النفس.

٦ - السياسة الإسلامية

١ - الإسـلام يقرر أن المُشرِّع الوحيد هو الله سبحانه؛ ذلك لانه فقط مالك الناس.. والنـاس لا يملكـون حتى أنفسـهم تجاه الله، في حـين أن الله أعرف بحالهـم وما يُصلحهم ويُفسدهم في الدنيا والآخرة.

قال الله سبحانه: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ..﴾[1].

وقال تعالى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾[2].

أما السـيطرة التي يمارسها القادة في الدولة الإسـلامية الشرعية، فإنها ناشئة من هذا الأمـر، فحيث إن الله هو المالك الحاكم، فلابـد أن يُعيِّن من يُتَّبَع في الأرض.. وليس لأحد من العباد أن يفرض سلطانه على الناس إلَّا بسلطان من الله.

٢ - إن الإسـلام لا يعترف بسـيادة الإنسان على نفسـه من دون أن يُقرِّرها له الله ربه وخالقه ومالك أموره ومن إليه مصيره، ولذلك فهو يضع أول قواعد السياسة على أساس معتدل فيرتفع البناء باعتدال، في حين أن فلاسـفة البشر (أمثال لوك وروسو) يُقرِّرون حق السلطة للبشر فينحرف بهم السير من المنطلق حتى النهاية؛ ذلك لأنه:

ألف: إذا كان حق السلطة للبشر، كان لكل منهم الخروج عليها متى شاء؛ إذ ليست السـلطة أكثـر من شيء أراده الفرد في زمن، فإذا مـا أراد يومًا رفضه، فلماذا لا يجوز له ذلك؟. لماذا نأخذ بكلامه الأول دون الثاني؟.

---

(١) سورة يوسف، آية: ٤٠.

(٢) سورة ص، آية: ٢٦.

بـاء: ثـم إن النـاس لا يتَّفقون دائمًا في وضع شـكل خـاص للسـلطة، أو فرد معين لممارسـتها، فيكون مبعث خلافـات لا تنتهي (كما هي موجـودة الآن)، وهي تُسبِّب شقاء البشرية.

جيم: إن الإنسان حين يكون مُعرَّضًا للخطأ في كل أطواره، ومُعرَّضًا للتأثر بالدعاية والتأثر بالنزعات والتأثر بالشـهوات وما أشـبه من أنواع المؤثرات في النفس، فلابد أن يأتي تعيينه لنوع الحكومة والحاكم خطأ على الأغلب (كما نجده اليوم وقبل اليوم، حيث نواجه كل يوم نظرية جديدة وشخصًا جديدًا وليس الثاني بأحسن من الأول وإن عارضه وخالفه).

دال: إن سلطة الشعب على نفسه تُمنى في أحسن الفروض بهذه المساوئ. أما إذا جاء الاستغلال -وهـو آتٍ قطعًا-، وأما إذا اسـتبد الرئيس بالحكم وزوَّر الانتخابـات، وأما إذا أطاح الانقلاب العسكري بالحكم وحُلَّت الأحزاب؛ فهنالك شقاء ليس وراءه شقاء.

ولهذه النواحي وغيرها فقد قرَّر الدين أن حق الحكم إنما هو لله فقط، ولله أيضًا حق انتخاب الرئيس وليس للناس أن يتخذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله.

والرسـول مبعوث الله وخليفته في الأرض. يقـول القرآن: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾[(١)]. والإمام خليفة الرسـول لقول الله سـبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾[(٢)].

أما بعد الإمام فيتولى شؤون المسلمين الفقيه التقي؛ لأنه ممثل عام للإمام عليه السلام بنص صريح منه، وهو قول الإمام العسكري عن الإمام الصادق عليه السلام: «**فَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنَ الْفُقَهَاءِ صَائِنًا لِنَفْسِـهِ، حَافِظًا لِدِينِهِ، مُخَالِفًا عَلَى هَوَاهُ، مُطِيعًا لِأَمْرِ مَـوْلَاهُ فَلِلْعَوَامِّ أَنْ يُقَلِّدُوهُ..**»[(٣)]. وفي حديـث آخـر: «.. **فَإِنَّهُمْ حُجَّتِي عَلَيْكُـمْ وَأَنَا حُجَّةُ اللهِ عَلَيْهِـمْ**»[(٤)]. وفي حديث ثالث: «**فَلْيَرْضَوْا بِهِ حَاكِمًا فَإِنِّي قَدْ جَعَلْتُهُ عَلَيْكُمْ حَاكِمًا**»[(٥)].

---

(١) سورة النساء، آية: ٦٤.
(٢) سورة النساء، آية: ٥٩.
(٣) بحار الأنوار: ج٢، ص٨٨.
(٤) بحار الأنوار: ج٥٣، ص١٨٠.
(٥) وسائل الشيعة: ج٢٧، ص٣٠٠. كلمة الجعل التي نجدها في القرآن وفي هذا الحديث عند بيان سلطة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والفقيه توحي بأمر هام، هو أن سلطة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكذلك سلطة الفقيه؛ ليست ذاتية وإنما هي مجعولة اعتبارية مستمدة من سلطة الله سبحانه. إنها سلطة طارئة، سلطة عارضة.

٣- ويرى الإسلام أن السلطة لا بد أن تُعطى بيد من فيه الكفاءة، وهي: (الفقه) والأمانة وهي: (التقوى). ولا ينظر إلى نسبه ووطنه وحسبه ولا أي شيء آخر من الشؤون المادية أبدًا؛ ذلك لأن المهم في الرئيس إتقان ما عُهِدَ إليه به من دون ضعف أو عجز أو خيانة، وهو يتوفر في الفقيه العادل سواء كان من هذا الوطن أو ذاك، هاشميًّا أو لا، إذ لا قيمة للملاكات المادية في هذا المجال.

ولو أن الدين كان يشترط أمرًا ماديًّا[١] -خارجًا عن قدرة الناس-، فقد ظلم ذوي المواهب الذين يقدرون على نيل السلطة، وظلم الناس بمنعهم عن مواهب أولئك.

٤- كما أنه يعتبر الدولة دولة دستورية يحكم عليها القانون الإسلامي، وليس لأحد من أبنائها، ومنهم الرئيس، أن يُبدِّل حكم الله[٢] أبدًا، ويجعل لذلك ضمانات نشير إليها بإجمال:

ألف: من شروط الرئيس أن يكون تقيًّا. ومعنى التقوى: العمل بالدين، ومن عطَّل أحكام الله فليس فاسقًا أو ظالمًا فقط بل هو كافر أيضًا لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[٣]، ويعزل عن الرئاسة فورًا.

باء: إن الرئيس يعزل بمجرد أن يعمل بالمعاصي أو بمجرد أن لم يحكم بما أنزل الله، ويجري عزله ببساطة جدًّا، حيث يجب على الذي عرف منه المعصية أن يتراجع عن متابعته ويرجع عن تقليده.

جيم: أن المجتمع المسلم مجتمع واعٍ يعرف أحكام الله ويراقب الرئيس فيها، فمتى انحرف الرئيس قوَّمه ولو بالسهم[٤].

دال: في الحكومة الإسلامية ليس للرئيس قوة إلَّا بالدين -كما سيأتي- فمتى انحرف عن الدين خارت قوته وخرَّ صريعًا.

---

(١) خلافا للفارابي الذي اشترط في الرئيس أن يكون قوي الجسم.

(٢) قال الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (سورة الأحزاب، آية: ١-٢) على عكس أكثر التشريعات البشرية التي جعلت للرئيس الحق في تغيير القانون في كثير من الظروف.

(٣) سورة المائدة، آية: ٤٤.

(٤) قال محمد بن مسلمة لعمر: «لَوْ مِلْتَ عَدَلْنَاكَ، كَمَا يُعْدَلُ السَّهْمُ فِي الثِّقَافِ..» [الزهد والرقائق، لإبن المبارك، ح ٥٠٥].

٥- يـرى الإسـلام أنه لابد أن تكون سـلطة الرئيس مسـتمدة أبدًا من الشـعب[١]. ويقرر ذلك بما يلي:

ألف: إن نظام الجيش في الإسلام يختلف عن الأنظمة الأخرى، ذلك لأن الجيش في الإسلام داخل في الشعب، بل هو الشعب كله. إذا احتاج المسلمون إلى الدفاع عن أنفسهم أو الهجـوم عـلى أعدائهم، هبَّ النـاس كلهم لذلك. ويجب على المسـلمين جميعًا أن يكونوا قادرين على حمل السلاح كما هو مفصَّل في كتب الفقه.

ومن هنا فليس من الممكن في الإسلام استخدام الجيش ضد الشعب كما هو الحال في الدول الحديثة، بل الجيش يقف دائمًا مع الشعب؛ لأنه ليس جهازًا من غيره.

بـاء: إن الإسلام يشترط في كافة أجهزة الدولة أن يكونوا كفوئين أمناء، ويفرض على النـاس مراقبتهـم. فلا يمكن للرئيس أن ينصب واليًا غير كفوء أو غير أمين. وإذا انحرفت أجهزة الدولة فليس من الممكن أن تُستخدم -بسبب وجود رقابة الناس- للأغراض أو المصالح الخاصة.

جيم: إن الدين يقاطع سلاطين الجور ويأمر الناس بمقاطعتهم، ولذلك فإن الرئيس الخائن لا يمكنه أن يعيش في مجتمع مسلم.

وهـذه الضمانات الثلاثة، وضمانات أخرى يُقدِّمها الإسـلام، كلها نابعة من فلسـفة الإسلام في الحكم، حيث يرفض بكل شدة أن يكون هناك قطاعان:

- حاكم ومحكوم؛
- شعب وحكومة،

بل يمزجهما أبدًا ويجعلهما كيانًا موحَّدًا.

٦- وبعد أن يوفر الإسلام كافة الضمانات في شخص الرئيس يجعل منه القوة الأولى والمركـز الأعـلى في البلد، ويجعل جميع أجهـزة الدولة تابعة له، ولا يجعل لهم كيانًا مسـتقلًا

---

(١) تعتقد بعض الدول المسماة بالديموقراطية أن سلطتها مستمدة من الشعب في حين أنها لو كانت صادقة كانت سيادتها أول الأمر تابعة لإرادة الشعب، أما استمرارها فإنما هو لدعم أجهزة الدولة لها. إذًا فالإسلام يفترق عن هذه النظم مع افتراض صحة ادِّعائها في أن هذه الأخيرة تبتدئ بإرادة الشعب وتستمر بقوة الأجهزة (الجيش والشرطة والأمن والاستخبارات والدوائر)، في حين أن الإسلام يجعل كُلًّا من الابتداء والاستمرار بإرادة الشعب وتحت رحمته؛ فيبتدئ حكمه بالشعب ويستمر بإرادة الشعب أيضًا.

عنه. وبهذا يضمن صلاحهم أيضًا/ فتصبح الحكومة الإسلامية أمثل الحكومات جميعًا برئاستها وبأجهزتها.

٧- ويقر الإسلام التنافس الحر الذي يدع للشعب الخيار في انتخاب أقرب الناس إلى الصواب، وليس معنى هذا أن الإسلام يقر الأحزاب المتحاربة التي تُفسد البلاد، بل معناه: أن الدين يقول: على الناس أن يُطيعوا كل من توفرت فيه شروط خاصة -كالفقه والعدالة- دون أن يُعيّن شخصًا خاصًّا. ويبقى على الناس أن يختاروا بعقولهم لا بأهوائهم أحسن الفقهاء دينًا وأشدهم ورعًا، ولهم بعد ذلك أن يرجعوا عن فقيه إلى آخر متى شاؤوا، وليس للفقيه أن يمنعهم من ذلك.

ومتى توفرت هذه الشروط فلابد أن يرشح كل من يجد في نفسه الكفاءة للرئاسة، أما الناس فإن رأوا فيه ذلك اتَّبعوه. ولذلك فلا يزال في البلاد الإسلامية فقهاء متعددون لكل منهم رئاسته الخاصة، فإذا وجد الناس أقل انحراف من الفقيه رجعوا فورًا إلى غيره، وإذا علم الفقيه ذلك فليس من المعقول أن يتعمَّد الانحراف (وكل هذه الأمور مجربة في العالم الإسلامي حتى اليوم).

٨- وبعد كل هذا فإن الدين يحفظ الناس -لاسيما الفقهاء- عن الانحراف بتطهير قلوبهم من الأهواء والشهوات -وقد مرَّ تفصيل ذلك عند بيان إصلاح الناس-.

٩- ويرى الإسلام أن الصفات التي تجعل القائد مثاليًّا هي:

ألف: التقارب بينه وبين الناس. يقول ضرار في صفة الإمام علي عليه السلام: «.. **كَانَ وَاللهِ فِينَا كَأَحَدِنَا، يُدْنِينَا إِذَا أَتَيْنَاهُ، وَيُجِيبُنَا إِذَا سَأَلْنَاهُ**»(١).

باء: ألَّا يتخذ لنفسه حجابًا ووسائط من دون الناس. يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم في وظائف الوالي: «**وَلَمْ يُغْلِقْ بَابَهُ دُونَهُمْ**»(٢). ويقول الإمام علي عليه السلام مخاطبًا بعض كبار المسؤولين في الحكومة: «.. **لَا تَتَّخِذَنَّ حِجَابًا وَلَا تَحْجُبَنَّ أَحَدًا عَنْ حَاجَتِهِ حَتَّى يَنْهِيَهَا إِلَيْكُمْ**»(٣).

جيم: عدم التعدي على حقوق الآخرين، وإن كان له السيطرة التامة عليهم، وإجراء

---

(١) بحار الأنوار: ج٤١، ص١٤.
(٢) بحار الأنوار: ج٢٢، ص٤٩٥.
(٣) بحار الأنوار: ج٧٢، ص٣٥٥.

العـدل بينهم. قـال الله سـبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ ﴾(١).

دال: أن يكـون بـرًّا رحيـمًا بالناس. قـال الإمام السـجاد عليه السلام: «**وَأَمَّا حَـقُّ رَعِيَّتِكَ بِالسُّـلْطَانِ فَـأَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُمْ صَارُوا رَعِيَّتَكَ لِضَعْفِهِمْ وَقُوَّتِكَ؛ فَيَجِـبُ أَنْ تَعْدِلَ فِيهِمْ وَتَكُونَ لَهُمْ كَالْوَالِدِ الرَّحِيمِ**»(٢).

هـاء: أن يستشـير في أمـور البلـد أهله ولا يسـتبد برأيه الخـاص. قال الله سـبحانه: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾(٣). وقال تعالى: ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾(٤).

واو: التواضع للناس.. قال الله سبحانه: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾(٥). وقال الإمام علي عليه السلام لواليه على مصر: «**فَاخْفِضْ لَهُمْ جَنَاحَكَ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ، وَابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ**»(٦).

زاي: المساواة بينهم في كل شيء حتى في مثل النظر واللحظة. قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لواليه: «.. **وَآسِ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظْرَةِ حَتَّى لَا يَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ لَهُمْ** -أي ظلمك الناس لصالح العظماء-، **وَلَا يَيْأَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ**»(٧).

حـاء: أن يعيش مثل أضعـف من تحت سـلطته. كتـب الإمام عـلي عليه السلام إلى عثمان بـن حنيـف الأنصـاري عاملـه على البـصرة، وقد بلغه أنـه دُعـي إلى وليمة قوم مـن أهلها فمـضى إليهـا.. كتب إليـه يقول: «**أَمَّا بَعْدُ يَا ابْـنَ حُنَيْفٍ؛ فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُـلًا مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ الْبَصْـرَةِ دَعَاكَ إِلَى مَأْدُبَةٍ فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا**.. وأضاف عليه السلام بعد توبيخه على ذلك: **وَلَوْ شِـئْتُ لَاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ إِلَى مُصَفَّى هَذَا الْعَسَـلِ، وَلُبَابِ هَذَا الْقَمْحِ، وَنَسَـائِجِ هَذَا الْقَزِّ** (الحرير)، **وَلَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ وَيَقُودَنِي جَشَعِي إِلَى تَخَيُّرِ الْأَطْعِمَةِ، وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أَوْ الْيَمَامَةِ مَنْ لَا طَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ، وَلَا عَهْدَ لَهُ بِالشِّبَعِ، أَوْ أَبِيتَ مِبْطَانًا وَحَوْلِي بُطُونٌ غَرْثَى** (جائعة) **وَأَكْبَادٌ حَرَّى** (عطاشى)، **أَوْ أَكُونَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ**:

---

(١) سورة النساء، آية: ٥٨.
(٢) بحار الأنوار: ج٧١، ص٤.
(٣) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.
(٤) سورة الشورى، آية: ٣٨.
(٥) سورة الحجر، آية: ٨٨.
(٦) نهج البلاغة: قسم الرسائل، (٢٧) من عهد له عليه السلام إلى محمد بن أبي بكر رضي الله عنه حين قلّده مصر.
(٧) نهج البلاغة: قسم الرسائل، (٢٧).

وَحَسْبُكَ دَاءً أَنْ تَبِيتَ بِبِطْنَةٍ وَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحِنُّ إِلَى الْقِدِّ

أَأَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ: هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ، أَوْ أَكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ الْعَيْشِ»[١].

طاء: أن يلتزم بعهوده ومواثيقه التي يُقدِّمها لشعبه أو للشعوب الأخرى، قال الله سبحانه: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[٢].

وليس معنى هذا أن على الرئيس أن يستسلم لشروط مجحفة وعهود ظالمة تفرضها الدول الأخرى، بل على العكس يجب على الرئيس أن يُحرِّض الناس على القتال في سبيل الله، ويستعدّ دائمًا للدفاع عن بلاده. قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾[٣].

وقال تعالى أيضًا: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾[٤]، وإنما المقصود أن عليه أن يفي بعهوده التي هي في صالح المسلمين.

١٠- ويرى الإسلام أن للحكومة وظائف أربع:

ألف: استنباط الأحكام من مصادرها الشرعية (السلطة التشريعية).

باء: تطبيق الأحكام على الموارد الخاصة (السلطة القضائية).

جيم: تنفيذ الأحكام بإجراء الحدود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونشر العقائد الدينية وما أشبه، مستفيدًا في ذلك من كافة الوسائل الإعلامية والتربوية الجماعية.

دال: تنظيم حياة الناس بتحديد الثروات، وتوجيه التجار، وجباية الضرائب، وبناء المشاريع العامة كالمساجد والطرق والجسور والسدود، وكل ما هو في صالح المجتمع، والتي نسميها اليوم بالخدمات الاجتماعية.

---

(١) نهج البلاغة: قسم الرسائل، (٤٥) من كتاب له عليه السلام إلى عثمان بن حنيف.

(٢) سورة التوبة، آية: ٤.

(٣) سورة الأنفال، آية: ٦٥.

(٤) سورة الأنفال، آية: ٦٠.

أما سائر ما تبنته الدول اليوم، فالإسلام لا يأمر بها.. ذلك:

١- لأن الجيش مثلًا تابع في كافة شؤونه للشعب، والحكومة هي التي تُوجِّه الشعب إلى ما يجب عليهم القيام به.

٢- والتربيـة والتعليم والتثقيف العام (الصحـف، الإذاعة، التلفزيون، دور النشر) مؤسسـات اجتماعية يجب أن يقوم بها الناس أنفسـهم بتوجيه من الحكومة، فإذا عجزوا قامت بها الدولة.

٣- وتصنيع البلد أمر يُناط بالناس أنفسـهم تحت إشراف الدولة ولا ينتج من ذلك المضاعفات التي نتجت في الدول الرأسمالية؛ ذلك لأن الإسلام يُحدِّد الثروات، ويمنع الاحتكار، ويفرض الضرائب، كما سبق الحديث في ذلك.

٤- والتجـارة الخارجية والداخلية أيضًا من حق الشـعب أنفسـهم بعـد أن تنظمها الدولة وفقًا للمصالح العامة.

٥- والزراعة كالتجارة ترتبط بالشعب، ومنها استغلال الثروات المعدنية.

وبصورة موجزة:

إن الدولـة في الإسـلام مُنظِّمة لأمـور الناس ومحافظة على توازنها، وليسـت غاصبة لحقوقهم مستقلة بشؤونهم. نعم، إذا عجز الناس عن إدارة شؤونهم تتدخَّل الدولة، وذلك إما بالاسـتقلال بها أو بإنشـاء تعاونيات شـعبية أو شركات عامة. علمًا بأن أوامر الدولة في الإسلام مُطاعة من قبل الناس.

فاتِّبـاع الجيش لأوامر القيادة ليس ذلك رغمًا على أنفه، بل وفقًا لحريته، وخضوعًا لما اتَّبعوه من تعاليم دينهم.

وفلسفة الإسلام في حصر مسؤولية الدولة في الأمور السابقة، يتلخَّص في أن تدخُّل الدولـة في الشـؤون الاجتماعية يوجب تحديد المجتمع وسـلب حريتـه وخنق روح الإبداع فيـه، وأخـيرًا لا ينتج منه إلَّا الضعـف والعجز، كما أنه يُوجب تضخُّم مسـؤوليات أجهزة الدولة، وتعقّد علاقاتها، مما يُسبِّب عدم قيامها بواجباتها الضرورية الهامة، كما نرى ذلك في أكثر الدول القائمة اليوم.

البحثُ الثَّالِث: مِيزاتُ النِّظامِ الإسلاميِّ

كلمة البدء.

١- الحق.

٢- يوم الدين.

٣- لكل مناحي الحياة.

٤- لكل أفراد البشر.

٥- تطور الإنسان.

٦- تنفيذ الأحكام.

كلمة الختام.

٥ كلمة البدء

لقد بحثنا في فصل سابق الفلسفة العملية في الإسلام، وعرضنا الخطوط العريضة لأحكام الدين، وكان طبيعيًّا أن يشمل ذلك العرض شيئًا من ميزات الإسلام، بيد أنه لم يكن كافيًا لفهم أدق وأوسع؛ لأنه كان يفقد نوعًا ما عنصر المقارنة. والآن، وبعد أن كَمُلَت جوانب الفلسفة العملية في المنهجين الإلهي والبشري، نود أن نعرض ميزات الإسلام عرضًا موجزًا وشاملًا، بمقدار ما تسمح به صفحات هذا الكتاب؛ لأن الموضوع يستدعي أسفارًا ضخمة.

والميزات الرئيسية في الإسلام هي: أن الإسلام أحق، وأجدر بالإنسان أن يتبعه، وأنه منهج الله رب العالمين، وأنه شامل لجميع نواحي البشر، وشامل لكل أفراد البشر، وشامل لكل أدواره ومراحل تطوره، وأنه ينفذ أحكامه وتعاليمه في حين لا يمكن غيره من تنفيذها، ينفذها بالإيمان والضغط الاجتماعي وقانون العقوبات وما أشبه.. وأنه مجرَّب قد أُوسع فهمًا ودرسًا.

٥ ١ - الحــــق

في الفلسـفة النظريـة حصلنـا عـلى تعريف دقيق للحـق وهو: أن الحق هـو ما يُطابق الواقع.

وفي الفلسـفة العمليـة عرفنـا أن الإسـلام، بما له من معـارف تُطابق فطرة الإنسـان وتنسجم مع سنن الكون، هو الحق.. دون سواه.

وهذه ميزة للنظم الإسلامية؛ لأن الحق يجب أن يُتَّبع ومن يُعارض الحق تكون عاقبة أمره خُسرا. وهذا أمر وجداني نُذكِّر به عبر أمثلة.

١- الحـق يقـول: إن الله خالقنا الكريم أعـرف بحالنا منا وأولى أن يُتَّبـع أمره وتُنفَّذ شرائعه. والذي يخالف هذا الحق ماذا سوف يكون مصيره؟.

أليس أنه يتَّبع منهجًا يضعه هو؟.

منهجًا ضحلًا خاطئًا يُرديه ويحل عليه كل يوم قارعة جديدة؟.

٢- الحق يقول: إن نفس البشر تهوى الشر، ومن اتَّبع نفسـه جرَّته إلى الفسـاد، وإن عقله يهديه إلى الرشد، ومن اتَّبعه بلغ السعادة.

ومن خالف هذا الحق واتَّبع نفسه وأعرض عن عقله كانت عاقبته خسرا.

٣- الحق يقول: إن الأخلاق الفاضلة وتحقيق الحرية البشرية يخلقان المجتمع الكريم، ومن خالف هذا الحق ابتُلي بالمجتمع الفاسد.

٤- الحق يقول: إن تيار الكهرباء مضيء، وإن القنبلة الذرية تُدمِّر.

فمن اتَّبع هذا الحق استنار بالكهرباء وحذر من استعمال القنبلة الذرية، ومن أعرض عنه (فأعرض عن الكهرباء واستعمل القنبلة الذرية) أليس يخسر نفسه بغير جدوى؟.

يقول الله سبحانه: ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؟[1].

(١) سورة يونس، آية: ٣٥.

٥ ٢ - يوم الدين

عرفنا في فصل العقائد أن بعد الموت حياة باقية يُثاب فيها المحسن ويُعاقب المسيء؛ ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[١].

ولنقارن إذًا بين الدنيا والآخرة.

إن حياتنا الدنيا لا تتجاوز في أحسن الفروض السبعين عامًا؛ نصفها نوم وطفولة ومرض وأعمال ضرورية لا نملك إلَّا فعلها، والباقي (٣٥) عامًا.. ولنفرض أننا نستطيع أن نتمتع فيها بكامل التمتع بعيدين عن منهج الله سبحانه (وهو مستحيل طبعًا)[٢]. فماذا يحدث؟.

نخسر الآخرة التي ليس لها انتهاء وهي حياة خالدة لا يمكن أن تُحدَّد حتى بكلمة مليون ومليار أو ما شابه ذلك: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾[٣].

وإذا خُيِّرنا بينهما: فأي عاقل يبيع أكثر من مليون ومليار عامًا وأكثر في سبيل ٣٥ عامًا فقط؟!.

دع عنك أن عمر الدنيا كلها لا تساوي ساعة من متعة الآخرة؛ إنها متعة لا تُقاس

---

(١) سورة الزلزال، آية: ٦-٨.

(٢) قال الله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾. راجع فصل (الإيمان بالله) في العقائد لتعرف ذلك جيدًا.

(٣) سورة التوبة، آية: ٢٢.

بالدنيا: «**وَفِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**»(١).

يقول الفيلسوف البريطاني برتراند رسل: «أنا لا أعتقد بالآخرة، ولكن حق على الذي يعتقد بها أن يصرف كل عمره في سبيل تحصيلها؛ ذلك لأن تسعين سنة لا قيمة لها إزاء حياة خالدة»(٢).

أليس من الأفضل أن نتَّبع الإسلام لنُحرز حياة خالدة في الآخرة تطفح بالنعيم والآلاء؟.

ولو فرضنا أن الإسلام يُسبِّب لنا شقاءً طويلًا في الدنيا (وهو فرض غير واقعي طبعًا)، أليس من الخير لنا أن نتحمَّل هذا الشقاء مثلما نتحمَّل متاعب ليالي الامتحان لنحظى بنعيم الأبد، كما نحظى بنجاح السنة؟.

قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾(٣).

إن نسبة السبعين إلى ما لا نهاية، أقل من نسبة ساعة واحدة إلى عمر الأرض كلها. فلو قيل لك: إنك لو تعبت في هذه الساعة عشت مدى العمر سعيدًا، وبصورة عكسية لو تمتعت فيها شقيت مدى العمر.. ماذا سوف يكون اختيار العاقل الحكيم؟.

إن الذين يتَّبعون أهواءهم من الماديين يخالفون ولا شك عقولهم التي تلومهم على ترك الحق والتعرُّض لعذاب الله الاليم.. ولكن هل ينفعهم الإنكار؟.

هل يُنقذهم من عذاب الله؟ أم يستطيعون خلودًا في الدنيا وتمتُّعًا بها؟.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾(٤).

---

(١) بحار الأنوار: ج٨١، ص١٢٥.
(٢) راجع كتاب (في التربية) تأليف راسل.
(٣) سورة النبأ، آية: ٣١-٣٦.
(٤) سورة الزمر، آية: ١٥.

٥ ٣ - لكل مناحي الحياة

للبشر جوانب مختلفة: فله عقل وجهل، وله جسم وروح، وله حاجات ورغبات وتطلعات وغايات، وله فوق ذلك أطوار؛ فهو جنين في رحم أمه، وصبي في المهد، ويافع وشاب، وله علاقات بعائلته، وأهل بلدته، وأهل مهنته، وله مئات من الشؤون الأخرى.

والغريب أن كل ناحية من نواحي الإنسان ترتبط ارتباطًا وثيقًا بسائر نواحيه. فلجسمه تأثير على روحه وبالعكس لروحه تأثير على جسمه كما أن لعقله تأثيرًا في هواه وبالعكس. والفرد يؤثر في المجتمع والمجتمع يؤثر في الفرد، وهكذا[1].

وليس في العالم نظام شامل لجميع هذه النواحي، ليس هذا ادِّعاء بل لم يأتِ نظام واحد يدَّعي أنه يضع تعاليم للروح وتوجيهات للنفس وقوانين للمجتمع وأحكامًا للفرد و.. و.. و.

فالنظام الرأسمالي -مثلًا- لا يدَّعي أنه شامل لتعاليم صحية أو خلقية أو بيتية أو ما أشبه؛ والنظام الاشتراكي وإن ادَّعى الشمولية إلَّا أنه جعل أكثر أحكامه مستوحاة من إرادة الرؤساء المرتجلة القائمة على إنكار وجود الروح والأخلاق السامية للإنسان، ولقد أثبتنا سابقًا وجودهما، ولم يبق إلَّا الإسلام، الذي هو منهج للتفكير، وفلسفة للكون، وأحكام للجماعة، وتعاليم للفرد منذ أن يكون جنينًا وإلى أن يصير ميتًا، وتصحيح للسلوك وتهذيب

(١) وكان هذا سببًا رئيسيًّا لغموض الإنسان؛ ذلك لأن التفاعل الموجود بين نواحي الإنسان المختلفة بعضها مع بعض لا يدع الفرد يختص ببحث ناحية معزولة عن سائر النواحي. وإذا أراد فرد واحد أن يعرف شؤون كل واحد من جميع النواحي حتى يكون طبيبًا ومهندسًا وقانونيًّا و.. و.. في وقت واحد، كان ذلك مستحيلًا. راجع للتوسع كتاب (الإنسان ذلك المجهول) تأليف الكسيس كاريل.

للنفس و.. و.

وفي كل فصل يتعرَّض الإسلام لكل ما يمكن أن يقع من احتمالات وفروض[(١)].

وفي هذا عدة فوائد:

١ - إنه يبعث قوة في النظام الإسلامي حيث يُغني الفرد من تجشُّم متاعب نظام آخر.

٢ - إنه يجعل بناء حياته متكاملًا وعلى نسق واحد ولا يكون أمره فُرطًا يناقض بعضه بعضًا، كما نجده في الرأسمالية. مثلًا: يؤمن بالله بينما لا يؤمن بشرائعه، ويؤمن بالإنسان بينما ينسى نظامه بعيدًا عنه.. وهكذا.

٣- وأخيرًا إنه يجعل النظام قويًّا يُمسك بعضه بعضًا. فمثلًا: الإسلام يقول في فصل المعرفة: إن الخطأ في التفكير ناشئ من اتِّباع الهوى، وإنه لا بد لمن يريد الحق أن يُخالف هواه. وهو يقول في فصل الأخلاق: لابد من اتِّباع العقل بدل اتِّباع الهوى، ويضع كل المناهج الخلقية على أساس هذه الفكرة. وفي فصل السياسة يقول: لا بد أن يكون الرئيس تابعًا لعقله وليس لهواه، ولابد أن يكون انتخابه من الناس في هدى عقولهم لا في ظلمات أهوائهم. وفي فصل العبادات: يجعل الصلاة والصوم والحج وما أشبه، وسيلة لدعم عقول الناس وطمس أهوائهم.

وهكذا إن مثل الإسلام كمثل شجرة طيبة أصلها ثابت تتفرَّع وتتوسَّع وترتفع حتى تشمل العالم كله.

وكل حكم منه يرتبط بكل شؤون البشر، والأحكام الأخرى ترتبط بهذا الحكم.

---

(١) في الإسلام: (واجبه ومندوبه) تعاليم للزواج وللنكاح وللحمل وللولادة وللرضاعة وللتربية وللتعليم وللتجارة وللعلاقات العامة.

٤ - لكل أفراد البشر

١- لا يصلح أي نظام في العالم أن يسود البشرية جميعًا؛ ذلك لأن النظام الرأسمالي إنما هو منبثق من أهواء طبقة الأغنياء، وكل ما فيه موضوع لحمايتهم فقط. إنه نظام الأغنياء ويضطر الفقراء إلى اتِّباعهم.

والنظام الاشتراكي منبثق من أهواء طبقة الفقراء (كما يقولون) ولا يخدم إلَّا مصلحتهم فقط، ولابد عندهم من سحق سائر الطبقات. ونظم الأرض كلها تُميِّز طائفة على أخرى، سواء على أساس طبقي أو قومي أو إقليمي أو ما شابه.

٢- ولا يمكن أن يأتي نظام يُشرِّعه بشر ثم يكون شاملًا لهم جميعًا وذلك للأسباب التالية:

ألف: إن الإنسان يتأثر بمحيطه وبيئته مهما حاول الترفع عنهما، فإن اختياره لابد أن يتأثر بذلك؛ ولهذا نرى أن المشرعين والفلاسفة في العالم ينطبع كل منهم بطابع محيطه وبيئته.

باء: إن الإنسان يتَّبع هواه، فهو إن كان يحب بلده رفعه في النظام درجة، وإن كان يهوى طبقة معينة مال إليها ميلة.. وهكذا. ومن هنا نجد طابع القومية أو الطبقية باديًا على كل نظم الأرض.

جيم: إن الفرد الواحد لا يُمكنه أن يحصل على المقاييس الدقيقة التي تخضع لها الجزئيات الصغيرة في كل بلد، ولذلك فهو يضع حكمًا شاملًا دون مراعاة حالات الاستثناء؛ فيسبب ذلك شقاءً طويلًا.

دال: إن أنظمة البشر مادية تستوحي كل واقعها من المادة، وبما أن للمادة في كل منطقة

وفي كل يوم شـكلًا جديدًا وصيرورة خاصة، فإن الأنظمة تتأثر في كل مكان بـما لها مـن ملامح. فمثلًا: لا تعترف نظم الأرض بالعقل؛ ولذلك فإنها تضع كل أحكامها على أسـاس المصلحـة، والمصلحة تابعة لنوعية وسـائل المعاش التي تختلف باختلاف الأماكن فيختلف النظام.

والإسـلام يعترف بالعقل، ويستوحي منه كل أحكامه. وواضح أن العقل واحد في كل مـكان ولا يخضـع لبيئة دون أخرى، ولا لحالـة دون حالة. فحينما يقـول النظام الغربي للكاذب: اصدق!. لا يقوله إلَّا بعد أن يرى مصلحته في هذا، ولا تكون مصلحته في ذلك إلَّا في أحوال خاصة. بينما النظام الإسلامي يقول للناس كلهم: اصدقوا وفي كل الأحوال، ويتوسَّل لذلك بعقولهم لا بمصالحهم المختلفة.. وهكذا.

والإسـلام شريعة الله الخالق لكل العباد الذي لا يخضع في ظله شـعبٌ لشـعبٍ ولا طبقة لطبقة، مما يُؤدي إلى اختلال التوازن ونشوب الأزمات.

الإسلام شريعة الله الذي لا يُفضِّل أحدًا ولا شعبًا، ولا طبقة على غيرها.

شريعة الله الذي لا يتأثر بمحيط وبيئة.

شريعـة الله العالم بكل المقاييس التـي تخضع لها حياة البشر؛ ولذلك فهي صالحة لأن تُطبَّق على كل البشر على نحو مساوٍ ودون قلاقل.

٥ - تطور الإنسان!

في واقع البشر جوانب ثابتة، وجوانب متطورة. فما يتعلَّق بروحه وعقله ورغباته وحاجاته وتصوراته وأخلاقه ووجدانياته فإنه لا يتغير. أما ما يرتبط بكيفية بروز الرغبات وسد الحاجات وامتداد التصورات فهو الذي يتطوَّر.

جوهر الإنسان والمقاييس العامة التي يخضع لها لا تتغير، فلا يمكن أن يكون هناك إنسان لا يحب نفسه أو لا يحب الخير أو لا يعرف أن الصدق والوفاء والإيثار أمور حسنة.

وما سوى هذا الجوهر خاضع للتطور؛ ذلك لأن جوهر الإنسان ونظامه لا يرتبط بالمادة فلا يتغير. أما سوى ذلك فهو أمر مربوط بالمادة ولذلك يتطوَّر بتطورها.

والنظم البشرية، تلاحظ مادية الإنسان، ولذلك فهي خاضعة للتطوَّر والتغيير. أما أحكام الإسلام فهي موضوعة وفقًا لجوهر الإنسان ومقاييسه الروحية؛ ولذلك فهي لا تتغيَّر. وكما يُصرِّح علماء القانون البشري -سواء الغربي أو الشرقي- أن نظمهم مستوحاة (على أفضل وجه) من ظروف البلد الذي يُسنُّ له القانون، فإذا تغيَّرت تغيَّر القانون. أما الدين فيقول: «**حَلَالُ مُحَمَّدٍ حَلَالٌ أَبَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَحَرَامُهُ حَرَامٌ أَبَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»[١].

---

(١) الأصول من الكافي: ج١، ص٥٨.

٦ - تنفيذ الأحكام

ويمكن أن يكون في النظام الغربي أو الشرقي (الجاهليين) قبسات ضوء أو ومضات خير، ولكنها لا تُطبَّق إلَّا في حالات نادرة. وماذا تغني لائحة حقوق الإنسان في مكتبة الأمم المتحدة، إذا ساد الشقاء، وعمَّ العداء كل أرجاء العالم؟.

المهم تطبيق النظام، والمهم أن يملك النظام ضمانًا للتنفيذ وأن تكون فيه صلاحية ذلك.

والسبب في عدم تطبيق نظم الأرض هي ثلاثة أمور:

١ - إنها من صنع البشر أنفسهم وما صنعته يد البشر تنقضه يده أيضًا.

٢- إنها لا تصلح في كثير من فروعها للتطبيق.

٣- إنها لا تملك قوة كافية للتطبيق؛ ذلك لأنها في الواقع تعتمد على قانون العقوبات، -الذي أن كان صحيحًا- وهو غير صحيح، فهو غير كافٍ لما سيأتي.

أما النظام الإسلامي:

ألف: فهو ليس من صنع البشر حتى يملك البشر نقضه. فليس هناك قوة في الأرض -ومنها قوة السلطة- تملك تغيير حكم الله. فالبشر يشعرون بالتضاؤل أمام قانون الله لأنه قد وضع من لدن حكيم عليم.

باء: أضف إلى ذلك أنه صالح للتطبيق، وقد طُبِّق في التاريخ مرات كثيرة. وقد استمد صلاحيته هذه من عدة أسباب:

١ - إنه يلائم فطرة الإنسان، فإذا هي تنسجم مع طبيعته انسجامًا عجيبًا.. فهو مثلًا: يحكم بما يهوى إليه العقل، ويشبع رغبة النفس ويسد حاجات الجسم.

٢- إنـه ميسـور باعتبار ملاحظتـه للضعف البـشري، وليس أدل عـلى ذلك من أن الحكم مرفوع في الدين عن المكره والمضطر والمجنون والصبي والنائم والجاهل، وكل حكم فيه ضرر أو عسر أو حرج أو اختلال نظام فهو مرفوع.
٣- إنه مبسـط ويسـتطيع أقل المسـلمين فهـمًا أن يطَّلع على ما يحتاجـه من أحكام في عمره خلال أشهر معدودة.

جيـم: إن النظـام الإسـلامي يملك قـوى كثيرة للتطبيـق. ولابد أن نشـير قبل بيان تلك القوى إلى أن النظام مهما كان شـاملًا فإنه يحتاج إلى قوة إجرائية أكبر من النظام نفسـه، والإسلام بما هو نظام كامل شامل وفيه مئات الآلاف من الأحكام فإن تنفيذه يدل على أن قواه الإجرائية أكبر وأعظم من كل نظام آخر.

والقوى الإجرائية في الإسلام هي:
١- الإيمان.
٢- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
٣- التربية.
٤- الحدود والقصاص والديات.

ولابد أن نعرض كُلًّا منها بشيء من التفصيل.

١- الإيمان:

والإيمان بالله المحيط علمًا وقدرةً، وباليوم الآخر الذي يجازي فيه بالخير خيرًا وبالشر شرًّا؛ قوة لا مثيل لها في دفع الفرد إلى عمل الخير. وتتميز عن غيرها بأنها:
١- تستطيع أن تُهذِّب النفس من الداخل وتُنظِّم مشاعر الإنسان وتحفظه من الحسد والحقد والجبن والقلق وما أشبه.
٢- تتمكَّن من حفظ الفرد عن الخروج عن أحكام الله حيث لا مراقب ولا دولة ولا جزاء.
٣- إن عمـل الخير الصادر عـن النفس المؤمنة يكون عملًا مُتقنًا باعتباره صادرًا عن إرادة الفرد ورغبته وليس مكرهًا عليه.

وبصورة معكوسة تمامًا نجد القوانين البشرية (الجاهلية):
١- لا تتمكَّن من تهذيب النفس من الداخل، ولذلك يشـيع القلق النفسي في الدول

الغربية وتطفح النفوس بالعقد الجنسية والحضارية.

٢- وهي لا تستطيع أن تُنظِّم سلوك الفرد الداخلي فلا تستطيع مكافحة الإجرام الذي كثيرًا ما يرتكب سرًّا. ومن هنا فإن البشر عاجز عن توفير حياة طاهرة عن الإجرام لنفسه وإن صرف المبالغ الطائلة.

٣- وحيث إن الفرد يريد من الداخل الشر ويُجبر على عدم فعله من الخارج، فإنه يعيش أزمة داخلية باستمرار، أو ينمو فيه بغض متزايد للشعب والقانون وينتهي بالعصيان والتمرد اللذين نجد نماذج منهما في دول العالم الراقية اليوم.

٢- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

صفة الحياء صفة فطرية في الإنسان. ومن هنا فالفرد تابع لمجتمعه وقليلًا ما يخرج عن عاداته التي يُعاب من خرج عليها. والدين يستخدم هذه الصفة حيث يجعل العمل بأحكامه صبغة اجتماعية يُعاب من تركها، وتبرز هذه السمة حينما يُوصي الدين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويفرض على كل مسلم: أن يراقب الناس جميعًا فإذا رأى مروقًا أو خروجًا على حكم ديني أو أخلاقي سارع إلى إنكاره، أرأيت كيف يكون حال مجتمع كل أهله رجال أمن وشرطة؟.

ومن الطريف أن الآمر بالمعروف قد يكون مأمورًا به غدًا من قبل الذي يأمره اليوم نفسه؛ ذلك لأن المسؤولية في هذا الصدد تجري على الكل بصفة متساوية، فالمؤمنون يتواصون بالخير. وهذه القوة لا تبلغ في حجمها القوة الإيمانية ولكنها في نفسها قوة كبيرة؛ إذ إن مراقبة الجماهير أقوى بكثير من مراقبة طائفة خاصة (كرجال الأمن والشرطة) في القانون البشري، في حين أنه لا يكلف الشعب مالًا ووقتًا ولا أي شيء آخر.

٣- التربية:

والتربية؛ التي سبق الحديث حولها في فصل إصلاح الناس[١]، عامل آخر مساعد لإجراء أحكام الدين.

ومع أن سائر النظم قد استخدمت هذه القوة إلّا أن ترابط نظم الدين وتفاعلها مع النفس الإنسانية لا مثيل لها في النظم الأخرى. ولذلك فإن التربية في سائر النظم لا

(١) وهي: مجموعة تعاليم من شأنها تزكية النفس وتطهيرها عن الرذائل.

تستطيع خدمة النظم مثلما تفعله في الإسلام، بالإضافة إلى أن التربية الإسلامية تتميَّز بعدة سمات تجعلها أقوى من غيرها:

١ - استخدام كافة الطاقات الكامنة في جوهر الإنسان كالعاطفة والعقل وحب الذات وحب الأقرباء وهكذا..

٢- تقوية أواصر الأسرة والقرابة مما يؤثر في انطباع الفرد بخلقهم.

٣- تنقية الجو المحيط بالأطفال بحيث يجعل الطفل لا يفكر مجرد تفكير في الجريمة.

وقد لا نستطيع أن نعرف مدى تأثير التربية في تطهير نفس المؤمن وعمله من الرذيلة والجريمة، ولكن الواضح أن لها تأثيرًا بالغًا جدًّا.

٤- الحدود والقصاص والديات:

والعقوبة المفروضة في الإسلام ليست فقط تكميلًا لنواقص الإنسان، بل إنها حصن منيع للمجتمع عن الجريمة أيضًا.

والعقوبات الإسلامية التي تشمل كُلًّا من الحدود والقصاص والديات تتميَّز بالسمات التالية:

١ - إنها لا تثبت بشبهة أو سوء ظن، بل تُدرأ بالشبهات[(١)].

٢- وبعد أن تثبت الجريمة ويثبت أن مرتكبها قد ارتدع عنها طوعيًّا، فللإمام أن يعفو عن صاحبها، فتحًا لباب التوبة أمام المجرمين.

٣- ولكن إن لم يثبت أنه قد تاب، فمن المستحيل قبول الشفاعة فيه أبدًا.

٤- بما أن الجريمة يجب أن تُحسم مادتها بعزم وإصرار فإن الإسلام يضع عقوبات مناسبة لكل جريمة دون أن يرحم المجرم. ومن هنا كان قطع اليد والإعدام والقصاص في النفس والأطراف مشروعًا في الإسلام. وقد ثبت أن وضع هذه القوانين الحاسمة هو العلاج الوحيد لقطع دابر الجريمة، وأن تماهل القوانين الأخرى حول الجريمة هي التي سبَّبت ازدياد نسبة الجريمة في كل بلاد العالم.

في حين أن انحسار مادة الجريمة عن المجتمع الإسلامي كان إلى حدٍّ ما بفضل هذه العقوبات.

---

(١) قال الرسول ﷺ: «ادْرَؤُوا الحُدُودَ بِالشُّبُهَاتِ». وسائل الشيعة: ج٢٨، ص٤٧.

٥ كلمة الختام

هذا هو الإسلام.. وهذه هي مزاياه، أفلا يدعونا العقل وإيماننا بالحق إلى العمل على تطبيقه في واقع الحياة؟.

وحينما يقول القرآن الكريم: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾[1] يشير إلى حقيقة هامة، هي أن الإسلام فقط يمثل الطريق الوسط الذي لا تطرُّف فيه ولا انحراف، يجمع فيه كل محاسن اليمين واليسار ويرفض كل مساوئهما. وهذه أمثلة في ذلك:

١- **في مجال الفلسفة**؛ لم يتطرَّف الإسلام إلى جانب الروح فيُنكر الجسد، ولا إلى جانب الجسد فيُنكر الروح، بل قال بهما. كما لم يقل: إن الإنسان خير محض، ولم يقل: إنه شر محض (كما تطرَّف آخرون)، بل قال بهما معًا.

٢- **وفي الاجتماع**؛ كان التأكيد على التعاون وتحقيق نظامه ميزة مَنْ تطرَّف إلى جانب الجماعة ونسي الفرد. وكان تحمل المسؤولية والنشاط والإبداع ميزة مَنْ تطرَّف إلى جانب الفرد ونسي الجماعة. وكان لتطرفهما مساوئ، ولكن الإسلام جمع بين الميزتين، وقال: إن الفرد مسؤول في حين أنه يجب عليه التعاون أيضًا.

٣- **وفي الاقتصاد**؛ توجد في الرأسمالية حرية ولا ضمان للفقراء، وفي الاشتراكية ضمان بلا حرية، فجمعهما الإسلام وقال بالحرية والضمان معًا.

٤- **وفي السياسة**؛ كانت قوة التنظيم وشدة الانسجام وإطاعة الأوامر كلها من ميزات حكومة الحزب الواحد والديكتاتورية؛ وكان البعد عن الخطأ واجتماع العقول

(١) سورة الفاتحة، آية: ٦.

والرضا والحرية من ميزات الديموقراطية، فجمعهما الدين وقال: لابد من إطاعة الرئيس وعلى الرئيس أن يستشير، وقال ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾[١]. فهناك عزم من جهة ومشورة من جهة ثانية. ثم هناك حرية؛ إذ إن الناس يتَّبعون قرار الرئيس بمحض إرادتهم التي اختاروا بها هذا الدين.

٥- والإسلام لا يتطرَّف إلى جانب الدنيا فينسى الآخرة كما صنعته اليهودية، ولا يعكس كما صنعته المسيحية في الرهبنة، بل قال: «**اعْمَلْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا وَاعْمَلْ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَدًا**»[٢].

وإذ نأتي على آخر ما ذكرنا من مزايا الإسلام فلا يعني أننا قد بلغنا فيها المنتهى، بل لا ندَّعي إلَّا أننا قد عرضنا شيئًا يسيرًا منها.

نسأل الله أن يُوفِّق العالَمَ إلى تطبيق هذا الدين الذي يُنقذهم من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة.

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

كربلاء المقدسة، العراق

٢٥/ ٦/ ١٣٨٩هجرية

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

(٢) وسائل الشيعة: ج١٧، ص٧٦.

قائمة بأهم المصادر

١- الأحسائي، ابن أبي جمهور، عوالي اللآلي، دار سيد الشهداء، قم، ١٤٠٥هـ.
٢- أفلاطون، الجمهورية، ترجمة: حنا خباز، دار الكاتب العربي، بيروت، ١٩٥٥م.
٣- إمام، د. إمام عبدالفتاح، المنهج الجدلي عند هيجل.. دراسة لمنطق هيجل، الناشر: دار التنوير، لبنان، ٢٠٠٧م.
٤- إنجيل برنابا، ترجمه من الإنكليزية: د. خليل سعادة، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، مصر، ١٩٥٨م.
٥- بدوي، د. عبدالرحمن، موسوعة الفلسفة ١-٣، منشورات ذوي القربى، إيران، ٢٠٠٧م.
٦- التميمي، عبدالواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم، مكتب الإعلام الإسلامي، قم، ١٣٦٦هـ. ش.
٧- الحر العاملي، الشيخ محمد بن الحسن، وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، مؤسسة آل البيت، قم، ١٤٠٩هـ.
٨- خان، وحيد الدين، الإسلام يتحدى، مدخل علمي إلى الإيمان، مكتبة الرسالة. (لم يذكر سنة النشر).
٩- د. فروغي، محمدعلي، سير حكمت در اوربا، انتشارات: زوار، طهران، ١٣٦٧هـ.ش.
١٠- الطبراني، سليمان بن أحمد، المعجم الوسيط، ١٤١٥هـ.
١١- العياشي، محمد بن مسعود، تفسير العياشي، المطبعة العلمية، طهران، ١٣٨٠هـ.
١٢- فخري، ماجد، أرسطو طاليس.. المعلم الأول، الناشر: المكتبة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٥٨م.

١٣- كارل، أليكسس، الإنسان ذلك المجهول، الناشر: المجمع الثقافي، ١٩٩٩م.
١٤- الكتاب المقدس، تم جمعه وترجمته في: جي. سي. سنتر. مصر ١٩٩٤م.
١٥- الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب، الأصول من الكافي، دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٣٦٥هـ. ش.
١٦- الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب، الفروع من الكافي، دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٣٦٥هـ. ش.
١٧- المجلسي، الشيخ محمد باقر، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٤٠٤هـ.
١٨- المعتزلي، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، مكتبة آية الله المرعشي، قم، ١٤٠٤هـ.
١٩- النشار، د. مصطفى، تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقي ١-٢، الناشر: دار قباء الحديثة، القاهرة، ٢٠٠٧م.
٢٠- النوري، الشيخ ميرزا حسين، مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، مؤسسة آل البيت، قم، ١٤٠٨هـ.
٢١- النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي،
٢٢- الهاشمي القرشي، الإمام علي بن أبي طالب، نهج البلاغة، تعليق: الشيخ محمد عبده، دار الهجرة للنشر، قم.
٢٣- الهندي، علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تحقيق: صفوت السقا، بكري الحياني، الناشر: مؤسسة الرسالة.

المحتويات

تقديم ٧
مقدمة الطبعة الرابعة.. ٩
المنهج القرآني ١١
بصائر القرآن في معرفة التاريخ ١٢
بصائر القرآن في معرفة النفس ١٣
المنهج القرآني ١٤
كيف ندرس العقائد؟.. ٢٠
كلمة البدء.. ٢٣

القسم الأول: العلم والفلسفة ٢٩

البحث الأول: المعرفة بين الإسلام والتصورات البشرية.. ٣١
منهج البحث ٣٣
العقل وتقييم الأفكار ٣٧
العقل ومصادر الفكرة ٤٣
ألف: الفكرة وعقل الإنسان ٤٣
باء: دور الهوى في تضليل الإنسان ٤٧
جيم: الفكرة بين العقل والإحساس.. ٥٣
نقد العقل للإحساس.. ٥٨
البحث الثاني: نقد التصورات البشرية.. ٦٧

١ - آراء في المعرفة ٦٩
نظرية أفلاطون ٦٩
نظرية الانتزاع ٧٢
النظرية الحسية التجريبية ٧٣
الماركسية تتناقض ٧٤
٢ - آراء في قيمة المعرفة ٧٧
ديكارت............ ٧٨
جون لوك ٧٩
المثالية الحديثة ٨٠
كانت والنسبية الذاتية............ ٨٦
نقد النسبية الذاتية ٨٨
النسبية الفردية............ ٨٩
النسبية التطورية ٩١
مفارقات في النظرية النسبية ٩٦
نقد النسبية التطورية ٩٩
البحث الثالث: العالم بين الرؤية الإسلامية والتصورات البشرية ١٠١
المــدخــل............ ١٠٣
الديالكتيك فلسفة عامة............ ١٠٥
الفلسفة الميكانيكية ١١٧
الإسلام وفلسفة النور ١٢٥
تعاريف لابد منها............ ١٢٩
١ - العقل ١٢٩
٢- العلم............ ١٢٩
٣- المعرفة ١٣٠
٤- اليقين ١٣٠
٥- الحق ١٣٠
٦- الروح ١٣٠

٧- النفس.. ١٣١
٨- الشهوة.. ١٣١
٩- الهوى.. ١٣١
١٠- الجهل ١٣١
١١- الفكر ١٣١
١٢- الخيال ١٣٢
١٣- الانتزاع ١٣٢
١٤- التصور.. ١٣٢

القسم الثاني: العقيدة والإيمان.. ١٣٣

البحث الأول: الدليل إلى الله.. ١٣٥
١ - كلمات في البدء ١٣٧
٢ - أي رب ندعو إليه؟.. ١٤١
٣ - الدليل إلى الله.. ١٤٩
٤ - التذكر باللّـه ١٦١
٥ - مغالطات مفضوحة ١٦٧
٦ - الإيمان بالله.. ١٧٧
٧ - معطيات الإيمان ١٨٣

البحث الثاني: الرسالة.. ١٩٣
١ - الرسالة والرسول ١٩٥
شبهة المنكرين:.. ١٩٨
ما هي وجوه الحاجة إلى الرسالة؟.. ٢٠٠
بماذا يعرف الرسول؟ ٢١٠
٢ - محمد صلى الله عليه وآله وسلم رسول اللـه ٢١٣
كيف يمكن أن نثبت رسالة رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم؟. ٢١٣

البحث الثالث: الولاية.. ٢٣١
١ - الحاجة إلى الإمام ٢٣٥

٢ - كيف نعرف الإمام؟ ٢٤٧
٣ - ما هي مسؤولية الناس تجاه الإمام؟ ٢٦١
البحث الرابع: الحياة بعد الموت ٢٦٣
١ - الدليل على البعث ٢٦٧
٣ - القضاء والقدر ٢٨١
٤ - الغاية من الخلق ٢٨٥

القسم الثالث: الإنسان والمجتمع ٢٩١

البحث الأول: النظريات المادية.. والإنسان والمجتمع ٢٩٣
١ - كلمة في البدء........................ ٢٩٥
ماذا تعني المشكلة الاجتماعية؟. ٢٩٥
النظام الاجتماعي ٢٩٦
النظام الرأسمالي ٢٩٧
نقد الرأسمالية........................ ٢٩٨
النظام الشيوعي ٣٠٠
٢ - آراء وملاحظات ٣٠٣
أرسطو (٣٨٤ ق م) ٣٠٣
لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤م) ٣٠٥
مونتسكيو (١٦٨٩ - ١٧٥٥م) ٣٠٧
روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨م) ٣٠٩
هوبز (١٥٨٨ - ١٦٧٩م) ٣١٠
نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠م)........................ ٣١١
آراء اشتراكية ٣١٢
البحث الثاني: عن الإسلام والإنسان والمجتمع ٣١٩
١ - كلمة في البدء........................ ٣٢١
٢ - المجتمع الإسلامي ٣٢٥
٣ -الاقتصاد الإسلامي........................ ٣٣١

٤ -الأخلاق الإسلامية ٣٣٧
٥ -علم النفس ٣٤٥
٦ -السياسة الإسلامية ٣٤٧
البحث الثالث: ميزات النظام الإسلامي **٣٥٥**
كلمة البدء ٣٥٧
١ - الـحـــق ٣٥٩
٢ - يوم الدين ٣٦١
٣ - لكل مناحي الحياة ٣٦٣
٤ - لكل أفراد البشر ٣٦٥
٥ - تطور الإنسان! ٣٦٧
٦ - تنفيذ الأحكام ٣٦٩
كلمة الختام **٣٧٣**
قائمة بأهم المصادر **٣٧٥**
المحتويات **٣٧٧**

الفكر الإسلامي
مواجهة حضارية

(الفكر الإسلامي مواجهة حضارية) كتاب واجه الكثير من التحديات، فقد ولد الكتاب من بين أنامل مؤلفه القدير سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي (دام ظله)، في أحلك الظروف التي عاشها عراق المقدسات، وذلك في بداية حقبة السبعينات حيث كانت عصابة البعث الصدامي تحكم قبضتها على رقاب الشعب العراقي، وتطارد الفكر والثقافة وكل ما يمت لدين الأمة بصلة من مساجد ومؤسسات ومدارس وحوزات وكتب وصحف وما شاكل ذلك، بهدف مسخ الشخصية الإيمانية، واجتثاث الجذور الدينية لهذا الشعب المؤمن.

فكتب سماحة المرجع المدرسي (دام ظله) هذا الكتاب القيّم ليثبت أن الإسلام -عقيدةً، وشريعةً، وبرنامجاً متكاملاً للحياة الطيبة- هو فوق كل التحديات الفكرية والحضارية، وليُدحض الفلسفتين القديمة والحديثة، اللتين تدفعان بالإنسان إلى هاوية الكفر والإلحاد والضلال.

ولأن إرهاب الطاغوت الحاكم كان قد أغلق كل منافذ الفكر والثقافة، فقد تم تداول الكتاب في البدء مكتوباً بخط اليد، وبدأت الحلقات الدراسية في الحوزة العلمية في كربلاء المقدسة تدرس الكتاب كمنهج متكامل للعقائد الإسلامية، وكان الطلاب يستنسخونه بخط اليد ويتداولونه فيما بينهم.

وتم طبع الكتاب لأول مرة عام ١٣٩٠ للهجرة بعيداً عن عيون الرقابة، واستُقبل الكتاب باهتمام منقطع النظير في الأوساط العلمية (الجامعات والحوزات) في العراق ومصر ولبنان. وكانت الطبعة الثانية عام ١٣٩٥هـ في بيروت، ثم الطبعة الثالثة في الكويت عام ١٣٩٧هـ، وهكذا توالت الطبعات في بيروت والكويت وطهران، الأمر الذي أدى إلى انتشار واسع للكتاب في البلاد العربية وغيرها. وقد اعتمدت حوزة الإمام القائم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) وفروعها المختلفة الكتاب مادةً دراسيةً حوزوية في مجال العقائد، كما تبنّت بعض كليات جامعة بغداد تدريسه أيضاً.

تُرجم الكتاب إلى اللغة الفارسية وطبع عدة طبعات واستُقبل في إيران وأفغانستان في مختلف الأوساط العلمية. ويتميّز الكتاب بنقد ودراسة الفلسفات القديمة والحديثة على ضوء الكتاب والسنّة، وعرض العقائد الإسلامية بشكل مستدل وواضح وفطري.

وبعد اندلاع الانتفاضات الشعبية في البلاد العربية وانتصار بعضها وسقوط حواجز الرقابة ومؤسسات مطاردة الفكر، تضاعف الطلب على الكتاب، مما شجعنا على المبادرة لطبعة للمرة العاشرة، سائلين الله عز وجل أن يوفقنا لخدمة دينه، ونشر الفكر الإسلامي الأصيل.

إنه ولي التوفيق.

دار المحجة البيضاء للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان

الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمّال

ص.ب: ٥٤٧٩/ ١٤ - هاتف: ٢٨٧١٧٩/ ٠٣ - ٥٤١٢١١/ ٠١
تلفاكس: ٥٥٢٨٤٧/ ٠١ - E-mail: almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com